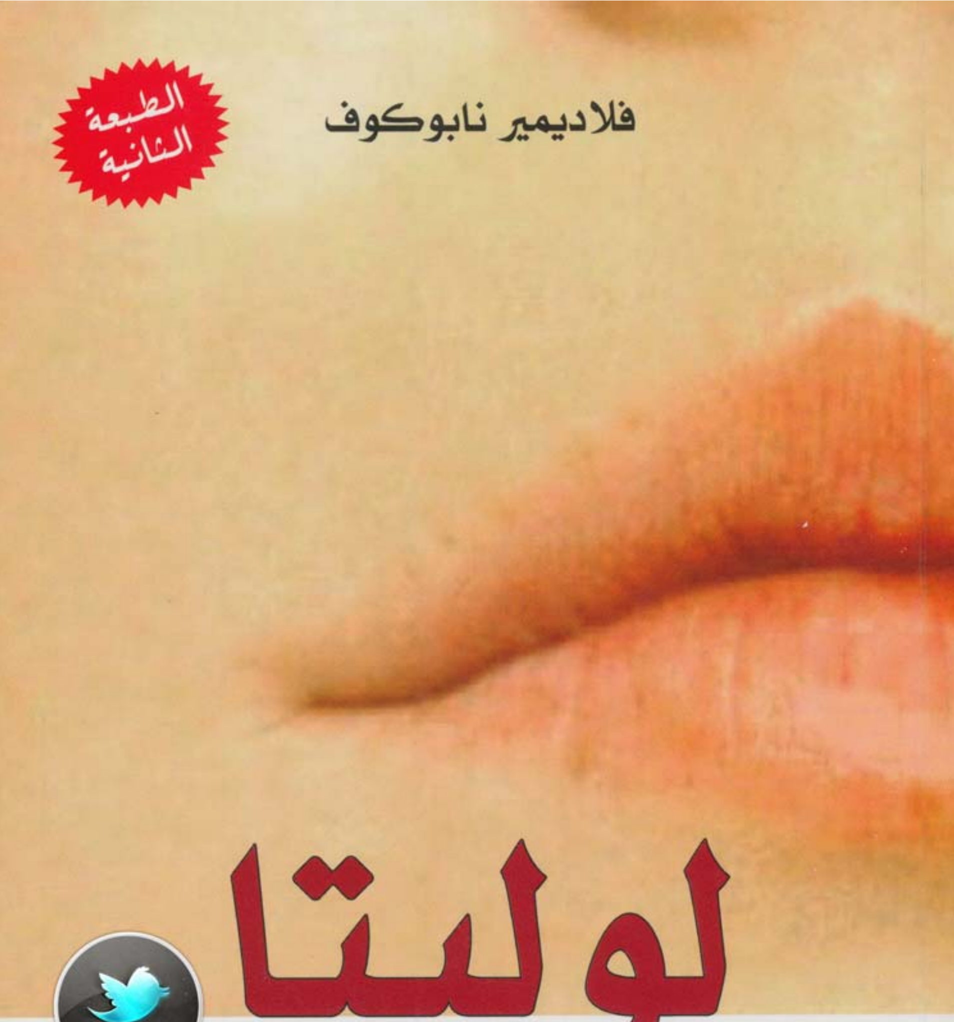

الطبعة الثانية

فلاديمير نابوكوف

لوليتا

@ketab_n
Follow Me
30.12.2016

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

فلاديمير نابوكوف

لوليتا

رواية

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

فلاديمير نابوكوف: لوليتا، رواية

Twitter: @ketab_n

فلاديمير نابوكوف: لوليتا، رواية، ترجمة: خالد الجبيلي، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٢
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Vladimir Nabokov: *LOLITA*, roman, 1955

© *Al-Kamel Verlag* 2012
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

مقدمة

«لوليتا، أو اعترافات رجل أرمل أبيض»، هما عنوانا الصفحات الغريبة التي تلقاها كاتب هذه المقدمة. وكان مؤلف هذه الصفحات «همبرت همبرت» قد مات في السجن بعد إصابته بسكتة قلبية في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢، قبل مثوله أمام المحكمة ببضعة أيام. وقد طلب مني محاميه، كلارنس شوات كلارك إسكواير، وهو صديقي وقريبي، وعضو في نقابة محامي مقاطعة كولومبيا، أن أقوم بتحرير المخطوطة، مستنداً في طلبه هذا إلى بند ورد في وصية موكله تخوّل ابن عمي المرموق استخدام حكمته وحصافته في جميع الأمور المتعلقة بإعداد «لوليتا» من أجل طباعتها. ولعل قرار السيد كلارك تأثر في ذلك بأن المحرّر الذي اختاره كان قد مُنح مؤخراً جائزة بولنغ على عمله المتواضع المعنون («هل للأحاسيس معنى؟») الذي يناقش فيه بعض الحالات المرضية والانحرافات الجنسية.

وتبين أن المهمة الموكلة إليّ كانت أسهل بكثير مما كنا نتوقع. وباستثناء تصويب بعض الهفوات والأخطاء الواضحة، ومحاولة إزالة بعض التفاصيل المتكررة، التي ظلت، على الرغم من الجهود التي بذلها هـ. هـ. لإزالتها، موجودة في نصّه مثل معالم بارزة وشواهد

Twitter: @ketab_n

قبور (تشير إلى أماكن أو إلى أشخاص ينحو الذوق العام إلى إزالتها والتغاضي عنها)، نقدم هذه المذكرات الرائعة، على النحو الذي وردت فيه في الأصل. كما كان اللقب الغريب الذي أطلقه المؤلف على نفسه من بنات أفكاره، وبالطبع، يجب عدم كشف هذا القناع - الذي تبدو من خلاله عينان منوّمتان متلألئتان - وأن يظل مسدلاً استجابة لرغبة الشخص الذي يضعه. ومع أن اسم «هايز» يتناغم مع اسم البطلة الحقيقية، فإن اسمها الأول يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنسيج الكتاب، إلى درجة أنه لا يتيح لأحد تغييره، (وكما سيدرك القارئ نفسه) لا توجد ضرورة عملية للقيام بذلك. وبوسع الفضوليين الاطلاع على جميع المراجع المتعلقة بالجريمة التي اقترفها همبرت همبرت من صفحات الصحف اليومية الصادرة في شهرَي أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٢. ولو لم تقع هذه المذكرات تحت يديّ، لظلت أسبابها ودوافعها لغزاً تاماً.

أما القرّاء المحافظون الذين يرغبون في معرفة مصائر الأشخاص «الحقيقيين» وراء القصة «الحقيقية»، فمن الممكن تقديم بضع تفاصيل كما أفاد بها السيد «ويندمولر» من «رامسدال»، الذي لا يريد الإفصاح عن هويته الحقيقية، لكي لا يصل «طيف هذه القضية الخسيسة المثيرة للشفقة» إلى المجتمع الذي يفتخر بالانتماء إليه. فقد أصبحت ابنته «لويز» في سنتها الجامعية الثانية. وأصبحت «مونا دال» طالبة في باريس، وتزوّجت «ريتا» مؤخراً صاحب نزل في فلوريدا. وماتت السيدة «ريتشارد ف. شيلر» أثناء الوضع، وولدت مولودة ميتة، في يوم عيد الميلاد في عام ١٩٥٢، في غراي ستار، البلدة الواقعة في منطقة نائية في نورث ويست. وكتبت «فيفيان دارك بلووم» سيرة ذاتية بعنوان، «لمحات من حياتي»، ستصدر قريباً، ويقول النقّاد

Twitter: @ketab_n

الذين اطلعوا على المخطوطة بأنها أفضل كتبها على الإطلاق. ويقول المشرفون على المقابر المختلفة إنهم لم يروا قط أشباحاً تمشي.

وإذا ما اعتبرت «لوليتا» مجرد رواية، فإنها تتناول مواقف ومشاعر سيظل الغموض يكتنفها على نحو يثير السخط لدى القارئ، لأنها تنطوي على تعابير بهتت وفقدت بريقها بسبب المراوغات التافهة والمبتذلة. وبالرغم من عدم وجود عبارة نابية واحدة في الرواية كلها، فإن القارئ غير المثقف الذي تتنازعه التقاليد المعاصرة الحديثة في تقبّل طائفة كبيرة من الكلمات البذيئة في رواية مبتذلة، سيُصدم تماماً لعدم ورود مثل هذه الكلمات هنا. أما إذا حاول أحد المحرّرين، بهدف إرضاء القارئ المحتشم، التخفيف من حدّة بعض المشاهد أو حذف بعضها الذي قد تعتبره بعض العقول «مثيراً للشهوة الجنسية» (انظر في هذا الصدد القرار الهام الذي أصدره القاضي جون م. وولسي في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٣ بشأن كتاب آخر أكثر صراحة وجرأة)، فإنه يجب الامتناع عن نشر «لوليتا» تماماً، لأن المشاهد التي قد يتهمها المرء بسخافة بأنها مشاهد حسيّة، هي المشاهد الأهم في تطوّر قصة مأساوية لا تهدف إلا إلى تمجيد الأخلاق. وقد يقول أحد المتقدين إن المواد الإباحية التجارية تدّعي الشيء ذاته، وقد يعارضهم المثقفون بالقول إن اعترافات «هـ. هـ.» المتقدة والمشبوبة العواطف ما هي إلا زوبعة في فنجان، وإن ما لا يقل عن ١٢ في المائة من الذكور البالغين الأمريكيين - وهو تقدير «متحفظ» استناداً إلى الدكتورة بلانش شوارزمان (في رواية شفوية) - يمارسون سنوياً، بطريقة أو بأخرى، التجربة الخاصة ذاتها التي يصفها « همبرت همبرت». بهذه الطريقة البائسة. ولو قام كاتب يومياتنا المعتوه، في صيف عام ١٩٤٧ المشؤوم، بزيارة طبيب

Twitter: @ketab_n

نفساني متخصص، لما وقعت أيّ كارثة، ولما رأى هذا الكتاب النور أيضاً.

وقد يكون المعلّق على هذا الكتاب معذوراً لتكرار ما دأب على تأكيده في الكتب التي يؤلفها والمحاضرات التي يلقيها، بأن عبارة «جارح» هي مجرد مرادف لعبارة «خارق»، وبالطبع فإن العمل الفني العظيم هو دائماً عمل أصيل، لذلك يجب أن ينطوي دائماً، من حيث طبيعته، على مفاجآت صادمة. ولا توجد لديّ أيّ نية هنا في إعلاء شأن « همبرت همبرت». ومما لا شكّ فيه، أنه رجل كريه، حقير، وهو مثال ساطع للجذام الأخلاقي، مزيج من الوحشية والهزل، ربما ينم عن تعاسة شديدة، لكنه لا يبعث على السخرية. إنه شخص نزواتي، والكثير من آرائه عن الأشخاص سخيفة وتدعو إلى السخرية. إن الصدق الشديد الذي تنبض به اعترافاته لا يعفيه من الخطايا الشيطانية الماكرة. إنه رجل شاذّ مختل العقل. وهو ليس رجلاً نبيلاً، وهو أيضاً غير جدير بالاحترام. لكن كيف يستطيع بأسلوبه الجذاب الذي يشبه معزوفة موسيقية على الكمان أن يوحي بالرقة والعطف على لوليتا بجعلنا نشعر بالافتتان بالكتاب في حين يجعلنا نمقت مؤلفه!

وبما أن «لوليتا» تشكل حالة دراسية، فمما لا شك فيه أنها ستصبح عملاً كلاسيكياً في أوساط الطب النفسي. ولما كانت عملاً فنياً، فإنها تتخطى جوانبها التكفيرية. أما بالنسبة لنا، فإن أهمية الكتاب من الناحية الأخلاقية بالنسبة للقارئ الحصيف، ستظل أهم من قيمته العلمية أو الأدبية. وتقبع في هذه التجربة الشخصية المؤلمة عبرة عامة. فهذه الطفلة المتمردة، وتلك الأمّ الأنانية، وذلك المهووس اللاهث - ليسوا مجرد شخصيات تنبض بالحيوية في قصة

Twitter: @ketab_n

فريدة من نوعها: بل إنها شخصيات تحذرنا من نزعات خطيرة، وتبرز لنا شروراً مريعة. ويجب أن تجعلنا «الوليتا» جميعاً - آباء ومربّين ومرشدين اجتماعيين - أكثر حذراً ووعياً لكي نربي وننشئ جيلاً أفضل في عالم ينعم بمزيد من الأمن والطمأنينة.

ودورت، ماساشوستس

٥ آب (أغسطس) ١٩٥٥

الدكتور جون راي الابن

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

لوليتا، يا نور حياتي، يا ناراً تضطرم في أحشائي. يا معصيتي، يا روحي. لو - لي - تا: طرف اللسان ينطلق في رحلة تتكون من ثلاث مراحل حتى يصل إلى الحلق؛ وفي المرحلة الثالثة، ينقر على الأسنان، وينبعث اسم: لو- لي- تا.

إنها «لو»، «لو» المتوسطة الجمال في الصباح، ذات القامة المنتصبة التي يبلغ طولها أربعة أقدام وعشر بوصات، وهي ترتدي فردة جورب واحدة. إنها «لولا» في سروالها الفضفاض. إنها دولي في المدرسة. إنها دلوريس فوق السطر ذي النقاط المتقطعة، أما بين ذراعيَّ، فإنها ستظل لوليتا، دائماً وأبداً.

هل كانت فتاة قبلها؟ نعم، بالتأكيد. وفي واقع الأمر، كان من الممكن ألا تكون لوليتا قط، لو لم أحبّ، في أحد شهور الصيف، طفلة بعينها، في إمارة تقع على شاطئ البحر. لكن متى حدث ذلك؟ عندما كان عمري في صيف ذلك العام يكاد يعادل عدد السنوات التي سبقت مولد لوليتا. ألا ترى أنك لن تعدم أبداً مجرماً قاتلاً يكتب بمثل هذا الأسلوب النثري المنمق.

سيداتي سادتي، أعضاء هيئة المحلفين، إن المستند رقم واحد

Twitter: @ketab_n

للتهمة هو موضع حسد الساروفيم، الملائكة المضللة، البسيطة، النبيلة، ذات الأجنحة. انظروا إلى كومة الأشواك المتشابكة هذه.

٢

ولدت في باريس عام ١٩١٠. كان أبي رجلاً لطيفاً، دمثاً، تختلط في دمائه جينات عرقية متنوعة: فهو مواطن سويسري، متحدر من أصول فرنسية ونمساوية مختلطة، وتجري في عروقه مسحة من الدانوب. وسأريكم بعد دقائق بعض البطاقات البريدية المصوّرة المصقولة الزرقاء الرائعة. وكان يمتلك فندقاً فخماً على شاطئ الريفييرا؛ وكان أبوه يبيع النبيذ، وكان أحد جدّيه تاجر مجوهرات، وجدّه الآخر تاجر حرير. وعندما بلغ الثلاثين من العمر، تزوّج فتاة إنكليزية، ابنة جيروم دون، متسلق الجبال، وحفيدة كاهنين بروتستانتيين من دورسيت، كانا خبيرين في مواضيع غامضة - فقد كان أحدهما خبيراً في دراسة مستحاثات التربة، والآخر في علم القيثارات التي تعمل بواسطة الريح. وكانت أمّي بهية المحّيا قد ماتت في حادث غريب (فقد أصابتها صاعقة وهي تتنزّه) عندما كنت في الثالثة من عمري. وباستثناء مسحة من الدفء في تلك الأيام الماضية الحالكة، لم يتبق منها شيء في تجاويف ووديان الذاكرة التي غابت فيها شمس طفولتي، إذا كنتم لا تزالون قادرين على تحمّل أسلوبي (فأنا أكتب تحت المراقبة)، فلا بد أنكم تعرفون جميعاً تلك الآثار التي تفوح منها الروائح العطرة أثناء النهار، والذباب الذي يحوم حول براعم النباتات، أو الذي ينسل فجأة بين النباتات المتعرشة، في سفح ربوة، في غسق أحد أيام الصيف. دفء يكسوه الفراء، ذباب ذهبي.

كانت سيبيل، أكبر خالاتي، التي تزوّجها أحد أبناء عم أبي، ثمّ

Twitter: @ketab_n

هجرها، تعمل في أسرتي مربية ومدبّرة منزل من دون أجر. وأخبرني أحدهم في ما بعد أنها كانت مغرمة بأبي، وأنه استغلّ حبه لها بخفة شديدة في أحد الأيام الماطرة، لكنه سرعان ما نسي حبّه لها منذ أن أصبح الطقس صافياً. وكنت مولعاً أشدّ الولع، على الرغم من صرامة - صرامة قاتلة - بعض القواعد التي كانت تفرضها. لعلها كانت تريد أن تصنع مني، في الوقت الملائم، أرملاً أفضل من أبي. وكان للعمّة سيبيل عينان لازورديتان بحواف وردية وبشرة شمعية. وكانت تقرض الشعر؛ وتؤمن بالخرافات على نحو شاعري. فقد قالت ذات مرة إنها تعرف أنها ستموت بعد عيد ميلادي السادس عشر مباشرة، وقد حدث ذلك فعلاً. وكان زوجها، الذي كان كثير الترحال، وتاجر عطور، قد أمضى معظم أيامه في أميركا، حيث أسّس شركة، في نهاية الأمر، واشترى عدداً من العقارات.

كنت قد نشأت وترعرعت طفلاً سعيداً معافى في عالم مشرق تحيط به الكتب المزينة بالرسوم، وتنتشر فيه الرمال النظيفة، وأشجار البرتقال، والكلاب الودودة، والمشاهد البحرية الجميلة، والوجوه المبتسمة. وكان فندق «ميرانا» البهي يدور حولي مثل عالم خاص، عالم أبيض داخل العالم الأزرق الأكبر المتوهج في الخارج. ومنذ أن كنت طفلاً يضع مئزراً، وحتى أضحيت ملكاً مهاباً، كان الجميع يحبونني، الجميع يلاعبونني ويدللونني. وكانت السيدات الأميركيات العجائز اللاتي يتّكئن على عكازاتهن يملن عليّ وكأنهن أبراج بيزا المائلة. وكانت الأميرات الروسيات المحطمات اللاتي لم يكن بوسعهن تسديد الأجر لأبي يشترين لي حلويات غالية الثمن. وكان أبي العزيز يأخذني في نزهات بالقارب وبالدراجات العادية، ويعلّمني السباحة والغطس والتزلج على الماء، وكان يقرأ لي «دون كيشوت» و«البؤساء»، وكنت أكنّ له حباً واحتراماً شديدين. وكانت تغمرني

Twitter: @ketab_n

السعادة عندما أسمع الخادمات يتحدثن عن صديقاته العديدات، تلك الكائنات الجميلة اللطيفة اللاتي كان لهن الفضل في تكوين الكثير من شخصيتي، وكنّ يداعبن الطفل البهيج اليتيم الأمّ، ويذرفن دموعهن السخية من أجله.

وكنت أدرس أثناء النهار في مدرسة إنكليزية تبعد بضعة أميال عن البيت، حيث كنت ألعب بالمضارب ولعبة الخمسات، وكنت أحصل على درجات ممتازة، وكنت على وفاق تام مع رفاقي في المدرسة ومع المعلمين على حد سواء. وكانت مغامراتي الجنسية الوحيدة التي أتذكّرها قبل بلوغي الثالثة عشرة (أي قبل أن أرى صغيرتي أنابيل لأول مرة) تقتصر على أحاديث جدّية، ومحتشمة، ونظرية تماماً، عن المفاجآت التي ترافق فترة البلوغ، كانت تدور في حديقة المدرسة المزروعة بالورد مع طفل أمريكي، ابن ممثلة سينمائية مشهورة في ذلك الوقت، قلما رآها في العالم الثلاثي الأبعاد؛ وكانت تنتابني ردود فعل مثيرة عندما ألقي نظرة على بعض الصور، الرمادية الفاتحة اللون، المظللة، ذات الانفراجات البالغة النعومة، لمجموعة لوحات بيشون الرائعة «الجمال البشري» التي كنت قد سرقتها من تحت أكداس الصور والرسومات المجلدة في مكتبة الفندق. وبطريقته البشوشة البهيجة، قدّم لي أبي كلّ المعلومات المتعلقة بالجنس التي كان يظن أنني أحتاجها. كان ذلك قبل أن يرسلني، بفترة وجيزة، في خريف عام ١٩٢٣، إلى إحدى المدارس الثانوية في ليون (حيث أمضينا ثلاثة فصول من الشتاء). لكن، واحسرتاه، كان يطوف أرجاء إيطاليا، في صيف تلك السنة، بصحبة مدام دي آر وابنتها، فلم يبق لي من أبثّه شجوني، أو ألتمس استشارته ونصحه.

Twitter: @ketab_n

كانت أنابيل، شأنها في ذلك شأن الكاتب، تتحدّر من أبوين ذوي أعراق مختلطة: فقد كانت نصف هولندية ونصف إنكليزية. ولم أعد أتذكّر قسمات وجهها بوضوح شديد الآن كما كنت أتذكّرها قبل بضع سنوات، قبل أن أتعرف على لوليتا. فهناك ضربان من الذاكرة البصرية: واحدة عندما يعيد فيها المرء خلق صورة معينة في مختبر ذهنه بمهارة شديدة، وعيناه مفتوحتان (عندها أرى أنابيل مستخدماً عبارات عامة مثل: «ذات بشرة عسلية اللون» و«ذراعين نحيفتين» و«شعر أشقر منفوش» و«أهداب طويلة» و«فم زاه واسع»)؛ والأخرى، عندما يستدعي المرء، في الحال، وعيناه مغمضتان، في باطن جفنيه الداكنين، الهدف، صورة بصرية تشبه تمام الشبه وجهاً صبوحاً مشرقاً، شبحاً صغيراً ذا ألوان طبيعية (وبهذه الطريقة يمكنني رؤية لوليتا).

لذلك دعوني أقصر كلامي هنا على وصف أنابيل، وأقول إنها كانت طفلة جميلة تصغرني ببضعة أشهر؛ وكان والداها صديقين قديمين لعمتي، متجهمين مثلها، قد استأجرا فيلاً لا تبعد كثيراً عن فندق «ميرانا». السيد لاي ذو البشرة السمراء، والرأس الأصلع، والسيدة لاي البدينة المتبرّجة (اسمها الأصلي فينيسا فان نيس). لشدّ ما كنت أمقتهما! في البداية، كنا أنا وأنابيل نتحدّث في أمور هامشية، وكانت طوال الوقت تلتقط حفنات من الرمل الناعم، تاركة إياها تنسل من بين أصابعها. وكنا نفكّر بنفس الطريقة التي يفكّر فيها الفتيان الأوروبيون الأذكياء، وكنت أشكّ في إمكانية رؤية علائم العبقرية الفردية في اهتماماتنا بتعدّد العوالم المأهولة، ومباريات التنس، ومفهوم اللامحدودية، والإيمان بنظرية الأنا، وما إلى ذلك. وكانت رخاوة الحيوانات الصغيرة وضعفها يجعلاننا نشعر بذات الألم الحادّ. وكانت

Twitter: @ketab_n

تريد أن تعمل ممرضة في أحد البلدان الآسيوية التي تنتشر فيها المجاعات، أما أنا فقد كنت أرغب في أن أصبح جاسوساً مشهوراً.

وبغتة أحبّ أحدنا الآخر، حبّاً جنونياً، ممضّاً، أخرق، بلا خجل؛ ويجب أن أضيف أنه كان حبّاً يائساً، لأن جنون حبّنا، وامتلاك أحدنا للآخر، لم يكن ليخفف من غلوائه شيء لولا استيعاب وتمثّل أحدنا لكلّ ذرة من روح الآخر وجسده. لكن لم يكن بإمكاننا أن يهيم أحدنا بالآخر كما هو متاح للأطفال في الأحياء الفقيرة. فبعد محاولة جامحة للالتقاء ذات ليلة في حديقتها (حيث التقينا مرات عديدة بعد ذلك)، كانت الخلوة الوحيدة التي كان يسمح لنا بها هي أن نكون بعيدين عن الأسماع، لكننا لم نكن بعيدين عن أنظار روّاد تلك البقعة التي تعجّ بالناس على الشاطئ. كنا نستلقي هناك، فوق الرمل الناعم، على بعد بضعة أقدام من أهلنا، تتملكنا مشاعر متقدة من الشهوة، مستغلين كلّ فرصة في المكان والزمان لأن يلمس أحدنا الآخر: فقد كانت يدها، شبه المخفية في الرمل، تزحف نحوي، وأصابعها السمر الرشيقة تزداد قرباً وكأنها تمشي في نومها، ثمّ تبدأ ركبتها البرّاقة تتحرك في رحلة حذرة طويلة. وفي بعض الأحيان، كان جدار بناه أطفال صغار يمنحنا فرصة للتواري وراءه، لكي يقضم أحدنا شفتيّ الآخر المالحتين؛ وكانت هذه اللقاءات غير المكتملة تدفع جسدينا الصغيرين المفعمين بالصحة، وانعدام الخبرة، إلى حالة من الحنق والغضب لا يمكن حتى للمياه الزرقاء الباردة، التي لا نزال نتشبث ببعضنا تحتها، أن تمنحنا شعوراً بالارتياح.

كان من بين الأشياء الثمينة القليلة التي أضعتها خلال مغامراتي أثناء فترة البلوغ، صورة كانت عمّتي قد التقطتها تظهر فيها أنابيل ووالداها والخادمة ورجل أعرج عجوز، وهو الدكتور كوبير، الذي كان يغازل عمّتي في ذلك الصيف، متحلقين حول منضدة في أحد مقاهي

Twitter: @ketab_n

الرصيف. ولم تكن أنابيل تظهر في الصورة بوضوح، لأن الصورة التقطت بينما كانت منحنية وهي تتناول شوكولا مثلّجة، وكان كتفاها العاريان النحيفان وشعرها المفروق في الوسط كلّ ما يمكنني تمييزه (على ما أتذكّر تلك الصورة) في وسط ظل الشمس الذي جعل حسنها المفقود باهتاً. أما أنا فقد كنتُ أجلسُ في مكان بعيد بعض الشيء عن الآخرين، وظهرتُ بشيء من الوضوح: طفل مزاجي، ذو حاجبين مثل الخنفساء، يرتدي قميص رياضة داكناً، وسروالاً قصيراً أبيض نظيفاً، ويضع ساقاً على ساق، يجلس وقد ظهر جانباً من وجهه، ينظر بعيداً. وكانت تلك الصورة قد التقطت في آخر يوم من أيام صيفنا المشؤوم، وقبل دقائق قليلة من قيامنا بمحاولة ثانية ونهائية لإحباط قدرنا. وبذرائع واهية (فقد كانت تلك آخر فرصة لنا، ولم يعد يهمّنا شيء حقاً) انسللنا من المقهى إلى الشاطئ، وعثرنا على بقعة رملية مقفرة، وهناك، في الظلّ البنفسجي لبعض الصخور الحمر التي كانت تشكّل شيئاً يشبه الكهف، حظينا بفترة قصيرة من المداعبات النهمة، وكان الشاهد الوحيد علينا نظارات شمسية كان قد فقدها أحدهم. كنت جاثياً على ركبتيَّ، أهمّ بامتلاك حبيبتي، عندما خرج من البحر سابحان ملتحيان، عجوز البحر وأخوه، وراحا يصيحان علينا ويطلقان عبارات بذيئة. لكنها ماتت بعد هذه الحادثة بأربعة أشهر بعد إصابتها بالتيفوئيد في كورفو.

٤

لا أنفكّ أقلّب صفحات هذه المذكرات البائسة، ولا أكفّ عن التساؤل، هل بدأ الصدع في حياتي آنذاك، في ألق ذلك الصيف البعيد، أم هل كانت رغبتي الجامحة في تلك الطفلة هي أول دليل على

Twitter: @ketab_n

تميّز متأصّل؟ وعندما أحاول تحليل رغباتي الجامحة، ودوافعي، وتصرفاتي، وما إلى ذلك، فإني أستسلم إلى نوع من خيال استعادي يغذّي قدرتي التحليلية ببدائل لا تنتهي يجعل كلّ طريق متخيّل يتشعّب، ثم يتفرّع إلى آفاق لا نهاية لها من ماضيّ المعقّد على نحو يثير الجنون. لكنني على قناعة تامة بأن لوليتا كانت قد بدأت مع أنابيل على نحو سحري وحاسم.

وأعرف أيضاً أنّ الصدمة التي أحدثها موت أنابيل فيّ عززت الإحباط الذي خلّفه ذلك الصيف المروع، وجعلت منه عقبة دائمة أمام أيّ قصة حبّ أخرى خلال سنوات شبابي الفاترة. فقد امتزج الروحي والجسدي فينا امتزاجاً تاماً، وهو أمر لا يزال شديد الغموض وعصياً على الفهم بالنسبة لعقول شبان اليوم الذين لم يبلغوا مرحلة النضج بعد. وعلى الرغم من انقضاء فترة طويلة على موتها، فإني أشعر بأن أفكارها لا تزال تغمرني وتعانق أفكاري. وقبل أن نلتقي بفترة طويلة، كانت تراودنا الأحلام ذاتها، وكنا نقارن الملاحظات، وكنا نجد ألفة وتقارباً على نحو غريب. ففي شهر حزيران (يونيه) نفسه من سنة (١٩١٩) كان هناك طائر كناري ضلّ طريقه يصفق بجناحيه أمام بيتها وأمام بيتي، في بلدين منفصلين بعيدين. لوليتا، هل كنت تحبينني إلى هذه الدرجة!

لقد أبقيت رواية أول قصة حبنا الفاشل أنا وحبيبتي «أنابيل»، حتى النهاية. ففي ذات ليلة، تمكّنت من التملص من مراقبة أبويها اللذين كانا شديدي اليقظة. وفي بستان تظلله أشجار الميموزا ذات الأوراق الرشيقة المتوترة خلف الفيلا التي يقيمون فيها، جثمنا فوق جدار واطئ متهدم. وعبر الظلام والأشجار الرقيقة كنا نرى النوافذ المضاءة المزخرفة بالأرابيسك التي رسمتها أحبار ملوّنة من الذاكرة المرهفة الحساسية، والتي تبدو لي الآن مثل اللعب بلعبة ورق - ربما لأن لعبة

Twitter: @ketab_n

البريدج كانت تُشغل العدو. ارتعشت وانتفضت وأنا أقبّل زاوية شفتيها المفترتين، وشحمة أذنها الحارة. وكانت باقة من النجوم تتلألأ بشكل باهت فوقنا، بين أوراق الأشجار الطويلة الرفيعة؛ وقد بدت تلك السماء النابضة بالحياة عارية، كما كان الحال تحت فستانها الرقيق. رأيت وجهها في السماء، متميّزاً وواضحاً على نحو غريب، كما لو أنه كان يبعث لمعاناً باهتاً. لم تكن ساقاها، ساقاها الجميلتان النابضتان بالحياة، مضمومتين، وعندما حطّت يدي في المكان الذي كانت تسعى إليه، ارتسمت على محيّاها الطفولي قسمات حالمة غريبة، مبدية نصف متعة، نصف ألم. كانت تجلس في مكان أعلى بقليل من المكان الذي كنت أجلس فيه، وعندما تعتريها النشوة، وتندفع لتقبيلي، كان رأسها ينحني بحركة ناعسة، رقيقة، يكاد يكون حزيناً، وكانت ركبتاها العاريتان تلامسان رسغي وتضغطان عليه، ثم ترخيهما، ويقترب فمها المرتعش الذي شوهته حموضة شراب غامض، بأنفاسها التي ينبعث منها صفير، من وجهي. وكانت تحاول أن تخفف من وطأة عذاب الحبّ بحفّ شفتيها الجافتين أولاً بقسوة على شفتيّ، ثمّ تبعد حبيبتي وجهها عن وجهي وهي ترمي خصلة شعرها بعصبية إلى الوراء، ثمّ تقترب مني ثانية بحزن لتدعني ألتقم فمها الفاغر، بسخاء يجعلني مستعداً لأقدم لها كلّ ما أملكه: قلبي، حنجرتي، أحشائي. أمنحها إياها لكي تقبض على صولجان شهوتي، بقبضتها الخرقاء.

أتذكّر رائحة نوع ما من مسحوق البودرة - أظن أنها كانت قد سرقته من خادمة أمّها الإسبانية - كانت له رائحة جميلة، مبتذلة، تشبه رائحة المسك - امتزج برائحتها الشبيهة برائحة البسكويت، وبغتة فاضت أحاسيسي حتى الثمالة، منعها جيشانٌ مفاجئ في أجمة قريبة من التدفق - وعندما ابتعد أحدنا عن الآخر، وبعروق موجعة تئن منها تشبه

Twitter: @ketab_n

مواء قطة، انبعث صوت أمّها من داخل البيت، تناديها، بنبرة مسعورة - وخرج الدكتور كوبر يعرج ويمشي بتثاقل إلى الحديقة - لكن بستان أشجار الميموزا ذاك، النجوم الباهتة، الرعشة، اللهيب، الندى العسلي، الألم، ظلت جميعها في داخلي، وظلت تلك الفتاة الصغيرة بأطرافها الرقيقة ولسانها المتوهج تطاردني منذ ذلك الحين، إلى أن أبطلتُ سحرها، أخيرا، بعد أربع وعشرين سنة، بتجسيدها في فتاة أخرى.

٥

عندما أستحضر أيام شبابي، فإنها تبدو كأنها تفلت مني مثل قصاصات باهتة الألوان تتطاير في مهبّ الريح كما تتطاير المناديل الورقية المستعملة في دوامة خلال العواصف الثلجية التي تهبّ في الصباح والتي يمكن للمسافر رؤيتها من نافذة القطار. وبالنسبة للنظافة والصحة في علاقاتي النسائية، فقد كنت شخصاً عملياً، متهكماً، ورشيقاً. وعندما كنت طالباً في الجامعة، في لندن وباريس، كنت أكتفي ببائعات الهوى. وكانت دراستي دقيقة ومكثفة، لكنها لم تكن مثمرة كثيراً. ففي البدء، كنت أنوي الحصول على إجازة في الطبّ النفسي شأن الكثيرين من ذوي المواهب الفاشلة، لكنني كنت أكثر فشلاً؛ واعتراني شعور غريب بالإعياء، وتملكني إرهاق شديد، مما حدا بي أن أنتقل لدراسة الأدب الإنكليزي، حيث ينتهي المطاف بالكثير من الشعراء المحبطين بأن يصبحوا معلمين يرتدون بذات من قماش التويد، ويدخنون الغليون. وكانت باريس تلائمني أكثر، حيث كنت أتبادل الحديث مع المغتربين حول بعض الأفلام السوفياتية؛ وكنت أجلس مع عدد من المثليين الجنسيين في مقهى «دو ماغو»، وأنشر

Twitter: @ketab_n

مقالات منحرفة في بعض المجلات المغمورة، وأكتب نصوصاً أقوم بجمعها من نصوص أخرى:

. . . فرولين فون كولب
قد تدير يدها على قبضة الباب؛
ولن أتبعها. ولن أتبع فتيسكا، وكذلك النورس.

وقد أثار بحث كنت قد كتبته بعنوان: «فكرة بروست في رسالة موجهة من كيتس إلى بينجامين بيلي»، سخرية ستة أو سبعة أدباء كانوا قد قرأوه. وكنت قد شرعت في العمل على كتاب بعنوان: «تاريخ موجز للشعر الإنكليزي» لصالح دار نشر مرموقة، ثم بدأت أجمع كتيباً عن الأدب الفرنسي للطلاب الناطقين باللغة الإنكليزية (مع مقارنات بين عدد من الكتّاب الإنكليز) شغلني طوال فترة الأربعينيات من القرن العشرين، وعندما ألقي القبض عليّ، كان المجلد الأخير قد أصبح جاهزاً للنشر.

وجدت عملاً - تعليم اللغة الإنكليزية للكبار في «أوتوي»؛ ثمّ عملت في مدرسة للفتيان على مدى فصلي شتاء. وكنت بين الحين والآخر، أستغل الصداقات التي كنت قد أقمتها مع عدد من المشتغلين في الخدمة الاجتماعية، ومع أطباء نفسانيين كنت أرافقهم في زيارة مصحات ومؤسسات مختلفة، مثل ملاجئ الأيتام والمدارس الإصلاحية، حيث تسنى لي رؤية فتيات شاحبات في سن البلوغ، أهدابهن طويلة، من دون أن أتعرض للعقاب، كنّ يذكرنني بالفتيات اللاتي يتراءين لي في أحلامي.

أرغب الآن في عرض الفكرة التالية: هناك عدد من العذراوات اللاتي تتراوح أعمارهن بين التاسعة والرابعة عشرة من العمر، واللاتي يبدون لبعض الرحالة المفتونين ممن يكبرونهن مرّتين أو أكثر من العمر،

Twitter: @ketab_n

واللاتي يكشفن حقيقة طبيعتهن التي هي ليست طبيعة بشرية، بل طبيعة حورية (أي شيطانية)؛ وأقترح أن أطلق على هذه المخلوقات المختارة اسم «حوريات البحر».

وتجدر الملاحظة أنني أستخدم تعابير المكان لا تعابير الزمان. وفي واقع الحال، أريد أن يرى القارئ الرقمين «تسعة» و «أربعة عشر» بأنهما حدّان - الشواطئ البراقة والصخور الوردية - جزيرة مسحورة تقطنها حوريّاتي تلك، محاطة ببحر سديمي مترامي الأطراف. هل إن جميع الغلامات الحوريّات هنّ اللاتي تتراوح أعمارهن بين هذين الحدّين؟ بالطبع لا، وإلا فقدنا جميعاً، نحن الذين نعرف، نحن الرحالة التائهين، نحن المهووسين بالحوريّات، صوابنا منذ أمد بعيد. فلا الوسامة ولا الابتذال، أو على الأقل ما تسمّيهما كذلك بعض المجتمعات، بوسعهما أن تشوّها بعض الخصائص الغامضة، والنعمة الطفولية، والسحر المراوغ، الماكر، المدمّر للروح، المغوي، الذي يفصل الحوريّة عن الفتيات اللاتي في عمرها، واللاتي يعتمدن على العالم المكاني للظواهر المتزامنة أكثر من اعتمادهن على تلك الجزيرة الخيالية من الزمن السحري حيث تلعب لوليتا مع أترابها. ضمن حدود العمر ذاتها، فإن عدد الحوريّات الحقيقيات أقل بكثير من عدد الفتيات المتوسطات الجمال، أو الفتيات اللطيفات، أو الفاتنات، أو حتى الحلوات والجذّابات، الفتيات العاديات، المكتنزات، اللاتي لا هيئة لهن، ذوات البشرة الباردة، واللاتي هن أساساً فتيات صغيرات من البشر، لهن بطون وضفائر، قد يكبرن أو لا يكبرن، ويزددن جمالاً (انظروا إلى تلك الفتيات القصيرات البدينات اللاتي يرتدين جوارب نسائية سوداء، ويعتمرن قبعات بيضاً، يتحولن إلى نجمات رائعات يظهرن على الشاشة). وإذا أُعطي رجل عادي صورة ما فيها مجموعة من التلميذات أو من فتيات الكشافة، وطُلب منه أن يشير بإصبعه إلى

Twitter: @ketab_n

أكثرهن فتنة ووسامة وجمالاً فلن يقع اختياره بالضرورة على «الحوريّة» من بينهن، إذ يجب أن تكون فناناً ومجنوناً، مخلوقاً تعتريك كآبة شديدة، ولديك فقاعة من السمّ الحار بين ساقيك، ولهب شهواني يتأجج باستمرار في عمودك الفقري المرهف (أوه، كيف يمكن أن تتذلّل وتختبئ)، لكي تدرك في الحال، بإشارات تفوق الوصف - حدود عظام خدّها التي تشبه عظام السنور، نحول أطرافها المكسوة بالزغب، والعلامات الأخرى التي يمنعني اليأس والخجل والدموع من تعدادها - الشيطان الصغير المميت الذي يجمع بين الأطفال جميعاً - تقف هناك لا يميّزها أحد وهي لا تدرك قدرتها الرائعة.

ولما كانت فكرة الزمن تؤدي هذا الدور السحري، فعلى الطالب ألا يفاجأ عندما يعرف أنه يجب أن يكون هناك فارق في العمر بين الفتاة والرجل يمتد عدة سنوات، بل يمكنني القول إنه ينبغي ألا يقلّ هذا الفرق عن عشر سنوات، أو ربما، ثلاثين أو أربعين سنة، وقد يصل في بضع حالات معروفة إلى تسعين سنة، كي يقع الرجل تحت تأثير سحر الحوريّة. ويكمن الأمر كله في القدرة على تكييف بؤرة العين إلى مسافة معينة كي تغمر البهجة العين الداخلية، وتناقض محدد يدركه العقل بشهقة من المتعة المنحرفة. فعندما كنت أنا وأنابيل الصغيرة طفلين، لم تكن حوريّة بالنسبة لي، بل كنت نداً لها، إله الغابات، نعيش في الجزيرة المسحورة ذاتها في ذلك الزمن. أما اليوم، في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢، بعد مضي تسع وعشرين سنة، فإنه يخيّل إليّ أنني أستطيع رؤية أول حوريّة في حياتي بعثها لي القدر. فقد أحبّ أحدنا الآخر حباً خديجاً (غير ناضج)، يتميّز بضراوة غالباً ما تدمّر حياة الكبار. كنت فتى قوياً لذلك نجوت وعشت، لكن السمّ كان يقبع في الجرح، وظلّ الجرح ناكئاً طوال الوقت، وسرعان ما وجدت نفسي أبلغ مرحلة النضج وأنا في خضم حضارة تسمح لرجل في الخامسة

Twitter: @ketab_n

والعشرين من عمره أن يغازل فتاة في السادسة عشرة من عمرها، لكن ليس فتاة في الثانية عشرة.

لا عجب إذن أن تتسم سنوات حياتي، عندما كنت أعيش في أوروبا، بالازدواجية. ففي الظاهر، كان لديّ ما يسمّى بعلاقات طبيعية مع عدد من النساء الدنيويات ذوات الأثداء التي تشبه ثمار القرع أو الكمثري، أما في الباطن، فقد كانت تلتهمني نيران متأججة من الشهوة الجامحة كلما مرّت من أمامي حورية لا أجرؤ على الاقتراب منها، لأنني كنت شخصاً رعديداً مطيعاً للقانون. أما الإناث من جنس البشر اللواتي كان يُسمح لي بمعاشرتهن، فكنّ مجرد كائنات يساعدن على التخفيف من حدة ألمي. وإني أنحو إلى الإعتقاد بأن الأحاسيس التي كنت استمدّها من الزنى الطبيعي تشبه كثيراً الأحاسيس التي يعرفها الذكور الكبار العاديون الذين يعاشرون زوجاتهم البالغات الطبيعيات بذلك الإيقاع الروتيني الذي يهزّ العالم. وتكمن المشكلة في أن هؤلاء الرجال المحترمين لم يعرفوا تلك النعمة الرائعة الفذة، كما عرفتها أنا. إن أشدّ أحلامي إظلاماً وبذاءة تفوق ألف مرة جميع قصص الزنى التي يكتبها أكثر الكتّاب عبقرية وفحولة، أو أشد الكتّاب الموهوبين ضعفاً جنسياً. لقد كان عالمي منقسماً إلى شقين؛ فلم أكن أدرك جنساً واحداً، بل جنسين اثنين، لا يمت أيّ منهما إلى جنسي، ويطلق علماء التشريح على كليهما اسم «أنثى». أما بالنسبة لي، من خلال موشور أحاسيسي، فقد كانا «يختلفان اختلاف السحب وصارية السفينة». إني أحاول تفسير كلّ ذلك تفسيراً منطقياً الآن. فعندما كنت في العشرينات وأوائل الثلاثينات من عمري، لم أكن أفهم ذلك بوضوح شديد. ففي حين كان جسمي يعرف تماماً ما يصبو إليه، كان عقلي يرفض كلّ نداء يطلقه جسمي. ففي لحظة كان يعتريني شعور بالخجل والخوف، وفي لحظة أخرى، كان ينتابني شعور بالتفاؤل المتهور. إن المحرمات

Twitter: @ketab_n

تخنقني. وكان المحللون النفسانيون يحاولون استمالتي بتحريري من غلمة كاذبة. والواقع أن أخوات أنابيل وخادماتها ووصيفاتها كنّ النساء الوحيدات اللاتي يجعلنني أرتعش بشهوانية، وكان ذلك يبدو لي أحياناً علامة تنذر بالجنون. وفي أوقات أخرى، كنت أقول لنفسي إن كلّ ذلك يعزى إلى سلوكي، وأن لا ضير حقاً في الانتقال إلى مرحلة التدلّه بالفتيات الطفلات. ودعوني أذكّر قارئي بأنه في إنكلترا، بعد إقرار قانون الأطفال والشبان في عام ١٩٣٣، باتت عبارة «الطفلة» تُعرّف بأنها «الفتاة التي يتراوح عمرها بين الثامنة والرابعة عشر» (بعد ذلك، من الرابعة عشر إلى السابعة عشر، والتعريف القانوني هو «الشخص الشاب»). أما في ماسوتشوستس بالولايات المتحدة، فإن «الطفل المتمرّد»، من الناحية الفنية، هو طفل «يتراوح عمره بين السابعة والسابعة عشرة» (الذي يرتبط عادة بأشخاص أشرار أو عديمي الأخلاق). وكان هيو بروتون، وهو كاتب مثير للجدل، عاش في عصر جيمس الأول، قد أثبت بأنّ «رحاب» كانت بغياً ولمّا تبلغ العاشرة من العمر. إن هذا الأمر مثير للاهتمام، وبوسعي القول إنكم بدأتم ترون الزبد يرغي حول فمي بعد أن تملكتني نوبة غضب، لكن لا، لم تتملكني نوبة غضب، بل كنت أملأ أفكاراً سعيدة في كوب خزفي صغير. ها هنا المزيد من الصور. فها هو فيرجيل الذي كان بوسعه أن يغنّي أجمل ألحانه لإحدى الحوريّات الجميلات، لكنه كان يفضّل عليهن عجان(*) الغلمان. وهناك ابنتا الملك أخناتون والملكة نفرتيتي، ابنتا النيل، اللتان لم تكونا قد بلغتا سن الرشد بعد (كان لهذا الملك وتلك الملكة ستّ بنات)، لا ترتديان شيئاً سوى قلائد من الخرز البرّاق، تستلقيان باسترخاء فوق الوسائد، لا تزالان عذراوين بعد مضي

(*) المنطقة الواقعة بين فتحة الشرج والعضو التناسلي - م.

Twitter: @ketab_n

ثلاثة آلاف سنة، بجسديهما الناعمين الأسمرين، وشعرهما المقصوص، وعينيهما الأبنوسيتين الواسعتين. وها هنا عدد من العرائس في العاشرة من أعمارهن أُرغمن على الجلوس على «الفاسينوم»(*)، القضيب العاجي الذي كان يقام في المعابد الكلاسيكية. ولا يزال الزواج والمساكنة قبل سنّ البلوغ شائعين في بعض أقاليم الهند الشرقية. إذ يضاجع رجال منطقة ليبتشا الشيوخ الذين يبلغون الثمانين من العمر فتيات لا يتجاوزن الثامنة من العمر، ولم يكن أحد يبالي بذلك. وقد هام دانتي ببياتريس وهي في التاسعة من العمر، فتاة صغيرة فائرة جميلة، مطلية كلها بالأصباغ، تزيّنها المجوهرات، وترتدي فستاناً قرمزي اللون. كان ذلك في عام ١٢٧٤، في فلورنسا، في عيد خاص يقام في شهر أيار (مايو) السعيد. وعندما أُغرم بترارك بلورين، لم تكن المرأة التي عشقها إلا فتاة شقراء الشعر لا تتجاوز الثانية عشرة من العمر، تسابق الريح، تجري في السهول الجميلة وسط غبار الطلع والتراب، زهرة تتطاير، عند سفوح تلال فاوكلوس.

لكن دعونا نكون صريحين ومتحضرين. فقد بذل همبرت همبرت كل ما بوسعه ليصبح رجلاً طيباً. وقد فعل ذلك بحق وصدق. فقد كان يكنّ احتراماً شديداً للطفلات العاديات، بنقائهن وضعفهن، ولم ينتهك، مهما كانت الظروف، براءة طفلة، إذا وجد أي احتمال بإثارة أي مشكلة. لكن قلبه كان يخفق بشدة عندما يجد نفسه وسط ثلة من الفتيات البريئات، ويرى بينهن طفلة شيطانة، غلامة فاتنة ماكرة، ذات عينين باهتتين، وشفتين براقتين، لأن السجن لمدة عشر سنوات ينتظره لمجرد النظر إليها. وهكذا مضت الحياة. لقد كان بمقدور همبرت أن

(*) الفاسينوم: قضيب من العاج كان يستخدم في بعض الطقوس الإيروتيكية الرومانية - م.

Twitter: @ketab_n

يضاجع حواء، لكنّه كان في شوق أشدّ إلى ليليث. مرحلة تبرعم النهدين المبكّرة (في العاشرة وسبعة أشهر من العمر) في سلسلة التغييرات الجسدية التي ترافق مرحلة البلوغ. ومرحلة النضج التالية مع أول ظهور لشعر عانة ملون (في الحادية عشرة وشهرين). لقد بدأت كأسي الصغيرة تفيض.

سفينة غارقة. على جزيرة مرجانية، وحيداً مع طفلة ترتجف، ابنة مسافرة كانت قد غرقت. عزيزتي، إن هذه مجرد لعبة! ما أروع مغامراتي المتخيّلة، وأنا أجلس على مقعد صلب في إحدى الحدائق العامة، متظاهراً بأنني منهمك في قراءة كتاب. كانت الغلامات يلعبن بحرية حول هذا القارئ الهادئ المنهمك، وكأنه تمثال مألوف، أو جزء من ظلّ شجرة قديمة. وفي أحد الأيام، كانت هناك حسناء صغيرة رائعة ترتدي تنورة أسكتلندية، تمرح بصخب، رفعت ساقها، ووضعت قدمها المدججة بمزلجتها بقربي على المقعد الذي أجلس عليه، وأخذت تعقد شريط مزلجتها. كنت قد ذبت تحت أشعة الشمس، مستخدماً كتابي كورقة تين، عندما سقطت جدائلها الكستنائية وغطت ركبتها المخدوشة. كان ظلّ أوراق الشجرة الذي كنت أتقاسمه معها ينبض ويذوب فوق ساقها المتألقة بجانب خدّي الذي يشبه الحرباء. وفي مرة أخرى، وقفت بالقرب مني في قطار المترو تلميذة ذات شعر أحمر، وظلت رؤية إبطها الخمري تسري في دمي لأسابيع عديدة تلت. ويمكنني أن أعدّد الكثير من هذه المغامرات والرومانسيات الصغيرة من جانب واحد، التي انتهى بعضها بنكهة غنية من الجحيم. فقد صادف مثلاً أنني رأيت من شرفتي نافذة مضيئة على الجانب الآخر من الشارع، ما بدا لي أنها حورية تخلع ثيابها أمام مرآة. ومع أن المشهد كان منعزلاً، منفصلاً، فقد أحدثت رؤيتها سحراً خاصاً فيّ جعلني أهرع بكلّ ما أوتيت من سرعة لإرضاء نفسي الوحيدة. لكن بغتة، وعلى نحو

Twitter: @ketab_n

شرير، تحوّل ذلك الشكل الرقيق من العري الذي عشقته، إلى ذراع عارية يضيئها مصباح لرجل مقزز في ثيابه الداخلية، يقرأ صحيفة بجانب النافذة المشرعة في تلك الليلة الصيفية الحارة، الرطبة، اليائسة.

لعبة القفز على الحبل، ولعبة القفز في مربعات. تلك المرأة العجوز المتشحة بالسواد الجالسة إلى جانبي على المقعد الذي أجلس عليه، مقعد بهجتي (كانت هناك حورية تتلمس تحتي بيدها تبحث عن الدحل(*) التي كانت تلعب بها وانسلّت تحت مقعدي)، وسألتني إن كنت أعاني من ألم في معدتي، تلك العجوز الوقحة. دعيني وشأني أيتها العجوز الشمطاء وحيداً في حديقة المراهقات، في حديقتي التي تكسوها الطحالب، لكي تلعب حولي إلى الأبد، تلك المراهقات اللاتي أتمنى ألا يكبرن على الإطلاق.

٦

بالمناسبة: غالباً ما أتساءل ماذا حلّ بتلك الحوريات فيما بعد؟ ففي هذا العالم الذي تحكمه شبكة محكمة من السبب والنتيجة، أليس من الممكن أن يكون ذلك الخفقان الخفي الذي سرقته منهن قد أثّر على مستقبلهن؟ كنت أتملكهن - لكنهن لم يكن يعرفن ذلك مطلقاً. حسناً. لكن ألن يُفتضح أمري لاحقاً؟ ألم أعبث يوماً بمصيرهن عندما ربطت صورتهن بصورة فولبتاس(**)؟

يا إلهي! كانت، وستبقى، مصدر دهشة عظيمة رائعة.

(*) كرة زجاجية يلعب بها الأطفال - م.

(**) في الميثولوجيا الرومانية، كانت فولبتاس أو فولبتا الابنة الجميلة لكيوبيد وبسيك، وتعرف بأنها إلهة المتع الحسيّة، والتي يعني اسمها باللاتينية «المتعة» أو «النعمة» - م.

Twitter: @ketab_n

لكنني بدأت أعرف كيف تصبح تلك الحوريات الرائعات، اللاتي يخلبن الألباب، ذوات الأذرع النحيلة، عندما يكبرن. إذ أذكر أنني كنت أسير في شارع يضجّ بالحركة بعد ظهر يوم ربيعي غائم بالقرب من كنيسة مادلين، واجتازتني فتاة نحيلة قصيرة تسير بخطوات سريعة متعثرة، تنتعل حذاء ذا كعب عال، والتفت كلانا إلى الوراء في اللحظة نفسها. توقّفت واقتربتُ منها. لم تكد تصل إلى شعر صدري، وكان وجهها مدوراً به غمازة كتلك التي نراها لدى معظم الفتيات الفرنسيات الصغيرات. أعجبتني أهدابها الطويلة، وفستانها الضيّق الرمادي اللؤلؤي اللون الذي كان يلفّ جسدها الصغير، الذي كان لا يزال يحتفظ - وكان ذلك الصدى الذي ينبعث من الحوريات، رعشة البهجة، يثير خفقة بين ساقيّ - بشيء طفولي يمتزج بارتجاج ردفيها الرشيقين الصغيرين. سألتها عن المبلغ المطلوب، فأجابت على الفور بصوت رخيم يشبه رنين الفضة (إنها فتاة رائعة، حقاً إنها فتاة رائعة!) «مائة». حاولت أن أساومها لكنها رأت تلك النظرة المحترقة في عينيَّ المطرقتين، الموجّهتين إلى جبينها المستدير، وقبعتها المهترئة (شريط، باقة أزهار)، وبرمشة واحدة من رموشها قالت «أنا آسفة»، وتحركت وكأنها تريد أن تبتعد. لعلي كنت قد رأيتها قبل ثلاث سنوات وهي عائدة إلى بيتها من المدرسة! لقد حلّت تلك الذكريات الأمر. إذ قادتني، وارتقينا الدرجات الحادّة المعتادة، وقرعت الجرس المعتاد، لتنبيه الشخص الذي قد لا يرغب في أن يراه شخص آخر فيبتعد عن الطريق، أثناء الصعود الحزين إلى الغرفة البائسة، التي لا يوجد فيها إلا سرير ومغسلة (شطافة). وكالعادة، سألتها في الحال عن هديتها الصغيرة، وكالعادة سألتها عن اسمها (مونيك) وعن عمرها (ثماني عشرة سنة). كنت أعرف تماماً أساليب العاهرات المبتذلة. فكلّهن يقلن (ثماني عشرة سنة) «يزقزقن» بنعومة، بنبرة حاسمة، وبمكر

Twitter: @ketab_n

مخاتل، يرددنها أكثر من عشر مرات في اليوم، تلك المخلوقات الصغيرة المسكينة. أما مونيك، فلا شكّ أنها أضافت إلى عمرها سنة أو سنتين. وقد استنتجت ذلك من تفاصيل عديدة في جسدها المكتنز، الناعم، الجميل الذي لم يبلغ مرحلة النضج بعد. وبعد أن نضّت عنها ثيابها بسرعة مبهرة، وقفت لحظة وقد لفّت جزءاً من جسدها بقماش ستارة النافذة المصنوعة من الدانتيل الوسخ، وراحت تصيخ السمع ببهجة طفولية إلى موسيقى الأرغن المنبعثة من الباحة المغبرّة في الأسفل. وعندما تفحصت يديها الصغيرتين، ونبهتها إلى أظافرها الوسخة، قالت بوجه متجهّم ساذج، «نعم، أعرف أنّ هذا ليس جيداً»، وتوجهت إلى حوض المغسلة، لكنّي قلت لها إن هذا غير مهم، غير مهم على الإطلاق. وبشعرها الكستنائي المنفوش، وعينيها الرماديتين البراقتين، وبشرتها البيضاء، كانت تبدو في غاية السحر والجمال. ولم يكن ردفاها أكبر من ردفيّ فتى يجلس القرفصاء. وفي الواقع، لا أتردّد في القول (في الحقيقة، هذا هو السبب الذي جعلني أتذكّر بامتنان تلك الغرفة الرمادية المغبشة ومونيك الصغيرة). ومن بين الثمانين عاهرة أو نحو ذلك اللاتي ضاجعتهن، كانت هي الفتاة الوحيدة التي منحتني متعة حقيقية. «كان الرجل الذي اخترع هذه الحيلة، عبقري»، قالت بلطف، وارتدت ثيابها بالسرعة التي خلعتها فيها.

وطلبت منها أن نلتقي مرة أخرى في تلك الأمسية، فقالت إنها ستلتقي بي عند الساعة التاسعة في المقهى الواقع عند ناصية الشارع، وأقسمت أنها لم تخلف موعداً مع أحد طوال حياتها الشابة. وهكذا عدنا إلى الغرفة نفسها، ولم أتمالك نفسي عن التعبير لها عن روعة جمالها، فأجابتني وهي تتظاهر بالرزانة: «لطف منك أن تقول ذلك»، ثمّ، وبعد أن لاحظت ما لاحظته أيضاً في المرآة التي تعكس جنتنا

Twitter: @ketab_n

الصغيرة - الابتسامة العريضة المروعة التي بدت فيها أسناني المطبقة التي شوهت شكل فمي - أرادت مونيك الصغيرة المطيعة (يا إلهي، يا لها من حورية بحق) معرفة هل عليها أن تزيل تلك الطبقة الحمراء من على شفتيها قبل مضاجعتها إن كنت أريد أن أقبّلها. طبعاً أريد ذلك. وضاجعتها بحرية مطلقة كما لم أضاجع أي شابّة من قبل، وكانت آخر نظرة علقت في مخيلتي في تلك الليلة لمونيك ذات الأهداب الطويلة، ترتبط بمتعة لم أكد أجدها طوال حياتي المهينة، الدنيئة، من الحب الصامت. وبدت في غاية السعادة عندما نفحتها خمسين فرنكاً أخرى، وراحت تثب فرحاً، وخرجت إلى عتمة تلك الليلة الماطرة من ليالي شهر نيسان (أبريل)، وهي تسحب همبرت همبرت بتثاقل في صحوتها الهزيلة. ثم وقفت أمام إحدى واجهات المحلات الزجاجية وقالت بحيوية بالغة: «سأشتري لنفسي بعض الجوارب»، ولن أنسى ما حييت شفتيها الطفوليتين الباريسيتين اللتين انبعثت منهما كلمة «جوارب»، التي لفظتها بشهية عارمة.

واعدتها في الساعة الثانية والربع من بعد ظهر اليوم التالي في غرفتي، لكن هذا اللقاء لم يكن مثل اللقاءين السابقين، فقد بدا لي أنها كبرت وتجاوزت مرحلة الصبا، واستحالت امرأة كاملة بين ليلة وضحاها. وأصابتني بعدوى الزكام مما جعلني ألغي لقاء رابعاً معها، ولم يعترني أي شعور بالأسف لأنني كسرت سلسلة عاطفية كانت تهدّد بأن تثقل كاهلي بتخيّلات تمزق نياط القلب، وتؤدي إلى إحباط مملّ. لذلك لتبقَ مونيك، رشيقة، ملساء، كما كانت لدقيقة أو دقيقتين: حورية جانحة تشعّ من خلال عاهرة شابة حقيقية.

كانت معرفتي بها خلال تلك الفترة القصيرة قد أحدثت سيلاً من الأفكار التي قد تبدو شديدة الوضوح بالنسبة للقارئ الذي يعرف بواطن الأمور. وفي أحد الأيام، قادني إعلان قرأته في مجلة إباحية، إلى

Twitter: @ketab_n

مكتب المدام إديث التي راحت تعرض عليّ مجموعة صور لفتيات لكي أختار منهن فتاة من ألبوم صور ملوّث («انظر إلى هذه الحسناء السمراء»). وعندما وضعتُ الألبوم جانباً، تمكنت بطريقة ما من إخبارها برغبتي الشهوانية الإجرامية، ويدا لي أنها ستطردني خارجاً، لكنها، بعد أن سألتني عن المبلغ الذي كنت مستعداً لدفعه، تنازلت ودلتني على امرأة يمكنني الاتصال بها لترتيب مثل هذا الأمر. وفي اليوم التالي، أخذتني امرأة مصابة بالرّبو، تضع أصباغاً كثيفة على وجهها، ثرثارة، تفوح من فمها رائحة الثوم، وتتكلم بلكنة مرسيلية تكاد تكون مضحكة، ويعلو شفتها الأرجوانية شارب أسود، وقادتني إلى ما يبدو أنه مسكنها، وهناك، بعد أن قبّلت أطراف أصابعها الغليظة المتورمة بصوت عال لكي تكشف لي عن نوعية البضاعة المتوفرة لديها من البراعم الوردية الرهيفة. وبطريقة مسرحية، سحبت الستارة جانباً لتكشف عن ذلك الجزء من الغرفة الذي كانت تنام فيه أسرة كبيرة. لكنها كانت خاوية الآن إلا من فتاة بدينة على نحو مخيف، شاحبة الوجه، ذات جمال عادي على نحو بغيض، لا يتجاوز عمرها الخمس عشرة سنة، ضفائرها سود غليظة مزيّنة بشرائط حمراء، تجلس على كرسي وتلعب بدمية صلعاء ضجرة. وعندما هززت رأسي وحاولت الخروج من هذا الفخّ، بدأت المرأة، التي كانت تتحدث بسرعة، تزيل البلوزة الصوفية الوسخة من جذع الفتاة العملاقة، وعندما تأكدت من رغبتي الأكيدة بالمغادرة، طلبت النقود التي تستحقها. وفُتح باب في زاوية الغرفة، وانضم إلى الجدال الدائر بيننا رجلان كانا يتناولان طعامهما في المطبخ. وكان هذان الرجلان غريبي الشكل: فقد كانت رقبتاهما عاريتين، شديدتي السمرة، وكان أحدهما يضع نظارة سوداء. وخرج من خلفهما صبي صغير وطفل يحبو، كانا قذرين. وبمنطق وقح كما لو كنت أرى كابوساً، أشارت القوّادة الغاضبة إلى الرجل الذي

Twitter: @ketab_n

يضع نظارة، وقالت إنه كان شرطياً، ومن الأفضل لي أن أدفع لها المبلغ الذي طلبته مني. فتوجهت إلى ماري - وهذا هو اسمها- التي كانت آنذاك قد نقلت بهدوء عجيزتها الثقيلة إلى مقعد ينتصب أمام المائدة في المطبخ، واستأنفت تناول الحساء بنهم، بينما التقط الطفل الدمية. وبدافع من الشفقة على حركتي التمثيلية الغبيّة، دسست ورقة نقدية في يدها اللامبالية، فأعطتها إلى المخبر السابق، بينما كنت أتوق إلى الخروج بسرعة.

٧

لا أعرف إن كان ألبوم القوادة قد أضاف حلقة أخرى إلى طوق الأقحوان أم لا، لكنني سرعان ما قرّرت أن أتزوج، لكي أصون نفسي. فقد خيّل إليّ أن قضاء ساعات منتظمة، وتناول وجبات طعام معدّة في البيت، وجميع أعراف الزواج، ورتابة الأنشطة الوقائية في غرفة النوم، ومن يعرف، فقد يساعدني تبرعم بعض القيم الأخلاقية في نهاية الأمر، وبعض البدائل الروحية، إن لم يكن لتطهير نفسي من شهواتي الخطيرة المخزية، فعلى الأقل، لكي أتمكن من السيطرة عليها بهدوء. وقد أتاح لي مبلغ ضئيل ورثته بعد وفاة أبي (لم يكن مبلغاً ضخماً - فقد كان فندق ميرانا قد بيع منذ زمن بعيد)، وفتاة رائعة الجمال، وإن كانت تشي ببعض الملامح الوحشية، المضي في مسعاي برباطة جأش. وبعد إمعان شديد، وقع اختياري على ابنة طبيب بولوني: إذ صادف أن هذا الطبيب كان رجلاً طيباً يعالجني من نوبات الدوار التي كانت تعتريني، ومن عدم انتظام دقات القلب. وكنا نلعب الشطرنج معاً، وكانت ابنته تختلس النظر إليّ من وراء حامل مرسمها، وتُدخل في رسومها التكعيبية التافهة عيوناً أو مفاصل تستوحيها مني، تلك الأشياء التي كانت الآنسات

Twitter: @ketab_n

يرسمنها آنذاك بدلاً من رسم الزنابق والحملان. وبوسعي القول بكل ثقة وهدوء إنني كنت، ولا أزال، بالرغم من المصائب التي رزئت بها، رجلاً وسيماً، طويل القامة، أمشي بخطوات وئيدة، شعري أسود ناعم، وترتسم على وجهي قسمات عابسة تزيدني إغواء. فغالباً ما تعكس الرجولة الطافحة على ملامح صاحبها الظاهرة تجهماً وعبوساً يرتبط بالشيء الذي يريد أن يخفيه. وكان ذلك ينطبق عليّ تماماً. لكنني للأسف كنت أعرف أنني أستطيع أن أحصل على المرأة التي اختارها بمجرد إشارة من إصبعي، لذلك أصبحت، في واقع الأمر، لا أعير أي اهتمام لأي امرأة حتى لا تأتي وترتمي في حضني البارد. ولو كنت فرنسياً عادياً تميل ذائقته إلى السيدات المبهرجات، لربما عثرت بسهولة، من بين الحسناوات العديدات المخبولات اللاتي جلدن صخرتي الصلبة، على نساء أجمل بكثير من فاليريا، لكن اختياري هذا كان بدافع اعتبارات تنطوي في جوهرها، كما أدركت لاحقاً، على تسوية تثير الشفقة. وكلّ ذلك يثبت كم كان همبرت غبياً مسكيناً في الأمور المتعلقة بالجنس.

٨

بالرغم من أني لم أكفّ عن القول لنفسي إنني لم أكن أبحث إلا عن حياة مريحة، هادئة، وحساء دافئ لذيذ، وشعر عانة مستعار، فإن ما جذبني حقاً إلى فاليريا هو تظاهرها بأنها فتاة صغيرة. ولم تكن تفعل ذلك لأنها كانت تعرف شيئاً عني، بل كان ذلك أسلوبها في الحياة - وقد جعلني ذلك أقع في غرامها. فقد كانت، على الأقل، في أواخر العشرينات من عمرها (لم أعرف عمرها الحقيقي لأن تاريخ ميلادها لم يكن صحيحاً حتى في جواز سفرها) وكانت بكارتها قد فُضَّت في

Twitter: @ketab_n

ظروف كانت تتغيّر مع تغيّر مزاجها. أما أنا فكنت ساذجاً مثل أي شخص منحرف. وبدت لي امرأة خفيفة الظل، مرحة، تحبّ تقليد الفتيات الصغيرات الجميلات، كما كانت تحبّ أن تظهر قدراً سخياً من ساقيها الناعمتين، وكانت تجيد إبراز بياض مشط قدمها العارية إزاء سواد صندلها المخملي. وكانت تكوّر شفتيها، وكان لها غمازة على خدها، وكانت تلعب، وتهزّ شعرها الأشقر المجعّد القصير بأجمل وأروع طريقة يمكن للمرء تخيّلها.

وبعد أن انتهينا من مراسم الزفاف القصيرة في مبنى البلدية، أخذتها إلى الشقّة الجديدة التي استأجرتها، ولمفاجأتها، جعلتها ترتدي، قبل أن ألمسها، قميص نوم بناتي بسيط كنت قد سرقته من خزانة ثياب داخلية في إحدى دور الأيتام. وكنت قد حصلت على شيء من المتعة في ليلة الزواج تلك، لكن نوبات هستيرية اعترت تلك الحمقاء عندما أشرقت الشمس. وسرعان ما أطلت الحقيقة برأسها. فقد كشفت ضفيرتها الشقراء عن جذورها السوداء، واستحال الزغب في مقدمة ساقها الحليقة إلى أشواك، وأبان فمها الرطب الذي كان مفعماً بالحيوية، والذي كنت قد حشوته بالحبّ، شبهاً كبيراً، على نحو مخزٍ، بالجزء المماثل الظاهر في إحدى الصور العزيزة لأمها الميتة التي كانت تشبه الضفدع. وبدلاً من أن تكون فتاة الأزقة الصغيرة البيضاء، تحولت بين يديّ همبرت همبرت إلى امرأة ضخمة، بدينة، متبلدة الذهن، ذات ساقين قصيرتين، وصدر كبير.

واستمر الحال على هذا المنوال من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٣٩. وكانت ميزتها الوحيدة هي طبيعتها الصامتة التي ساعدت في بعث إحساس غريب بالراحة في شقّتنا الصغيرة الحقيرة، المؤلفة من غرفتين، تطل إحدى نافذتيها على مشهد ضبابي، وتطل النافذة الأخرى على جدار من الآجر، ومن مطبخ صغير جداً، وحوض حمّام على شكل

Twitter: @ketab_n

حذاء، كنت أشعر وأنا فيه مثل مارات(*) لكن من دون خادمة ذات عنق أبيض مرمري لتقوم بطعني. وكنا نمضي بضع أمسيات دافئة معاً، هي غارقة في صحيفتها «باري سوار»، وأنا منهمك في عملي أجلس إلى طاولة مخلخلة. وكنا نرتاد السينما، ونذهب إلى سباقات الدراجات ومباريات الملاكمة. ولم يكن يستهويني لحمها المترهل البائت، إلا في حالات الاضطرار واليأس الشديدين. وكان للبقال قبالة بيتنا ابنة صغيرة جعل ظلّها يفقدني صوابي. لكن بمساعدة فاليريا، وجدت في نهاية المطاف، بعض المنافذ القانونية لمحنتي الرائعة. أما بالنسبة للطهي، فقد توقفت عن إعداد ذلك الحساء في البيت، وأصبحنا نتناول معظم وجبات طعامنا في مطعم مزدحم يقع في شارع بونابرت حيث كان غطاء الطاولة مبقعاً بالنبيذ، وحيث كنت تسمع الكثير من الثرثرة واللغو بلغة أجنبية. وفي البيت المجاور، كان تاجر لوحات فنية يعرض في واجهة محله المليئة بالأشياء المبعثرة لوحة أميركية قديمة مبهرجة رائعة، يغلب عليها اللون الأخضر والأحمر والذهبي الأزرق الداكن - قاطرة بمدخنة هائلة، ومصابيح باروكية عظيمة، وسياج ضخم لحظيرة أبقار، تجر عرباتها البنفسجية عبر البراري في ليلة عاصفة، ويمتزج الدخان الأسود المرصع بالشرارات بالغيوم الرعدية التي تشبه الفراء.

إلى أن حدث الانفجار. ففي صيف عام ١٩٣٩، مات عمي الذي كان يعيش في أميركا، وأورثني دخلاً سنوياً يبلغ بضعة آلاف من الدولارات شريطة أن أذهب وأعيش في الولايات المتحدة، وأن أتولى شؤون أعماله التجارية. وقد رحبت كثيراً بهذه الفرصة، لأنني كنت أشعر أنني بحاجة لإجراء تغيير في حياتي. وكان هناك شيء آخر أيضاً،

(*) أحد زعماء الثورة الفرنسية، طُعن حتى الموت في حمّام على يد شارلوت كورداي (١٧٤٣-١٧٩٣) - م.

Twitter: @ketab_n

وهو أن ثقوب العثّ قد بدأت تظهر في حياتنا الزوجية المريحة. ففي الأسابيع الأخيرة، بدأت ألاحظ أن تغييراً قد طرأ على سلوك عزيزتي فاليريا البدينة، وبدأ يساورها قلق غريب، حتى أنها بدأت تبدي أحياناً شيئاً من الغضب والحنق، وهو أمر ينافي تماماً الشخصية التي كانت تحاول تجسيدها. وعندما أعلمتها أننا سنبحر إلى نيويورك بعد فترة وجيزة، تملكتها الكآبة، وبدا عليها الارتباك والحيرة. وبرزت بعض الصعوبات في إصدار وثائقها. فقد كانت تحمل جواز سفر «نانسن»(*) الذي لم يستطع زوجها، لسبب ما، أن يمنحها بسهولة الجنسية السويسرية التي كان يحملها، وكان عليها أن تنتظر في رتل طويل أمام دار البلدية، وقد جعلتها الإجراءات الرسمية الأخرى نزقة للغاية، مع أنني كنت أصف لها بأناة أميركا، بأنها بلاد تعجّ بالأطفال ذوي الخدود الوردية، والأشجار الباسقة، حيث الحياة أفضل بكثير من الحياة في باريس القذرة المضجرة.

وفي صباح أحد الأيام، كنّا خارجين من مبنى أحد المكاتب الرسمية، وكانت أوراقها على وشك الانتهاء، عندما بدأت فاليريا، وهي تسير ببطء إلى جانبي، تهزّ رأسها الذي يشبه رأس كلب البودل بقوة ولا تنبس بكلمة. تركتها تسير قليلاً، ثم سألتها عما يدور في خلدها، فأجابت (هنا أترجم من فرنسيتها التي هي، كما يخيّل إليّ، ترجمة من لغتها السلافية المبتذلة)، «هناك رجل آخر في حياتي».

إن هذه العبارات شديدة البشاعة على أسماع الزوج، وأعترف بأنها أصابتني بدوار. ولم يكن ضربها في الشارع، كما قد يفعل أي شخص بلغاري مخلص في مثل هذه الحالة، أمراً مجدياً. فقد علّمتني السنوات

(*) جواز سفر نانسن هو الجواز الذي كان يمنح للمهاجرين في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى - م.

Twitter: @ketab_n

العديدة من الآلام السرّية القدرة على ضبط النفس إلى درجة تفوق طاقة البشر. لذلك دفعتها داخل سيارة أجرة كانت تسير ببطء بجانب الرصيف وكأنها تدعونا إليها منذ فترة، وعندما استقر بنا المقام داخل السيارة، طلبت منها بهدوء أن تعلّق على كلامها الهمجي. كان ثمة غضب متزايد يخنقني - لا لأنني كنت مغرماً بهذه الشخصية المضحكة، مدام همبرت، بل لأنّي أنا الذي من يحق له البتّ في الأمور القانونية وغير القانونية، وها هي فاليريا، الزوجة الكوميدية، قد بدأت تتهيأ بوقاحة للتلاعب بأسلوبها الخاص براحتي ومصيري. سألتها عن اسم عشيقها. كرّرت عليها سؤالي، لكنها واصلت ثرثرتها الهزلية، وراحت تتحدث عن حياتها التعيسة معي، وأبدت عزمها على الطلاق على الفور. «لكن من هو؟» صرختُ أخيراً، وضربتها بقبضتي على ركبتها، وحتى من دون أن يهتز لها جفن، حدّقت فيّ وكأن الرد كان بديهياً جداً وليس بحاجة إلى تفسير، ثمّ هزت كتفيها وأشارت إلى سائق التاكسي ذي الرقبة الغليظة، الذي توقف عند مقهى صغير وعرّفني على نفسه. لم أعد أذكر اسمه السخيف، لكنني بعد كل هذه السنوات لا أزال أراه بوضوح تام - روسي أبيض، كولونيل سابق، ممتلئ الجسم، ذو شاربين كثّين، وشعر قصير. وهناك آلاف منهم يعملون في هذه المهنة الحمقاء في باريس. جلسنا إلى طاولة، وطلب هذا الكولونيل القيصري قليلاً من النبيذ؛ وبعد أن وضعت فاليريا منديلاً رطباً على ركبتها، واصلت كلامها عني بدلاً من أن تتحدث إليّ، وراحت تصبّ كلماتها في هذا الإناء الوقور بثرثرة لم أعهدها فيها من قبل. وبين الحين والآخر، كانت تطلق سيلاً من العبارات السلافية إلى عشيقها البليد. لم يعد الوضع يطاق، بل ازداد هذرها عندما أوقف كولونيل التاكسي فاليريا بابتسامة استحواذية، وبدأ يكشف عن آرائه وخططه. وبلغة فرنسية حذرة تشوبها لهجة شنيعة، بدأ يحدّد عالم الحبّ، والعمل الذي يودّ أن يلجه يداً بيد مع زوجته -

Twitter: @ketab_n

الطفلة فاليريا، التي بدأت الآن تتزين، الجالسة بيني وبينه، والتي صبغت شفتيها المزمومتين بأحمر الشفاه، وقد ازداد حجم ذقنها ثلاثة أضعاف حتى كادت تصل إلى صدر بلوزتها وما إلى ذلك، وكان يتحدث عنها وكأنها غير موجودة، وكأنها كذلك قاصر يتم نقلها، لمصلحتها، من وليّ أمر حكيم إلى وليّ أمر أكثر حكمة وعقلانية. ومع أن شدّة غضبي البائسة قد تكون قد بالغت وشوّهت بعض الانطباعات، يمكنني أن أقسم بأنه استشارني حقاً في أشياء مثل أسلوب طعامها، وفترات حيضها، وثيابها، والكتب التي قرأتها أو التي يجب أن تقرأها. وقال: «أظن أنها ستكون مثل جين كريستوف؟»(*) يا إلهي إنه عالم حقاً، السيد تاكسوفيتش هذا.

وضعت حداً لهذه الثرثرة بتقديم اقتراح أن تحزم فاليريا على الفور أغراضها القليلة، التي عرض الكولونيل التافه نقلها بشهامة إلى السيارة. وعندما عاد لمزاولة مهنته، أوصل السيد والسيدة همبرت إلى مسكنهما، ولم تتوقف فاليريا عن الكلام طول الطريق، ودار جدال بين همبرت الفظيع وهمبرت اللطيف، عما إذا كان يتعين على همبرت همبرت أن يقتلها أو يقتل عشيقها، أو يقتلهما كليهما، أو لا يقتل أحداً منهما. وأذكر الآن أنني كنت أعبث بمسدس آلي كان لطالب زميل لي، في تلك الأيام (لم أتحدث عنه، كما أظن، لكن هذا لا يهم) عندما كانت تجول في رأسي فكرة التمتّع بأخته الصغيرة، أشدّ الحوريات شفافية، التي كانت تضع قوساً أسود يمسك شعرها. وتساءلت هل حقاً تستحق فاليتشكا (كما كان يناديها الكولونيل) أن أقتلها رمياً بالرصاص، أم خنقاً، أم غرقاً. كانت ساقاها هزيلتين كثيراً، فقرّرت أن أكتفي بأن

(*) رواية بانورامية تصور المجتمع الفرنسي تتألف من عشرة مجلدات للكاتب الفرنسي رومان رولان - م.

Twitter: @ketab_n

أضربها ضرباً مبرحاً على ساقيها عندما نعود إلى البيت ونخلو معاً.

لكن لم تتح لنا مثل هذه الخلوة. فقد بدأت فاليتشكا - التي ذرفت سيولاً من الدموع ولوّثت وجنتيها بألوان زينتها العديدة - تملأ صندوقاً وحقيبتين، وعلبة كرتون كادت تنفجر من شدة امتلائها، وبالطبع أصبح تنفيذ الفكرة التي خطرت لي بأن أنتعل حذائي الجبلي الطويل وأركلها في عجيزتها، مستحيلاً، لأن الكولونيل اللعين لم يفارقنا طوال الوقت. ولا يمكنني أن أقول إنه كان يتصرّف بوقاحة أو أيّ شيء من هذا القبيل، بل على العكس، كان يبدي، كعرض مسرحي جانبي تافه، كنت قد استُدرجت إليه، لطفاً رصيناً ينتمي إلى العالم القديم، وتخللت حركاته كلّ أنواع الاعتذارات التي كان يلفظها على نحو خاطئ مثل (j'ai demande pardonne - أعذرني - est ce que j'ai puis - هل لي أن - وما إلى ذلك)، واستدار بلباقة عندما أنزلت فاليتشكا كيلوتها الوردي من على حبل الغسيل الممتد فوق حوض الحمّام، لكنه كان يبدو أنه يظهر في جميع الأماكن في جميع الأوقات، هذا الوغد، معدِّلاً جسمه وفق وضعية الشقّة، إذ كان يجلس على كرسيّ ويقرأ في صحيفتي، ويحلّ خيطاً معقوداً، ويلفّ سيجارة، ويحصي ملاعق الشاي، ويدخل إلى الحمّام، ويساعد عاهرته في حزم المروحة الكهربائية التي كان أبوها قد قدمها لها هدية، ثم حمل أمتعتها إلى الشارع. جلست عاقداً ذراعيّ، مسنداً أحد ردفيّ إلى عتبة النافذة، وأنا أتحرّق كراهية وضجراً. وأخيراً، خرج كلاهما من الشقّة المرتعشة - فقد كانت ارتعاشة الباب الذي صفقاه بقوة وراءهما لا تزال ترنّ في كلّ عصب من أعصابي، وقد اعتبرتها بديلاً سيئاً للصفعة التي كنت أزمع صفعها بقفا يدي على خدّها كما يحدث في الأفلام السينمائية. ولكي أقوم بدوري على نحو أخرق، خطوت إلى الحمّام لأتأكد هل أخذا زجاجة الكولونيا الإنكليزية التي كنت أستعملها، لكني وجدتها في

Twitter: @ketab_n

مكانها، إلا أنني لاحظت بتشنّج واشمئزاز شديدين، أن المستشار السابق للقيصر، بعد أن أفرغ مثانته تماماً، لم ينظّف المرحاض. وقد أثارت حنقي هذه البركة الجليلة من البول التي خلّفها هذا الرجل الغريب وراءه، والتي كان يسبح فيها عقب سيجارة بنية مصفرّة مشبعة بالبول الذي تحلل فيها، لأنني اعتبرتها تتويجاً للإهانات التي وجهها إليّ، فرحت أفتش عن المسدس. وفي الحقيقة، يمكنني القول إن الشيء الوحيد الذي دفع الكولونيل الطيب (ماكسيموفيتش! لقد عاد اسمه فجأة إلى ذاكرتي) لفعل ذلك هو مجاملة شخص من الطبقة الروسية المتوسطة (ربما بنكهة شرقية) كما هم جميعاً، بإفراغ مثانته بصمت محتشم لكي لا يؤكّد على صغر مسكن مضيفه بدفق شلال كبير من الماء فوق قطرات بوله الصامتة. لكن ذلك لم يخطر لي في تلك اللحظة، بل رحت أبحث وأنا ألهث غضباً في المطبخ عن شيء أفضل من مكنسة. ثمّ توقفت عن البحث، وخرجت مسرعاً من البيت بعد أن اتخذت القرار البطولي بتوجيه لكمة له بقبضتي العارية. وعلى الرغم من قوتي الجسدية، لم أكن ملاكماً محترفاً، أما ماكسيموفيتش القصير العريض المنكبين، فكان يبدو مصنوعاً من الحديد المصبوب. إن خواء الشارع الذي لم يكشف شيئاً يثبت مغادرة زوجتي غير زرّ من حجر الراين كان قد سقط في الوحل بعد أن احتفظت به طوال ثلاث سنوات بلا فائدة في صندوق مكسور، ربما هو الذي أنقذني من أن يسيل الدم من أنفي. لكن ذلك لا يهم. فقد انتقمت منهما في الوقت المناسب. ففي ذات يوم، أخبرني رجل من باسادينا أن السيدة ماكسيموفيتش، وكنيتها الأصلية زبوروفسكي، ماتت أثناء الولادة في عام ١٩٤٥؛ وكان الزوجان قد ذهبا بطريقة ما إلى كاليفورنيا، وشاركا طوال تلك السنة في اختبار كان يجريه متخصص أمريكي بارز في علم الأجناس، وكانا يتقاضيان لقاء ذلك مبلغاً جيداً. وكانت التجربة التي يشاركان فيها

Twitter: @ketab_n

تدرس ردود الفعل الإنسانية والعرقية إزاء حمية خاصة تتألف من الموز والتمر يتناولها المرء وهو جاث على يديه وركبتيه طوال فترة الاختبار. وأقسم الشخص الذي نقل لي الخبر، وهو طبيب، بأنه رأى بأمّ عينه فاليتشكا البدينة وعشيقها الكولونيل، الذي ابيضّ شعره آنذاك، وأصبح بديناً أيضاً، وهما يزحفان بجدّية فوق الأرضية النظيفة في عدد من الغرف المضاءة جيداً (فواكه في غرفة، وماء في غرفة أخرى، وحصر في غرفة ثالثة، وما إلى ذلك) يرافقهما في ذلك عدد من الأشخاص يحبون على أربع وقد اختيروا من فئات فقيرة معدمة. وحاولت أن أعثر على نتائج هذه الاختبارات في «مجلة علم الأجناس البشرية»، لكن يبدو أنها لم تنشر بعد. لأن ظهور مثل هذه النتائج العلمية يستغرق فترة من الزمن. وعندما تُنشر أرجو أن تكون مرفقة بالصور، مع أنه ليس من المحتمل أن تضم مكتبة السجن مثل هذه الدراسات. أما الدراسة التي أقرأها هذه الأيام، وبالرغم من الأفضال التي قدمها لي محاميّ، فما هي إلا مثال جيد على الانتقائية الفارغة التي تحكم اختيار الكتب في مكتبات السجون. فلديهم مثلاً الكتاب المقدس، وديكنز (مجموعة قديمة، نيويورك، الناشر ديلنغهام)، وموسوعة للأطفال (فيها عدد من الصور اللطيفة لفتيات من الكشافة يتناثر شعرهن تحت أشعة الشمس وهن مرتديات سراويل قصيرة) و «جريمة قتل معلنة» لأغاثا كريستي؛ لكن لديهم أيضاً كتب تافهة مثل «متشرّد في إيطاليا» بقلم بيرسي إلفينستون، مؤلف «زيارة ثانية إلى فينيسيا»، بوسطن، ١٨٦٨، والكتاب الحديث نسبياً (١٩٤٦) «من هم تحت الأضواء» - ممثلون، منتجون، كتّاب مسرحيون، وصور لمشاهد ساكنة. ولدى تصفح المجلد الأخير، اطلعت ليلة البارحة على واحدة من تلك الصدف الرائعة التي يمقتها المنطقيون ويحبّها الشعراء. وها أنذا أنسخ معظم ما جاء في الصفحة:

رولان بيم، ولد في لاندي (ماساشوساتس)، عام ١٩٢١. درس

Twitter: @ketab_n

التمثيل في مسرح إلسينور في دربي (نيويورك). كان أول عرض له مسرحية «إشراقة الشمس». ومن بين العروض العديدة التي قدمها: «على بُعد شارعين»، و«الفتاة ذات الرداء الأخضر»، و«الأزواج المتدافعون»، و«الفطر الغريب»، و«المس واذهب» و«جون لافلي»، و«كنت أحلم بك» وما إلى هنالك...

كلير كلتي، مؤلف مسرحي أمريكي. ولد في أوشن ستي، ولاية نيوجرسي، عام ١٩١١. درس في جامعة كولومبيا. بدأ عمله بالتجارة ثم انتقل إلى كتابة المسرحيات. ومن مؤلفاته: «الحورية الصغيرة»، و«السيدة التي أحبّت البرق» (بالتعاون مع فيفيان دارك بلووم)، و«عصر الظلام»، و«الفطر الغريب»، و«الحبّ الأبوي»، وما إلى ذلك. ومسرحياته التي كتبها للأطفال رائعة وهي: «الحورية الصغيرة» (١٩٤٠) وقطعت مسافة تزيد على ١٤ ألف ميل، ومثلت ٢٨٠ مرة في الريف أثناء الشتاء قبل أن يحطّ بها المقام في نهاية الأمر في نيويورك. هواياته: قيادة السيارات السريعة، التصوير، تربية الحيوانات الأليفة.

دولوريس كين. ولدت في عام ١٨٨٢ في دايتون (أوهايو). درست المسرح في الأكاديمية الأميركية. مثّلت لأول مرة في أوتاوا في عام ١٩٠٠. ومثّلت في نيويورك لأول مرة في عام ١٩٠٤ في مسرحية «لا تتحدثي إلى غرباء». وقد اختفت منذ (تليها قائمة تضم قرابة ثلاثين مسرحية).

ولا تزال رؤية اسم حبيبتي، حتى لو كان ملصقاً باسم ممثلة عجوز شمطاء تمضني بألم لا يطاق. فلعلها أصبحت هي أيضاً ممثلة. فقد ظهرت (لاحظت زلة قلمي في الفقرة السابقة، لكني أرجوكم لا تصححوها، كلارنس) في مسرحية «الكاتب المسرحي المقتول». كوين الخنزير. المتهم بقتل كويلتي. حبيبتي لوليتا، لا يوجد لديّ ما أعبث به سوى الكلمات!

Twitter: @ketab_n

٩

أخّرت إجراءات الطلاق رحلتي البحرية، وخيّمت ظلال حرب عالمية أخرى على الكرة الأرضية عندما وصلت إلى أميركا أخيراً، بعد فصل شتاء تخلله الكثير من الملل، أصبت خلاله بالتهاب رئوي عندما كنت في البرتغال. وفي نيويورك، قبلت بلهفة شديدة الوظيفة المصيرية السهلة التي عرضت عليّ، التي تنحصر بشكل رئيسي في استنباط إعلانات للعطور وتحريرها. وقد رحّبت بطبيعة هذا العمل غير المنهجي وخصائصه شبه الأدبية، وانكببت عليه لعدم وجود عمل أفضل.

ومن الناحية الأخرى، شجعتني إحدى الجامعات في نيويورك على إكمال كتابي في التاريخ المقارن في الأدب الفرنسي للطلاب الناطقين باللغة الإنكليزية. واستغرقت كتابة المجلد الأول مني سنتين كنت أعمل خلالهما أكثر من خمس عشرة ساعة يومياً. وعندما أتذكّر تلك الأيام، فإني أراها مقسّمة بترتيب جميل إلى ضوء غامر وظلّ ضيّق: إذ يعود الضوء إلى عزاء البحث في المكتبات العامة الفخمة، أما الظلّ فيعود إلى رغباتي المبرّحة والأرق الممضّ وهو ما تتحدث عنه بما يكفي. وبعد أن أصبح القارئ يعرفني الآن، يمكنه أن يتخيّل بسهولة الحرارة التي تغمرني والغبار الذي يكسوني، وأنا أحاول أن أختلس النظر إلى الحوريات (للأسف، كنّ دائماً بعيدات) اللاتي كنّ يلعبن في حديقة سنترال بارك، وكم كان يصدّني ألق الفتيات العاملات اللاتي تفوح منهن رائحة كريهة وكلب يثب بمرح في أحد المكاتب لا يني يقترب مني. لننس كلّ ذلك. فقد جعلني انهيار عصبي أمضي أكثر من سنة في أحد المصحات؛ ثم عدت إلى عملي - لأدخل المستشفى ثانية.

وتراءى لي أن الحياة في الهواء الطلق تعدُ بشيء من الراحة. وكان لأحد أطبائي المفضّلين، وهو شاب متهكم ساحر ذو لحية بنية قصيرة،

Twitter: @ketab_n

أخ، وكان هذا الأخ على وشك أن يقود بعثة إلى المنطقة القطبية في كندا، فانضممت إليها وأوكلت إليّ مهمة تسجيل ردود الفعل النفسية. وكنت أتقاسم أحياناً مع عالمي نبات شابين ونجار عجوز، (لكن من دون إحراز نجاح كبير) عطف وأفضال اختصاصية في التغذية، وهي الدكتورة أنيتا جونسن - التي سرعان ما عادت بالطائرة، وقد أسعدني ذلك. ولم تكن لديّ فكرة جيدة عن الهدف الحقيقي للبعثة. وبوجود عدد من علماء الأرصاد الجوية في اللجنة، يمكنني أن أحكم أننا لعلنا كنا متجهين إلى هدفنا (في مكان ما في جزيرة أمير ويلز، كما فهمت) وهو القطب المغناطيسي الشمالي. وأقامت إحدى الفرق، بالاشتراك مع الكنديين، محطة أرصاد جوية في نقطة بيير عند ميلفيل ساوند. وقام فريق آخر بجمع العوالق، وقام فريق ثالث بدراسة مرض السل في السهل الأجرد. وقال بيرت، مصور الفيلم - وهو شخص غير واثق من نفسه، شاركته ذات مرة في القيام بأعمال وضيعة (كان هو أيضاً يعاني من بعض المشاكل النفسية) إن الرجال الكبار في فريقنا، المسؤولين الحقيقيين الذين لم نرهم قط، منهمكون في تدقيق تأثير التحسن المناخي على فراء الثعلب القطبي.

وكنا نقيم في مقصورات خشبية مسبقة الصنع في وسط عالم من الغرانيت يعود إلى ما قبل العهد الكامبري. وكانت لدينا أكوام من المواد والتجهيزات - مجلة ريدرز دايجست، وآلة لخلط الآيس كريم، ومطهّرات كيميائية، وقبعات ورقية لعيد الميلاد. وقد تحسّنت صحتي كثيراً بالرغم من السأم والمساحة الشاسعة البيضاء الممتدة، محاطاً بهذا الغطاء النباتي الكئيب مثل أشجار الصفصاف القصيرة والطحالب، وخيّل إليّ أن عاصفة شديدة كانت تطهّرني، وأنا أجلس على صخرة تحت سماء شفافة تماماً (لا تُري شيئاً ذا أهمية)، وأحسست بأنني منعزل عن نفسي على نحو غريب. ولم تثرني أي إغراءات. إذ إن

Twitter: @ketab_n

فتيات الإسكيمو الصغيرات البرّاقات المكتنزات اللاتي تفوح منهن رائحة السمك، بشعرهن الأسود المصقول، ووجوههن القبيحة التي تشبه وجوه الخنازير التي يجرون عليها الاختبارات،لم يثرن فيّ الرغبة أكثر مما أثارته فيّ الدكتورة جونسن. فلا توجد حوريّات في المناطق القطبية.

وتركت مهمّة تحليل الانجراف الجليدي والتلال والعفاريت، وتلك السخافات لمن هم أعلم مني. ولفترة من الزمن، حاولت أن أدوّن ما كنت أظن عن طيب خاطر أنها «ردود أفعال» (لاحظت مثلاً أن الأحلام التي يراها المرء تحت شمس منتصف الليل تنحو لأن تكون زاهية الألوان، وهذا ما أكدّه لي صديقي المصور). وكان من المفترض أيضاً أن أسأل رفاقي العديدين عن عدد من الأمور الهامة، مثل الحنين، والخوف من الحيوانات غير المعروفة، وتهويمات الطعام، والاشعاعات الليلية، والهوايات، واختيار البرامج الإذاعية، والتغيّرات التي تطرأ على المشهد العام، وما إلى ذلك. وسرعان ما اعترى الجميع شعور بالاستياء من هذه الأسئلة فتخليت عن المشروع برمته؛ وبعد الأشهر العشرين من العمل في هذه الأجواء الباردة (كما قال أحد علماء النبات مازحاً) لفقت تقريراً مزيفاً مفعماً بالحيوية سيجده القارئ منشوراً في مجلة «حوليات علم النفس الجسدي» في عام ١٩٤٥ أو ١٩٤٦، وكذلك في مجلة «رحلات الاستكشاف القطبية» المخصصة لهذه البعثة بالذات، التي لم تكن، بالنتيجة، تهتم حقاً بالنحاس أو بأيّ شيء من هذا القبيل في جزيرة فيكتوريا، كما علمت لاحقاً من صديقي الطبيب اللطيف، وأن طبيعة هدفها الحقيقي كانت «سرية» لذلك دعوني أضيف أنه مهما كان هدفها، فقد تحقق ذلك الهدف على نحو يثير الإعجاب.

وسيشعر القارئ بالأسف عندما يعرف أنني بعد عودتي بفترة وجيزة إلى ربوع الحضارة انتابتني نوبة جنون أخرى (إذا كان يتعيّن هنا تطبيق

Twitter: @ketab_n

تعبير المانخوليا السوداء والإحساس بالظلم الذي لا يطاق). وإني أدين بشفائي التام للاكتشاف الذي توصلت إليه عندما كنت أخضع للعلاج في تلك المصحّة الباهظة التكاليف. فقد اكتشفت أن هناك مصدراً لانهائياً من المتعة في العبث والتلاعب بالأطباء النفسانيين: مثل أن تستدرجهم بمكر، ولا تمكنهم من رؤية أنك تعرف كلّ خدع المهنة وحيلها؛ وتلفّق لهم أحلاماً مسهبة محكمة، أسلوبها كلاسيكي تماماً (تجعل هؤلاء الحالمين يحلمون ويستيقظون وهم يصرخون)، وتثيرهم وتستفزهم «بمشاهد بدائية» مزيّفة، ولا تمكنهم من معرفة أيّ شيء يتعلق بعلاقاتك الجنسية الحقيقية. وبعد أن رشوت الممرضة جاءتني ببعض الملفات المتعلقة بي، ورأيت، بمتعة شديدة، الملاحظات التي كتبت عني والتي تقول إنني «قد أكون مثليّاً» و«عنين بالكامل». وكانت الرياضة ممتازة، ونتائجها - في حالتي - باهرة، لذلك قررت أن أمكث في المصحة شهراً كاملاً آخر بعد تماثلي للشفاء (فقد كنت أنام نوماً عميقاً وآكل بشهية مثل تلميذ مدرسة). ثم أضفت أسبوعاً آخر، لأرى بمتعة، قادماً جديداً قوياً، مشرداً، مشهوراً (ومصاباً باضطراب عقلي بالتأكيد)، يُعرف بموهبته في إقناع المرضى بأنهم شاهدوا أنفسهم وهم يولدون بأمّ أعينهم.

١٠

عندما غادرت المصحة، بدأت أبحث عن مكان في ريف نيو إنغلند أو في بلدة صغيرة حالمة (فيها أشجار الدردار، وكنيسة بيضاء) يمكنني أن أمضي فيه فترة الصيف وأعمل بجدّ وأنا أقتات على صندوق مليء بالأوراق التي كنت قد جمعتها، وأسبح في بحيرة قريبة. وبدأ عملي يثير اهتمامي من جديد - أقصد جهودي الدراسية، أما أعمال

Twitter: @ketab_n

عمّي في مجال العطورات، فقد بدأت تتراجع وتضمحل بعد وفاته.

وكان أحد الموظفين السابقين لديه، وهو سليل عائلة بارزة، قد اقترح عليّ أن أمضي بضعة أشهر في مسكن يملكه أبناء عمه الفقراء، في بيت السيد ماكو، المتقاعد، وزوجته، اللذين كانا يرغبان في تأجير الطابق العلوي من بيتهما حيث كانت تقيم عمّة لهما قبل وفاتها. وقال إن لديهما ابنتين صغيرتين، طفلة رضيعة، والأخرى فتاة في ربيعها الثاني عشر، وللبيت حديقة جميلة، وهو يقع بالقرب من بحيرة جميلة، فقلت إن ذلك يبدو أمراً رائعاً.

تبادلت الرسائل مع هذين الشخصين، اللذين سعدا عندما عرفا أنني أحبّ الحياة المنزلية. وأمضيت ليلة رائعة في القطار، متخيّلاً جميع التفاصيل المحتملة لتلك الحورية الغامضة التي كان عليّ أن أعلّمها اللغة الفرنسية وألاطفها على طريقة همبرت. لم يقابلني أحد في المحطة الصغيرة التي نزلت فيها حاملاً حقيبتي الجديدة الغالية الثمن، ولم يجب أحد على الهاتف. لكن السيد ماكو ظهر أخيراً، مضطرباً مبلل الثياب، في الفندق الوحيد الموجود في رامسدال المجلل باللونين الأخضر والوردي؛ وأخبرني أن بيته قد التهمته النيران - ربما بسبب الحريق الذي كان يضطرم في عروقي طوال الليل. وقال إن أسرته هربت إلى مزرعة يمتلكها، وأخذت معها السيارة، لكن إحدى صديقات زوجته، وهي امرأة عجوز، تدعى السيدة هايز وتقيم في المنزل ٣٤٢ في شارع لوون ستريت، قالت إن بإمكاني الإقامة في منزلها. وقال إن السيدة صاحبة البيت الذي يقع قبالة منزل السيدة هايز قد أعارته سيارتها الليموزين، وهي سيارة قديمة رائعة ذات أطراف مربعة، يقودها سائق زنجي جذل. الآن، وبعد انتفاء السبب الوحيد لقدومي، غدت الترتيبات المذكورة سخيفة. حسناً، يتعين عليه أن يعيد بناء بيته بالكامل، وماذا في ذلك؟ ألم يؤمّن عليه بمبلغ كاف؟ تملكني

Twitter: @ketab_n

الغضب، واعتراني إحساس بخيبة الأمل والملل، ولمّا كنت شخصاً أوروبياً مهذباً، لم أرفض عرض توصيلي إلى شارع لوون ستريت بتلك السيارة الجنائزية، وانتابني شعور بأن ماكو سيبتكر وسيلة أكثر إتقاناً ليتخلّص مني. فقد رأيته يبتعد مسرعاً، وهزّ سائقي رأسه وضحك ضحكة خافتة رقيقة. وفي الطريق، أقسمت بأنني لا أحلم بالبقاء في رامسدال مهما كانت الظروف، بل قررت أن أسافر بالطائرة في اليوم نفسه إلى جزر برمودا أو جزر البهاما. فقد كانت الرغبة في رؤية الشواطئ الجميلة المتعددة تجري في عروقي منذ فترة من الزمن؛ وفي الواقع، تمكّن ابن عم ماكو من تحويل مسار سلسلة تلك الأفكار بحدّة بسبب اقتراحه الذي أبداه بحسن نيّة، لكن تبين لي الآن، أنه كان اقتراحاً تافهاً تماماً.

وبمناسبة الحديث عن الانعطافات الحادّة: فقد كدنا ندهس كلباً متطفّلاً من كلاب الضواحي (واحداً من تلك الكلاب التي تكمن للسيارات وتجري خلفها) عندما انعطفنا إلى شارع لوون ستريت. وعلى مسافة ليست ببعيدة كان يقبع منزل هايز، وهو منزل مطلي بطلاء أبيض يشبه بيوت الرعب؛ وكان منزلاً قديماً وسخاً، يميل لونه إلى الرمادي أكثر منه إلى الأبيض - وكان من تلك البيوت التي يمكنك أن تعرف على الفور أن أنبوباً مطاطياً قد ثُبِّت على حنفية الحوض لاستخدامه بدلاً من الدوش. نفحتُ السائق إكرامية، ورجوته أن يبتعد في الحال كي أعود أدراجي إلى الفندق حاملاً حقيبتي من دون أن يراني أحد، لكن الرجل عبر إلى الجانب الآخر من الشارع عندما نادته سيدة مسنّة من شرفتها. ماذا بوسعي أن أفعل؟ ضغطت زرّ الجرس.

أدخلتني خادمة ملوّنة - وتركتني واقفاً على الحصيرة وعادت مسرعة إلى المطبخ حيث كان شيء يحترق، كان يجب ألاّ يحترق.

كانت الردهة الأمامية مزيّنة بأجراس، وكان ينتصب تمثال خشبي

Twitter: @ketab_n

تجاري من أصل مكسيكي ذو عينين لونهما أبيض، وصورة منسوخة من لوحة فان غوخ «لار ليزين» التافهة، العزيزة على قلوب جميع المتطفلين على الفن من أبناء الطبقة المتوسطة. وقد أتاح لي الباب الموارب الذي يقع إلى اليمين إمكانية إلقاء نظرة على غرفة الجلوس، حيث رأيت المزيد من النفايات المكسيكية المركونة فوق خزانة تقبع في الزاوية، وأريكة مكسوة بقماش مخطّط تمتد على طول الحائط. وفي طرف المدخل، كان يوجد درج. وبينما وقفت أجفف جبهتي (إذ أدركت الآن فقط ارتفاع درجة الحرارة في الخارج) وأنا أحدّق، أحدّق في شيء، في كرة تنس رمادية قديمة مركونة فوق صندوق مصنوع من خشب البلوط، تناهى إليّ من الطابق العلوي صوت السيدة هايز الرنان، وكانت متكئة على الدرابزين، وسألت بصوت رخيم: «هل هذا هو السيد همبرت؟» وسقط بعض رماد سيجارتها. وما هي إلا لحظات، حتى هبطت السيدة نفسها - كانت تنتعل صندلاً، وترتدي بنطالاً أحمر داكناً، وبلوزة حريرية صفراء، وكان وجهها مربع الشكل، بهذا الترتيب - هبطت الدرجات، وكانت سبابتها لا تزال تنفض رماد سيجارتها.

ولإنهاء هذه المهمة، أحسب أنه من الأفضل أن أصفها لكم في الحال. فقد كانت السيدة المسكينة في منتصف الثلاثينات من العمر، وكان جبينها لامعاً، وحاجباها مزججين، وملامحها بسيطة، لكنها لم تكن تخلو من الجاذبية، مثل تلك النسوة اللاتي يمكنك أن تشبههن قليلاً بمارلين ديتريتش. وقادتني إلى الردهة وهي لم تكفّ عن تمسيد شعرها البني البرونزي الذي عقصته في شكل كعكة، وتحدّثنا قليلاً عن الحريق الذي شبّ في بيت ماكو وعن مزايا العيش في رامسدال. وكانت لعينيها الواسعتين الخضراوين الملونتين بلون البحر طريقة مضحكة وهما ترمقانك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، لكنهما تتحاشيان بحرص شديد النظر في عينيك. وعندما تبتسم، كانت ترفع

Twitter: @ketab_n

أحد حاجبيها بطريقة ساخرة، وظلت تسير مبتعدة عن الأريكة وهي تتكلم، وبحركات متشنجة، ظلت تدفع بيدها ثلاث منافض سجائر، وحاجز المدفأة القريب منها (حيث كان يوجد فوقه لبّ تفاحة استحال بنياً)، ثم غاصت في الأريكة، وثنت إحدى ساقيها تحتها. وكانت كلماتها المشذبة تشي بأنها عضوة في أحد نوادي الكتب أو في أحد نوادي البريدج، أو أيّ ناد تقليدي مميت آخر، لكنها لم تكن تعكس روحها مطلقاً. ولم تكن من النساء اللاتي يتمتعن بروح مرحة على الإطلاق، أو من النساء اللاتي لا يبالين بالمواضيع العشرة أو نحو ذلك مما قد تكون مواضيع أحاديث الصالونات، لكنها كانت تبدي اهتماماً كبيراً بقواعد وأصول هذه الأحاديث التي يمكن من خلالها تمييز إحباطات لا تثير الشهية كثيراً. وأدركت تماماً أنه إذا أتيحت لي الفرصة لأنزل في بيتها، فلا بد أنها ستعاملني كما تعامل أي نزيل آخر، وبذلك أعلق، مرة أخرى، في شباك إحدى تلك العلاقات المضجرة والمرهقة التي أعرفها جيداً.

لم تكن مسألة بقائي في هذا البيت واردة على الإطلاق. فلن أكون سعيداً في هذا النوع من البيوت التي تتناثر في أرجائها مجلات موسّخة مهترئة، وذلك المزيج الفظيع الذي يجمع بين ملهاة ما يسمّى «بالأثاث الحديث العملي»، ومأساة الكراسي الهزازة المتداعية، والمناضد الصغيرة المتزعزعة التي توضع فوقها مصابيح محترقة. قادتني إلى الطابق العلوي، وإلى اليسار - قادتني إلى «غرفتي» التي تفحّصتها من خلال رفضي المطلق لها. لكنني لم أر فوق «سريري» لوحة رينه برينه «سوناتة كريوزير». وأطلقت على غرفة الخادمة تلك اسم «نصف استوديو». لنخرج من هنا في الحال، قلت لنفسي بحزم، متظاهراً بأنني أفكّر بمساومتها على خفض الإيجار، المنذر بشرّ مستطير، الذي طلبته مني مضيفتي الحزينة لقاء الإقامة والطعام.

Twitter: @ketab_n

إلا أن حسن اللباقة والتهذيب اللذين اكتسبتهما من العالم القديم أرغماني على مواصلة محنتي. عبرنا الممر إلى الجانب الأيمن من البيت (حيث تقبع غرفتنا أنا و «لو»، ومن المفترض أن «لو» هي الخادمة) ولم يكد النزيل العاشق يتمكن من إخفاء القشعريرة التي سرت في أوصاله، حتى رأى، لأول مرة، وهو الذكر الحساس الذي يصعب إرضاؤه، الحمّام الوحيد في البيت، وهو حمّام مستطيل صغير يقع بين الردهة وغرفة «لو»، فيه حبل يمتد فوق الحوض المريب، تتدلى منه خرق رطبة ناعمة (أتساءل هل في داخلها شعر)، وكانت تقبع هناك اللفافات المتوقّعة للأفعى المطاطية، التي كان يكمّلها - غطاء وردي مريح يغلّف غطاء المرحاض على نحو خجول.

«أحسب أن الغرفة لم تعجبك كثيراً»، قالت السيدة التي تركت يدها تسترخي للحظة فوق ذراعي: وندت عنها صراحة باردة - فيض مما أظن أنه يدعى «وقار» - وإحساس بالخجل والحزن جعل أسلوبها الساهم في اختيار كلماتها يبدو غير طبيعي مثل نبرة معلّمة تلقي«خطاباً». وواصلت العزيزة المحكوم عليها بالفشل بقولها: «أعترف أنه ليس بيتاً جميلاً، لكنّي أطمئنك [ونظرت إلى شفتيّ]، بأنك ستجد فيه راحة كبيرة، ستكون مرتاحاً حقاً. دعني أريك الحديقة» (قالت ذلك بطريقة أكثر إشراقاً، وبنبرة جذّابة في صوتها).

بتردّد تبعتها إلى الطابق السفلي، مرة أخرى، ثمّ، اجتزنا المطبخ الذي يقع في طرف الصالون، على الجانب الأيمن من البيت - الجانب الذي توجد فيه أيضاً غرفة الطعام وصالة الاستقبال (لم يكن هناك شيء تحت «غرفتي» في الجانب الأيسر، سوى مرآب). وفي المطبخ، قالت الخادمة الزنجية، وهي صبيّة مكتنزة الجسم، بعد أن انتزعت محفظتها السوداء الكبيرة البرّاقة من مقبض الباب المفضي إلى الشرفة الخلفية: «إني ذاهبة يا سيدة هايز». «نعم يا لويز»، أجابت

Twitter: @ketab_n

السيدة هايز وأطلقت تنهيدة: «سأسدد لكِ حسابك يوم الجمعة». ثم انتقلنا إلى حجرة مؤن صغيرة، ودلفنا إلى غرفة الطعام الموازية لصالة الاستقبال التي عبّرت للتو عن إعجابي بها. رأيت جورباً أبيض ملقى على الأرض. أطلقت السيدة هايز زفرة استهجان وانحنت من دون أن تتوقف عن السير، والتقطته وألقت به في خزانة تقع بجانب غرفة المؤن.

ولمحت منضدة مصنوعة من خشب المهاغني ينتصب في وسطها إناء فواكه لا يوجد فيه إلا نواة خوخ واحدة تلمع. رحت أفتش في جيبي عن جدول المواعيد، وأخرجته خلسة لأعرف أقرب موعد للقطار. كنت لا أزال أسير وراء السيدة هايز عبر غرفة الطعام، عندما انبعث في الخلف فيض مفاجئ من الخضرة - «الباحة»، قالت السيدة التي تقودني مغردة. وبغتة، ومن دون أي مقدمات، تدفقت موجة قوية زرقاء تحت قلبي، فقد رأيت حبيبتي «في الريفييرا» جاثية فوق حصيرة، شبه عارية، في بقعة تغمرها الشمس، ثمّ استدارت على ركبتيها، ورمقتني من وراء نظارة سوداء تحجب بها عينيها.

كانت الطفلة نفسها - نفس الكتفين الرقيقين العسليين، وذات الظهر العاري الحريري اللدن، ونفس الرأس بفروة شعره الكستنائي. وكانت تعقد منديلاً أسود منقّطاً من قماش البولكا حول صدرها يستره عن عيني القرد العجوز، الذي هو أنا، لكنه لم يخفه عن نظرة ذاكرة شابة: نهدان فتيان ناهضان كنت قد داعبتهما ذات يوم سرمدي. وكما لو كنت مربيّة أميرة صغيرة في إحدى قصص الجنيّات (فُقدت، وخُطفت، ثم عُثر عليها ملفوفة في حزمة من الخرق الغجرية، راح عريها يبتسم للملك وكلاب الصيد التي ترافقه من خلال هذه الخرق)، وتعرّفت على الشامة البنيّة الغامقة المتناهية في الصغر القابعة على خاصرتها.

وبوجل وبهجة (الملك يصيح بهجة، الأبواق تدوّي، المربيّة سكرى) رأيت مرة أخرى بطنها المستوية المشدودة الجميلة حيث كان فمي المتجّه جنوباً قد توقّف لبرهة، والوركان الغلاميان اللذان كنت قد طبعت قبلاتي فوق الأثر المحزّز الذي خلّفه فيهما سروالها القصير - في ذلك اليوم الأخير الخالد المجنون وراء «صخرة الورود». تذكرت السنوات الخمس والعشرين التي عشتها آنذاك، والتي استدقّ طرفها حتى وصلت إلى نقطة مثيرة، ثم تلاشت.

ووجدت أن إظهار ذلك الوميض، تلك الرعشة، ذلك التأثير من الإدراك العاطفي، بقوة كافية، أمر في غاية الصعوبة. وخلال اللحظة التي كانت تغمرها الشمس عندما تسللت نظراتي إلى تلك الغلامة الجاثية (عيناها ترمشان من فوق تلك النظارات الغامقة المتجهّمة - السيدة الطبيبة الصغيرة التي ستشفيني من جميع أوجاعي) عندما مررت من جانبها متنكراً في هيئة رجل بالغ (فتى ضخم، كبير، أنيق يملك رجولة فتى الشاشة)، استطاع فراغ روحي أن يتمعّن في كلّ تفصيل من تفاصيل جمالها المتألق، لمقارنتها بقسمات عروسي الراحلة. وبعد قليل، بالطبع، ستحل هذه الغلامة الجديدة، لوليتا، لوليتاي، محل عروستي المرحومة. وكلّ ما أريد أن أؤكد عليه هو أن اكتشافي لها كان نتيجة قاتلة «لتلك الإمارة القريبة من البحر» في ماضيّ المعذّب. وكان كلّ ما هو بين الحدثين عبارة عن سلسلة من التجربة والخطأ، وأساسيات البهجة الزائفة؛ فكلّ شيء كانتا تتشابهان فيه، كان يجعلهما تتماهيان في فتاة واحدة.

لكنني لا أحمل أوهاماً. وسيعتبر القضاة أن كلّ ذلك ما هو إلا فصل من فصول مسرحية صامتة يؤديها رجل مجنون يهفو قلبه إلى الفاكهة الفجّة، التي لم تنضج بعد. لكن كلّ ذلك لا يهمني. وكلّ ما أعرفه هو أننا عندما هبطنا، أنا والسيدة هايز، الدرج إلى الحديقة،

Twitter: @ketab_n

منقطعي الأنفاس، كانت ركبتاي وكأنهما تعكسان ركبتين تغمرهما مياه صافية رقراقة، وكانت شفتاي مثل الرمل، راحتا ترددان - «هذه هي حبيبتي لو، وها هي زنابقي».

ورحت أردد قائلاً: نعم، نعم. إنها جميلة، جميلة، جميلة.

١١

إن المستند رقم اثنين هو مفكّرة جيب يغلّفها جلد اصطناعي أسود، كُتب عليها بشكل متدرج في زاويتها العليا إلى اليسار بخط ذهبي «عام ١٩٤٧». إني أتحدّث هنا عن هذه المفكّرة اللطيفة التي تصنعها شركة بلانك بلانك، في بلانكتون، ماساتشوستس، كما لو كانت تقبع أمامي الآن. وفي الواقع، كانت قد أتلفت قبل خمس سنوات، وإن ما نقرأه الآن (بفضل ذاكرة فوتوغرافية) ليس إلا تجسيداً قصيراً، عنقاء ضئيلة، غير مكتملة.

أتذكّر هذا الأمر بدقة شديدة لأنني أعدت كتابتها مرّتين. ففي المرة الأولى، كنت أدوّن جميع الملاحظات بقلم رصاص (أمحي وأصحح مرات عديدة) على صفحات تُعرف تجارياً «بورق الآلة الكاتبة»، ثمّ، أنسخها بتدوين مختصرات واضحة شيطانية، بخطّ صغير جداً، في الدفتر الصغير الأسود الذي ذكرته للتو.

إن ٣٠ أيار (مايو) هو يوم صوم في نيوهامشير لكن ليس في كارولناس. وفي ذلك اليوم، أدى انتشار وباء «الإنفلونزا المعوية» (أيّاً كان اسمها الحقيقي) إلى إغلاق المدارس في رامسدال في فصل الصيف. وبإمكان القارئ الرجوع إلى مجلة رامسدال لعام ١٩٤٧ للتدقيق في صحة البيانات المتعلقة بالطقس آنذاك. وكنت قد انتقلت إلى بيت السيدة هايز قبل ذلك ببضعة أيام، وتغطي المفكّرة الصغيرة

Twitter: @ketab_n

التي أعرضها الآن (مثل جاسوس يحفظ عن ظهر قلب محتويات المذكرة التي ابتلعها) معظم شهر حزيران (يونيه).

الخميس. يوم دافئ جداً. من مكان ممتاز (نافذة الحمّام) رأيت دلوريس تأخذ أشياء من على حبل الغسيل في الضوء الأخضر التفاحي خلف المنزل. كانت تتهادى، مرتدية قميصاً موشى بنقوش ورسوم، وبنطلون جينز أزرق، وحذاءً رياضياً. كانت كلّ حركة تقوم بها تحت أشعة الشمس المرقّطة تشدّ أشدّ الحبال سرّية وحساسية في جسدي الحقير. وبعد قليل، جلست بجانبي على الدرجة السفلى للشرفة الخلفية، وبدأت تلتقط حصى من بين قدميها - حصى، يا إلهي، ثمّ قطعة زجاج لولبية مكسورة من قنينة حليب تشبه شفة مزمومة - وتلقي بها إلى علبة صغيرة. بينغ. لا يمكنك إصابتها مرة أخرى - لا يمكنك إصابتها - آه، يا للروعة: ناعمة سمّرتها الشمس، لا تشوبها شائبة. إن تناول المثلجات قد يؤدي إلى ظهور حبّ الشباب، وإن إفراز المادة الدهنية التي تدعى «الزهم» بإفراط والتي تغذّي مسامات الشعر الجلدية تهيّج الجلد فتسبب التهاباً. لكن حبّ الشباب لا يصيب الحوريّات رغم أنهن يتناولن الكثير من الأطعمة الدسمة. يا إلهي، يا لها من معاناة حقيقية، ذلك البريق الحريري في البقعة التي تعلو صدغها وصولاً إلى شعرها البني اللمّاع. وتلك العظمة الصغيرة التي تنتفض عند طرف كاحلها المترب. "فتاة ماكو؟ جيني ماكو؟ آه، إنها رعب حقيقي، حقيرة، عرجاء، كاد شلل الأطفال أن يقتلها. بينغ. ويمتد على ذراعها خط رفيع من الزغب الناعم. وعندما نهضت لإحضار الغسيل، أتيحت لي الفرصة للإعجاب من بعيد بمقعد بنطلونها الجينز الباهت اللون، الذي شمّرته حتى الساقين. ومن وراء العشب، ظهرت السيدة هايز المداهنة، وهي تحمل آلة تصوير، مثل شجرة خيالية يبعثها ناسك هندي تتجه عيناه إلى الشمس - عينان حزينتان تنظران إلى الأعلى،

Twitter: @ketab_n

عينان سعيدتان تنظران إلى الأسفل - وتلتقط لي صورة وأنا جالس على الدرجات استرق النظر، همبرت لو بيل.

الجمعة. رأيتها ذاهبة إلى مكان ما برفقة فتاة شديدة السمرة تدعى روز. لماذا تثيرني مشيتها هكذا - فهي لا تزال طفلة، انتبهوا، إنها مجرّد طفلة - إلى هذه الدرجة؟ حلّلوا الأمر. اقتراح واهٍ لأصابع قدمين مثنية إلى الداخل. شيء من الارتعاش الرخو أسفل الركبة يستطيل حتى نهاية كلّ قدم. شبح جرّ الساقين. إنها صبيانية إلى درجة كبيرة، مبهرجة إلى حدود لانهائية. وكان أسلوب هذه الفتاة الصغيرة في الكلام، بصوتها العالي النبرة، تثير همبرت همبرت. ثم سمعتها تطلق وابلاً من الهراء الفجّ على روز من وراء السياج. رنين يتردد في داخلي في إيقاع متصاعد. توقفي. «يجب أن أذهب الآن يا صغيرتي».

السبت. (لعل البداية قد عُدّلت). أعرف أنّ من الجنون مواصلة تدوين هذه اليوميات، إلا أن ذلك يمنحني إثارة غريبة. ولا يمكن لأحد أن يفكّ طلاسم مخطوطتي المدوّنة بأحرف مجهرية إلا زوجة محبّة. دعوني أقول لكم بشهقة أن لوليتاي كانت تأخذ اليوم حمّام شمس في «الباحة»، لكن أمّها ونساء أخريات كنّ يجلسن بالقرب منها. بالطبع، كان بإمكاني أن أجلس هناك على الكرسي الهزاز وأتظاهر بأنني أقرأ. لكن لكي أكون في مأمن، جلست بعيداً، لأنني كنت أخشى أن تمنعني الرعشة الفظيعة، المجنونة، السخيفة، المضحكة، التي شلّتني من أن أبدو عفوياً وطبيعياً.

الأحد. موجة الحرارة لا تزال مرتفعة. هبتّ ريح غربية طوال الأسبوع. هذه المرة اتخذت موقفاً استراتيجياً، فجلست على الكرسي الهزاز في «الباحة» أحمل صحيفة سميكة بيد، وغليوناً جديداً باليد الأخرى، قبل مجيء لوليتا. لكن إحساساً حاداً بالإحباط غمرني عندما جاءت مع أمّها، وهما ترتديان ثوب سباحة يتألف من قطعتين. كانتا

Twitter: @ketab_n

أسودين، جديدين تماماً مثل غليوني. وقفت عزيزتي، حبيبتي، لبرهة بالقرب مني - فقد أرادت أن تنظر إلى الرسوم فيها - تضوّع منها عبير يشبه عبير الفتاة الأخرى، فتاة الريفييرا، لكن عبيرها كان أشدّ، أكثر تميّزاً، مما أثار فحولتي في الحال - لكنها اختطفت الصفحة التي أعجبتها، وجرت بسرعة وعادت لتجلس بجانب أمّها الفقمة على الحصيرة. ثم انبطحت حسنائي هناك على بطنها، لتريني، وتري العيون الألف المفتوحة على وسعها في دم عيوني، عظام كتفيها المرفوعين قليلاً، والتورّد الممتد على طول انحناء عمودها الفقري، وامتلاء ردفيها اللذين يغلفهما المايوه الأسود، وملتقى فخذيها، فخذي التلميذة. ويصمت، راحت تلميذة الصف السابع تنظر بإمعان بمتعة عارمة إلى الرسوم الهزلية الزرقاء والخضراء والحمراء. كانت أجمل وأروع حورية ملوّنة بالأزرق والأحمر والأخضر يمكن أن تخطر «البرياب»(*). وبينما رحت أتطلع من خلال طبقات الضوء الموشوري، وقد جفّت شفتاي، مركّزاً شهوتي، وأنا أهزّ الكرسيّ قليلاً من وراء صحيفتي، أحسست أن رؤيتي لها، لو كانت مركّزة عليها تماماً، لبلغت ذروة السعادة. لكنني خطّطت، مثل حيوان مفترس يفضّل الانقضاض على فريسة متحركة لا على فريسة هامدة، أن يتزامن بلوغ هذا الهدف المثير للشفقة مع مختلف الحركات البناتية التي تصدر منها بين الحين والآخر، وهي مستغرقة في القراءة، مثل أن تحاول حكّ وسط ظهرها فيظهر إبطها الرائع - لكن السيدة هايز البدينة أفسدت عليّ كلّ شيء عندما التفتت إليّ فجأة وطلبت مني أن أشعل لها سيجارتها، وبدأت حديثاً سخيفاً عن كتاب تافه كتبه كاتب شعبي محتال.

(*) ابن ديونيسوس وأفروديت، إله الإنجاب والخصوبة في الحضارتين اليونانية والرومانية، وعادة ما يصور بأنّ لديه انتصاباً ضخماً - م.

Twitter: @ketab_n

الإثنين. الاستمتاع بأحزان الآخرين. أمضي أيامي الكئيبة حزيناً. كان من المقرر أن نذهب، نحن الثلاثة (أنا والأمّ هايز ودلوريس) إلى بحيرة «غلاس أوار» بعد ظهر اليوم، لنسبح ونتشمّس؛ لكن سماء الصباح الغائمة استحالت إلى أمطار عند الظهيرة، مما أثار ثائرة لوليتا.

تبين أن متوسط عمر بلوغ الفتيات في نيويورك وشيكاغو هو ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر. ويتباين البلوغ من فتاة إلى أخرى بحيث يتراوح بين العاشرة من العمر أو أقل، إلى السابعة عشرة. وكانت فرجينيا لم تكد تبلغ الرابعة عشرة عندما افترعها هاري إدغار الذي كان يعطيها دروساً في الجبر. يمكنني تخيّل أنهما أمضيا شهر عسلهما في بطرسبرغ بفلوريدا.

«سيد شا - شا. هكذا كان ذلك الفتى في أحد صفوف السيد همبرت همبرت في باريس يدعى الشاعر - شاعر.

إني أمتلك جميع الخصائص التي تبدأ، استناداً إلى الكتّاب الذين يكتبون عن اهتمامات الأطفال الجنسية، بالاستجابات التي تثير فتاة صغيرة: فكّان نظيفان جميلان، يدان مكسوتان بالعضلات، صوت عميق رنّان، كتفان عريضتان. وكما قيل لي مراراً، فقد كنت أشبه ممثلاً أو مغنياً شاباً تحبّه «لو» كثيراً.

الثلاثاء. مطر. بحيرة من الأمطار. خرجت الأمّ للتسوّق، وكنت أعرف أن «لو» تقبع في مكان قريب. بعد عدة مناورات قمت بها خلسة، صادفتها في غرفة نوم أمّها. كانت تفتح عينها اليسرى وتحاول إخراج قذى منها، أو نثرة غبار صغيرة. كانت ترتدي فستاناً تزيّنه مربعات. ومع أنني أحببت رائحة شعرها البني الذي كان يسكرني، فإني أظن أن عليها أن تغسل شعرها بين الحين والآخر. وللحظة، استحمّ كلانا في الحمّام الأخضر الدافئ ذاته الذي تعكس مرآته قمة شجرة حور في السماء. أمسكتها من كتفيها بقوة، ثمّ لمست صدغيها برقة، وأدرتها

Twitter: @ketab_n

نحوي. قالت: «إنها هنا. يمكنني أن أتحسسها». «الفلاحات السويسريات يستخدمن طرف لسانهن لإخراجها». «أألعقها لكي أخرجها؟» «نعم، هل أحاول؟» «بالتأكيد»، قالت. وبرقة ضغطت بطرف لساني المرتعش على طول مقلة عينها المالحة. «جيد - جيد»، قالت وهي ترمش بعينها. «لقد ذهبت». «الآن، الأخرى؟» وبدأت تقول: «أيها الغبي، لا يوجد شيء...» لكنها رأت شفتيّ المزمومتين تقتربان منها. «حسناً»، قالت مستسلمة. انحنى همبرت نحو وجهها الخمري الدافئ المقلوب، وضغط بفمه على جفنها المرتعش. ضحكت، وانسلّت مندفعة خارج الغرفة. وبدا أن قلبي قد غمر المكان كله في الحال. لم يحدث لي ذلك قط من قبل- حتى عندما كنت أداعب طفلتي الحبيبة في فرنسا - أبداً -في الليل. لم أصادف في حياتي معاناة كهذه. أريد أن أصف وجهها، أساليبها - لكنني لا أستطيع، لأن رغبتي فيها تعميني عندما تقترب مني. لم أعتد على أن أكون في وسط حوريّات، اللعنة. وإذا أغمضت عينيّ فإني لا أرى إلا جزءاً ساكناً منها، صورة سينمائية ثابتة، جمالاً رقيقاً مفاجئاً، كما يحدث عندما تجلس وتضع إحدى ركبتيها تحت تنورتها المقلّمة وتنهمك في عقد ربطة حذائها. «Dolores Haze, ne montrez pas vos zhambes» (دلوريس هايز، لا تكشفي عن ساقيك) (تقول أمّها التي تظن أنها تعرف الفرنسية).

شاعر في لحظات الصفاء. كتبت قصيدة عن رموشها الفاحمة، عن عينيها الساهمتين الرماديتين الشاحبتين، عن النمش المتناثر فوق أنفها المائل قليلاً، عن الزغب الأشقر الذي يكسو ذراعيها وساقيها السمر؛ لكنني مزّقتها ولا أتذكّر كلماتها اليوم. في أتفه الأحوال فقط (بعد أن استأنفت كتابة اليوميات) يمكنني وصف ملامح «لو»: إذ يمكنني القول إن لون شعرها كستنائي، وشفتيها حمراوان مثل قطعة حلوى حمراء

Twitter: @ketab_n

لعقها أحدهم، وشفتها السفلى ممتلئة على نحو جميل - لشدّ ما أتمنى أن أكون كاتباً لكي أجعلها تقف عارية تحت ضوء عار. لكنني لست سوى همبرت همبرت، الطويل القامة، النحيف، ذي العظام الكبيرة، والصدر الذي تكسوه طبقة من الصوف، والحاجبين الأسودين الكثّين، والذي ينطق الكلمات بلهجة غريبة، ويتوارى وراء ابتسامته الطفولية البطيئة فيض من الوحوش المتعفنة. أما هي فلم تكن تلك الطفلة الهشّة، موضوع رواية أنثوية. إن ما يجعلني أفقد صوابي هو الطبيعة الثنائية التي كانت تميّز تلك الحوريّة - بل ربما الحوريّات جميعهن. هذا المزيج في لوليتا الذي يجمع بين طفولة حالمة رقيقة وشيء من السوقيّة المخيفة، الناجم عن جمال الأنف الأفطس في صور الإعلانات والمجلات، ذات اللون الوردي الضبابي، التي تصوّر الخادمات المراهقات في بريطانيا (اللاتي تفوح منهن رائحة أزهار الأقحوان المهروسة والعرق)؛ ومن عاهرات صغيرات يتنكّرن في هيئة غلامات في مواخير الضواحي. ومرة أخرى، يمتزج كلّ ذلك بالرقة الرائعة التي لا تصدأ، والتي تنزّ عبر المسك والطين، من خلال التراب والموت، يا إلهي، يا إلهي. إن ما يميزها هو أنها، لوليتا هذه، لوليتاي، قد جعلت شبق الكاتب العجوز فردياً، لذلك لا يوجد هناك شيء البتة إلا - لوليتا.

الأربعاء. «انظر، اطلب من ماما أن تأخذنا، أنا وأنت، إلى بحيرة «غلاس أوار» غداً». هذا ما قالته لي بالحرف الواحد، تلك الفتاة اللاهبة ذات الاثني عشر ربيعاً، بهمس شهواني، عندما اصطدمت بي في الشرفة الأمامية، عندما كنتُ خارجاً منها، وهي دالفة إليها. وكانت أشعة شمس الأصيل، تلك اللؤلؤة البيضاء المتلألئة ذات الألوان القزحية، تعكس خطوطاً كثيرة ترتعش فوق الجزء الخلفي المستدير لإحدى السيارات المركونة. وكانت أوراق شجرة دردار ضخمة تلقي

Twitter: @ketab_n

بظلالها المرتعشة الطرية على جدار البيت. وكانت تنتصب شجرتا حور تتمايلان. بوسعك أن تميّز صوت السيارات العابرة. طفلة تنادي، «نانسي، نان -سي». أما في البيت، فقد وضعت لوليتا أسطوانتها الأثيرة لديها «كارمن الصغيرة»، التي كنت أطلق عليها اسم «قادة الأوركسترا الأقزام» فتشهق بسخرية مصطنعة من مكري الساخر.

الخميس. جلسنا ليلة البارحة في «الباحة»، أنا والسيدة هايز ولوليتا. كان الظلام الشهواني قد غمر الغسق الدافئ. كانت المرأة العجوز قد أنهت للتو بتفصيل ممل رواية حبكة فيلم كانت قد شاهدته هي ولوليتا في الشتاء الماضي. فقد تهاوى الملاكم عندما التقى الكاهن العجوز الطيب (الذي كان هو نفسه ملاكماً في شبابه، وكان لا يزال بوسعه أن يوجّه إليه ضربة قاضية). كنا نجلس على الوسائد المكدّسة على الأرض، وكانت لولو تجلس بيني وبين السيدة هايز (فقد حشرت نفسها بيننا مثل قطة أليفة). أما أنا فقد رحت أحكي لهما عن مغامراتي في القطب الشمالي. وقد منحتني ربة الإلهام بندقية اصطدت بها دبّاً أبيض جثا أمامي وقال: آه! وكنت طوال الوقت أدرك بشدة قرب لولو مني، وبينما كنت أتكلم، لم أكفّ عن تحريك يديّ في الظلام الرؤوف، وكنت أنتهز الفرصة مستغلاً الإيماءات والحركات غير المرئية التي تبدر مني لألمس يدها وكتفها، ولم تكن تكفّ عن اللعب بلعبة راقصة باليه مصنوعة من الصوف والشاش، كانت قد حشرتها في حضني. وأخيراً، بعد أن أوقعت عزيزتي المستعرة في شباك هذه المداعبات الأثيرية، تجاسرت على مداعبة ساقها العارية، أداعب الزغب الممتد على قصبة ساقها، وكانت تصدر مني ضحكات مكتومة على النكات التي أقولها، وأخفيت ارتعاشاتي، ومرّة أو مرّتين، أحسست بدفء شعرها على شفتيّ السريعتين، ونشقته بأنفي، عندما رحت أمازحها، وأداعب لعبتها. كانت كثيرة التململ والحركة إلى

Twitter: @ketab_n

درجة أن أمّها طلبت منها بحدّة، أخيراً، أن تتوقف عن اللعب وألقت بالدمية في الظلام. ضحكت وتوجّهت بالحديث إلى السيدة هايز من وراء ساقَي لولو، وتركت يدي تنسل فوق ظهر الحورية الرقيق، ورحت أتحسس بشرتها الناعمة من خلال قميصها الصبياني.

لكن كنت أعرف أن لا جدوى من كلّ ذلك، وتملكني شعور بالشهوة. كانت ثيابي ضيقة جداً، وكنت على وشك أن تغمرني السعادة، لكن صوت أمّها الهادئ في العتمة حرمني من ذلك: «والآن، نظن أنّ لولو يجب أن تأوي إلى الفراش»؛ فردّت لولو: «أظن أنك نتنة»؛ فقالت هايز: «هذا يعني أنه لن تكون هناك نزهة غداً»؛ فأجابتها لولو: «إننا نعيش في بلد حرّ». وعندما ذهبت لولو غاضبة وهي تكيل الشتائم، ظللت جالساً، بينما راحت هايز تشكو لي من تصرفات لوليتا وهي تنفث الدخان من سيجارتها العاشرة هذا المساء.

قالت هايز إن لوليتا كانت فتاة شريرة، حقودة، لو سمحت لي، عندما كان عمرها سنة واحدة، عندما كانت ترمي ألعابها من سريرها على الأرض لكي لا تتوقف أمّها عن التقاطها، تلك الطفلة الدنيئة! أما الآن، وبعد أن بلغت الثانية عشرة، أصبحت حشرة حقيقية. وكان كلّ ما تصبو إليه في الحياة عندما تكبر هو أن تصبح راقصة، فهي مولعة بالرقص. وقالت إنها كانت تحصل على درجات متدنية، لكنها تأقلمت في مدرستها الجديدة أكثر بكثير من تأقلمها في مدرستها في بيسكي (بيسكي هي بلدة هايز الأصلية في الغرب الأوسط. أما المنزل في رامسدال فهو بيت حماتها المرحومة، وكانتا قد انتقلتا إلى رامسدال منذ سنتين). «لماذا لم تكن سعيدة هناك؟» فأجابت هايز: «كيف لي أن أعرف. لقد عانيت من ذلك عندما كانت طفلة: كان الصبية يلوون ذراعها، ويلقون عليها مجموعة من الكتب، ويشدّون شعرها، ويلمسون نهديها، ويرفعون تنورتها. بالطبع، إن المزاجية تصاحب

Twitter: @ketab_n

المرء عادة عندما يكبر، لكن لوليتا تبالغ كثيراً. كانت فتاة متجهّمة مراوغة، وقحة، متحدّية. وفي إحدى المرات، ضربت فيولا، رفيقتها الإيطالية التي تجلس بجانبها في المقعد في الصف، بقلم حبر. أتعرف ماذا أريد؟ لو صادف أنك بقيت هنا، يا مسيو، في الخريف، فسأطلب منك أن تساعدها في واجباتها المدرسية - يبدو أنك تعرف كلّ شيء: الجغرافيا والرياضيات واللغة الفرنسية». «آه، جميع المواد»، أجاب المسيو. فأسرعت السيدة هايز بالقول: «هذا يعني أنك ستكون هنا!». أردت أن أصيح بأنني سأبقى هنا إلى الأبد فقط لأنني أرغب في مداعبة تلميذتي الصغيرة، بين الحين والآخر. لكنني كنت حذراً من هايز، لذلك اكتفيت بإطلاق زفرة، وتمطّيت بصورة غير متزامنة (الكلمة الصحيحة) وصعدت على الفور إلى غرفتي. لكن كان من الواضح أن المرأة لم تكن مستعدة لأن تؤي إلى الفراش. فقد كنت مستلقياً على سريري البارد، أضغط بكلتا يديّ على وجهي مستحضراً طيف لوليتا العطر عندما سمعت صاحبة البيت، التي لا تعرف الكلل، وقد انسلّت كالشبح إلى باب غرفتي لتهمس من ورائه - فقط لتتأكد، حسب قولها، هل أنهيتُ قراءة مجلة «Glance and Gulp» التي استعرتها منها منذ بضعة أيام. لكن لوليتا صاحت من غرفتها بأن المجلة معها. كأننا في مكتبة لإعارة الكتب في هذا البيت، اللعنة.

الجمعة. أتساءل ماذا سيقول ناشري الأكاديمي لو أنني اقتبست من كتابي الدراسي عبارة الشاعر الفرنسي رونسار من عصر النهضة «الشق الصغير ذو اللون العقيقي»، أو قصيدة ريمي بيلو «في مديح عانة المرأة» التي يقول فيها «الرابية المكسوة بالطحلب المخملي الرهيف/ يمرّ في وسطه شق وردي»، وما إلى ذلك. وربما يعتريني انهيار عصبي آخر لو أنني بقيت فترة أطول في هذا البيت، تحت ضغط هذا الإغراء الذي لا يمكنني تحمّله، بجانب - محبوبتي - عزيزتي - حياتي - عروسي.

Twitter: @ketab_n

هل بدأت تحيض؟ تلك المشاعر المتورمة. لعنة الآيرلنديين. السقوط من السطح. الجدّة في زيارة. ويبدأ السيد الرحم [أقتبس من مجلة للفتيات] ببناء جدار ناعم سميك بأمل أن يتكوّن طفل في داخله». المجنون الصغير يقبع في حجرته الصغيرة المبطّنة.

وإذا صادف أن ارتكبت جريمة قتل خطيرة... ضعوا خطاً تحت كلمة «إذا». يجب أن يتجاوز الدافع ذلك الشيء الذي حدث لي مع فاليريا. وانتبهوا جيداً إلى أن ذلك كان، في ذلك الحين، أمراً يدل على بعض الحمق. وإذا رغبتم، وعندما ترغبون في أن تحكموا عليّ بالموت، فتذكّروا أن مجرد نوبة جنون قد تمنحني طاقة بسيطة لكي أصبح متوحشاً (لعلي عدّلت كتابة كلّ ذلك). كنت أحاول أحياناً أن أقتل أحداً في أحلامي. لكن هل تعرفون ماذا كان يحدث؟ كنت، مثلاً، أحمل مسدساً. وكنت أصوّبه مثلاً إلى عدو لا يعرف الرحمة. نعم، أضغط على الزناد، لكن طلقة تلو الطلقة تسقط بوهن على الأرض من الفوهة الخجولة. وفي تلك الأحلام، كان كلّ همي ينحصر في إخفاء الإخفاق التام عن خصمي، الذي كان يزداد انزعاجه شيئاً فشيئاً.

خلال العشاء في هذه الليلة، قالت لي القطة العجوز وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة جانبية تشي بسخرية أمومية موجّهة إلى لوليتا (كنت عندئذ أصف، بوقاحة، الشاربين الرفيعين البهيجين الشبيهين بفرشاة الأسنان، اللذين لم أقرّر بعد أن أرخيهما): «من الأفضل لك ألاّ تفعل ذلك إذا لم تفقد صوابك تماماً». وعلى الفور، دفعت لولو صحن السمك المسلوق الذي تأكل منه جانباً، وكادت أن تدلق كأس الحليب، ووثبت خارج غرفة الطعام. ثم قالت هايز: «أرجو ألا تمانع في مرافقتنا غداً للاستحمام في بحيرة «غلاس أوار» إذا اعتذرت لوليتا عن سلوكها؟»

ثم سمعت صوت صفق أبواب شديد وأصواتاً أخرى تنطلق من الكهوف المتزلزلة حيث يدور شجار عنيف بين المتنافستين.

Twitter: @ketab_n

لم تعتذر. لن نذهب إلى البحيرة. كان من الممكن أن تكون نزهة ممتعة.

السبت. دأبت على ترك الباب موارباً منذ بضعة أيام، وأنا أكتب في غرفتي، لكنني وقعت في الفخّ اليوم. وبقدر متزايد من التململ، وجرجرة القدمين، والكشط على أرضية الغرفة - لتخفي شعورها بالحرج لمجيئها من دون دعوة - دخلت لوليتا، وبعد أن تمشّت في الغرفة قليلاً، بدأت تنظر باهتمام إلى الرسوم الدائرية المرعبة التي كنت أخطّها على الورقة. آه لا: لم تكن هذه الرسوم وليدة فترة استراحة بين كتابة فقرتين، بل مجرد خطوط هيروغليفية قبيحة (لم تستطع فكّ رموزها) تعبّر عن شهوتي القاتلة. عندما تدلت خصلات شعرها البنية على المقعد الذي أجلس عليه، وضع همبرت الفظ ذراعه حولها في تقليد بائس بسبب صلة الدم التي تربطه بها، وهو لا يزال يحدّق، بعينين حسيرتين، في قصاصة الورق التي يمسكها، غاصت زائرتي الصغيرة البريئة وجلست على ركبتيّ. لم يكن جانب وجهها الرائع، شفتاها المفترتان، شعرها الدافئ، تبعد سوى حوالى ثلاث بوصات عن عينيّ وفمي الذي كشّر عن أنيابه، وأحسست بحرارة أطرافها من خلال ثيابها الصبيانية الخشنة. وفجأة عرفت أنّ بإمكاني تقبيل حنجرتها أو فتيلة فمها من دون أن أنال عقاباً. وكنت أعرف أنها ستتركني أفعل ذلك، بل إنها ستغمض عينيها حسب تعاليم أفلام هوليود. شوكولاتة حارة مع قليل من الفانيلا - أي شيء أغرب من هذا. لا يمكنني أن أخبر قارئي المثقف (الذي أشكّ في أن حاجبيه قد تقوّسا وانتقلا الآن إلى مؤخرة رأسه الأصلع)، لا يمكنني إخباره كيف أتاني هذا الإدراك. لعل أذني التي تشبه أذن قرد قد التقطت لا شعورياً تغييراً طفيفاً في إيقاع تنفسها - لأنها لم تعد الآن تنظر إلى خربشاتي، بل راحت تنتظر بفضول وبهدوء - يا حوريتي الشفّافة! - إن النزيل الفاتن يريد أن يفعل ما يصبو

Twitter: @ketab_n

إلى فعله باستماتة. غلامة معاصرة، قارئة نهمة للمجلات السينمائية، خبيرة في الصور المجسّمة الحالمة البطيئة، قد لا تستغرب، كما يخيّل إليّ، أن يفعل ذلك صديق وسيم يتسم بالرجولة - لكن فات الأوان. وبغتة اهتزت أركان البيت كلّه عندما لعلع صوت لويز الذربة اللسان وهي تخبر السيدة هايز التي عادت لتوها إلى البيت عن شيء ميت اكتشفته هي وليزلي تومسون في القبو، ولم تكن لوليتا الصغيرة تريد أن تفوّت عليها سماع هذه الحكاية.

الأحد. متقلّبة المزاج، مشاكسة، مبتهجة، صعبة المراس، جسدها رشيق لعوب يقترب من سن البلوغ، مشتهاة من رأسها حتى أخمص قدميها (استناداً إلى ما كتبه قلم كاتبة من نيو إنغلند)، من قوس شعرها الأسود، والدبابيس التي تثبّت شعرها، إلى الندبة الصغيرة في الجزء السفلي من ربلة ساقها الجميلة (حيث خُدشت عندما كانت تتزلج في بيسكي)، فوق حدود جوربها الخشن الأبيض. رافقت أمّها لزيارة عائلة هاملتون - لحضور حفلة عيد ميلاد أو شيء من هذا القبيل. كانت ترتدي فستاناً قطنياً ذا تنورة واسعة. ويبدو أن حماماتها الصغيرة قد شُكِّلت جيداً. قطتي التي نضجت قبل الأوان!

الإثنين. صباح ماطر. «يا لجمال تلك الصباحات الغائمة». بيجامتي البيضاء موشّاة برسوم أزهار أرجوانية. إني أشبه إحدى تلك العناكب الشاحبة المنتفخة التي تراها في الحدائق القديمة. تجلس في وسط شبكة مضيئة وتهزّ هذا الخيط أو ذاك هزّات ضعيفة. شبكتي تمتد لتشمل أرجاء البيت أصيخ السمع من الكرسي الذي أجلس عليه مثل ساحر ماكر. هل لولو تقبع في غرفتها؟ برفق أشدّ خيط الحرير. إنها غير موجودة. سمعت للتو اسطوانة لفافة ورق التواليت تبعث صوتاً متقطّعاً أثناء دورانها. لا أسمع وقع أقدامها وهي عائدة من الحمّام إلى غرفتها. هل لا تزال تنظّف أسنانها (التنظيف الوحيد الذي تقوم به لولو

Twitter: @ketab_n

بحماسة حقيقية)؟ لا. لقد صُفق باب الحمّام للتو، لذلك على المرء أن يبحث عن الفريسة الجميلة ذات اللون الدافئ في مكان آخر من البيت. لندع خيط الحرير يهبط الدرج. أقنع نفسي بأنها ليست في المطبخ - لم تصفق باب الثلاجة أو تصرخ في وجه أمّها المقيتة (التي أحسب أنها تستمتع بحديثها الهاتفي الصباحي الثالث حيث تهدل بهدوء ومرح).

حسناً، لنتلمّس طريقنا ونأمل. وكالشعاع، أنسلّ إلى ردهة الاستقبال لأجد المذياع صامتاً (وماما لا تزال تتحدث مع السيدة شاتفيلد أو السيدة هاملتون، هادئة جداً، متورّدة، مبتسمة، تمسك سماعة الهاتف بيدها الطليقة، تنكر ضمناً بأنها تدين الذين يتناقلون الإشاعات، الإشاعة، النزيل، تهمس بحميمية، كما لا تفعل أبداً، السيدة الواضحة، في حديثها وجهاً لوجه). إذاً حوريتي ليست في البيت مطلقاً! لقد ذهبت! إن ما كنت أظنه نسيجاً موشورياً تبين أنه مجرد نسيج عنكبوت رمادي قديم. البيت خاو، ميت. ثمّ تتسلل ضحكة لوليتا الخافتة الحلوة من خلال بابي الموارب وتقول: «لا تخبر أمّي، فقد تناولت كلّ حصتك من لحم الخنزير».

ذهبت عندما نظرت خارج غرفتي. لوليتا، أين أنتِ؟ صينية طعام فطوري التي أعدّتها صاحبة البيت، بكل مودّة، تحدّق فيّ، تنتظر أن أحملها إلى غرفتي. لولا، لوليتا!

الثلاثاء. تدخّلت الغيوم ثانية لتعكّر تلك النزهة إلى تلك البحيرة البعيدة. هل يقف القدر لي بالمرصاد؟ البارحة جرّبت مايوهين جديدين أمام المرآة.

الأربعاء. بعد الظهر، قالت هايز (كانت تنتعل حذاءً جميلاً، وترتدي فستاناً فُصّل خصيصاً لها)، إنها ذاهبة بالسيارة إلى وسط البلدة لتشتري هدية لإحدى صديقاتها، وسألتني هل أريد أن أرافقها لأنها تثق بذائقتي في اختيار أنواع الأقمشة والعطور. وقالت بصوت يشبه المواء:

Twitter: @ketab_n

«إختر ما تراه مغرياً». ماذا يمكن أن يفعل همبرت، وهو الذي يعمل في تجارة العطور؟ أوقفتني بين الشرفة الأمامية وسيارتها، وقالت: «هيا عجّل». بذلت جهداً لأحني جسمي الضخم لاجتياز الباب (كنت لا أزال أفكّر يائساً بوسيلة للهرب). شغّلت المحرّك، وراحت تشتم بلطف شاحنة تقف أمام سيارتها كانت قد جلبت للآنسة العجوز صاحبة البيت المقابل كرسياً جديداً للمعوقين. رجعت قليلاً إلى الوراء ثم انعطفت. ثمّ جاء صوت لوليتاي الحادّ من نافذة صالة الاستقبال تقول: «هيه، أنتما، إلى أين تذهبان؟ سآتي معكما أيضاً! انتظراني». «لا تعرها أي اهتمام»، صاحت هايز (وهي تدير المحرك). واحسرتاه على سائقتي الحسناء. في تلك اللحظة، فتحت لولو الباب القريب مني. «هذا شيء لايطاق»، قالت هايز، لكن لولو ركبت السيارة، وهي ترتعش جذلة.

قالت «لو»: «هيا حرّك مؤخرتك»، فصاحت هايز «لو!» (ورمقتني بنظرات جانبية، راجية أن ألقي بلوليتا خارج السيارة). «انظر»، قالت «لو» (ليس للمرة الأولى)، عندما اندفعت هي إلى الخلف، عندما اندفعتُ أنا إلى الخلف، عندما قفزت السيارة إلى الأمام. قالت هايز غاضبة: «لا يمكن تحمّل الطفلة القليلة الأدب. إنها لا تني تفعل ذلك. كما أنها تعرف أنها غير مرغوب فيها، فضلاً عن أنها يجب أن تستحم».

كانت مفاصل أصابعي مسترخية فوق بنطلون لوليتا الجينز الأزرق. كانت حافية، وكانت أظافر أصابع قدميها تظهر بقايا طلاء أظافر أحمر بلون الكرز، وكان ثمة شريط لاصق يلفّ إصبع قدمها الكبير؛ يا إلهي، إني مستعد لتقديم حياتي كي أقبّل هاتين القدمين الرقيقتين، ذواتي الأصابع الطويلة، القدمين اللتين تشبهان قدمي قردا

وفجأة انسلّت يدها في يدي، ومن دون أن ترانا وصيفتنا، أمسكتُ ذلك الكفّ الصغير الحار، ورحتُ أمسّده وأعتصره، طوال الطريق إلى المخزن. والتمع جناحا أنفها الذي يشبه أنف المغنية مارلين ديتريش،

Twitter: @ketab_n

بعد أن ذرت عليه قدراً من المسحوق، ولم تكفّ عن مناجاتها وتذمرها من حركة المرور المحلية. كانت تبتسم، وتزمّ شفتيها، وترفرف رموشها المصبوغة، وأنا أرجو ألاّ نصل إلى ذلك المخزن، لكننا وصلنا.

لا يوجد شيء رئيسي يمكنني قوله، خلا، أولاً، أن هايز الكبيرة كانت قد جعلت هايز الصغيرة تجلس في المقعد الخلفي في طريق عودتنا إلى البيت، وثانياً، أن السيدة كانت قد قرّرت أن تبقي همبرت وراء أذنيها الجميلتين.

الخميس. بَرَدٌ وعواصف تنذر بعواصف استوائية في بداية الشهر. ووجدت في إحدى مجلدات «موسوعة الشباب»، خريطة للولايات المتحدة كان خط طفلة قد بدأ ينسخ بخربشة بقلم رصاص على طرفها، أمام الخطوط غير المكتملة لحدود فلوريدا والخليج، ورأيت قائمة منسوخة لأسماء من الواضح أنها كانت تشير إلى تلاميذ صفها في مدرسة رامسدال. إنها قصيدة أحفظها عن ظهر قلب.

أنجيل، غرايس
أوستن، فلويد
بيل، جاك
بيل، ماري
باك، دانيال
بيرون، مارغريت
كامبيل، أليس
كارمين، روز
تشاتفيلد، فيليس
كلارك، غوردن
كاوان، جون

Twitter: @ketab_n

كاوان، ماريون
دنكان، والتر
فالتر، تيد
فنتازيا، ستيلا
فلاشمان، إرفينغ
فوكس، جورج
غلابف، مايبيل
غوودال، دونالد
غرين، لوسيندا
هاملتون، ماري روز
هايز، دولوريس
هونيك، روزالين
نايت، كينيث
ماكو، فرجينيا
مكريستال، فيفيان
ماكفات، أوبري
ميراندا، أنتوني
ميراندا، فيولا
روساتو، أميل
شلينكير، لينا
سكوت، دونالد
شريدان، أجنيس
شيرفا، أوليغ
سميث، هايزل
تالبوت، إدغار

Twitter: @ketab_n

تالبوت، إدوين

وين، لال

وليامز، رالف

ويندمولير، لويز

إنها قصيدة، إنها قصيدة، في الحقيقة! ومن الغريب والجميل اكتشاف «هايز، دولوريس» هذه في سجلها الخاص للأسماء، مع حراسها من الورود - أميرة جنّية بين وصيفتيها. أحاول تحليل المتعة والرعشة التي تسري في عمودي الفقري، هذا الاسم من بين جميع الأسماء الأخرى تلك. ما الذي جعلني أذرف الدموع (دموع غزيرة، برّاقة، حارة، كتلك التي يذرفها الشعراء والعشاق)؟ ما هو؟ إغفال هذا الاسم الرقيق بحجابه الرسمي («دولوريس») وإبدال أماكن الاسم الأول واسم العائلة الذي يشبه زوجاً من القفازات الجديدة أو قناعاً؟ هل إن كلمة «قناع» هي الكلمة الرئيسية؟ هل لأنّ هناك متعة في الألغاز غير الواضحة تمام الوضوح، نقاب مسترسل، لا يمكن لأحد سواك أن يعرف أن اللحم والعين يبتسمان لك وحدك؟ أم بإمكاني أن أتخيّل جيداً ما تبقى من التلميذات اللاتي يحطن بحبيبتي الحزينة والضبابية: غريس ذات البثور الكبيرة؛ وجيني التي تجرّ ساقها خلفها عندما تمشي؛ وغوردن، ذلك المستمني الهزيل؛ ودنكان، المهرّج الكريه الرائحة؛ وأغنيس التي لا تتوقف عن قضم أظافرها؛ وفيولا التي تكسو وجهها بثور ذات رؤوس سوداء، وذات الصدر الذي يعلو ويهبط؛ وروزالين الجميلة؛ وماري روز الشديدة السمرة؛ وستيلا المحبوبة، التي كانت تسمح للصبية بلمسها؛ ورالف الذي يرهب الآخرين ويسرق؛ وإرفينغ الذي أحزن عليه. وها هي، ضائعة في الوسط، تقضم قلم رصاص، تمقتها المعلمات، وعيون جميع الفتيان تحدق في شعرها ورقبتها، حبيبتي لوليتا.

Twitter: @ketab_n

الجمعة. أتلهف لوقوع كارثة عظيمة. زلزال. انفجار هائل يقضي على أمّها في الحال وبشكل دائم، هي وجميع من يقيم على مسافة بضعة أميال. لوليتا تنشج وتشهق بين ذراعيّ، وعندها أصبح رجلاً حرّاً، وأستمتع بها في وسط هذه الخرائب. دهشتها، تفسيراتي، حركاتي، وتهليلي. تهويمات كسولة وغبية. كان همبرت الشجاع سيداعبها على نحو يثير الاشمئزاز (البارحة، مثلاً، عندما جاءت ثانية إلى غرفتي لتريني رسوماتها، أعمالها الفنية المدرسية). لعله أعطاها رشوة - وقد نجح في ذلك. لو كان شخصاً عملياً وأكثر بساطة لتمسّك ببدائل تجارية مختلفة - لو كانت تعرف إلى أين تذهب، أما أنا فلا أعرف. وعلى الرغم من وسامتي، فإنني شديد الخجل. تصبح روحي الرومانسية باردة ودبقة وترتعش عندما يخطر لي أن أقدم على عمل بغيض. تلك الوحوش البحرية البذيئة. «هيا، هيا» قالت أنابيل وهي تقفز على قدم واحدة لتحشر ساقها في سروالها القصير. أصابني دوار البحر من شدة الغضب، محاولاً أن أحجبها عن عيون الآخرين.

اليوم نفسه، في وقت متأخر، متأخر جداً، أشعلت النور لأدّون حلماً رأيته، كانت له سابقة واضحة. أعلنت هايز على العشاء أن مكتب الأرصاد الجوية قد وعد بعطلة نهاية أسبوع مشمسة، وأننا سنذهب إلى البحيرة يوم الأحد بعد أن نخرج من الكنيسة. عندما استلقيت في السرير، بدأت تراودني أفكار إيروتيكية قبل أن يغمض لي جفن، فكّرت بخطة محكمة للاستفادة من هذه النزهة. كنت أعرف جيداً أن هايز الأمّ تكره حبيبتي لأنها تعاملني برقة، لذلك كنت أزمع أن أرضي الأمّ خلال رحلتنا إلى البحيرة. وسأوجّه لها الحديث وحدها، لكنني في اللحظة الملائمة سأقول إنني نسيت ساعة يدي أو نظارتي الشمسية في تلك الفسحة هناك - وألج أنا وحوريّتي إلى الحرش. وهنا تظهر الحقيقة، ويتحوّل البحث عن النظارات إلى حفلة عربدة صغيرة، وتتصرف لوليتا

Twitter: @ketab_n

العارفة، الطيّعة، الفاسدة، المبتهجة، بطريقة لا يتصورها العقل. وفي الساعة الثالثة صباحاً ابتلعت حبة منوّم، وفي الحال، تراءى لي حلم لم يكن تتمة لما كنت أتصوّره، بل محاكاة ساخرة، بشيء من الوضوح. فقد رأيت البحيرة التي لم أزرها من قبل مرصّعة بصفحة من الزمرّد الثلجي، وكان رجل من الأسكيمو تكسو وجهه آثار نقر الجدري، يحاول عبثاً كسر صفحة البحيرة بفأس، مع أن الميموزا ونباتات الدفلى المستوردة كانت قد أزهرت على ضفاف البحيرة المكسوة بالحصى. وإني واثق من أن الدكتورة بلانش شوارزمان ستدفع لي كيساً مليئاً بالشلنات لأنني أضفت مثل هذا الحلم الشبقي إلى ملفاتها. لكن لسوء الحظ، أصبحت تتمة الحلم انتقائية. فقد كانت هايز الكبيرة وهايز الصغيرة تمتطيان صهوة حصان يخب بهما حول البحيرة، وكنت أمتطيه أنا أيضاً، نعلو ونهبط، وجميع السيقان مقوّسة ومنفرجة وتتدلى، مع أنه لم يكن بينها حصان، بل هواء مطاطي فحسب - إحدى تلك الأخطاء الصغيرة الناجمة عن شرود ذهن صاحب الحلم.

السبت. لا يزال قلبي يخفق بقوة، ولا أزال أتلوّى وأتأوه تأوهات خفيضة. مشهد ظهرها. رؤية بشرتها الصقيلة بين قميصها القطني وشورتها الرياضي الأبيض. وهي تنحني فوق عتبة النافذة، تقطف أوراقاً من شجرة حور خارج النافذة، مستغرقة في الحديث مع الصبي موزع الجرائد الواقف في الشارع (أظن أنه كينيث نايت) الذي كان يقذف مجلّة رامسدال بدقة إلى الشرفة. بدأت أزحف نحوها - «أعرج» كما يقول ممثلو الإيماء. وكانت ذراعاي وساقاي أسطحة محدّبة رحت أتقدم بينها - لا عليها - بحركة محايدة بطيئة: همبرت، العنكبوت الجريح. لا بدّ أن الوصول إليها استغرق ساعات: تراءى لي أنني كنت أراها من جانب المنظار الخطأ، وباتجاه مؤخرتها الصغيرة المشدودة كنت أتحرّك مثل شخص مشلول، أحبو على أطراف مشوّهة طرية،

Twitter: @ketab_n

بتركيز شديد. وأخيراً، أصبحت وراءها مباشرة عندما بدرت لي فكرة تعيسة بأنّ - أمسكها وأهزّها من مؤخرة عنقها أو شيء من هذا القبيل لأغطي على هدفي الحقيقي، فأطلقت صرخة قصيرة وقالت وهي تئن: «كفّ عن عمل ذلك»، بفظاظة، هذه العاهرة الصغيرة، وبتكشيرة شديدة، تراجع همبرت الوضيع ذليلاً، بينما واصلت ثرثرتها مع الصبي في الشارع.

لكن اسمعوا الآن ما حدث بعد ذلك. فبعد الغداء، كنت مستلقياً على كرسي واطئ أحاول القراءة. وبغتة غطت يدان صغيرتان حاذقتان عينيّ: فقد كانت زحفت من ورائي وكأنها تكرر، في سلسلة من حركات الباليه، نفس المناورة التي قمت بها هذا الصباح. كانت أصابعها قرمزية مضيئة وهي تحاول حجب الشمس، فتنطلق من فمها ضحكات قصيرة تشبه الفواق، وتتمايل يمنة ويسرة عندما مددت ذراعي إلى الجانب وإلى الخلف من دون أن أغيّر وضعيتي المستلقية. وراحت يدي تجوس فوق ساقيها الرشيقتين المجلجلتين، وسقط الكتاب من فوق حضني مثل زلاجة، ووصلت آنذاك السيدة هايز وقالت برقة: «فقط اصفعها بقوة إذا قطعت عليك تأملاتك الفكرية. كم أحبّ هذه الحديقة. (لا توجد علامة تعجب في نبرتها). أليست رائعة في الشمس» (لا توجد علامة استفهام أيضاً). وبحركة رضى مصطنعة، غاصت السيدة البغيضة في العشب ونظرت إلى السماء عندما مالت إلى الخلف مستندة بيديها المفلطحتين، وفي هذه اللحظة، وثبت فوقها كرة تنس رمادية قديمة، وجاء صوت «لو» من البيت قائلة بغطرسة: «آسفة يا أمّي. لم أقصد أن أصيبك». بالطبع لا، يا حبيبتي الشبقة التي يكسو جسدك الزغب.

Twitter: @ketab_n

١٢

بهذا الفصل تنتهي الأبواب العشرون أو نحو ذلك في هذه المفكرة، التي تبيّن أن الخطة اليومية ظلت كما هي، بالرغم من كلّ الدهاء والمكر اللذين تمكّن الشيطان من استنباطهما. ففي البداية، كان يغويني - ثم يحبطني، ويعود ليتركني أتخبّط في ألم ممضّ في أعماق كياني. كنت أعرف تماماً ما كنت أريد أن أفعله، وكيف أفعله، من دون المساس بعفة وطهارة طفلة صغيرة. وتكوّنت لديّ طوال هذه السنوات خبرة في اقتفاء الفتيات الصغيرات، إذ كنت أرى عدداً كبيراً من الحوريات في الحدائق العامة، وكنت أعرف كيف أشقّ طريقي نحوهن بحذر. وبطريقتي البهيمية، كنت ألجأ إلى أشدّ الزوايا اكتظاظاً وحرارة في حافلة تعجّ بتلميذات المدارس في المدينة. لكن مكائدي البائسة لم تجد سبيلاً لها خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، إذ كانت السيدة هايز هي السبب الرئيسي في إفسادها وإحباطها (إذ كانت، كما سيلاحظ القارئ، تخشى أن تحصل «لو» مني على شيء من المتعة أكثر مما كانت تخشى أن أحصل أنا على شيء من المتعة من «لو»). وكانت مشاعر الشوق التي تتملكني نحو هذه الحورية - أول حورية في حياتي يمكنني لمسها بمخالبي الخرقاء، المتوجعة، الخجولة - ستنتهي بي نزيلاً في إحدى المصحات، لو لم يدرك الشيطان أن باستطاعتي الحصول على شيء من الراحة إن كان يريد أن أكون لعبة في يده لأطول فترة ممكنة.

وقد لاحظ القارئ أيضاً سراب البحيرة الغريب. وقد يكون ذلك أمراً منطقياً بالنسبة لأوبري ماكفات (الاسم الذي أريد أن أطلقه على شيطاني) لكي يرتّب لي متعة صغيرة على ضفاف البحيرة الموعودة، في تلك الغابة المفترضة. وفي الواقع، كان الوعد الذي قطعته السيدة هايز ضرباً من الاحتيال: فلم تخبرني أن ماري روز هاميلتون (حسناء

Twitter: @ketab_n

صغيرة سوداء) ستأتي أيضاً، وأن الحوريتين ستتهامسان وحدهما، وتلعبان وحدهما، وتمضيان معاً وقتاً جميلاً، بينما تمضي السيدة هايز ونزيلها الوسيم وقتهما في التحدث برزانة، شبه عاريين، بعيداً عن العيون المحدقة، على الرغم من وجود عيون متلصصة وألسنة لاهجة كثيرة. ما أغرب الحياة! إننا نعجّل في إبعاد المصير الذي كنا نسعى إلى بلوغه. فقبل وصولي، كانت صاحبة البيت تريد إحضار عانس عجوز تدعى الآنسة فالين، كانت أمّها تعمل طاهية في بيت عائلة السيدة هايز، للإقامة معنا في البيت، أنا ولوليتا، بينما كانت السيدة هايز، التي تحبّ العمل كثيراً، تبحث عن عمل مناسب في بلدة قريبة. وكانت السيدة هايز ترى الأمر كله بوضوح شديد: هير همبرت الذي يضع نظارات، المحني الظهر، القادم من وسط أوروبا، حاملاً حقائبه، يقبع بكسل في زاوية غرفته وراء الكتب القديمة المكدسة؛ والفتاة الصغيرة القبيحة، الكريهة، التي ستعهد برعايتها إلى الآنسة فالين الحازمة، التي كانت قد ضمت لوليتي في أحد الأيام تحت جناحها النسري (وتذكّرت لوليتا ذلك الصيف من عام ١٩٤٤ بقشعريرة ناقمة)؛ ووجدت السيدة هايز عملاً كموظفة استقبال في مدينة رائعة عظيمة، لكن أمراً معقّداً تدخّل وأحبط مخططها ذاك. فقد كُسر ورك الآنسة فالين في مدينة سافانا بولاية جورجيا، في نفس اليوم الذي وصلت فيه إلى رامسدال.

١٣

كان يوم الأحد الذي أعقب يوم السبت الذي وصفته للتو يوماً جميلاً ومشرقاً، تماماً كما تنبأت الأرصاد الجوية. وبينما كنت أضع الصينية التي فيها بقايا طعام فطوري على الكرسي خارج غرفتي، لكي تأتي صاحبة البيت الطيبة وتأخذها عندما تشاء، عرفت ما كان يدور

Twitter: @ketab_n

بينهما على الدرج عندما أصخت السمع، فتسللت بهدوء نحو الدرابزين، منتعلاً صندلي القديم الذي أنتعله عادة في غرفة النوم - الشيء القديم الوحيد الذي بقي بحوزتي.

لقد نشبت بينهما مشاجرة أخرى. فقد خابرت السيدة هاملتون وقالت إن «درجة حرارة ابنتها» مرتفعة جداً، فقالت السيدة هايز لابنتها إنها قررت أن تؤجل موعد النزهة؛ فردت هايز الصغيرة الملتهبة على السيدة هايز الكبيرة، إذا كان الأمر كذلك، فلن ترافقها إلى الكنيسة. عندها هزّت الأمّ رأسها وقالت حسناً، وغادرت.

وما إن أنهيت حلاقة ذقني حتى خرجت إلى بئر الدرج، وكانت بقايا صابون الحلاقة لا تزال تغطي حلمتي أذنيَّ، وكنت لا أزال أرتدي بيجامتي البيضاء المرسوم على ظهرها وردة ذرة زرقاء (لا زهرة ليلك). أزلت آثار الصابون عن ذقني، ومشّطت شعري، وعطّرت تحت إبطيّ، وارتديت مبذلي الحريري الأرجواني، وهبطت الدرج بحثاً عن لوليتا، وأنا أدندن لحناً بشيء من التوتر.

أريد هنا أن يشاركني قرّائي المثقفون المشهد الذي سأعيده على أسماعهم، وأريدهم أن يتمعّنوا في كلّ تفصيل من تفاصيله، ويروا بأمّ أعينهم، كم كان هذا الحادث النبيذي، حذراً، عفيفاً، إذا ما نُظر إليه من وجهة نظر محاميَّ، في حديث خاص دار بيننا، «تعاطف نزيه». فلنبدأ إذن، لأني أعرف أن مهمة صعبة تقبع أمامي.

الشخصية الرئيسية: همبرت همبرت. الزمن: صباح يوم أحد في شهر حزيران (يونيه). المكان: غرفة جلوس تنيرها أشعة الشمس. الأثاث: أريكة قديمة يكسوها قماش مخطط، تتناثر فوقها مجلات، وحاكٍ، وتحف مكسيكية رخيصة الثمن (فقد زرع المرحوم السيد هارولد هايز - طيّب الله ثرى ذلك الرجل الطيب - بذرة محبوبتي خلال ساعة القيلولة في غرفة طليت جدرانها بطلاء أزرق، عندما كانا

Twitter: @ketab_n

يقضيان شهر عسلهما في فيرا كروز، تتناثر حولهما الذكريات، بما فيها دلوريس). في ذلك اليوم، كانت ترتدي فستاناً جميلاً موشّى برسوم كنت قد رأيتها ترتديه ذات يوم. وكان فضفاضاً واسعاً في الأسفل، ضيّقاً عند الصدر، له ردنان قصيران، وردي اللون، رسمت عليه مربعات وردية أغمق. ولإكمال ذلك الانسجام اللوني، صبغت شفتيها بأحمر الشفاه، وكانت تمسك بيديها الفارغتين تفاحة جميلة، مبتذلة، حمراء مثل تفاحة عدن. لكنها لم تكن ترتدي فستانها لكي تذهب إلى الكنيسة، لأن محفظتها البيضاء التي عادة ما تحملها يوم الأحد ملقاة بجانب الحاكي.

كان قلبي يدقّ مثل طبل عندما جلست، وفرشت تنورتها المنفوشة الجميلة على الأريكة بجانبي، وأخذت تعبث بتفاحتها اللامعة، تلقيها في الهواء الذي يتخلله غبار أشعة الشمس، ثم تعود لتتلقفها - بكفيها المنبسطين.

اعترض همبرت همبرت سبيل التفاحة وأمسكها بيده.

«أعدها لي»، قالت متوسّلة، مظهرة احمرار راحة كفّها الرخامي. عندما فتحتُ يدي وتناولتها ثم قضمتها، أصبح قلبي مثل طبقة من الثلج تقبع تحت القشرة القرمزية الرقيقة. وبرشاقة قرد تميّز تلك الحورية الأميركية، انتشلت من قبضتي المكشوفة المجلة التي كنت قد فتحتها (من المؤسف أنه لا يوجد كاميرا تسجّل هذا السلوك الفضولي الغريب، تلك الحركات الآنية والمتداخلة التي تقوم بها). وبسرعة، لم تكن التفاحة المقضومة التي تمسكها تعيقها، راحت لوليتا تقلّب بعنف صفحات المجلة بحثاً عن شيء كانت تريد أن تريه لهمبرت. ووجدته أخيراً. وتظاهرت بأنني أبدي اهتماماً بما كانت تنظر إليه، فقرّبت رأسي منها كثيراً حتى لامست خصلات شعرها صدغي، ولامس ذراعها خدي برفق، عندما مسحت شفتيها برسغها. وبسبب الغشاوة القشيبة التي

Twitter: @ketab_n

كانت تنظر من خلالها إلى الصورة، كانت استجابتي بطيئة، وأخذتْ تفرك ركبتيها العاريتين وتصفق إحداهما بالأخرى بنفاد صبر. ثم اتضح لي ما كانت تريد أن تريني إياه على نحو باهت: رسّام سريالي مستلق، منبطح، على شاطئ البحر، ويقربه ينبطح أيضاً، بنفس الطريقة، تمثال فينوس المصنوع من الجصّ، نصفه مدفون في الرمل، وقد كتب تحته: «صورة الأسبوع». أزحتُ الصورة غير المحتشمة. لكنها في اللحظة التالية، وبحركة مصطنعة لاسترجاعها، أصبحت فوقي. وعندما أمسكتها من رسغها الناتئ النحيف، سقطت المجلة على الأرض مثل طائر مهتاج. ثمّ أفلتت مني، وتكوّرت في الزاوية اليمنى للأريكة. ثمّ، وببساطة مدهشة، مدّت الطفلة الماجنة ساقيها ووضعتهما فوق حضني.

في هذه المرّة، كنت في حالة هياج شديدة تكاد تقارب مرحلة الجنون، لكنني كنت أتمتع أيضاً بمكر المجانين. وبينما كنت جالساً هناك، على الأريكة، استطعت أن أناغم، بسلسلة من الحركات التي قمت بها خلسة، بين شعوري بالشبق الخفي ورغبتي المستترة وبين ساقيها البريئتين. لم يكن من السهل تحويل انتباه العذراء الصغيرة وأنا أجري التعديلات الغامضة الضرورية لإنجاح الخدعة. التلعثم في الكلام، تقطّع الأنفاس، التي حاولت ضبطها. ولكي أبرر تلعثمي ولهاثي، تظاهرت بأن أسناني بدأت تؤلمني فجأة - وكنت طوال الوقت، أركّز عين المهووس الداخلية على هدفي الذهبي البعيد، وأزيد بحذر ذلك الاحتكاك السحري، الذي بدأ يزيل، بطريقة وهمية، إن لم يكن بطريقة واقعية، القوام الهشّ الثابت جسدياً، بل نفسياً، الذي يفصل (البيجاما والثوب) بين ثقل ساقين لوّحتهما الشمس، مسترخيتين بشكل عرضي على حضني، والانتفاخ الخفي لعاطفة مشبوبة يتعذر وصفها. وخلال هذري، رحت أدندن بطريقة آلية كلمات أغنية سخيفة كانت تعتبر في ذلك الحين أغنية شعبية - حبيبتي كارمن، حبيبتي كارمن

Twitter: @ketab_n

الصغيرة، شيء، شيء، تلك الليالي، والنجوم، والسيارات، والحانات، والندل في الحانات. وظللت أكرر هذه الكلمات الآلية التي جعلتها تصبح تحت تأثير نوبة سحرية خاصة (نوبة سحرية بسبب تحريف الكلمات)، وكان يتملكني، طوال الوقت، خوف شديد من أن يقطع القضاء والقدر عليّ متعتي هذه، ويقضي على الإحساس الذهبي الذي يتركّز فيه كلّ كياني، وقد أرغمني هذا القلق على أن أتصرف، في الدقائق الأولى، بسرعة لا تتواءم مع المتعة التي كنت أسعى إلى بلوغها. وسرعان ما استولت على النجوم المتلألئة، والسيارات المركونة، والحانات، والندل، وسرق صوتها اللحن الذي كنت قد شوهّته فصححته. كان صوتها رخيماً حلواً كما التفاحة التي تمسكها. وارتعشت ساقاها المرخيتان فوق حضني النابض قليلاً. مسّدتهما. كانت متمددة في الزاوية اليمنى، تكاد تكون منبطحة على بطنها، «لولا» المراهقة، وهي تقضم ثمرتها الممعنة في القدم، تغنّي والعصير يسيل منها، ثم وقع صندلها من قدمها، وأخذت تفرك كعب قدمها الحافي الذي يطوقه خلخالها الناعم، فوق المجلات القديمة المكدّسة على يساري فوق الأريكة، وكانت كلّ حركة تأتي بها، كلّ جرّة قدم، كل تمويجة، تساعدني على إخفاء نظام التواصل السري الرهيف بين الجميلة والوحش وتحسينه - بين وحشي المكمّم، المتفجّر، وبين الجميلة التي يمتلئ جسدها بالغمازات، جسدها الذي يغلفه فستانها القطني البريء.

ومن تحت أطراف أصابعي العابرة، رحت أتحسس الزغب الناعم وهي تستوي واقفة. كنت أذوب في الحرارة الحارقة لكنها كانت حرارة صحّية مثل سحابة صيف تحوم فوق هايز الصغيرة. دعها تبقى، دعها تبقى... وعندما بذلت جهداً لترمي لبّ تفاحتها التي أنهت قضمها إلى السياج، وحرّكت ثقلها الخفيف، وحرّكت ساقيها البريئتين الوقحتين،

Twitter: @ketab_n

ومؤخرتها المستديرة، فوق حضني المتوتر، المعذّب، الذي كان يعمل خلسة، طرأ تغيير غامض مفاجئ على أحاسيسي. وولجت في حالة من الوجود لم يعد يهم معه شيء سوى تدفق البهجة التي تعتمل داخل جسدي. واستحال ذلك الشيء الذي بدأ انبلاجاً لذيذاً من أعماق جذوري إلى إحساس بوخز خفيف متوهّج، وبلغ تلك الحالة المطلقة من الأمن والثقة التي لا توجد في مكان آخر في الحياة الواعية. وبهذه الطلاوة المثيرة العميقة التي ترسّخت، وكانت في سبيلها إلى التشنّج النهائي، أحسست أنه يمكنني أن أتمهّل لأطيل فترة الوهج. فقد استحالت لوليتا إلى أشكال متعددة. وكانت أشعة الشمس تنبض وهي تتسلل من بين أغصان أشجار الحور. كنّا وحدنا على نحو رائع وإلهي. رحت أراقبها، وردية، يكسوها التبر، وراء ستار متعتي المكتومة، غير واعٍ بها، غريباً عنها، وكانت أشعة الشمس تتراقص على شفتيها، وكان يبدو أن شفتيها لا تزالان تشكّلان كلمات أغنية كارمن - ندل الحانة التي لم أعد أتذكّرها. أصبح كلّ شيء جاهزاً الآن. لقد تعرّت أعصاب المتعة. وكانت خلايا كراوس(*) قد بدأت تدخل بجنون مرحلة الهيجان، وكانت أدنى لمسة تكفي لإطلاق الجنة كلها. لم أعد «همبرت، كلب الصيد»، الوغد، المنحطّ، بعينيه الحزينتين، الذي يعقد رباط حذاءه الطويل الذي سيركله الآن. كنت فوق محن التهكم، وراء إمكانيات القصاص. وفي قصر الحريم الذي شيّدته لنفسي، كنت تركياً متألقاً، قويّ البنية، متزناً، يعي حريته تماماً، مؤجلاً لحظة التمتّع الفعلي بأصغر جواريه وأكثرهن هشاشة. كنت أتدلّى من حافة تلك الهاوية الشهوانية (يشبه هذا التوازن الفيزيولوجي الدقيق بعض الوسائل

(*) عالم تشريح ألماني يقول إن جزئيات حسّية دقيقة تحدث في الغشاء المخاطي للعضو التناسلي - م.

Twitter: @ketab_n

المتبعة في الفنون) وظللتُ أكرّر الكلمات العابرة وراءها - نذل الحانات، مرعباً، فاتنتي، حبيبتي كارمن، آه، آه - مثلما يتكلم المرء ويضحك في نومه بينما كانت يدي السعيدة تجوس فوق ساقها الملتمعة بأشعة الشمس، بقدر ما يتيحه لي ظلّ الحشمة.

وقبل يوم من ارتطامها بذلك الصندوق الثقيل في الردهة و- «انظري، انظري!» - قلت لاهثاً - «انظري ماذا فعلتِ، ماذا فعلتِ بنفسك، آه، انظري»، بسبب وجود، أقسم على ذلك، كدمة بنفسجية مصفرّة على فخذ حوريتي الرائعة، التي راحت يدي الضخمة المشعرة تدلّكها وتطوّقها ببطء - وما عدا سروالها الداخلي الصغير، بدا أنه لا يوجد شيء يحول دون بلوغ إبهامي القوي تلك البقعة الحارة الغائرة بين فخذيها - تماماً كما لو كنتَ تدغدغ وتداعب طفلاً ضاحكاً - هكذا فقط - و: «أوه، لا شيء على الإطلاق»، صاحت بنبرة قوية مفاجئة في صوتها، وتلوّت، وأفعت، وألقت برأسها إلى الوراء، وكزّت بأسنانها على شفتها السفلى اللامعة، واستدارت نصف استدارة، وكاد فمي الذي لم يتوقف عن الأنين والتأوه، أيها السادة المحترمون أعضاء هيئة المحلفين، يصل إلى عنقها العاري، بينما راحت يدي تعتصر ردفها الأيسر، آخر خفقة في أطول نشوة عرفها رجل أو وحش طوال حياته.

وبعد ذلك مباشرة (كما لو كنا نتصارع وقد استرخت قبضتي الآن) تدحرجت من فوق الأريكة ووثبت واقفة على قدميها - على قدمها بالأحرى - لتردّ على الهاتف المجلجل الذي لعله كان يرنّ منذ آماد بعيدة. وقفت هناك ورمشت بعينيها. كانت وجنتاها ملتهبتين، شعرها منفوش، وعيناها ترمقانني بخفة كما كانتا ترمقان قطع الأثاث، وبينما كانت تنصت أو تتكلّم (مع أمّها التي طلبت منها أن تذهب لتتناول معها طعام الغداء عند أسرة شاتفيليد - لم تكن «لو» ولا همبرت يعرفان بعد ما الذي كانت هايز تحيكه)، ولم تتوقف عن نقر حافة المنضدة

Twitter: @ketab_n

بالصندل الذي تحمله بيدها. أحمد الله أنها لم تلحظ شيئاً.

وبمنديل حريري متعدد الألوان، استقرت عيناها عليه أثناء مرورها، جففتُ حبات العرق التي أخذت تنضح من جبيني، وأصلحت وضع مبذلي، بعد أن تفجرت نشوتي. كانت لا تزال تتحدث على الهاتف، تساوم أمّها (كانت تطلب منها أن يأتي أحد ويجلبها بالسيارة، حبيبتي كارمن الصغيرة) عندما كنت أصعد الدرج وأنا أغني بصوت يزداد ارتفاعاً، وأطلقت فيضاً من الماء الساخن في حوض الحمّام.

يمكنني الآن أيضاً أن أردد كلمات تلك الأغنية كلها - ولا أظن أنني أتذكرها جيداً. وها هي:

آه، حبيبتي كارمن، صغيرتي كارمن!
شيء ما، شيء ما، تلك الليالي،
والنجوم، والسيارات، والحانات، والندل -
آه، حبيبتي الفاتنة، شجاراتنا المخيفة.
والبلدة التي توجّهنا إليها جذلين،
ذراعاً بذراع، حيث تشاجرنا لآخر مرة،
والمسدس الذي قتلتك به، حبيبتي كارمن،
مسدسي الذي أحمله الآن.

(وسحب مسدسه الآلي عيار ٣٢، كما أظن، وأطلق رصاصة اخترقت عين عاهرته).

١٤

تناولتُ طعام الغداء في البلدة - لم أشعر منذ سنوات بهذا القدر من الجوع كما أشعر الآن. كان البيت لا يزال من دون لوليتا عندما

Twitter: @ketab_n

عدت سيراً على الأقدام. أمضيت فترة بعد الظهر وأنا أفكّر، أخطّط، أستوعب تجربتي التي خضتها هذا الصباح بمنتهى السعادة.

تملكني شعور بالزهو بنفسي. فقد تمكّنت من سرقة عسل فتاة قاصر دون المساس بها من الناحية الأخلاقية، ودون أن أسبب لها أي أذى. فقد صبّ الساحر مزيجاً من الحليب ودبس السكر والشمبانيا ذات الرغوة في محفظة بيضاء جديدة لسيدة شابّة، وبالطبع كانت لوليتا، المحفظة، لا تزال بكراً. بهذا الشكل كوّنت حلمي المنحطّ، المتّقد، الآثم، لكن لوليتا كانت لا تزال سليمة، آمنة - وكنت أنا في مأمن أيضاً.

لم تكن هي الشيء الذي امتلكته بجنون، بل إن ما امتلكته هو الشيء الذي خلقته أنا، لوليتا خيالية أخرى - بل ربما كانت حقيقية أكثر من لوليتا نفسها، تتداخل معها، تغلّفها، تطفو بيني وبينها، لا حول لها ولا قوة، وبلا وعي - في الواقع، لم تكن لها حياة خاصة.

لم تكن الطفلة تعرف شيئاً. لم أفعل لها شيئاً. ولم يكن ثمة شيء يمنعني من تكرار شيء لا يؤثّر عليها كثيراً، كما لو كانت صورة فوتوغرافية تتموّج فوق شاشة، وأنا ذلك الشخص الأحدب الوضيع الذي يسيء إلى نفسه في الظلام. مضت فترة بعد الظهر، بصمت شديد، وبدا لي أن الأشجار الباسقة التي ترشح نسغاً تعرف؛ وبدأت الشهوة تتملكني ثانية، أقوى من ذي قبل. وتضرعت إلى إله زائف بأن تأتي بسرعة، عندما تكون أمّها منهمكة في المطبخ، ليتكرر مشهد الأريكة، لأنني أصبحت أعشقها إلى حد مروّع.

لا، إن كلمة «مروّع» لا تفي بالغرض. إن الإحساس بالانتشاء الذي أفعمتني به رؤيا الملذات الجديدة لم يكن مروّعاً بل مثيراً للشفقة. إني أعتبره مثيراً للشفقة. مثيراً للشفقة - لأنه على الرغم من نار شهوتي الجنسية النهمة، فقد عزمت، بكل ما أوتيت من قوة وبكل ما أمتلك من

Twitter: @ketab_n

بصيرة، على حماية نقاء هذه الطفلة ذات الاثني عشر ربيعاً.

انظروا الآن كيف كوفئت على آلامي. لم تعد لوليتا إلى البيت - بل ذهبت مع عائلة شاتفيلد إلى السينما. أعدَّت السيدة هايز المائدة على نحو أفضل من المعتاد: على ضوء الشموع، إذا أردتم. وبهذه الهالة المقزّزة، كانت تتلمس خيوط الفضة برقة على جانبي صحنها وكأنها تلمس مفاتيح البيانو، وابتسمت وهي تحدّق في صحنها الفارغ (فقد كانت تتبع حمية غذائية)، وقالت إنها تأمل في أن أكون قد أحببت السلطة التي أعدّتها (وهي وصفة استقتها من إحدى المجلات النسائية)، وقالت إنها تأمل في أن تكون شرائح اللحم والجبن قد أعجبتني أيضاً. كان يوماً مثالياً. وقالت إن السيدة شاتفيلد امرأة جميلة، وإن ابنتها فيليس ستذهب غداً إلى مخيّم صيفي لمدة ثلاثة أسابيع، وإنها قررت أن تبعث لوليتا يوم الخميس إلى المخيّم، بدلاً من الانتظار حتى شهر تموز (يوليه)، كما كان مقرراً في البداية، وأن تبقى هناك حتى بعد أن تغادر فيليس، إلى أن تفتح المدرسة أبوابها. إنها فرصة جميلة، يا قلبي.

لشدّ ما كنت مندهشاً - ألا يعني هذا أنني سأفقد حبيبتي، في الوقت الذي جعلتها تصبح سرّاً لي؟ ولتبرير مزاجي المتعكر، تذرعت بوجع الأسنان كما فعلت هذا الصباح. لا بدّ أنه ضرس ضخم فيه خُراج كبير مثل حبة كرز خمرية.

«أعرف طبيب أسنان ممتازاً»، قالت هايز، «إنه جارنا، في الحقيقة. الدكتور كويلتي. أظن أنه عمّ أو ابن عمّ الكاتب المسرحي. أتظن أن الألم سيزول؟ حسناً، كما تريد. في الخريف سأطلب منه أن يركّب لها «مشبكاً» لتقويم أسنانها كما كانت تقول أمّي. فقد يكبح ذلك شيئاً من جماح لوليتا. أخشى أنها تزعجك كثيراً هذه الأيام، وأننا سنتعرض لأيام عاصفة قبل أن تذهب إلى المخيّم. لقد رفضت الذهاب

Twitter: @ketab_n

رفضاً قاطعاً، وأعترف أنّني تركتها برعاية عائلة شاتفيلد لأنني خشيت أن أواجهها وحدي.

لعل ذهابها إلى السينما قد يهدئ من غلوائها. إن فيليس فتاة رائعة للغاية، ولايوجد سبب دنيوي يجعل «لو» تكرهها. حقاً، يا مسيو، يؤسفني كثيراً أن ضرسك تؤلمك. وإن كان لا يزال يؤلمك، فإني أرى أن أول شيء يجب أن تفعله في صباح الغد هو أن تخابر إيفور كويلتي. وكما تعرف، فإني أظن أن المخيّم الصيفي سيكون صحّياً، و- حسناً - سيكون أفضل بكثير من الاستلقاء على العشب في الضواحي، واستخدام قلم أحمر شفاه أمّها، وملاحقة رجال جديين محترمين خجولين، وتفجير نوبات غضبها لأدنى استفزاز».

قلت أخيراً: «هل أنتِ متأكدة من أنها ستكون سعيدة هناك؟».

فقالت هايز: «أظن أن ذهابها سيكون مفيداً لها»، وأضافت: «ولن يكون كلّه لعباً. إذ إن شيرلي هولمز هي التي تدير المخيّم- وكما تعرف فهي المرأة التي كتبت مسرحية «فتاة نار المخيّم». وأعتقد أن المخيّم سيعلّم دلوريس هايز كيف تنمو وتتطور من نواح عديدة - الصحة، المعرفة، المزاج - وخاصة الإحساس بالمسؤولية إزاء الآخرين. هل نأخذ هذه الشموع ونجلس قليلاً في الحديقة، أم أنك تريد أن تأوي إلى الفراش وتعالج ذلك السنّ؟».

وتعالج ذلك السنّ.

١٥

في اليوم التالي ذهبنا بالسيارة إلى وسط البلدة لشراء احتياجات المخيّم: وكان أيّ شيء تشتريه له أمها يفعل الأعاجيب في نفس لوليتا.

Twitter: @ketab_n

لكنها عادت إلى طبيعتها الساخرة على العشاء. وبعد ذلك مباشرة، صعدت إلى غرفتها لتغوص في قراءة المجلات المصورة التي اشترتها لقراءتها في الأيام الماطرة في مخيّم كيو (وعندما حلّ يوم الخميس كانت قد تصفحتها كلّها وألقت بها جانباً). وكنت أنا أيضاً قد انسحبت إلى عريني، وانهمكت في كتابة بعض الرسائل. أصبح كلّ همي الآن أن أذهب إلى الساحل، ثم أعود لأقيم مع أسرة هايز عندما تفتح المدرسة أبوابها، لأنني لم أعد أطيق العيش بدون هذه الطفلة. وفي يوم الثلاثاء، ذهبتا إلى السوق مرة أخرى، وطلبت مني السيدة هايز أن أردّ على الهاتف إذا خابرت مديرة المخيّم أثناء غيابهما. وبالفعل خابرت، وأتيحت لنا بعد حوالى شهر مناسبة لتذكّر هذا الحديث اللطيف. وفي يوم الثلاثاء، تناولت لوليتا عشاءها في غرفتها، وكانت تبكي بعد إحدى مشاجراتها المعتادة مع أمّها؛ وكما حدث في مرات سابقة، لم تكن ترغب في أن أرى عينيها المنتفختين: فقد كانت بشرتها رقيقة شديدة الحساسية، فكانتا تغشيان وتتورمان بعد أن تذرفا فيضاً من الدموع، فتزداد فتنة وسحراً إلى درجة لا تقاوم. وأسفت لأنها لم تكن تعرف نقاط جمالها، ولأنني كنت أحبّ تلك المسحة الوردية البوتيشيليانية(*)، ذلك اللون الوردي حول الشفتين، وتلك الرموش الندية، ومن الطبيعي أن نزوتها الخجولة حرمتني من فرص عديدة لإبداء تعاطفي الخادع لها. لكن حدثت أمور أكثر مما كنت أتوقع. فعندما كنا جالسين في عتمة الشرفة (أطفأت ريح وقحة شموعها الحمر)، قالت هايز، بضحكة جافة، إنها أخبرت لوليتا بأن همبرت المحبوب يوافق على فكرة المخيّم

(*) ساندرو بوتيشيللي، ١٤٤٥-١٥١٠، من كبار الرسامين الإيطاليين في عصر النهضة، اشتهر بلوحاته الإيروتيكية في تصوير الأنثى. ويتجلى اللون الوردي بوضوح في ثلاث لوحات من لوحاته هي: «بريمافيرا» و«ولادة فينوس» و«الضحك في الظلام» - م.

Twitter: @ketab_n

برمتها «والآن»، أضافت هايز، «فقد غضبت الطفلة غضباً شديداً، بذريعة أننا نريد، أنا وأنتَ، أن نتخلّص منها؛ لكن السبب الحقيقي لغضبها هو أنني قلت لها إننا سنبدّل غداً بعض القمصان الداخلية المثيرة التي لا يليق بفتاة صغيرة أن ترتديها، والتي أرغمتني على شرائها إلى جانب أشياء أخرى. إنها تعتبر نفسها نجمة صغيرة، في حين أنني أعتبرها طفلة قوية البنية، تنعم بصحة جيدة، لكنها مجرد طفلة عادية. وأظن أن هذا هو السبب الرئيسي لمشاكلنا».

وفي يوم الأربعاء، كمنت للوليتا ولمحتها لثوان معدودة: كانت تقف في بئر الدرج، مرتدية قميصاً وشورتاً أبيض موشى باللون الأخضر، وهي منهمكة في البحث عن شيء في أحد الصناديق. قلت لها شيئاً وديّاً ومضحكاً لكنها أصدرت نخيراً من دون أن تنظر إليّ. وربّت همبرت المستميت، المحتضر، على عصعصها بطريقة خرقاء، فضربته، على نحو مؤلم، بقالب حذاء يعود للمرحوم السيد هايز، وقالت: «أيها المخادع ذو الوجهين»، فهبطتُ إلى الطابق السفلي، ورحت أفرك ذراعي مبدياً قدراً كبيراً من الندم. ولم تتنازل وتتناول العشاء مع همبرت وأمّها، بل غسلت شعرها وأوت إلى الفراش مع كتبها السخيفة. وفي يوم الخميس، أخذتها السيدة هايز الهادئة بالسيارة إلى مخيّم كيو.

وكما قال بعض المؤلفين ممن هم أعظم مني: «دع القرّاء يطلقون العنان لمخيلتهم»، وما إلى ذلك. واستدراكاً، يمكنني كذلك أن أعزّز هذه التخيّلات. أعرف أنني أحببت لوليتا إلى الأبد، لكنني أعرف أيضاً أنها لن تظل لوليتا إلى الأبد. فهي ستبلغ الثالثة عشرة في الأول من كانون الثاني (يناير). ولن تظل حوريّة بعد حوالى سنتين، بل ستصبح «صبيّة» ثمّ «فتاة جامعية» – يا للهول. إن عبارة «إلى الأبد» لا تدل إلا على مشاعري تجاه لوليتا الأبدية التي تجري في دمي. لوليتا التي لم

Twitter: @ketab_n

يتوسع عظم حوضها بعد، لوليتا التي لا يزال بإمكاني اليوم أن ألمسها وأتشمّمها وأسمعها وأراها، لوليتا ذات الصوت العالي النبرة، والشعر البني الكثيف - الانحناءات والالتواءات والضفائر على الظهر، والرقبة الحارة الدبقة، والألفاظ السوقية - «مقرف»، «رهيب»، «لذيذ»، «أحمق»، «ساذج» - لوليتا تلك، لوليتاي، التي سيفقدها كاتولوس المسكين إلى الأبد. لذلك كيف يمكنني احتمال عدم رؤيتها لمدة شهرين من الأرق الصيفي؟ شهران كاملان خلال السنتين اللتين ستظل خلالهما حورية! هل عليّ أن أتنكر في هيئة فتاة متجهّمة، الآنسة همبرت البلهاء، وأنصب خيمتي عند أطراف مخيّم كيو، بأمل أن تصرخ تلك الحوريات الخمريات اللون: «لنتبنّ هذه المشرّدة ذات الصوت العميق النبرة، ويسحبن بيرث ذات القدمين الكبيرتين والابتسامة الحية إلى المخيّم الريفي. وعندها تنام بيرث مع دلوريس هايز! أضغاث أحلام. شهران من الجمال، شهران من الرقة، ضاعا إلى الأبد، ولا يمكنني أن أفعل شيئاً حيال ذلك، لا شيء، لا شيء.

لكن نقطة العسل النادرة لم تستقر في قعر الكوب المصنوع من شجر البلوط في يوم الخميس ذاك. وكانت هايز ستوصلها بالسيارة إلى المخيّم في الصباح الباكر. وفي جلبة أصوات تناهت إليّ أثناء استعدادهما للرحيل، تدحرجت من السرير وألقيت نظرة من النافذة. كانت السيارة قد بدأت تتحرك تحت أشجار الحور. ووقفت لويز على الرصيف، تظلّل عينيها بيدها، وكأن المسافرة الصغيرة تمتطي شمس الصباح الخفيفة. وتبيّن أن هذه الإيماءة لم تكن في حينها.

«عجّلي»، صاحت هايز. وبينما كانت عزيزتي لوليتا على وشك أن تصفق باب السيارة، خفّضت زجاج نافذة السيارة، ولوّحت للويز ولأشجار الحور (التي لن تراها بعد الآن)، وقطعت حركة القدر: رفعت بصرها - وهرعت عائدة إلى البيت (وهايز تناديها غاضبة). وما

Twitter: @ketab_n

هي إلا لحظات، حتى سمعت صوت وقع قدمي حبيبتي وهي تصعد الدرج، فاتسع قلبي وتضخم حتى كاد أن يخنقني. ورفعت سروال بيجامتي، وفتحت الباب على مصراعيه، وفي الحال وصلت لوليتا، وهي ترتدي فستانها الذي ترتديه عادة يوم الأحد، تخبط بقدميها، لاهثة، ثم ارتمت بين ذراعَيّ، فمها البريء يذوب تحت ضغط فكّين شرسين لرجل كئيب، حبيبتي الخافقة! وفي اللحظة التالية، سمعتُ - لوليتا النابضة بالحياة، غير المغتصبة - ضجيجها في الطابق السفلي. لقد عادت حركة القدر إلى سابق عهدها.

دُفعت الساق الشقراء إلى داخل السيارة، ثم صُفق بابها - وصُفق مرة أخرى - ودفعت السائقة هايز العنيفة، الجالسة وراء المقود، التي تلوّت شفتاها الحمراوان المطاطيتان بكلام غاضب غير مسموع - حبيبتي إلى داخل السيارة. وراحت الآنسة العجوز صاحبة البيت المقابل، تلوّح بيدها الهزيلة، الضعيفة، من على شرفتها ذات العريشة، من دون أن ترياها أو تراها لويز.

١٦

كانت لوليتا العاجية لا تزال تملأ راحة يدي. وكنت مفعماً بملمس ظهرها الناعم الحريري المحدودب، ظهرت فتاة لمّا تبلغ سن الرشد، ذلك الإحساس العاجي الناعم السلس لبشرتها عبر فستانها الرقيق الذي رحت أتحسسّه من الأعلى إلى الأسفل وأنا أضمها بين ذراعيّ. فقد كنت قد تسللت إلى غرفتها التي تناثرت في جنباتها أشياؤها الكثيرة، وفتحتُ باب خزانة ثيابها، وغصتُ في كومة من الثياب المجعّدة التي لامست جسدها ذات يوم. ورأيت بين هذه الكومة ثوباً وردياً معيناً، مهلهلاً، ممزّقاً، تفوح منه رائحة لاذعة بعض الشيء. لففت فيه قلب

Twitter: @ketab_n

همبرت الضخم المحتقن، وفاضت في نفسي فوضى محزنة - لكن يتعين عليّ أن أترك هذه الأشياء، وأستعيد بسرعة رباطة جأشي، بعد أن تناهى إليّ صوت الخادمة المخملي وهي تناديني برقة من أسفل الدرج، وقالت إنها تحمل لي رسالة، وتوّجت شكري التلقائي لها بعبارة «لا شكر على واجب»، وتركت لويز في يدي المرتعشة رسالة نظيفة لا يوجد عليها طابع.

إن هذا اعتراف. أحبّك [هكذا بدأت الرسالة، ولوهلة من الاضطراب والتشويش، خيّل إليّ لبرهة أن هذه الخربشات الهستيرية ما هي إلا خربشات كُتبت بخط تلميذة مدرسة]. ففي الكنيسة، يوم الأحد الماضي - أيها الشرير، يا من رفضت أن تأتي لرؤية نوافذنا الجديدة الجميلة! - وفي يوم الأحد الماضي فقط، يا عزيزي، عندما سألت الرب ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك، فطلب مني أن أتصرّف كما أتصرّف الآن. وكما ترى، ما من بديل. فقد أحببتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها. إني امرأة عاطفية ووحيدة، وأنت حبّ حياتي.

تكون الآن، يا أعزّ أعزائي، يا عزيزي، يا سيدي العزيز، قد قرأت هذه الرسالة. لذلك، أرجو أن تحزم أغراضك، في الحال، وأن تغادر. إن هذا الطلب صادر من صاحبة البيت. فقد ألغيت عقد الإيجار. أريدك أن تخرج من البيت. اذهب! انصرف في الحال! غادر! سأصل عند العشاء، إذا قدت سيارتي بسرعة ثمانين ميلاً في رحلة الذهاب والإياب، ولم أتعرّض لأي حادث (لكن ماذا في ذلك؟) فأنا لا أريد أن أراك في البيت. أرجوك، أرجوك غادر على الفور، وأرجو ألا تكمل قراءة هذه الرسالة السخيفة حتى نهايتها. غادر . الوداع.

إن الأمر في غاية البساطة يا عزيزي. بالطبع، إنني على ثقة تامة من أنني لا أعني شيئاً بالنسبة لك، لا شيء على الإطلاق بالنسبة لك، لا شيء على الإطلاق. نعم، إنك تستمتع بالتحدث معي (وتمازحني)،

Twitter: @ketab_n

وأعرف أنك أحببت بيتنا، وأحببت الكتب التي أحبّها، وحديقتي الجميلة، بل أصبحت مولعاً بتصرفات لوليتا الصاخبة - أما أنا فلا أعني لك شيئاً. صحيح؟ صحيح. لا شيء بالنسبة لك البتة. لكنك إذا قررت، بعد أن تفرغ من قراءة «اعترافي»، بطريقتك الأوروبية الرومانسية المتجهمة، أنني امرأة جذّابة بالنسبة لك، وبدأت تستغل رسالتي هذه وتغازلني، عندها ستكون مجرماً - بل أسوأ من خاطف يغتصب طفلة. أما إذا قرّرت البقاء يا عزيزي، وإذا وجدتك في البيت (وأنا أعرف أنني لن أراك - وهذا ما جعلني أتابع كلامي بهذه الطريقة)، فإن بقاءك يعني شيئاً واحداً فقط: وهو أنك تريدني كما أريدك: رفيقاً طول العمر، وأنك على استعداد لربط حياتك بحياتي إلى أبد الآبدين، وأنك تريد أن تصبح أباً لابنتي الصغيرة.

دعني أمضي في هذياني قليلاً، يا أعزّ أعزائي، لأنني أعرف أنك مزّقت رسالتي هذه الآن، ورميت قصاصاتها (غير المفهومة) في دوّامة المرحاض. يا أعزّ أعزائي، يا أحبّ أحبائي، يا له من عالم عظيم من الحبّ ذلك الذي شيّدته لك في شهر حزيران (يونيه) الرائع! أعرف أنك رجل محافظ جداً، كم أنت «بريطاني». صمتك الذي ينتمي إلى العالم القديم، قد تصدم إحساسك بالحشمة واللباقة صراحة امرأة أمريكية! أنت يا من تخفي أقوى مشاعرك، لا بد أنك ستقول إنني امرأة غبية قليلة الحياء، لأنني فتحت لك قلبي المكلوم على مصراعيه بهذه الطريقة. ففي السنوات الماضية، تعرضت لإحباطات كثيرة. فمع أن السيد هايز كان رجلاً رائعاً، له روح من ذهب، فقد كان يكبرني بعشرين عاماً، و- حسناً، دعنا لا نثرثر عن الماضي. عزيزي، لا بد أن تشبع فضولك لو تجاهلت طلبي وقرأت هذه الرسالة حتى نهايتها المرّة. لا يهم. أرجو أن تتلفها وأن تغادر. لا تنس أن تترك المفتاح على المنضدة في غرفتك. واترك لي عنواناً لكي أرسل لك الاثني عشر

Twitter: @ketab_n

دولاراً التي أدين بها لك حتى نهاية الشهر. الوداع أيها العزيز. صلِّ من أجلي - إن كنت تصلّي.

ش. هـ

إن ما أعرضه هنا هو ما أتذكّره من تلك الرسالة، وما أتذكّره من تلك الرسالة، أتذكّره حرفيّاً (بما في ذلك العبارات التي كتبتها بلغة فرنسية ركيكة). فقد كانت أطول من ذلك مرّتين على الأقل. وقد حذفت مقطعاً غنائياً كنت قد تجاوزته تقريباً آنذاك، يتعلّق بأخ لوليتا الذي مات وهو في الثانية من عمره، عندما كانت لوليتا في الرابعة، وكم كنت سأحبّه لو بقي حياً. دعوني أرى ما الذي يمكنني أن أتذكره من أشياء أخرى؟ نعم. قد تكون «دوّامة المرحاض تلك» (حيث لقيت الرسالة مصيرها) من بنات أفكاري، فلعلها رجتني أن أضرم ناراً صغيرة وأحرقها.

كانت أول ردة فعل لي هي أن اعتراني شعور بالنفور والتقهقر. أما ردة الفعل الثانية، فكانت أشبه بيد صديق هادئة استرخت على كتفي وطلبت مني أن أتمهّل وأن آخذ وقتي، وهذا ما فعلته حقاً. وعندما صحوت من ذهولي وجدت نفسي لا أزال في غرفة لوليتا. كان هناك إعلان مطبوع على صفحة كاملة مستلاً من مجلة مصقولة ملصقاً على الحائط فوق السرير، بين صورة مغني روك وصورة ممثلة سينمائية، تعرض صورة زوج شاب أسود الشعر في عينيه الآيرلنديتين نظرة جامدة، يرتدي ثوباً من تصميم دار الأزياء الفلانية، ويحمل بيده صينية في شكل جسر من تصميم كذا وكذا، عليها طعام فطور معدّ لشخصين. وكان التعليق في أسفل الصورة للأب توماس موريل يدعوه «البطل المنتصر». أما السيدة المغلوبة (وهي لا تظهر في الصورة) فمن المفترض أنها كانت تنهض قليلاً لتمسك بالنصف الذي يخصّها من

Twitter: @ketab_n

الصينية. ولم يكن من الواضح كيف يمكن لشريكها في الفراش أن يقوّس نفسه تحت الجسر من دون أن يقبّلها. وكانت لوليتا قد رسمت سهماً ساخراً متجهاً إلى وجه الحبيب الشاحب، وكتبت بحروف كبيرة «هـ. هـ.» وفي الحقيقة، على الرغم من الفرق في العمر بيننا ببضع سنوات، فقد كان الشبه شديداً. وكانت تحت هذه الصورة صورة أخرى، تصوّر أيضاً إعلاناً ملوّناً لكاتب مسرحي مشهور يدخّن سيجارة «درومز» وسحنته جدّية. كان يدخّن سجائر «درومز» على الدوام. كان الشبه طفيفاً. وتحت هذه الصورة يقبع سرير «لو» الذي تناثرت فوقه المجلات المصورة بالرسوم. وكان الطلاء قد تقشّر من هيكل السرير، مخلّفاً علامات مستديرة سوداء فوق اللون الأبيض. وبعد أن أقنعت نفسي بأن لويز قد غادرت، صعدت إلى سرير لوليتا وقرأت الرسالة ثانية.

١٧

السادة أعضاء هيئة المحلفين، لا أستطيع أن أقسم بأن بعض الدوافع التي تتعلق بالقضية المعروضة - إن كان لي أن أسكّ هذا التعبير - لم تخطر ببالي من قبل. فلم يحتفظ بها عقلي بأيّ شكل منطقي أو بأيّ شيء يرتبط بمناسبات معينة يمكنني أن أتذكرها، لكنني أستطيع أن أقسم - دعوني أكرر- بأنني لم أعبث بها (لأختلق تعبيراً آخر للمرة الثانية)، في عتمة أفكاري، في ظلمة شهواتي. وربما مرّت أوقات - لا بد أن تكون هناك أوقات، لو كنت أعرف همبرت هذا - عندما بدأت أمحّص فكرة الزواج من أرملة ناضجة (أقول، شارلوت هايز) لم يبق لها أقارب في هذا العالم الرمادي الشاسع، لكي يخلو لي الجو مع طفلتها (لو، لولا، لوليتا). حتى أنني مستعد لأن أعلم جلاديَّ، بأنني

Twitter: @ketab_n

ألقيت، مرة أو مرتين، نظرة باردة بعين المتفحّص على شفتي شارلوت المرجانيتين، وشعرها البرونزي، وشقّ ثوبها الواسع كثيراً، وحاولت بغموض أن أدخلها في حلم يقظة مقبول. وإني أعترف بذلك وأنا تحت التعذيب. ربما تعذيب متخيّل، لكنه مروّع. وأودّ أن أستطرد وأحدّثكم المزيد عن الرعب الليلي الذي كان يثير فزعي في الليل، بعد أن تذكّرت عبارة خاطفة كنت قد صادفتها خلال قراءاتي العشوائية في فترة طفولتي، مثل «عذاب قاس ومتواصل» (أي عبقرية من عبقريات الألم التي استنبطت ذلك!) أو الكلمات المخيفة، الغامضة، الماكرة «صدمة»، «حادث يفضي إلى صدمة» و«عارضة». لكن في حكايتي ما يكفي من الاضطراب والتفكك.

بعد قليل مزّقت الرسالة وتوجهت إلى غرفتي، وطفقت أجترّ أفكاري، وأخلل شعري بأصابعي، وارتديت مبذلي الأرجواني اللون، وانطلقت تنهيدة من خلال أسناني المطبقة، وفجأة - فجأة، أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين، أحسست بظهور ابتسامة دوستويفسكية عريضة (من خلال الابتسامة العريضة ذاتها التي غلّفت شفتيّ) مثل شمس بعيدة وفظيعة. تخيّلت (في ظروف رؤية جديدة ومثالية) كلّ المداعبات العرضية التي يستطيع زوج أمّ لوليتا أن يغدقها على لوليتاه. سأضمها إليّ ثلاث مرات في اليوم، كلّ يوم. وستتبدد جميع متاعبي، وأصبح رجلاً وافر الصحة. «أُجلسكِ برفق على ركبة لطيفة وأطبع قبلة على خدك الأسيل، قبلة أب...» همبرت الذي يعرف الكثير.

ثمّ، وبكل ما أوتيت من حذر، وكما يقال، على أطراف أصابع العقل، تصوّرت شارلوت زوجتي. أقسم بالله، يمكنني أن أرغم نفسي على أن أحضر لها ثمرة ليمون الجنة، مشطورة إلى شريحتين، طعام فطور خالٍ من السكر.

إن همبرت همبرت الذي ينضح عرقاً غزيراً تحت الضوء الأبيض

Twitter: @ketab_n

الساطع، والذي يصرخ رجال الشرطة المتعرقون في وجهه ويركلونه بأقدامهم، مستعد الآن للإدلاء «بتصريح» آخر (يا لها من كلمة) بينما يقلب ضميره من الداخل إلى الخارج، ويمزّق أعمق أعماق بطانته. فأنا لم أخطّط للزواج من شارلوت المسكينة لأتخلّص منها بأبشع الأساليب وأشدها رعباً وخطورة، كأن أقتلها بأن أذيب خمس حبات من ثاني كلوريد الزئبق في مشروب الشيري الذي تتناوله عادة قبل الطعام، أو أي شيء من هذا القبيل، لكن فكرة صيدلانية تردد صداها في عقلي الغائم الذي لم يكفّ عن الطنين. لماذا أقصر نفسي على المداعبة المقنعة البسيطة التي أحاول القيام بها؟ وقد تراءت لي رؤى أخرى متمايلة ومبتسمة. فقد رأيت نفسي أقدّم للأمّ وابنتها جرعة منوّمة لكي أتمكّن من ملاطفة الابنة في الليل، من دون أن ينالني أي عقاب. كان شخير شارلوت يملأ أرجاء البيت، في حين لا تكاد أنفاس لوليتا تُسمع وهي نائمة، ترقد ساكنة مثل طفلة في لوحة فنان. «أمّاه، أقسم بأن كيني لم يحاول حتى أن يلمسني». «إما أنك تكذبين، يا دولوريس هايز، أو أن روحاً شريرة هي التي زارتك في المنام». «لا، لن أذهب إلى ذلك الحدّ».

لذلك خطط همبرت، الروح الشريرة، سراً وحلماً - أخذت شمس الشهوة المتّقدة والقرار (وهما الشيئان اللذان يخلقان عالماً حيّاً) يعلوان ويعلوان، بينما كانت تقف فوق سلسلة الشرفات المتتالية مجموعة من الخلعاء المتعاقبين، يحملون بأيديهم كؤوساً متلألئة، ويتبادلون نخب الليالي الهانئة في الماضي والمستقبل. ثمّ، مجازاً، هشّمت الكؤوس، وتخيّلت بجرأة (لأن هذه الرؤى أثملتني آنذاك، وأضعفت من رقة طبيعتي) كيف يمكنني أن أبتزّ، في النهاية - لا، إنها كلمة قوية جداً - أبتزّ هايز الكبيرة لأتقرّب من هايز الصغيرة، بتهديد الحمامة الكبيرة الخرفة المسكينة بهجرها إذا حاولت أن تمنعني من

Twitter: @ketab_n

اللعب مع ابنة زوجتي (ربيبتي) بحسب القانون. باختصار، قبل أن أتقدم بهذا العرض المدهش، أمام هذه المشاهد الشاسعة والمتنوعة، كنت عاجزاً مثل آدم في كتب تاريخ الشرق المبكرة، ظهرتُ مثل سراب في بستانه المليء بأشجار التفاح.

والآن دوّنوا الملاحظة المهمة التالية: كانت للفنان في داخلي اليد العليا على الرجل المحترم. وببذل جهد كبير من الإرادة، تمكّنت من التوفيق بين أسلوبي في هذه المذكرات وأسلوب اليوميات التي أدوّنها، حيث كانت السيدة هايز هي العقبة الوحيدة في طريقي. ولم تعد اليوميات التي كنت أدوّنها موجودة، لكنني اعتبرت أن من واجبي الفني الاحتفاظ بنبرتها مهما بدا أنها مزيفة وفظة،كما تبدو لي الآن. ولحسن الحظ، فقد وصلت قصتي إلى نقطة تمكّنت عندها من التوقف عن إهانة شارلوت المسكينة لهدف كان يبدو لي حقيقياً في الماضي.

بأمل أن أوفّر على شارلوت المسكينة ساعتين أو ثلاث ساعات من الإثارة والترقّب أثناء قيادتها في طريق متعرّج (وأتفادى، ربما، صداماً مباشراً قد يحطّم أحلامنا المختلفة)، بذلت محاولة رصينة، لكنها كانت فاشلة، لمخابرتها في المخيّم. لكنهم قالوا لي إنها غادرت منذ نصف ساعة، فتكلمت مع لوليتا وأخبرتها - مرتجفاً ومزهواً بنفسي بأنني تمكنت من قهر القدر - بأنني سأتزوّج أمّها. وكان عليّ أن أكرّر ذلك مرّتين لأن شيئاً ما كان يحول دون تركيز انتباهها على ما كنت أقوله لها. «ياه، هذا رائع»، قالت وهي تضحك؛ «ومتى ستقيمان حفل الزفاف؟ انتظر ثانية، هذا الجرو - إن هذا الجرو يعضّ جوربي. اسمع -»، وأضافت أنها تعرف بأنها ستجد الكثير من المتعة... وأدركتُ بعد أن أنهيت المكالمة أن ساعتين في ذلك المخيّم تكفيان لإزالة صورة همبرت همبرت الوسيم من عقل لوليتا الصغيرة لتحلّ محلها انطباعات جديدة. لكن ماذا يهمّ الآن؟ إذ إنني سأستعيدها بعد

Twitter: @ketab_n

فترة من انتهاء الزفاف. «بعد أن تذوي أزهار البرتقال فوق القبر»، كما يقول أحد الشعراء. لكنني لست شاعراً، بل مجرد مدوّن يتمتع بدرجة عالية من الوعي.

بعد أن ذهبت لويز، فتّشت في الثلاجة، وعندما وجدتها شبه فارغة، توجهت إلى البلدة واشتريت أغلى أنواع الأطعمة المتوفرة. واشتريت كذلك بعض المشروبات الجيدة، ونوعين أو ثلاثة أنواع من الفيتامينات. فقد كنت واثقاً من أنني أستطيع، بمساعدة هذه المحفّزات بالإضافة إلى إمكانياتي الطبيعية، أن أتفادى أيّ حرج قد تسببه لامبالاتي عند استدعائها لكي أظهر عاطفة مشبوبة ملولة. واستحضر همبرت الداهية إلى مخيّلته، المرة تلو المرة، شارلوت بأفضل ما يمكن أن تظهر فيه في المخيّلة الجنسية الذكورية. إذ يمكنني القول إنها امرأة أنيقة، بهية، ولعلها كانت الأخت الكبيرة للوليتاي - وربما استطعت استغلال هذه الفكرة إلى أبعد الحدود، لو لم أتصوّر، بواقعية شديدة، عجيزتها الثقيلة، وركبتيها المستديرتين، وصدرها العامر، وجلد رقبتها الوردي الخشن («خشن» بالمقارنة مع الحرير والعسل) وكلّ ما تبقّى من ذلك الشيء المؤسف والمملّ: امرأة جميلة.

وأكملت الشمس دورتها المعتادة حول البيت بعد أن استحال العصر مساء. احتسيت كأساً، ثمّ كأساً أخرى، وأخرى. مزيج من شراب الجين وعصير الأناناس، المزيج الأثير لديّ، الذي يضاعف دائماً من طاقتي. قرّرت أن أشغل نفسي بجزّ عشب حديقتنا الذي كان مهملاً. اهتمام غير جدي. فقد كانت تعلو الحديقة أعشاب الهندباء. وكان هناك كلب لعين - إني أمقت الكلاب - قد لوّث الأحجار المسطحة الملساء التي كانت تزيّنها قبل ساعة شمسية. وتحوّلت معظم نباتات الهندباء من شموس إلى أقمار. كان مشروب الجين ولوليتا يتراقصان في مخيّلتي، وكدت أسقط فوق الكراسي القابلة للطيّ التي

Twitter: @ketab_n

كنت أحاول إزاحتها، المخططة مثل الحمير الوحشية الوردية اللون! ويدأ يتناهى إليّ صوت تجشؤات بدت كأنها هتافات - على الأقل، بدت تجشؤاتي كذلك. وكان هناك سياج قديم ينتصب خلف الحديقة يفصلنا عن حاويات قمامة الجيران وزنابقهم، لكن لم يكن هناك شيء يفصل بين نهاية حديقتنا الأمامية (حيث تنحدر على أحد جوانب البيت) والشارع. لذلك كان بوسعي مراقبة (بابتسامة شخص على وشك أن يؤدّي عملاً جيداً) عودة شارلوت: يجب قلع ذلك الضرس على الفور. وعندما أخذت أدفع مترنحاً جزازة العشب، راحت نثارات العشب تتطاير في أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، ورحت أراقب ذلك الجزء من الشارع في الضواحي، الذي ينحني تحت قوس من أشجار الظلّ الضخمة، ثمّ يتجه صوبنا إلى الأسفل، الأسفل، بانحدار شديد، مجتازاً بيت الآنسة صاحبة البيت المقابل المشيّد من الآجر، الذي له حديقة عالية منحدرة، شُذِّب عشبها، بخلاف عشب حديقتنا المرتفع الذي يختفي وراء شرفتنا الأمامية، والذي لم أعد أراه من المكان الذي تجشّأت فيه حيث كنت أعمل سعيداً. لقد ذبلت نباتات الهندباء ويبست. وكانت رائحة النسغ العفنة ممتزجة برائحة الأناناس. وكانت الفتاتان الصغيرتان، ماريون ومايبيل، اللتان كنت قد بدأت ألاحقهما مؤخراً في رواحهما وغدوهما منذ فترة من الزمن (لكن من تستطيع أن تحلّ محل لوليتاي؟) تتجهان صوب الجادة (التي يتشعب منها شارعنا، شارع لوون ستريت)، إحداهما تدفع دراجة عادية، والأخرى تأكل من كيس ورقي، وكلتاهما تتحدث بأعلى صوتها المشرق. أما ليزلي، البستاني وسائق الآنسة العجوز صاحبة البيت المقابل، وهو زنجي لطيف له جسم رياضي، فقد ابتسم لي ابتسامة عريضة من بعيد وصاح، وصاح ثانية، معلّقاً بإيماءة، بأنني أبدو في غاية الحيوية والنشاط اليوم. وجرى كلب بائع الخردوات الناجح الأحمق الذي يقيم في البيت

Twitter: @ketab_n

المجاور وراء سيارة زرقاء - لم تكن سيارة شارلوت. وجرت أجمل الفتاتين الصغيرتين (أظن أنها مايبيل) - التي كانت ترتدي شورتاً، وقميصاً لا يستر قدراً كبيراً من لحم جسمها، بشعرها اللامع، يا إلهي - في الشارع وراحت تجعّد الكيس الورقي بيدها، وسرعان ما اختفت عن عيون العنزة الخضراء هذه وراء منزل السيد والسيدة همبرت. ثم ظهرت شاحنة صغيرة من بين أشجار الشارع الوارفة التي تلقي بظلها، ساحبة شيئاً من هذا الظل فوق سطح الشاحنة قبل أن يتمزق، وتأرجحت بسرعة سخيفة، وكان السائق الذي غمر العرق قميصه، يمسك بيده اليسرى سقف الشاحنة، وراح كلب تاجر الخردة يجري بجانبها. توقّف مبتسماً -وفي صدري ارتعاشة ، رأيت السيارة الزرقاء تعود، ورأيتها تهبط المنحدر، وتختفي وراء ناصية البيت. ولمحت جانب وجهها الشاحب الهادئ، وتراءى لي أنها بدأت تصعد الدرج، وهي لا تعرف هل غادرت أم لا. وبعد دقيقة، وبقسمات تشي بألم شديد على وجهها، نظرت إليّ من نافذة غرفة لوليتا. ولما هرعت إلى الطابق العلوي، وصلت إلى تلك الغرفة قبل أن تغادرها.

١٨

عندما تكون العروس أرملة والعريس أرملاً، وعندما تكون العروس قد عاشت في «بلدتنا الصغيرة العظيمة» مدة لا تتجاوز السنتين، ولم يمض على العريس فيها شهر واحد، وعندما يريد المسيو أن ينهي الأمر بأسرع وقت ممكن، وعندما تقبل المدام ذلك بابتسامة متسامحة، عندها يكون الزفاف، أيها القارئ العزيز، مجرد احتفال «هادئ». عندها تتخلى العروس عن تاج زهر البرتقال الذي يشبك حجابها الرقيق، ولا تحمل شاشاً أبيض في كتاب الصلاة. وقد تضيف ابنة العروس الصغيرة

Twitter: @ketab_n

نكهة حيوية إلى مراسم زواج همبرت همبرت. لكنني كنت أعرف أنني لن أجرؤ على أن أبدي رقة شديدة مع لوليتا التي وقعت في الشرك، لذلك، رأيت أنه ليس من المناسب الآن انتشال الطفلة من المخيّم الذي تحبه.

كانت شارلوت الآنفة الذكر، العاطفية والوحيدة، تعيش حياة عادية كالتي تعيشها أي امرأة واقعية واجتماعية. واكتشفت أنها، بالرغم من أنها لم تكن تستطيع التحكم بقلبها أو صيحاتها، كانت امرأة متديّنة. فبعد أن أصبحت عشيقتي (على الرغم من المحفّزات، واجه حبيبها المتوّتر المتلهّف في البداية مشكلة ذكورية، عوّضها بإبداء قدر كبير من التقرّب منها والتحبّب بأسلوب العالم القديم)، وسألتني شارلوت الطيبة عن علاقتي بالله، وكان بإمكاني أن أجيبها بأنني رجل منفتح العقل في هذا الأمر؛ لكنني بدلاً من أن أتخذ موقفاً تقياً، قلت لها إنني أؤمن بروح كونية. وسألتني كذلك وهي تحدّق في أظافرها، هل يشوب سلالتي عرق غريب، فأجبتها بأن سألتها هل ستظل ترغب في الزواج مني لو كان جدّي لأمي تركياً، فقالت إن ذلك لا يهمها، لكنها إذا اكتشفت يوماً بأنني لا أؤمن بربنا المسيحي، فإنها ستقتل نفسها. وجعلتني الجدية التي قالتها بها، ارتعش فزعاً، فعرفت أنها امرأة متديّنة.

كانت شارلوت امرأة في غاية اللطافة، فقد كانت تقول: «اعذرني» عندما تقطع حديثها المسترسل بتجشؤة طفيفة، وكانت تلفظ «هنظروف» بدلاً من «مظروف» وعندما كانت تتحدث مع صديقاتها، كانت تناديني «السيد همبرت». وخيّل إليّ أنها ستكون سعيدة جداً عندما تدخل المجتمع بعد أن تضفي عليّ شيئاً من الفتنة والسحر. وفي يوم زفافنا، نشرت مقابلة صغيرة أجريت معي في باب المجتمع في مجلّة رامسدال، إلى جانب صورة شارلوت، وهي عابسة، وكان فيها خطأ مطبعي في

Twitter: @ketab_n

كتابة اسمها («هازير»). ومع أن ذلك كان أمراً محرجاً، فقد أثلجت هذه المقالة صدرها. إذ تمكّنت شارلوت، بعد حوالى عشرين شهراً، من خلال مشاركتها في أعمال الكنيسة وتعرّفها على أمهات زميلات لوليتا في المدرسة، من أن تصبح مواطنة مقبولة لدى أهالي البلدة، هذا إن لم تكن قد أصبحت امرأة بارزة فيها، لكنها لم تكن لتحظى بفرصة نشر صورتها في المجلة، لولاي، أنا السيد إدغار همبرت (أضفت اسم «إدغار» لزيادة الإثارة)، «الكاتب والمستكشف». وسألني أخو ماكو، عندما كان يجري معي اللقاء، عن مؤلفاتي، ومهما قلت له في ذلك اللقاء، فقد قلت إنني ألّفت «عدّة كتب عن بيكوك ورامبو بالإضافة إلى شعراء آخرين». كما ذكرت المقالة أننا، أنا وشارلوت، نعرف بعضنا بعضاً منذ عدة سنوات، وبأنني أحد أقرباء زوجها الأول. وألمحت إلى أننا كنا على علاقة غرامية منذ ثلاث عشرة سنة، لكن ذلك لم يرد في المقابلة. وقلت لشارلوت إنه توجد أخطاء كثيرة في باب المجتمع في المجلة.

لنواصل رواية هذه الحكاية الغريبة. ألم تعترني مشاعر المرارة والنفور عندما دعيت للتمتع بترقيتي من مرتبة مستأجر إلى مرتبة عشيق؟ لا. فقد شعر السيد همبرت بدغدغة في كبريائه، بشيء من الرقة الواهية، حتى بشيء من الندم الذي يسري برقة فوق فولاذ خنجره التآمري. ولم يخطر لي قط أن السيدة هايز، السخيفة نوعاً ما، الأنيقة بعض الشيء، بإيمانها الأعمى بحكمة كنيستها، ونادي الكتب الذي تنتسب إليه، وطريقتها المتكلفة في الكلام، وموقفها المتسم بالبرودة والقسوة والاحتقار إزاء طفلة لها ذراعان ناعمتان يغشاهما الزغب، في ربيعها الثاني عشر، قد تتحوّل إلى مخلوقة رقيقة مستسلمة، ما إن وضعت يديّ عليها عندما كنا واقفين على عتبة غرفة لوليتا وراحت تردد وهي ترتعش: «لا، لا، أرجوك لا».

Twitter: @ketab_n

لقد أدى هذا التحوّل إلى تحسّن مظهرها. فقد أضحت ابتسامتها المصطنعة تشي بألق إعجاب شديد - ألق فيه شيء من الطراوة والندى، تذكرتُ فيها، بدهشة، شبهاً بنظرات «لو» الجميلة، الساهمة، الفارغة، الرائعة، التي تبدو عليها عندما تريد أن تحصل على نوع جديد من الصودا، أو عندما تبدي بصمت إعجابها بثيابي الغالية، ثيابي الجديدة التي كنت أفصّلها دائماً على مقاسي. وكنتُ أراقب شارلوت بإعجاب شديد وهي تتبادل المشاكل الأبوية مع سيدة أخرى، وتبدي ذلك التجهّم الوطني من الاستسلام الأنثوي (عينان تتدحرجان إلى الأعلى، وفم يلتوي إلى أحد الجانبين) ذلك التعبير، بشكله الطفولي، الذي كنت أراه يرتسم على وجه لوليتا. وكنا نحتسي كأساً من النبيذ قبل أن نأوي إلى الفراش، وبعون هذه الكأس، كنت أستحضر إلى مخيّلتي الطفلة وأنا أداعب الأمّ، وأقول لنفسي إن حوريّتي كانت تقبع في هذه البطن البيضاء مثل سمكة صغيرة مكوّرة في سنة ١٩٣٤. وكان هذا الشعر المصبوغ بعناية، العقيم إزاء حاسّتَي الشم واللمس، يكتسب في بعض اللحظات المضاءة بنور خافت على السرير، لون ضفائر لوليتا، إن لم يكن قوامها. ولم أنفك أقول لنفسي، إن وجودي مع زوجتي الجديدة الضخمة ضخامة الحياة هو الوسيلة الوحيدة للتقرب من لوليتا من الناحية البيولوجية؛ وأن شارلوت، عندما كانت في عمر لوليتا، كانت تلميذة مشتهاة مثل ابنتها، وكما ستكون لوليتا ذات يوم. وطلبت من زوجتي أن تنبش من تحت مجموعة من الأحذية (فقد كان السيد هايز مولعاً بالأحذية، كما يبدو) ألبوم صور يعود إلى ثلاثين سنة، لكي أرى كيف كانت تبدو «لو» في طفولتها؛ وعلى الرغم من أنّ الضوء كان خافتاً، وثوبها تعوزه الأناقة، تمكّنت من تبين نسخة أولى واهية من هيئة لوليتا: الساقان، عظام الخدّ، الأنف المشمور إلى الأعلى. لوتيليتا، لوليتشين.

Twitter: @ketab_n

وهكذا رحت أسترق النظر من فوق السياج إلى النوافذ الصغيرة الباهتة. ومن خلال المداعبات الشهوانية، التافهة، الحيوية، على نحو يدعو للرثاء، كانت تهيّئني، هي ذات الحلمة الفخمة، والفخذ المكتنزة، لأتمكن من أداء واجبي الليلي، محاولاً بشكل يائس أن ألتقط رائحة الحورية، كنت أنبح من وراء الأشجار القصيرة المتشابكة في الغابات التي ينخرها الظلام.

لا أستطيع أن أخبركم مدى لطف زوجتي المسكينة وطيبتها. وعند الإفطار، في المطبخ البرّاق بكآبة، وبريق الكروم، وتقويم شركة Hardware and Co.، والركن المعدّ لتناول الفطور الجميل (مقلدين مقهى «كوفي شوب» حيث كانت شارلوت وهمبرت يهدلان كحمامتين معاً في أيام الجامعة)، كانت تجلس، مرتدية رداء أحمر، تسند مرفقها إلى الطاولة المكسوة بغطاء بلاستيكي، وخدّها مستند على قبضتها، وهي تشملني بعينيها بحنان شديد، وأنا ألتهم شريحة لحم الخنزير والبيض. وكان وجه همبرت ينتفض بعصبية، لكنها كانت تراه جميلاً وحيوياً، وكانت أشعة الشمس المتسللة، وظلال أوراق الأشجار تتموج فوق الثلاجة البيضاء. وكانت ترى في حنقي المهيب حباً صامتاً، وكانت ترى أن دخلي المتواضع مضافاً إلى دخلها الأكثر تواضعاً، ثروة رائعة؛ لا لأن المبلغ المتجمع كان يكفينا الآن لشراء معظم احتياجات الطبقة المتوسطة فحسب، بل لأن نقودي كانت تلمع كذلك في عينيها بسحر رجولتي، وكانت ترى حسابنا المشترك مثل إحدى الجادات الجنوبية، في منتصف النهار، المظلّلة بشدة من جهة، وأشعة الشمس الناعمة على الجانب الآخر، على امتداد الطريق حتى نهاية المشهد، حيث تبدأ تلوح جبال وردية.

وخلال الأيام الخمسين التي عشناها كزوجين، كثّفت شارلوت نشاطات سنوات عديدة سالفة. فقد شغلت المرأة المسكينة نفسها بعدة

Twitter: @ketab_n

أشياء لم تعد تقوم بها منذ زمن بعيد، أو بأشياء لم تعد تبدي بها اهتماماً، وكأنني (لأطيل الترانيم البروستية هذه) بزواجي من أمّ الطفلة التي أحببتها، مكّنت زوجتي من أن تستعيد قدراً كبيراً من الشباب بالوكالة. وبحماسة عروس شابة مبتذلة، بدأت «تمجّد البيت»، مع أنها تعرف، كما أعرف أنا، عن ظهر قلب كلّ شقّ، وكلّ زاوية - منذ تلك الأيام عندما كنت، وأنا جالس على كرسيٍّ، أرسم في عقلي مخطط سير لوليتا في أرجاء البيت - قد بدأت منذ فترة طويلة نوعاً من العلاقة العاطفية معه، بقباحته وشدة قذارته، وأكاد أشعر الآن بالشيء التعس، متردداً في تحمّل الحمّام المليء بالأوساخ الذي كانت شارلوت تزمع أن تهيئه له.

لكنها لم تفعل ذلك، حمداً الله، فقد استهلكت قدراً كبيراً من طاقتها في غسيل خصاص النوافذ، وصقل ألواح الستائر المعدنية، وفي شراء خصاص نوافذ جديدة، وستائر جديدة، وإرجاعها إلى المحل الذي اشترتها منه، واستبدالها بأخرى، وما إلى ذلك، بطريقتها الدائمة من الابتسامات والاستهجانات والشكوك وزمّ الشفتين، لتغيّر ألوان الأريكة - الأريكة المقدّسة حيث تفجّرت عليها ذات يوم فقاعة الجنة بحركة بطيئة في داخلي. وكانت تدأب على إعادة ترتيب الأثاث، وسعدت عندما قرأت في مقالة في إحدى المجلات المنزلية «أنه من الممكن فصل صوانين عن المصابيح المرافقة لهما». وبفضل مؤلفة كتاب «بيتك هو أنت»، أصبحت تكرَه الكراسي الهزيلة الصغيرة والمناضد الرفيعة. وأصبحت ترى أن الغرفة التي توجد فيها فسحة كبيرة من الزجاج، والكثير من ألواح الخشب، هي مثال للطراز الذكوري للغرف، في حين أن الطراز الأنثوي يتسم بوجود نوافذ مضيئة وإطارات خشبية أرقّ. واستُبدلت الروايات التي كانت تقرأها عندما انتقلت إلى بيتها، بكتالوغات مصوّرة للديكور وترتيب الأثاث. وطلبت من شركة

Twitter: @ketab_n

تقع في شارع روزفلت ٤٦٤٠ في فيلادلفيا، «فرشة يكسوها قماش أحمر ضارب إلى الرمادي»، لسريرنا المزدوج - مع أن الفرشة القديمة كانت تبدو لي مرنة ومتينة وقادرة على حمل ما يكفي حمله.

كان مسقط رأسها في منطقة الغرب الأوسط، مثل زوجها الراحل، ولم تعش في رامسدال الخجولة، جوهرة الولاية الشرقية، فترة طويلة تمكنها من التعرف على جميع سكانها اللطفاء على معرفة ضئيلة بطبيب الأسنان البشوش الذي يقيم في كوخ خشبي متداع وراء حديقتنا. وكانت قد التقت في إحدى حفلات الشاي في الكنيسة، تلك الزوجة «المتعجرفة»، زوجة بائع الخردوات صاحب بيت الرعب الأبيض «الكولونيالي» عند ناصية الجادة. وكانت بين الحين والآخر، تزور الآنسة العجوز، صاحبة البيت المقابل، لكن أكثر النساء الأرستقراطيات كانت تزورهن، أو تلتقي بهن أثناء عملها في الحديقة، أو تدردش معهن على الهاتف، كنّ سيدات لطيفات مثل السيدة غلايف، والسيدة شريدان، والسيدة ماكريستال، والسيدة نايت، وأخريات، كان يبدو أنهن نادراً ما يزرن زوجتي شارلوت المهملة. وفي الحقيقة، كان الزوجان الوحيدان اللذان كانت لها معهما علاقات ودية حقيقي، مجردة من أيّ أفكار مستترة، أو بصيرة عملية، هما السيد والسيدة فارلو اللذين عادا لتوهما من رحلة عمل قاما بها إلى تشيلي، لكي يحضرا خصيصاً حفل زفافنا، مع أسرة تشاتفيلد، وماكو، وبضع أسر أخرى (لكن ليس السيدة جانك، ولا السيدة تولبوت الأكثر غروراً). وكان جون فارلو رجلاً متوسط العمر، هادئاً، رياضياً، وتاجراً ناجحاً في الأدوات الرياضية، وكان لديه مكتب في باركينغتون التي تبعد أربعين ميلاً: كان هو الذي جلب لي طلقات مسدس الكولت، وعلّمني كيف أستخدمه، أثناء نزهة قمنا بها إلى الغابة ذات يوم أحد؛ وكان أيضاً ما أطلق عليه بابتسامة اسم «محام غير متفرغ»

Twitter: @ketab_n

وكان قد تناول بعض قضايا شارلوت. أما جين، زوجته الشابة (وابنة عمه)، فقد كانت أطرافها طويلة، وكانت تضع نظارات ملونة، ولها نهدان مدببان، وفم أحمر كبير. وكانت ترسم مشاهد طبيعية ووجوه أشخاص - وأتذكّر بوضوح أنني كنت قد أثنيت، في إحدى حفلات الكوكتيل، على اللوحة التي رسمتها لإحدى بنات أختها، روزالين هونيك الصغيرة، العسلية، الوردية، التي كانت ترتدي زيّ مرشدة في الكشافة، وتعتمر قبعة خضراء من القماش الصوفي، تتدلى ضفائرها الفاتنة على كتفيها، وتضع حزاماً أخضر - وأبعد جون غليونه، وقال إنه من المؤسف أن دولي (حبيبتي دوليتا) وروزالين، كانتا كلّ منهما تنتقد الأخرى في المدرسة، لكنه يأمل في أن تتفقا وتصبحا صديقتين بعد عودتهما من المخيّم. وتحدثنا عن محاسن المدرسة ومساوئها. «بالطبع، فالكثير من الحرفيين هنا هم من الإيطاليين»، قال جون، «ومن الناحية الأخرى، فإننا لا نزال في أمان -» فقاطعته جين ضاحكة: «أرجو أن تمضي دولي وروزالين الصيف معاً». وفجأة تخيّلت لوليتا وهي تعود من المخيّم، سمراء، دافئة، مخدّرة، ناعسة - وكنت على وشك أن أجهش في البكاء، بنفاد صبر.

١٩

دعوني أضيف بضع كلمات أخرى عن السيدة همبرت مادامت الأمور تجري مجرى حسناً (وسيقع حادث سيء بعد فترة وجيزة). فقد كنت أدرك دائماً نزعة التملك فيها، لكن لم يخطر في بالي قط أنها ستغار بجنون من أيّ شيء في حياتي لا يتعلق بها. فقد كانت تبدي فضولاً نهماً بماضيّ. وكانت تريد أن أنبش من ذاكرتي جميع النساء اللاتي أحببتهن لكي أشتمهن، وأدوس عليهن، وأمحوهن من ذاكرتي

Twitter: @ketab_n

تماماً بجحود مطلق، لكي تدمّر ماضيّ برمته. وجعلتني أحدّثها عن زواجي بفاليريا، الذي كان بالطبع حماقة صارخة، لكن كان عليّ أيضاً أن أخترع، أو ألفّق بوحشية، سلسلة طويلة من العشيقات لكي أدخل المتعة إلى نفس شارلوت السقيمة. ولإرضائها، كان عليّ أن أقدّم لها دليلاً مصوّراً عن تلك النساء، اللاتي كنّ جميعهن متميّزات على نحو رائع، وفق قواعد تلك الإعلانات الأميركية التي تصوّر مجموعة من تلاميذ المدارس في نسبة دقيقة من الأعراق، لكن في أحد تلك الإعلانات - إعلان واحد فقط - كان هناك فتى له عينان مدورتان بلون الشوكولاتة، يجلس في وسط الصف الأمامي. بهذه الطريقة كنت أعرض لها نسائي، فأصوّرهن نساء باسمات لهنّ مؤخرات رجراجة - الشقراء الناعسة، والسمراء المتّقدة، والشبقة ذات الشعر النحاسي - كأنهن يستعرضن أنفسهن في أحد بيوت الدعارة. وكلما جعلتهن أكثر ابتذالاً، أدخلتُ المزيد من السعادة إلى قلب السيدة همبرت.

لم أدلِ في حياتي كلها بمثل هذا القدر من الاعترافات، أو أتلقى هذا القدر من الاعترافات. وكان الصدق والعفوية اللذان كانت تصف بهما ما تسميه «حياتها الغرامية»، بدءاً من المعانقة حتى المضاجعة الزوجية، يتناقضان أخلاقياً تناقضاً شديداً مع تلفيقاتي المسهبة. ومن الناحية العملية، كنت قد استقيت هذين الأسلوبين من المادة نفسها (المسلسلات التلفزيونية، والتحليل النفسي، والروايات الرخيصة الشعبية) التي أستقي منها عادة معظم شخصياتي، والتي كانت هي تستمد منها أسلوبها في التعبير. وكنت أجد متعة كبيرة عندما كانت شارلوت تردد على مسامعي الأوضاع الجنسية اللذيذة التي كان المرحوم هارولد هايز الطيب يمارسها معها، وكانت ترى أن البهجة والمتعة اللتين كنت أبديهما وهي تروي لي ذلك، ليستا محتشمتين. وما عدا ذلك، فقد كانت سيرة حياتها خاوية وتافهة كما يمكن أن يظهر تشريح جثتها.

Twitter: @ketab_n

ولم أر قط امرأة تتمتع بصحة وافرة مثلها، على الرغم من اتباعها حمية لتخفيف وزنها.

وقلما كانت تتحدث عن لوليتاي - وفي الواقع، كانت تتحدث عنها بدرجة أقل بكثير مما كانت تتحدث عن ذلك الطفل الرضيع الأشقر الذي كانت تزيّن صورته، من بين جميع الصور الأخرى، غرفة نومنا الكئيبة. وفي أحد أحلام يقظتها السخيفة، الذي يخلو من أي نكهة، رأت أن روح الطفل المتوفى ستعود إلى الأرض في هيئة الطفل الذي ستحمل به في عشّ زواجها الحالي. ومع أنني لم أكن أشعر برغبة شديدة في تزويد سلالة همبرت بنسخة طبق الأصل من نتاج هارولد (لوليتا، التي أصبحت أعتبرها، بنشوة سفاحية، طفلتي)، خطر لي أن مخاضاً طويلاً، ينتهي بعملية قيصرية لطيفة ومضاعفات أخرى في جناح توليد آمن في الربيع القادم، سيمنحني فرصة لأنفرد بلوليتاي لأسابيع عديدة، ربما - وأجعل الحورية الرقيقة تجرع حبوباً منوّمة.

لشدّ ما كانت تكره ابنتها! والشيء الذي جعلني أعتبره أمراً شريراً للغاية هو أنها كانت تخرج عن طورها لتجيب بحرص شديد عن الأسئلة التي كانت تقرأها في كتاب سخيف اسمه («الدليل من أجل نماء طفلك»)، صادر في شيكاغو. وكانت تواصل هذا الهراء سنة بعد سنة، وكان على الأمّ أن تملأ بعض المعلومات في كلّ سنة من عمر طفلها. وعندما بلغت «لو» الثانية عشرة من العمر في ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧، كانت شارلوت هايز، التي كان اسمها قبل الزواج «بيكر»، قد وضعت خطاً تحت الصفات التالية، عشر صفات من أصل أربعين، في باب «شخصية طفلك»: عدائية، صاخبة، كثيرة الانتقاد، عديمة الثقة، ضيّقة الصدر، سريعة الغضب، فضولية، برمة، سلبية (تحتها خطين) وعنيدة. وتجاهلت الصفات الثلاثين الباقية التي كان من بينها: مبتهجة، متعاونة، نشيطة، وما إلى ذلك. كان أمراً يدعو إلى الجنون حقاً.

Twitter: @ketab_n

وبوحشية لا تتفق مع الطبيعة المعتدلة التي تتسم بها زوجتي المحبّة، كانت تهاجم وتحطم أشياء «لو» الصغيرة المتناثرة في أرجاء البيت، المتسمّرة في مكانها مثل أرانب منوّمة. وتذرعت للسيدة الطيبة، ذات صباح، بعدم مرافقتها إلى الكنيسة بسبب تلبك في معدتي (بسبب محاولتي تحسين الصلصة التي كانت تعدها) ، في أن خدعتها بأحد الخلاخيل التي تركتها لوليتا. ولا أنسى كذلك موقفها من رسائل عزيزتي التي تحمل نكهة خاصة.

«عزيزيّ ماما وهمبي،

آمل أن تكونا بخير. شكراً جزيلاً على الحلوى. لقد [شطبت وأعيد كتابتها] فقدت كنزتي الجديدة في الغابة. الطقس بارد هنا منذ عدة أيام. أمضي وقتاً. محبّتي،

دولي».

«يا لها من طفلة غبية»، قالت السيدة همبرت، «لقد نسيت أن تكتب كلمة بعد «وقتاً». كانت تلك الكنزة من الصوف الخالص، وأرجو ألاّ ترسل لها حلوى من دون أن تستشيرني».

٢٠

كانت بحيرة غلاس أوار تبعد بضعة أميال عن رامسدال. وكان الحرّ قد اشتد في آخر أسبوع من شهر تموز (يوليه) عندما كنا نذهب إليها يومياً بالسيارة. وأحسب أنّ عليّ الآن أن أصف بالتفصيل الممل، آخر رحلة قمنا بها معاً إلى هناك، في صباح يوم ثلاثاء استوائي.

كنا قد ركنّا السيارة في باحة وقوف السيارات القريبة من الطريق، وبينما كنا نشقّ طريقنا في درب عبر غابة الصنوبر باتجاه البحيرة، قالت

Twitter: @ketab_n

شارلوت إن جين فارلو أخبرتها أنها عندما كانت تبحث عن تأثيرات ضوئية نادرة (كانت جين تنتمي إلى المدرسة القديمة في الرسم)، رأت ليزلي يستحمّ «عارياً» (كما قال جون مازحاً) في الساعة الخامسة من صباح يوم الأحد الماضي.

فقلت: «لا بد أن الماء كان بارداً جداً».

«لكن ليس هذا ما أقصد قوله»، قالت العزيزة المنطقية المنكوبة، «أقصد أنه رجل متخلف عقلياً»، وأضافت (بدأت بطريقتها في صياغة عباراتها بعناية تتحدث عن صحتي)، «لديّ إحساس راسخ بأن لويز تحبّ هذا البليد». مجرد إحساس.

«نشعر أن دولي لا تدرس جيداً» وما إلى ذلك. (من تقرير مدرسي قديم).

وتابع السيد والسيدة همبرت طريقهما، وكل منهما ينتعل صندلاً، ويرتدي مبذلاً.

«هل تعرف، يا هام: لديّ حلم طموح جداً»، قالت السيدة هام، مطرقة برأسها - خجلة من ذلك الحلم - تناجي الأرض الذهبية اللون، «أريد أن أبحث عن خادمة مؤهّلة كتلك الفتاة الألمانية التي تحدّث عنها السيد والسيدة تولبوت، لتقيم معنا في البيت».

فقلت: «لكن لا توجد غرفة لها».

فقالت بابتسامتها التهكمية: «هيا، بالتأكيد يا عزيزي، إنك تقلّل من أهمية وجود إمكانيات أخرى في بيت همبرت. إنها ستقيم في غرفة لوليتا. وفي جميع الأحوال، فإني أنوي تحويل هذه الحجرة إلى غرفة للضيوف. إنها أبرد غرفة في البيت كله وأسوأها».

«عمّ تتحدّثين؟» سألتها، وقد اشتدّ جلد عظام خدّي (إني أتجشم عناء تدوين ذلك فقط لأن بشرة ابنتي تصبح كذلك عندما تشعر الشعور نفسه: عدم التصديق، الاشمئزاز، الهياج).

Twitter: @ketab_n

«هل تزعجك ذكرياتي الرومانسية؟» سألت زوجتي ملمحة إلى زوجها الأول.

«لا، أبداً»، قلتُ، «إني أتساءل فقط أين ستمكث ابنتك عندما تأتين بضيفتك أو بخادمتك».

«آه»، قالت السيدة همبرت وهي حالمة، مبتسمة، وقد أطلقت كلمة «آه» في نفس اللحظة التي رفعت فيها أحد حاجبيها وزفرت نَفَساً رقيقاً. «لا أريد أن تعرف لوليتا الصغيرة ذلك مطلقاً، على الإطلاق. إذ ستتوجه «لو» الصغيرة من المخيّم مباشرة إلى مدرسة داخلية جيدة يسود فيها انضباط صارم وتعليم أصول الدين. ثمّ ستذهب إلى معهد بيردسلي كولدج. لقد خططت كلّ ذلك بدقة، لا تقلق».

ومضت تقول إنها هي، السيدة همبرت، يجب أن تتغلّب على خمولها المعهود، وتكتب رسالة إلى الأخت الآنسة فالي التي تدرّس في معهد «سانت ألجبرا». عندها ظهرت البحيرة المتلألئة، فقلت لها إنني نسيت نظارتي الشمسية في السيارة، وسأذهب لإحضارها وسأوافيها لاحقاً.

كنت أحسب دائماً أن النقاش الودّي بيننا شيء خيالي - ربما يكون النتيجة الغامضة لأحد الطقوس التي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى. وبينما كنت أشقّ طريقي إلى الغابة، بعد أن تملكتني نوبة من اليأس والتأمل المستميتين، خطرت لي عبارة («يا إلهي، انظر إلى هذه القيود») التي تقترب أكثر من العبارة الصامتة لمزاجي.

لو كانت شارلوت فاليريا، لعرفتُ كيف أعالج الأمر، وكلمة «أعالج» هي الكلمة التي أبحث عنها. ففي الأيام الجيدة الماضية، كان بإمكاني أن أجعلها تغيّر رأيها على الفور بمجرد أن ألوي رسغ فاليتشكا الرقيق (الرسغ الذي كانت قد وقعت عليه عندما كانت تقود دراجة

Twitter: @ketab_n

عادية)، لكن كان من المستحيل أن أفعل شيئاً من هذا القبيل لشارلوت، لأن شارلوت الأميركية المداهنة كانت تثير خوفي. وكان حلمي الجذل بالتمكن من السيطرة عليها من خلال مشاعرها العاطفية تجاهي مجرد وهم. فلم أجرؤ على القيام بأي شيء قد يفسد الصورة التي كوّنتها عني لكي أجعلها تحبّني. فقد دأبتُ على تملقها عندما كانت هذه القهرمانة الرهيبة تعتني بمحبوبتي، وكانت هناك مسحة من التذلل تعتري موقفي تجاهها. وكانت الورقة الرابحة الوحيدة التي بحوزتي هي ألا تعرف بأيّ شكل من الأشكال شيئاً عن حبّي الشنيع لابنتها لوليتا. فقد أبدت انزعاجاً شديداً لأنني كنت أبديت إعجابي بلوليتا، لكنها لم تكن تستطيع أن تخمن حقيقة مشاعري. وكان من الممكن أن أقول لفاليريا: «أنظري أيتها البدينة الحمقاء، فأنا من يقرّر ما هو الجيد لدلوريس همبرت»، أما شارلوت، فلا يمكنني حتى أن أقول لها (بهدوء متزلّف): «إني آسف يا عزيزتي، فأنا أخالفك الرأي. لنمنح الطفلة فرصة أخرى. دعيني أكون معلّمها الخاص لمدّة سنة أو نحو ذلك. فقد قلتِ أنتِ نفسك ذات يوم». وفي الواقع، لم يكن باستطاعتي أن أقول شيئاً البتة لشارلوت عن هذه الطفلة من دون أن أكشف عما يجيش في صدري. لا يمكنكم أن تتخيّلوا (كما لم أتخيّل قط) كيف هنّ تلك النساء المتدينات! وكان بإمكان شارلوت، التي لم تكن تلحظ زيف جميع العهود اليومية وقواعد السلوك، والأطعمة، والكتب، والأشخاص الذين كانت تتحدث معهم، أن تلحظ فوراً النبرة الزائفة في أيّ شيء قد أقوله لها يتعلق بإبقاء لوليتا قريبة مني. فقد كانت مثل عازف موسيقي، قد يكون سوقياً مبتذلاً في حياته العادية، ويخلو من أي كياسة أو ذوق، لكنه يستطيع أن يكشف بدقة شيطانية النشاز في أي معزوفة موسيقية. ولكي أحطّم إرادة شارلوت، كان يتعين عليّ أن أحطّم قلبها. فإذا حطّمته، ستتحطم صورتها عني أيضاً، وإذا قلت لها: «إما أن أتصرف بحرية تامة مع

Twitter: @ketab_n

لوليتا، وتساعدينني على إبقاء هذا الأمر سرّاً، أو يذهب كل منّا في حال سبيله على الفور»، لشحب لونها وأصبحت امرأة مثل الزجاج المغبش، ولأجابت ببطء: «حسناً، مهما أضفت أو أنكرت، فهذه هي النهاية». وستكون تلك هي النهاية.

إذن هنا تكمن المشكلة. أذكر أنني عندما وصلت إلى باحة موقف السيارات، وملأت راحتي بماء له مذاق الصدأ، وشربته بنهم وتعطّش كأنه سيمنحني حكمة سحرية، شباباً، حرية، محظية صغيرة. ولوهلة، جلست على حافة إحدى الطاولات السميكة، مرتدياً مبذلي الأرجواني، أدلّي قدميّ، تحت أشجار الصنوبر التي كان ينبعث منها صوت أزيز. وعلى مسافة غير بعيدة، خرجت فتاتان صغيرتان، ترتدي كلّ منهما شورتاً وبلوزة قصيرة تكشف عن صدرها وبطنها، من حمّام السيدات الذي تغمره الشمس. وركبت مايبيل التي كانت تمضغ علكة (أو قرينة مايبيل) الساهمة، بصعوبة، الدراجة، وجلست ماريون، وهزّت شعرها لتنشّ الذباب، وراءها، مباعدة بين ساقيها، وذابتا ببطء في الضوء والظلّ، وهما تترنحان وتتمايلان. لوليتا! الأب وابنته يذويان في ظلال تلك الأشجار! يكمن الحلّ الطبيعي في تحطيم السيدة همبرت. لكن كيف؟

لا يمكن لأحد أن يرتكب جريمة كاملة، والحظ وحده يمكنه عمل ذلك. فها هي قصة قتل مدام لاكور في آرليس، بجنوب فرنسا، في نهاية القرن الماضي. إذ اقترب رجل ملتحٍ مجهول يبلغ طوله ستة أقدام، اعتُقد فيما بعد أنه عشيق سرّي للسيِّدة، اقترب منها في شارع يعجّ بالمارة، بعد زواجها بفترة وجيزة من الكولونيل لاكور، وطعنها في ظهرها ثلاث طعنات قاتلة، بينما أمسك الكولونيل، المربوع القامة الذي يشبه كلب بولدوغ صغير، بذراع القاتل. وبمحض الصدفة، ما إن كان القاتل يحاول تخليص يده من بين فكّي الزوج المربوع القامة الغاضب

Twitter: @ketab_n

(بينما كان عدد كبير من السابلة يتحلّقون حول المجموعة)، كان هناك رجل إيطالي غريب الأطوار، يقيم في منزل قريب من موقع الحادث، يعبث بمتفجرة، فانفجرت، وعلى الفور غلّفت الشارع سحابة كثيفة من الدخان الأسود، وراحت الأحجار تتساقط، وأخذ الناس يجرون هاربين في جميع الاتجاهات. لكن الانفجار لم يلحق الضرر بأحد (لكنه أوقع الكولونيل لاكور على الأرض)، أما عشيق السيدة المنتقم، فقد أخذ يجري مع الآخرين، وعاش ما تبقى من حياته سعيداً.

انظروا ماذا يمكن أن يحدث عندما يخطّط القاتل بنفسه لجريمة قتل كاملة.

توجهت عائداً إلى البحيرة. كانت البقعة التي جلسنا فيها، بالإضافة إلى بضعة أزواج «لطفاء» آخرين (أسرة فارلو وأسرة تشافيلد) تشبه خليجاً صغيراً. وكانت زوجتي شارلوت تحبّ هذه البقعة لأنها كانت أشبه «بشاطئ خاص». وكانت مرافق الاستحمام الرئيسية (أو «مرافق الغرق» كما كانت تطلق عليها مجلّة رامسدال أحياناً) على الجانب الأيسر (الشرقي) للبحيرة، التي لا يمكن رؤيتها من موقعنا. وإلى يميننا، كانت غابة أشجار الصنوبر تنتهي بفسحة تفضي إلى مستنقعات، ثم تعود الغابة على الطرف المقابل.

جلست بجانب زوجتي من دون أن أحدث صوتاً، فجفلت.

«هل نسبح؟» سألتني.

«لننتظر دقيقة. دعيني أتابع قطار أفكاري».

بدأت أفكّر. مرت أكثر من دقيقة.

«حسناً. هيا بنا».

«وهل أركب أنا في ذلك القطار؟»

«بالتأكيد».

Twitter: @ketab_n

«أرجو ذلك»، قالت شارلوت وهي تخوض في الماء. وسرعان ما ارتفع الماء إلى فخذيها المكتنزتين، ثم تبعتها يداها الممدودتان، وبفمها المغلق بإحكام، ووجهها الخالي من أي مسحة من الجمال، وبقبعتها المطاطية السوداء، ألقت بنفسها في الماء، فتناثر الماء من حولها.

ورويداً رويداً، سبحنا إلى البقعة اللامعة في البحيرة.

وعلى الضفة المقابلة التي تبعد حوالى ألف خطوة (لو كان باستطاعة المرء أن يسير فوق الماء)، لاحت لي هيئتان صغيرتان جداً لرجلين يعملان مثل سمورين على الشاطئ. إني أعرفهما جيداً: الشرطي المتقاعد ذو الأصل البولوني، والسبّاك المتقاعد الذي يمتلك معظم الأخشاب على جانب البحيرة ذاك. وكنت أعرف أيضاً أنهما كانا يشيدان رصيف مرفأ، لا لشيء إلا لمجرد رغبتهما الكئيبة في عمل ذلك. ويبدا أن صوت قرع المطارق الذي تناهى إلينا كان أقوى بكثير مما كانت سواعد وأدوات هذين القزمين تفعلانه، ويساور المرء الشك في أن مصدر هذه التأثيرات الصوتية يتناقض مع حجم الشخص الذي يحرّك مسرح الدمى، وخاصة أن الصدع الهائل الذي كانت تحدثه كلّ ضربة من تلك الضربات الواهنة لا ينسجم مع صورته البصرية.

كان شريط شاطئنا القصير المفترش بالرمل الأبيض - الذي كنا قد ابتعدنا عنه قليلاً الآن وبلغنا المياه العميقة - يخلو من الناس في فترات الصباح خلال أيام الأسبوع. فلم يكن في المنطقة أحد سوى هاتين الهيئتين المنهمكتين على الجانب المقابل، وكانت تحلّق في السماء طائرة خاصة حمراء داكنة تبعث أزيزاً، ثم غاصت وتلاشت في السماء الزرقاء. كان هذا المكان مثالياً لارتكاب جريمة قتل سريعة بإغراق الضحية، وفيما يلي صورة دقيقة للمشهد: فقد كان رجل إنفاذ القانون ورجل الماء قريبين بما يكفي ليشهدا على الحادث، وكانا بعيدين بما يكفي ليشاهدا ارتكاب جريمة قتل. كانا قريبين بما يكفي لسماع صوت

Twitter: @ketab_n

سبّاح ساهم يلوّح بيده ويصيح طالباً النجدة ومساعدته لإنقاذ زوجته التي تغرق، وكانا بعيدين جداً بحيث لا يمكنهما تبيّن (إذا صادف وأن نظرا بسرعة) أن ذلك الشيء ما هو إلا السبّاح الساهم وهو يطأ زوجته بقدميه. لم أبلغ بعد تلك المرحلة. بل كنت أريد فقط أن أعبّر عن سهولة هذه العملية، ودقّة المكان! لذلك ،كانت شارلوت تسبح بمشقة (كانت حورية بحر أقل من عادية)، لكنها رغم ذلك كانت تسبح بمتعة أكيدة (أليس حوريها إلى جانبها؟) وبينما رحت أرى، بوضوح شديد من ذكريات مستقبلية (كما تعرف - في محاولة لرؤية الأشياء على النحو الذي ستتذكّر أنك رأيتها به)، بياض وجهها الرطب اللمّاع الذي لفحته الشمس قليلاً، بالرغم من كلّ الجهود التي بذلتها، وشفتيها الشاحبتين، وجبهتها المحدّبة العارية، وقبعتها السوداء الضيّقة، ورقبتها المبللة الشحيمة. وكنت أعرف أنّ كلّ ما يتعين عليّ القيام به هو أن أغوص، وآخذ نفساً عميقاً، ثمّ أمسكها من كاحلها، وأشدّها بسرعة إلى الأسفل مع جثتي الأسيرة. أقول جثّة لأن المفاجأة والرعب وانعدام الخبرة ستجعلها تستنشق في الحال كمية كبيرة قاتلة من ماء البحيرة، بينما أستطيع أنا البقاء تحت سطح الماء لما لا يقل عن دقيقة كاملة، فاتحاً عينيّ هناك. ومرت هذه الخاطرة المميتة بسرعة مثل ذيل نيزك عبر سواد الجريمة التي أفكّر فيها. كانت مثل رقصة باليه صامتة رهيبة، يمسك فيها الراقص الراقصة من قدمها ويندفعان بسرعة إلى الأسفل عبر الغسق المائي. كان بإمكاني أن أصعد إلى سطح الماء لأتنفس نفحة من الهواء بينما أواصل شدّها إلى القعر، ثم أعود لأغوص كما يجب عليّ أن أفعل، وما إن تسدل الستارة عليها إلى الأبد، حتى أطلق صرخة طالباً النجدة. وعندما تصل الدميتان اللتان تبدآن تكبران وتكبران بعد حوالى عشرين دقيقة في زورق تجديف، طُلي حديثاً نصف طلاء، ستكون السيدة المسكينة همبرت، التي قضت بسبب تشنج في ساقها، أو انسداد

Twitter: @ketab_n

تاجي، أو كليهما، واقفة على رأسها بين الرواسب الطينية، على عمق ثلاثين قدماً تحت سطح الماء المبتسم للبحيرة.

أليس الأمر في غاية البساطة؟ لكن ماذا تعرفون أيها السادة - لا أستطيع ارتكاب هذه الجريمة.

كانت تسبح إلى جانبي، مثل فقمة واثقة خرقاء، عندما صاح منطق العاطفة في أذني: لقد آن الأوان! لكن، أيها السادة، لم أستطع! وبصمت استدرت نحو الشاطئ، واستدارت هي أيضاً بجدّية بالغة، وكان الشيطان لا يزال يصرخ في أذني، لكنني لم أتمكن من إغراق هذه المخلوقة المسكينة، الضخمة، الزلقة. وازداد الصراخ عندما أدركت الحقيقة السوداوية بأنني لن أتمكن، لا غداً، ولا يوم الجمعة، ولا في أي يوم آخر ولا ليلة أخرى، من الإقدام على قتلها. نعم، يمكنني أن أتصوّر نفسي وأنا أضرب ثديَيّ فاليريا وأخرجهما من مكمنهما، أو أوجعها بطريقة أخرى - ورأيت نفسي، بوضوح شديد، وأنا أطلق النار على أسفل بطن عشيقها، وأجعله يقول: «آخ». وأجلس. لكنني لم أتمكن من قتل شارلوت - خاصة عندما لم تكن الأمور في مجملها يائسة إلى هذا الحد، ربما، كما كان يبدو، في البداية، أنها تجفل في ذلك الصباح البائس. فلو أمسكتها من قدمها القوية التي لا تتوقف عن الركل، لو رأيت نظرتها المذهولة، لو سمعت صوتها القبيح، لو واصلت هذه المحنة، لطاردني طيفها طوال حياتي.

ربما، لو كنا في عام ١٤٤٧ لا في عام ١٩٤٧ لكان بوسعي إخفاء طبيعتي الرقيقة بدسّ السّم لها من خاتم أجوف من العقيق أصبّه لها في شراب المحبة لكي تموت. لكن في طبقتنا المتوسطة في هذا العصر الفضولي، لن تنجح هذه الطريقة التي كانت سائدة في قصور الماضي المزينة. أما اليوم، فلابد أن تكون عالماً إذا أردت أن تكون قاتلاً. لا، لا، لم أكن ذلك أيضاً. سيداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلفين، إن

Twitter: @ketab_n

معظم المعتدين الجنسيين الذين يتوقون إلى إقامة علاقات لاهبة، جسدية، مفعمة بالتأوهات اللذيذة، لكن ليس بالضرورة أن تتوج بالجماع، مع فتاة غلامة، يكونون غرباء خجولين سلبيين، غير مؤهلين، غير مؤذين، يطلبون من أهالي البلدة السماح لهم بمواصلة سلوكهم غير الضار الذي يطلق عليه «سلوكاً شائناً»، وتصرفاتهم السّرية اللاهبة من الانحراف الجنسي من دون أن تقبض عليهم الشرطة والمجتمع. إننا لسنا شياطين جنسيين! إننا لا نغتصب كما يفعل الجنود. إننا رجال محترمون لطفاء حزينون، لنا عيون تشبه عيون الكلاب، ولدينا القدرة على التحكم بأنفسنا عندما نكون في حضرة الكبار، لكننا مستعدون لقضاء سنوات وسنوات من الحياة حتى تتاح لنا فرصة واحدة للمس حورية. وأؤكد لكم أننا لسنا قتلة، فالشعراء لا يقتلون على الإطلاق. آه، شارلوت المسكينة، لا تكرهيني في سمائك الأبدية بين الخيمياء الأبدية للإسفلت والمطاط والمعدن والحجارة - لكن حمداً لله، ليس هناك ماء، ليس هناك ماء!

لكن لنتحدث بموضوعية، فقد نجت منها بإعجوبة. وبذلك نكون قد وصلنا إلى خاتمة حكاية جريمتي الكاملة.

كنا نجلس على مناشفنا تحت الشمس الظامئة. راحت تتلفت حواليها، ثم فكّت إبزيم حمالة صدرها، وانقلبت على بطنها لتمنح ظهرها الفرصة ليكون نهباً للعيون. قالت إنها تحبني. وندت عنها تنهيدة عميقة. ثم مدّت إحدى ذراعيها، وراحت تتلمس جيب مبذلها باحثة عن سجائرها. ثم اعتدلت في جلستها، وراحت تدخّن. أخذت تتفحص كتفها اليمنى. ثم قبّلتني بقوة بفمها الفاغر الذي تفوح منه رائحة الدخان. وفجأة، تدحرجت على الضفة الرملية من خلفنا، من تحت الشجيرات وأشجار الصنوبر، حجرة، ثمّ أعقبتها حجرة أخرى.

«يا لهؤلاء الأطفال المتلصصين المقرفين»، قالت شارلوت،

Twitter: @ketab_n

وأمسكت حمالة صدرها الكبيرة، وأسندتها على ثدييها، ثم عادت وانبطحت على بطنها، وأضافت: «يجب أن أكلّم بيتر كريستوفسكي عن هذا الأمر».

ومن عند مدخل الممر المحفوف بالدرابزين سمعنا حفيفاً، وقع أقدام، وتقدّمت جين فارلو وهي تحمل حامل الرسم وأغراضها.

«لقد أرعبتنا»، قالت شارلوت.

قالت جين إنها كانت تقبع هناك، في مكان خفي تكتنفه الخضرة، تتجسس على الطبيعة (في العادة يطلق الرصاص على الجواسيس)، وهي تحاول أن تنهي رسم مشهد للبحيرة، لكن اللوحة لم تكن جيدة، ولا تدل على أنها تتمتع بأدنى موهبة (وهو أمر صحيح تماماً) - «وهل حاولت أن ترسم يا همبرت؟» وأرادت شارلوت، التي كانت تغار قليلاً من جين، أن تعرف هل سيأتي جون.

نعم سيأتي. سيعود إلى البيت اليوم لتناول طعام الغداء. كان قد أوصلها وهو في طريقه إلى باركينغتون وينبغي أن يعود ويأخذها في أي وقت الآن. كان صباحاً رائعاً. قالت إنها تشعر بالخيانة تجاه كلبيها كافال وميلامبوس لأنها تتركهما مقيدين في مثل هذه الأيام الرائعة. تربّعت على الرمل الأبيض بيني وبين شارلوت. كانت ترتدي سروالاً قصيراً، وكانت ساقاها السمراوان الطويلتان تجذبانني مثل ساقي فرس كستنائية اللون. وكانت تظهر لثتها عندما تبتسم.

«كنت سأرسمكما في بحيرتي»، قالت، «حتى إنني لاحظت شيئاً نسيته أنت. لقد كنتَ [مخاطبة همبرت] تضع ساعة يدك، نعم، يا سيدي، كنت تضعها».

«إنها لا تتأثر بالماء»، قالت شارلوت بهدوء، وكأنها تضع سمكة في فمها.

أخذت جين رسغي وأسندتها على ركبتها وراحت تتفحص هدية

Twitter: @ketab_n

شارلوت، ثمّ أعادت يد همبرت إلى الرمل، راحة يده إلى الأعلى.

«تستطيعين أن تري كلّ شيء من هناك»، قالت شارلوت بدلال.

تنهّدت جين وقالت: «في أحد الأيام رأيت طفلين، صبي وبنت، عند الغروب، هنا، يمارسان الحبّ. كان ظلاّهما عملاقين. لقد أخبرتك عن السيد تومسون عند الفجر. في المرة القادمة، أتوقّع أن أرى أيفور العجوز السمين عارياً. إنه حقاً رجل غريب الأطوار. في المرة السابقة، حكى لي قصّة بذيئة جداً عن لبن أخيه. يبدو _»

«مرحباً»، تناهى إلينا صوت جون.

٢١

كنت ألوذ بالصمت عندما أكون منزعجاً، أو بدقة أكبر، كانت البرودة والحقارة اللتان يتسم بهما صمتي المستاء، تثيران الذعر في نفس فاليريا، وتجعلاتها تفقد صوابها. كانت تنشج وتنوح وتقول: «إن ما يفقدني صوابي هو أنني لا أعرف بماذا تفكر عندما تتصرف هكذا».

حاولت أن أنهج نفس الأسلوب بأن أصمت مع شارلوت - لكنها لم تكن تتوقف عن الكلام، أو كانت لا تعير صمتي أي اهتمام. إنها امرأة مدهشة! فأنسحب إلى غرفتي السابقة، التي أضحت الآن «استوديو»، مدمدماً أن لديّ دراسة يجب إكمالها، وتواصل شارلوت عملها ببهجة في إضفاء مسحة جمالية على البيت، تثرثر على الهاتف، وتكتب رسائل. ومن نافذتي، من وراء أوراق أشجار الحور المرتعشة، يمكنني رؤيتها وهي تجتاز الشارع لتضع في صندوق البريد رسائلها التي ستبعث بها إلى أخت الآنسة فالين.

كان الأسبوع الذي تخللته زخّات متفرقة من المطر والظلال، والذي انقضى بعد زيارتنا الأخيرة إلى رمال البحيرة الساكنة، أحد أكثر

Twitter: @ketab_n

الأسابيع التي يمكنني تذكّرها كآبة. ثمّ حلّ أسبوعان أو ثلاثة أسابيع يتخللها بصيص من الأمل قبل أن تشع الشمس أخيراً.

قلت لنفسي إن لديّ عقلاً جيداً يعمل بترتيب جميل، وأنّ بوسعي استخدامها بصورة جيدة. وإذا لم أجرؤ على التدخل في مخططات زوجتي لابنتها (التي تزداد دفئاً وسمرة كلّ يوم في الطقس اللطيف في تلك المسافة اليائسة)، فمن المؤكد أنّ باستطاعتي ابتكار وسيلة عامة يمكنني أن أوجهها لاحقاً نحو مناسبة معيّنة. وقد زوّدتني شارلوت بالفرصة ذات مساء.

ثم قالت وهي ترمقني بعينين براقتين من فوق ملعقة الحساء: «عندي مفاجأة لك. سنذهب أنا وأنت في الخريف إلى إنكلترا».

ازدردت ملعقة الحساء، ومسحت شفتي بالمنديل الوردي (آه، مناديل كتانية لطيفة من فندق ميرانا!) ثم قلت: «عندي لك مفاجأة أخرى يا عزيزتي. لن نذهب أنا وأنت إلى إنكلترا».

«لماذا، ماذا في الأمر؟» قالت، وهي تنظر بدهشة أكبر مما كان يخيّل إليّ (بدأت أثني المنديل الوردي البريء وأمزّقه وأهرسه ثم أمزّقه ثانية بصورة تلقائية). وقد جعلها وجهي المبتسم تشعر بشيء من الراحة.

«المسألة في غاية البساطة»، أجبت، «وحتى في أكثر الأسر انسجاماً، كأسرتنا، فليست الزوجة هي التي تتخذ جميع القرارات. هناك بعض الأمور التي يجب أن يقررها الزوج. ويمكنني تخيّل الشعور بالإثارة الذي لا بد أن ينتابك، أنتِ المرأة الأميركية الموفورة الصحة، عندما تعبرين المحيط الأطلسي على متن نفس الباخرة العابرة للمحيطات التي تقل السيدة بامبل - أو سام بامبل، «ملك اللحم المجمّد»، أو «عاهرة هوليود». ولا أشكّ في أننا، أنا وأنتِ، قد نكون مادة لإعلان جميل لوكالة السفر عندما يلتقطون لنا صوراً ونحن ننظر - أنتِ بعينيك الحالمتين الصريحتين، وأنا، أسيطر على إعجابي الحسود

Twitter: @ketab_n

- إلى «حراس القصر»، أو «الحراس الحمر»، أو «أكلة السمور»، أو أيما كانوا يطلقون عليهم، لكن لديّ حساسية تجاه أوروبا، لا سيما إنكلترا القديمة السعيدة. وكما تعرفين جيداً، ليس لديّ سوى ذكريات حزينة جداً في العالم القديم النتن. ولن تغيّر أيّ إعلانات ملوّنة في مجلاتك أي شيء».

«عزيزي»، قالت شارلوت. «إني حقاً _»

«لا، انتظري دقيقة. إن هذه المسألة عرضية. إن ما يعنيني هو الاتجاه العام. عندما كنتِ تريدين أن أمضي فترات بعد الظهر في التشمس عند البحيرة بدلاً من أداء عملي، استسلمت لطلبك بسرور، وصرت، كرمى لك، ذلك الفتى البرونزي الفاتن، بدلاً من أن أظل أديباً مثقفاً، بل ومعلماً جيداً. وكنت أتبعك صاغراً وأنت تقودينني إلى حفلات لعب البريدج أو إلى منزل أسرة فارلو الفاتنة لاحتساء ويسكي البوربون. لا، أرجوكِ، انتظري. عندما تزيّنين بيتك، فأنا لا أتدخل في شؤونك. وعندما تقررين - تتخذين قرارتك في كلّ الأمور، مع أنني لا أوافق عليها كلياً أو جزئياً - لا أقول شيئاً. إني أتجاهل الأمور الخاصة، لكنني لا أستطيع تجاهل الأمور العامة. إني لا أمانع في أن تتعاملي معي كرئيسة، لكن لكلّ لعبة قواعدها. إنني لست غاضباً. لست غاضباً على الإطلاق. لا تفعلي ذلك. لكنني أشكّل نصف هذه الأسرة، ولديّ صوت ضعيف لكنه صوت مميّز».

اقتربت مني وجثت على ركبتيها وهزّت رأسها ببطء، لكن بحماسة شديدة، وتشبثّت ببنطالي، وقالت إنها لم تكن تدرك ذلك على الإطلاق؛ وقالت إني حاكمها وإلهها؛ وقالت إن لويز قد غادرت، فلنمارس الجنس في الحال؛ وقالت إنني إذا لم أغفر لها فإنها ستموت.

ملأتني هذه الحادثة الصغيرة بإحساس غامر من الانتشاء، فقلت لها بهدوء لا يحتاج الأمر إلى طلب المغفرة، بل يجب عليها أن تغيّر

Twitter: @ketab_n

أسلوب تعاملها معي، وعزمت على أن أستغل هذه الفرصة وأن أمضي فترة طويلة في العمل على كتابي، أو على الأقل التظاهر بأنني أعمل.

«إن السرير في الاستوديو». الاستوديو الذي كان غرفتي سابقاً، والسرير الذي تحوّل إلى أريكة أحبّ الجلوس عليها. وكانت شارلوت قد نبهتني منذ البداية إلى أنها ستحوّل الغرفة إلى «عرين للكاتب»، وبعد يومين من وقوع «الحادثة البريطانية»، كنت جالساً على كرسي جديد مريح، ومجلد ضخم يرقد على حضني، طرقت شارلوت الباب بخاتم بنصرها ودخلت. لشدّ ما كانت حركاتها تختلف عن حركات لوليتاي، عندما كانت تأتي لزيارتي وهي ترتدي بنطالها الجينز الأزرق الوسخ، ورائحة بساتين أرض الحوريات تتضوع منها. وبشكل طفولي أخرق، وعلى نحو منحرف وبذيء، كانت قد حلّت أزرار قميصها السفلى. لكن دعوني أخبركم شيئاً. إذ يقبع وراء جرأة هايز الصغيرة، واتزان هايز الكبيرة، مجرى خفيف من الحياة الخجولة ذات المذاق نفسه، له نفس الخرير. وأذكر أن طبيباً فرنسياً مسناً كان قد قال لأبي ذات يوم إن صوت قرقرة المعدة يتشابه بين جميع الأقارب.

بهذه الطريقة دخلت شارلوت، وأحسّت أن الأمور لم تكن على مايرام بيننا. ففي الليلة الماضية، والليلة التي قبلها، تظاهرت بأنني غططت في نوم عميق، ما إن أوينا إلى الفراش، واستيقظت عند الفجر.

وسألت برقة عما إذا كانت قد «أوقفتني عن عملي».

«ليس الآن»، قلت، وفتحت المجلد على الحرف «كاف» من «موسوعة الفتيات» لتفحّص صورة مطبوعة بطريقة «الحافة السفلية» كما يقول المشتغلون في الطباعة.

توجهت شارلوت إلى منضدة صغيرة ذات أدراج مصنوعة من خشب المهاغني، ووضعت يدها عليها. لا شكّ في أن المنضدة الصغيرة كانت قبيحة، لكنها لم تفعل شيئاً لتبديلها.

Twitter: @ketab_n

«كنت أريد دائماً أن أسألك»، قالت (بجدّية، لا بدلال)، «لماذا تغلق هذه الأدراج؟ هل تريدها في هذه الغرفة؟ إنها مقرفة».

«دعيها وشأنها»، قلت. كنت أقيم مخيّماً في اسكندنافيا.

«هل لها مفتاح؟»

«لقد خبأته».

«آه، هممم...»

«فيه رسائل غرامية».

ورمقتنني بنظرة تشبه نظرات ظبية مجروحة أثارت حنقي، ثمّ، من دون أن تعرف إن كنت جاداً، أو لم تعد تعرف كيف يمكنها متابعة الحديث، راحت تقلّب ببطء عدّة صفحات (حرم جامعي، كندا، كاميرا خفية) وهي ترمق لوح زجاج النافذة، لا ما يقبع وراءها، وتنقر عليه بأظافرها اللوزية الوردية الحادة.

اقتربت الآن (في قسم التجديف بالقارب وبط الكانفاسباك) من الكرسي الذي أجلس عليه، وارتمت بتثاقل على ذراعه، وغمرتني برائحة عطر كانت تستخدمه زوجتي السابقة. «هل يوّد سعادته قضاء الخريف هنا؟» سألتني، وهي تشير بخنصرها الصغير إلى صورة مشهد خريفي لإحدى الولايات الشرقية المحافظة. «لماذا؟» (بوضوح وببطء شديدين)، هزّت كتفيها. (ربما كان هارولد في إجازة آنذاك. موسم مفتوح. ردّ فعل شرطي مرّ بجانبها).

«أظن أنني أعرف أين تقع»، قالت، وهي لا تزال تشير بإصبعها، «أتذكر أنه يوجد فندق هناك يدعى «الصيّادون المسحورون»، إنه فندق جميل، والطعام الذي يقدمونه لذيذ كالحلم. لا أحد يزعج أحداً».

حكّت خدها على صدغي. كانت فاليريا قد تجاوزت تلك الحركات المتكلفة.

Twitter: @ketab_n

«هل ترغب في تناول شيء خاص على العشاء يا عزيزي؟ سيزورنا جون وجين بعد قليل».

اقتصرت إجابتي على إطلاق تنهيدة. قبّلتني على شفتي السفلى، وقالت مبتهجة إنها تُعِدُّ كيك (دأبت على صنع الكيك منذ أن أقمت في منزلها وكنت أحبّ كثيراً الكيك الذي تصنعه)، وتركتني أرتع في كسلي.

أنزلت الكتاب المفتوح بعناية حيث كانت تجلس (كانت صفحاته تنقلب بسرعة، لكنني دسست قلم رصاص فتوقفت الصفحات عن التقليب). تأكدت من المكان الذي كنت قد خبأت فيه المفتاح: كان يقبع تحت شفرة الحلاقة القديمة الغالية الثمن التي كنت استعملها قبل أن تشتري لي شفرة أفضل وأرخص. هل هذا هو المخبأ المثالي، تحت شفرة الحلاقة، في ثلم علبتها المبطّنة بالمخمل؟ كانت العلبة تقبع في صندوق صغير كنت أضع فيه بعض أوراقي. هل يوجد مكان أفضل أخفيه فيه؟ كم هو شاق على المرء أن يخفي أشياء - خاصة عندما تكون زوجته من النوع الذي لا يكفّ عن البحث والتفتيش بين الأثاث.

٢٢

أخال أنه بعد مضي أسبوع على آخر مرة سبحنا فيها في البحيرة، جلب لنا بريد الظهيرة رداً من الآنسة فالين، قالت فيها إنها عادت للتو إلى معهد سانت ألجبرا بعد أن حضرت مراسم تشييع أختها. «فلم تعد يوفيميا تتمتع بصحتها بعد أن كُسر وركها»؛ أما بالنسبة لمسألة ابنة السيدة همبرت، فإنها تريد القول إن الوقت قد تأخر كثيراً على تسجيلها لهذا العام، لكنها، فالين التي لا تزال حية ترزق، متأكدة من أنه إذا أحضر السيد والسيدة همبرت دلوريس في كانون الثاني (يناير)، فإن ذلك قد يساعد على قبولها.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم التالي، ذهبت بعد الغداء لزيارة «طبيبنا»، وهو شخص ودود كانت رعايته الرائعة للمرضى، واعتماده الكامل على بضعة أدوية معتمدة تخفي جهله ولامبالاته بالعلوم الطبية. وكانت عودة «لو» إلى رامسدال تمثّل كنزاً من الترقب بالنسبة لي، وقد أردت أن أكون مهيأ تماماً لهذا الحدث. وبالفعل كنت قد بدأت حملتي في وقت سابق، قبل أن تتخذ شارلوت قرارها القاسي ذاك. فقد كان عليّ أن أتأكّد متى ستعود طفلتي الرائعة، وأردت أن أتعلم سبل تنويم هاتين المخلوقتين نوماً عميقاً بحيث لا يوقظهما أي صوت أو لمسة في جميع الليالي، حتى تسلبها مني «سانت ألجبرا». وأمضيت معظم شهر تموز (يوليه) وأنا أجرّب مختلف مساحيق التنويم على شارلوت التي تبتلع كميات كبيرة من الحبوب. وكانت الجرعة الأخيرة التي أعطيتها لها (حسبت أنه قرص من البروميد الخفيف لتهدئة أعصابها) قد جعلتها تغطّ في نوم عميق لأربع ساعات كاملة. وكنت قد رفعت صوت المذياع إلى أعلى حد ممكن، وسلّطت على وجهها ضوء مصباح قوي، ودفعتها، وقرصتها، ووخزتها - لكن شيئاً لم يعكّر إيقاع تنفّسها الهادئ القوي. لكن ما إن كنت أقوم بحركة بسيطة كأن أقبّلها مثلاً، حتى كانت تصحو في الحال، نضرة وقوية مثل أخطبوط (فلا أكاد أنجو). قلت لنفسي إن هذا الأمر غير مجدٍ، وعليّ أن أجد شيئاً أكثر أمانا. في البداية، لم يصدق الدكتور بيرون عندما أخبرته أن وصفته الأخيرة لم تنجح في علاج الأرق الذي يعكّر صفو نومي. فاقترح أن أجرّبها ثانية، وللحظة حوّل انتباهي عندما أخذ يريني صور أسرته. فقد كانت عنده طفلة فاتنة بعمر دولي، لكنني كنت أعرف حيله، وأصررت على أن يصف لي حبوباً منوّمة أقوى مفعولاً، فاقترح عليّ أن ألعب الغولف، لكنه وافق أخيراً على إعطائي شيئاً قال إنه «فعّال جداً»، وتوجّه إلى خزانته، وأخرج قارورة فيها كبسولات بنفسجية اللون - زرقاء في طرفها خطوط أرجوانية داكنة،

Twitter: @ketab_n

وقال إنها حديثة العهد وقد نزلت إلى السوق مؤخراً، وإنها ليست مخصصة لمرضى الأمراض العصبية الذين تكفي رشفة ماء لتهدئة أعصابهم، إذا ما أُستخدمت بطريقة صحيحة، بل إنها مخصصة فقط للفنانين العظماء المصابين بالأرق الذين يتوقون إلى بضع ساعات لكي يعيشوا قروناً. وكان من عادتي خداع الأطباء، ومع أنني كنت مبتهجاً في سريرتي، وضعت الحبوب في جيبي، وهززت كتفي بشيء من الريبة. كان عليّ أن أحذر منه. ففي ذات مرة وفي مناسبة أخرى، جعلتني زلة لسان غبية أذكر المصحّة الأخيرة التي كنت نزيلاً فيها، وحسبت أنه شنّف أذنيه. ولما كنت حريصاً كلّ الحرص على ألاّ تعرف شارلوت أو أي شخص آخر، تلك الفترة من ماضيّ، أوضحت له بسرعة أنني كنت أجري في تلك الفترة أبحاثاً على المجانين لكي أكتب رواية. لكن في جميع الأحوال، كان لدى هذا الوغد العجوز فتاة صغيرة حلوة.

غادرت وأنا في غاية النشوة، ورحت أقود سيارة زوجتي بإصبع واحدة سعيداً، في طريق عودتي إلى البيت. بدت لي رامسدال مفعمة بالسحر. كانت الحشرات تئز، وقد غُسل الشارع مؤخراً. وبسلاسة شديدة، كالحرير تقريباً، انعطفت إلى شارعنا الصغير المنحدر. كان كلّ شيء يسير على ما يرام، وكان يسود اللونان الأزرق والأخضر. عرفت أن الشمس مشرقة لأن انعكاس مفتاح تشغيل السيارة كان بادياً على الزجاج الأمامي؛ وعرفت أن الساعة هي الثالثة والنصف تماماً لأن الممرضة التي تأتي لتدلّك الآنسة صاحبة المنزل المقابل بعد ظهر كلّ يوم، كانت تتهادى على الرصيف الضيّق بجوربها وحذائها الأبيضين. وكالعادة، هاجمني كلب عائلة جانك المسعور وأنا أهبط الشارع الشديد الانحدار، وكالعادة، كانت الصحيفة المحلية ملقاة على الشرفة حيث كان كيني يلقيها دائماً.

البارحة، وضعتُ حداً لنظام العزلة الذي فرضته على نفسي، فما

Twitter: @ketab_n

إن فتحت باب غرفة الجلوس حتى صحت مبتهجاً معلناً عن قدومي. طالعني قفا عنق شارلوت الأبيض اللحيم، وشعرها البرونزي المعقوص في شكل كعكة، وكانت شارلوت ترتدي بلوزتها الصفراء وبنطالها الأحمر الداكن الذي كانت ترتديه عندما التقيت بها أول مرة. كانت تجلس إلى زاوية طاولة المكتب منكبة على كتابة رسالة. كانت يدي لا تزال تمسك قبضة الباب. وكرّرت صيحتي النابعة من القلب. توقّفت يدها التي كانت تكتب. لبثت واجمة. ثمّ استدارت في كرسيها ببطء، وأسندت مرفقها على ظهره المقوّس. لم يكن وجهها، الذي شوّهه انفعالها، مشهداً جميلاً وهي تحدّق في ساقيّ وقالت: «المرأة هايز، الكلبة الكبيرة، القطّة العجوز، الأمّ البغيضة، هايز الغبية العجوز، لم تعد مغفلتك. إنها - إنها...».

توقفت متّهمتي الجميلة، وهي تزدرد سمّها ودموعها. ومهما قال همبرت همبرت - أو حاول أن يقول - لم يعد مهماً؛ وتابعت كلامها:

«إنك وحش. مجرم، محتال، بغيض، مقيت. وإذا اقتربت مني فإني سأصرخ من النافذة. ابتعد عني!».

مرة أخرى، أظن أنه يمكن حذف كلّ ما دمدم به همبرت همبرت.

«سأغادر الليلة. سأترك البيت كلّه لك. ولن ترى تلك الشقية البائسة بعد الآن، أبداً، أبداً. هيا أخرج من هذه الغرفة».

نعم أيها القارئ، فقد أطعتها وخرجت. ثم صعدتُ إلىَ الغرفة الشبيهة بالاستوديو. لبثت واقفاً لبرهة، واضعاً يديّ على خصري، رابط الجأش، ورأيت من عتبة الدرج المنضدة الصغيرة المغتصبة ودرجها الذي كان ما زال مفتوحاً، ومفتاح يتدلى من القفل، وكانت هناك أربعة مفاتيح منزلية أخرى مرمية فوق سطح المنضدة. وتوجهت إلى غرفة نوم السيد والسيدة همبرت، وبهدوء أخذت مفكرتي من تحت وسادتها ودسستها في جيبي. ثمّ هبطت الدرج، لكنني توقّفت في منتصف

Twitter: @ketab_n

الطريق: كانت تتحدّث على الهاتف القائم خارج باب غرفة الجلوس. كنت أريد أن أسمع ما كانت تقوله: لقد ألغت طلباً لشيء ما، وعادت إلى الردهة. نظّمت تنفسي ثانية، ومشيت في الممر نحو المطبخ، وفتحت زجاجة ويسكي. لا أظن أنها تستطيع أن تقاوم الويسكي على الإطلاق. ثمّ دلفت إلى غرفة الطعام، ومن هناك، ومن خلال الباب الموارب، تأمّلت ظهر شارلوت العريض.

«إنكِ تحطمين حياتي وحياتك»، قلت بهدوء، «هيا لنكن شخصين متحضّرين. كلّ هذا ناجم عن هلوساتك. إنك مجنونة يا شارلوت. إن الملاحظات التي قرأتِها ما هي إلا فقرات كنت قد دوّنتها تمهيداً لكتابة رواية. وقد ورد اسمك واسمها بمحض الصدفة، لأنهما خطرا ببالي فقط. فكّري في الأمر. سأجلب لك كأساً من الويسكي».

لم تجب ولم تلتفت، لكنها تابعت خربشة كلمات بخطها الرديئ، لا أعرف ما هي. أظن أنها رسالة ثالثة (كانت هناك رسالتان في مغلّفين أُلصق عليهما طابعان مرميتين على المنضدة). عدت إلى المطبخ. وضعت كأسين (لسانت ألجبرا؟ للوليتا؟) وفتحت الثلاجة. انبعث منها صرير حاد عندما أخرجت الثلج من وسطها. أكتب مرة أخرى. دعها تقرأها مرة أخرى، فهي لن تتذكّر التفاصيل. غيّر، زوّر. اكتب جزءاً وأرها إياه أو اتركها ملقاة هناك. لماذا تصدر الحنفيات أحياناً أنيناً حاداً بهذا الصوت المروّع؟ حالة مروّعة، حقاً. كانت مكعبات الثلج في شكل وسادة صغيرة من الوسادات الثلجية من أجل الدبدوب القطبي، وبعثت لوليتا أصواتاً معذبة، قرقعة، عندما بدأ الماء الدافئ يحلحلها في خلاياها. وضعت الكأسين جنباً إلى جنب. صببت فيهما قليلاً من الويسكي ومسحة من الصودا. صُفق باب الثلاجة. حملت الكأسين، وسرت عبر غرفة الطعام، وقلت من خلال باب الردهه الموارب قليلاً، لا تكاد هناك مسافة تتسع لمرفقي.

Twitter: @ketab_n

«أعددت لكِ مشروباً»، قلت لها.

لم تجب، الكلبة المجنونة. وضعت الكأسين على الخوان قرب الهاتف الذي بدأ يرن.

«ليزلي يتكلم. ليزلي تومسون»، قال ليزلي تومسون الذي كان يفضّل السباحة عند الفجر، «السيدة همبرت، يا سيدي، لقد صدمتها سيارة، ومن الأفضل أن تأتي بسرعة».

أجبت، ربما بشيء من الحدّة، بأن زوجتي بخير وأمان. وبينما كنت لا أزال أمسك بسماعة الهاتف، فتحت الباب، وقلت:

«شارلوت، هذا الرجل يقول إنكِ قتلت».

لكن شارلوت لم تكن موجودة في غرفة الجلوس.

٢٣

اندفعت إلى الخارج. كان مشهد الجانب الآخر من شارعنا الصغير المنحدر غريباً. فقد تسلّقت سيارة كبيرة سوداء براقة من طراز باكارد حديقة الآنسة صاحبة البيت المقابل، المنحدرة عند زاوية الرصيف (حيث تكوّم ثوب صوفي مقلّم). كانت السيارة رابضة هناك، تلمع تحت الشمس، وكانت أبوابها مشرعة مثل أجنحة، وعجلاتها الأمامية تغوص عميقاً في شجيرات دائمة الخضرة. وعلى يمين السيارة، عند منعطف الحديقة المنحدرة التي جُزَّ عشبها، رأيت رجلاً مسناً له شاربان أبيضان، يرتدي بدلة أنيقة رمادية ذات صدرية، ويضع ربطة عنق منقّطة في شكل قوس، مستلقياً، وقد ضم ساقيه الطويلتين. كان يشبه تمثالاً شمعياً ميتاً. يجب أن أدخل تأثيرات على الرؤية الآنية بسلسلة من الكلمات، إذ إن تراكمها في الصفحة يخفف من بريقها الفعلي، ويضعف من وحدة الانطباع الحادة: بساط متكوّم، سيارة، دمية -

Twitter: @ketab_n

رجل عجوز، وممرضة الآنسة صاحبة البيت المقابل تجري، ينبعث من ثوبها حفيف، وتحمل بيدها كوباً نصف فارغ، عائدة إلى الشرفة ذات الستارة - حيث يمكن تخيّل السيدة الهرمة، السجينة، المنتصبة في جلستها، وهي تصرخ، لكن ليس بصوت عال يكفي لإغراق صوت عواء كلب بائع الخردة، الذي كان يتنقل بين مجموعة وأخرى - من حفنة الجيران الذين تجمعوا على الرصيف، بالقرب من قطعة القماش ذات المربعات، ثم يعود إلى السيارة، ثم يعود إلى المجموعة الأخرى الواقفة على العشب، التي كان من بينها ليزلي، وشرطيان ورجل مربوع القامة يضع نظارة ذات إطار مصنوع من قشور صدف السلحفاة. هنا يجب أن أوضح أنّ سبب ظهور الشرطيين الفوري، ولما تكد قد مرّت دقيقة واحدة على الحادثة، هو أنهما كانا يسجّلان مخالفات للسيارات المركونة بشكل غير قانوني في زقاق متقاطع على مسافة شارعين، وأن الشخص الذي يضع نظارة هو فردريك بيل، ابن سائق السيارة من طراز باكارد، الذي يبلغ والده من العمر ٧٩ سنة، والذي سقته الممرضة وهو ممدد على العشب الأخضر. لم يكن المصرفي فاقد الوعي، بل كان قد بدأ يستعيد وعيه من نوبة قلبية خفيفة، أو من احتمال إصابته بها، وأخيراً، كان هناك الرداء المكوّم على الرصيف (الذي كانت خطوطه الخضراء المائلة تزعجني) الذي يغطي جسد شارلوت همبرت المشوّهة، التي دهستها سيارة بيل وألقت بها على بعد عدة أقدام في الشارع بينما كانت تعبره لتضع الرسائل الثلاث في صندوق البريد القائم عند زاوية حديقة الآنسة صاحبة البيت المقابل، التي التقطتها طفلة جميلة ترتدي فستاناً وردياً وسخاً، وأعطتها لي، فمزقتها إلى قصاصات صغيرة ودسستها في جيب بنطالي.

ثم وصل ثلاثة أطباء إلى موقع الحادث وبدأوا عملهم على الفور، ثم وصل السيد والسيدة فارلو. أما الأرمل، وهو رجل ذو قدرة استثنائية

Twitter: @ketab_n

على تمالك نفسه، فلم يذرف دمعة واحدة ولم تبد عليه أي علائم حزن. ترنح قليلاً، ولم يكن يقول شيئاً إلا ليقدم بعض المعلومات، أو ليصدر التوجيهات الضرورية المتعلقة بهوية المرأة التي فارقت الحياة، والانتهاء من فحصها ونقلها، بعد أن أصبحت قمة رأسها عجينة امتزجت فيها العظام والدماغ والشعر البرونزي والدم. كانت الشمس لا تزال ساطعة تغشي الأبصار عندما قاده صديقاه، جون اللطيف وجين ذات العينين النديتين، وجعلاه يستلقي على السرير في غرفة دولي. ولكي يكونا قريبين منه، أمضيا الليلة معه في غرفة نوم آل همبرت، لكن ربما، حسب تقديري، لم يمضيا الليلة بالبراءة التي كان جلال هذه المناسبة يتطلبها.

لا داعي للاستفاضة في هذه المذكرات الشديدة الخصوصية، والتحدث عن المراسم التي سبقت الجنازة الواجب إجراؤها، أو عن الجنازة نفسها، التي كانت هادئة هدوء الزواج نفسه. لكن يجب التنويه إلى بضعة حوادث وقعت خلال الأيام الأربعة أو الخمسة التي أعقبت وفاة شارلوت الغبية.

فقد أمضيت الليلة الأولى من ترمّلي وأنا في حالة شديدة من السكر نمت معها بعمق مثل الطفلة التي كانت تنام في ذلك السرير. وفي صباح اليوم التالي، هرعت لأفتش في قصاصات الرسائل التي دسستها في جيبي، والتي اختلطت جميعها فتعين عليّ أن أفرزها وأصنّفها في ثلاث مجموعات كاملة. وخُيّل إليّ أن ما قرأته: «... ومن الأفضل أن تعثري عليها لأنني لا أستطيع شراء...» هي من رسالة موجهة إلى «لو»، وبدا أن أجزاء أخرى تشير إلى نية شارلوت في الهرب مع «لو» إلى باركينغتون، أو في العودة إلى بيسكي، خوفاً من أن يقوم العقاب باختطاف حملها الوديع الثمين. وكانت هناك قصاصات أخرى (لم أكن أظن قط أنّ لديّ مثل هذه المخالب القوية) تشير بوضوح إلى طلب

Twitter: @ketab_n

مرسل إلى مدرسة داخلية أخرى، غير معهد سانت ألجبرا، يقال إنها مدرسة قاسية ومتزمتة ورمادية وهزيلة في مناهجها (مع أنهم يتيحون للتلاميذ لعب الكروكيت تحت أشجار الدردار) مما جعلها تكتسب لقب «إصلاحية للشابّات الصغيرات». وأخيراً، كان من الواضح أن الرسالة الثالثة كانت موجّهة إليّ، فقد استطعت تبيّن أمور مثل «. . .بعد سنة من الفراق قد. . .»، و«. . . آه، يا عزيزي، آه يا. . .»، و«. . . أسوأ مما إذا كانت امرأة قد احتفظت. . .»، و«. . . أو، ربما سأموت. . .». لكن بصورة عامة، لم يكن ما تمكّنت من جمعه يوضح أموراً كثيرة، بسبب اختلاط القصاصات المختلفة لتلك الرسائل الثلاث التي أحملها في راحة يدي والتي تقبع عناصرها الأساسية في رأس شارلوت المسكينة.

في ذلك اليوم ،كان على جون أن يرى أحد الزبائن، وكان على جين أن تطعم كلبيها، لذلك كنت سأُحرم من صحبة صديقيّ هذين مؤقتاً. فقد كان هذان الصديقان العزيزان يخشيان أن أقدم على الانتحار إذا ما تركاني وحيداً، ولمّا لم يكن هناك أصدقاء آخرون (الآنسة صاحبة البيت المقابل تعيش في معزل عن العالم الخارجي، وأسرة ماكو منهمكة في تشييد بيت جديد على بعد عدة أميال، أما السيد والسيدة شاتفيلد فقد ذهبا مؤخراً إلى ولاية مين لحلّ مشكلة عائلية)، وكُلِّف ليزلي ولويز بالبقاء معي بذريعة مساعدتي لترتيب وحزم الكثير من الأشياء التي أضحت يتيمة. وفي لحظة إلهام رائعة، أريت السيد والسيدة فارلو اللطيفين والساذجين (كنا ننتظر قدوم ليزلي من أجل موعده الغرامي المدفوع الأجر مع لويز) صورة صغيرة لشارلوت كنت قد عثرت عليها بين أغراضها. كانت تبتسم من وراء صخرة وشعرها يتطاير، التُقطت في شهر نيسان (أبريل) ١٩٣٤. كان ربيعاً رائعاً. وقلت لهما إنني عندما كنت في زيارة عمل إلى الولايات المتحدة، أُتيحت لي الفرصة لقضاء

Twitter: @ketab_n

عدّة شهور في بيسكي، حيث التقيت بها ونشأت بيننا علاقة هيام. لكنني، ويا للأسف، كنت متزوجاً، وكانت شارلوت مخطوبة للسيد هايز؛ لكن بعد أن عدت إلى أوروبا، رحنا نتبادل الرسائل بواسطة أحد الأصدقاء وقد مات الآن. وهمست جين بأنها سمعت بعض الشائعات عن هذا الأمر وحدّقت في الصورة، وبينما كانت لا تزال تحدّق فيها، أعطتها لجون الذي أبعد غليونه من فمه وألقى نظرة على شارلوت بيكر الجميلة، ثم أعادها إليّ. ثمّ غادرا على أن يعودا بعد بضع ساعات. أما لويز السعيدة فقد كانت تدغدغ عشيقها في القبو وتعاتبه.

بعد ذهاب السيد والسيدة فارلو بقليل، جاء لزيارتي رجل دين ذو لحية زرقاء - حاولت أن يكون اللقاء قصيراً لكي لا ينتهي الأمر بأن أجرح مشاعره وأثير شكوكه. نعم، سأكرّس حياتي كلّها لسلامة الطفلة وسعادتها. وبالصدفة كان هناك صليب صغير كانت شارلوت بيكر قد أعطتني إياه عندما كنّا شابين. وقلت له إن لديّ ابنة عم، عانس محترمة في نيويورك، سنذهب لزيارتها للبحث عن مدرسة خاصة جيدة لدولي. آه، يا لهمبرت الماكر.

ولإقناع ليزلي ولويز اللذين كان من الممكن (وقد فعلا ذلك فعلاً) أن ينقلا ما قلته لجون وجين، تظاهرت بمهارة شديدة بأنني أجري مكالمة خارجية مع شيرلي هولمز، ورحت أتكلم بصوت مرتفع. وعندما عاد جون وجين، سرعان ما وقعا في الفخ الذي نصبته لهما عندما أخبرتهما بتمتمة متعمدة ومرتبكة، بأن «لو» ذهبت مع فرقتها في رحلة تستغرق خمسة أيام، وأنني لم أتمكن من مخابرتها.

«يا إلهي»، قالت جين، «ماذا يمكننا أن نفعل؟»

فقال جون إن الأمر بسيط للغاية - إذ سيتصل بشرطة الطوارئ للبحث عن الفرقة - ولن يستغرق ذلك أكثر من ساعة. فهم يعرفون المنطقة جيداً، وأضاف، «انظر، لماذا لا أذهب إلى هناك بسيارتي

Twitter: @ketab_n

الآن، ويمكنك أن تنام مع جين» - (لم يقل ذلك حقاً، لكن جين أيّدت عرضه بحماسة شديدة إلى درجة أنها كانت تلمح إلى ذلك).

تهاويت. ورجوت جون أن ندع الأمور كما هي، وقلت إنني لا أستطيع تحمّل وجود الطفلة بقربي الآن، فهي فلن تكفّ عن البكاء، وستتعلّق بي، لأنها ستكون في حالة شديدة من الحزن، وقد يؤثر ذلك على مستقبلها، فقد حلّل الأطباء النفسانيون حالات كهذه. فساد صمت مطبق مفاجئ.

«حسناً، إنك الطبيب»، قال جون بشيء من القسوة، «فقد كنت صديق شارلوت ومستشارها. إننا نتساءل ماذا ستفعل حيال الطفلة».

«جون»، صاحت جين، «إنها ابنته، وليست ابنة هارولد هايز. ألا تفهم؟ إن همبرت هو والد دولي الحقيقي».

فأجاب جون، «حسناً أنا آسف. نعم. فهمت. لم أكن أعرف ذلك. وهذا يسهّل الأمر، بالطبع. وكلّ ما تقولينه صحيح».

وتابع الوالد المذهول قوله إنه سيذهب لإحضار ابنته الرقيقة فور الانتهاء من مراسم الجنازة، وإنه سيبذل كل ما بوسعه لاسعادها ولكي تمضي وقتاً ممتعاً في أماكن مختلفة، وربما أخذها في رحلة إلى نيو مكسيكو أو إلى كاليفورنيا، طبعاً، إذا أطال الله عمره.

هكذا إذن، فقد كنت أمثّل بهدوء أنني في حالة من اليأس المطلق، الصمت الذي يسبق الانفجار الشديد، مما جعل السيد والسيدة فارلو الرائعين يأخذانني إلى بيتهما. كان في بيتهما قبو جيد، كحال الأقبية في هذا البلد. كان هذا مفيداً جداً، لأنني كنت أخشى أن يعتريني الأرق، وأن تظهر لي أشباح.

يجب الآن أن أوضح الأسباب التي دعتني لإبقاء دلوريس بعيدة عن البيت. فبادئ ذي بدء، بعد أن قضت شارلوت، وعدت إلى البيت

Twitter: @ketab_n

زوجاً وأباً حراً، جرعت كأسين من مزيج الويسكي والصودا كنت قد أعددتهما، وأتبعتهما بزجاجتين من البيرة، ثم توجّهت إلى الحمام للابتعاد عن عيون الجيران والأصدقاء، ولم يكن يدور في خلدي ولا يخفق في نبضي إلا شيء واحد - وهو إدراكي أنه بعد بضع ساعات من الآن، ستكون لوليتا، الدافئة، ذات الشعر البني، لوليتي، لوليتي، لوليتي، بين ذراعيّ، أجفف دموعها بدموعي عندما تترقرقان في عينيها. وعندما كنت منتصباً أمام المرآة، محملق العينين، مورّد الوجه، نقر جون فارلو على الباب برقة ليسألني هل أنا على ما يرام - وأدركت على الفور أن من الجنون أن أبقيها في البيت وحولي جميع هؤلاء الفضوليين الذين قد يخططون سراً لسلبها مني. بل ربما أظهرت «لو» هي نفسها، بمزاجها المتقلّب - من يعرف؟ - بكل حماقة عدم الثقة بي، فأبدت نفوراً مفاجئاً، أو خوفاً مبهماً، أو ما شابه ذلك - وبذلك، تتلاشى جائزتي السحرية في لحظة الانتصار هذه.

وبمناسبة الحديث عن الفضوليين، فقد جاء لزيارتي صديق آخر، بيل، الشخص الذي قضى على زوجتي. كان ثقيلاً، جدّياً، يشبه مساعد منفذ الإعدام، بخدّيه اللحيمين، وعينيه الصغيرتين السوداوين، ونظارته السميكة، وأنفه البارز، فأخذه جون إلى غرفتي ثمّ تركنا وحدنا، وأغلق الباب وراءه، بكياسة شديدة. وقال زائري الغريب الشكل برقة إن لديه ابنتين توأمين تدرسان في صف ابنة زوجتي في المدرسة، ثم فتح مخططاً كبيراً كان قد رسمه عن الحادث. وكان هذا المخطط، على حد تعبير ابنة زوجتي «جميل» مع كل تلك الأسهم الرائعة والخطوط المنقطة بألوان حبر متعددة. وقد رسم خط مسار السيدة همبرت همبرت في عدّة نقاط بسلسلة من الأشكال الصغيرة التي تشبه الدمى المستخدمة في الإحصائيات كوسائل بصرية. وبوضوح شديد، وبطريقة حاسمة، وصل الطريق بخطّ ملتوٍ يتبع خطاً متعرجاً

Twitter: @ketab_n

يمثّل انعطافتين - انعطافة قامت بها سيارة بيل لتفادي كلب بائع الخردة (الكلب غير مبيّن في الرسم)، والثانية، تبدو أنها استمرار مبالغ فيه للانعطافة الأولى، بهدف تفادي وقوع المأساة. وصليب أسود داكن يشير إلى البقعة التي وصل إليها الخط أخيراً إلى الرصيف. وبحثت عن علامة مماثلة للدلالة على المكان في الحاجز حيث استقرت سيارة والد زائري الضخمة، لكن لم تكن هناك أي علامة. لكن الرجل المحترم ذاك، وقّع الوثيقة بصفته شاهداً تحت اسم ليزلي تومسون، والآنسة صاحبة البيت المقابل، وأسماء أشخاص آخرين.

وبقلمه الرصاص الذي كان يثب بمهارة وحساسية من نقطة إلى أخرى مثل الطائر الطنّان، أثبت فردريك براءته التامة، وتهوّر زوجتي: فبينما كاد أن يتفادي الكلب، انزلقت هي فوق الاسفلت الذي كان مبللاً بالماء وسقطت إلى الأمام، حيث كان عليها ألاّ تلقي بنفسها إلى الأمام، بل إلى الخلف (وأظهر فريد كيف يمكن أن يتم ذلك بهزّة من كتفه المنتفخ بالبطانة). قلت من المؤكد أن لا ذنب له في الحادثة، وقد دعم التحقيق رأيي.

بعد أن أخذ نفساً عميقاً من فتحتيّ أنفه المتوترتين السوداوين الفاحمتين، هزّ رأسه وصافحني، ثمّ، وبهيئة العارف بشؤون الحياة، وبسخاء نبيل، عرض أن يدفع لي نفقات الجنازة. وتوقّع أن أرفض عرضه هذا، وبشهقة رجل سكران قبلت عرضه بامتنان، الأمر الذي فاجأه، وكرر ما قاله ببطء، فشكرته مرة أخرى، أكثر بكثير من السابق.

وكانت نتيجة هذا اللقاء الغريب، أن تلاشى الخدر في روحي للحظة. ولا عجب في ذلك! فقد رأيت حقاً يد القدر. وقد تلمّست نبض لحمه بنفس القدر - وكتفه المحشو بالبطانة. وفجأة طرأ تغيّر رائع وبشع، وها هي أداة هذا التغيير. فمن خلال تعقيدات هذا النمط (ربّة بيت مستعجلة، رصيف زلق، آفة كلب، انحدار شديد، سيارة كبيرة،

Twitter: @ketab_n

قرد وراء المقود)، استطعت ان أميّز بشكل باهت مساهمتي الحقيرة. ولو لم أكن أحمق إلى هذه الدرجة - أو عبقرياً يتمتع بحدس شديد - جعلني أحتفظ بهذه المفكرة، لما أفرزت شارلوت كل تلك السوائل بسبب غضبها الحقود وخزيها الشديد اللذين أعميا عينيها وهي تثب في طريقها إلى صندوق البريد. لكن حتى لو كانت هذه الأشياء قد أعمتها، لعله لم يكن ليحدث شيء، ولما حلّ ذلك القدر الدقيق، تلك الأشباح المتزامنة، الممزوجة داخل ذلك الإمبيق الذي يجمع السيارة والكلب والشمس والظلّ والبلل والضعيف والقوي والحجارة. الوداع، يا مارلين! إن مصافحة يد القدر اللحيمة (كما صافحني بيل قبل مغادرته الغرفة) انتشلتني من سباتي، وبكيت. سيداتي وسادتي، أعضاء هيئة المحلفين، لقد بكيت.

٢٤

تطلعت حولي للمرة الأخيرة عندما بدأت أشجار الدردار وأشجار الحور تولي ظهورها المتموجة للريح التي هبّت بغتة، وخيّمت غيمة سوداء تنذر بأمطار جارفة فوق برج كنيسة رامسدال الأبيض. وها أنذا أغادر البيت الباهت الذي استأجرت فيه غرفة قبل عشرة أسابيع فقط بأمل أن أحظى بمغامرات مجهولة. وقد أسدلت الستائر الخيزرانية التي كان قوامها الغني يمنح الشرفة أو داخل البيت مظهراً حديثاً. ولا بد أن بيت السعادة سيغدو عارياً تماماً. هطلت قطرة مطر على يدي. عدت إلى البيت لأحضر شيئاً، بينما كان جون منهمكاً في وضع حقائبي في السيارة، ثم حدث أمر مضحك. لا أعرف هل أكدت في هذه الملاحظات المأساوية بما يكفي التأثير الذي كانت«تبعث به» نظرات الكاتب الجميلة - الشبه كلتيّة، ذات الجاذبية القردية، الصبيانية

Twitter: @ketab_n

الرجولية - على النساء من شتى الأعمار والمشارب. وبطبيعة الحال، قد تبدو هذه الأقوال المذكورة في صيغة ضمير المتكلم أقوالاً سخيفة. لكن عليّ أن أذكّر القارئ، بين الحين والآخر، بأنني مثل الروائي المحترف الذي يمنح إحدى الشخصيات الرئيسية في روايته شيئاً من التكلّف والتأنق أو يمنحه كلباً، ويحرص على الاستمرار في إبراز ذلك الكلب أو ذلك التكلّف كلما ظهرت تلك الشخصية خلال أحداث الرواية، وقد يرتبط ذلك بالوضع الحالي. إذ يجب أن تظلّ وسامتي الكئيبة ماثلة في مخيلة القارئ إذا أراد أن يفهم قصتي جيداً. فقد كانت «لو» المراهقة تقع تحت تأثير سحر همبرت تماماً كما كانت تقع تحت تأثير الموسيقى الصاخبة التي تسمعها. أما «لوت» البالغة، فقد كانت تحبّني بعاطفة امرأة بالغة تتملكها الغيرة، وإني أرثي لحالها الآن وأكنّ لها احتراماً يتجاوز قدرتي على التعبير عنه. ويبدو أن جين فارلو، العصابية التي تبلغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، قد أغرمت بي أيضاً. وكانت جين امرأة جميلة لها ملامح امرأة هندية، وبشرة محترقة بلون التراب. وكانت شفتاها أشبه بزائدتين لحميتين قرمزيتين كبيرتين، وعندما كانت تطلق ضحكتها التي تشبه النباح، كانت تُبرز أسناناً كئيبة كبيرة، ولثة شاحبة.

وكانت جين فارعة الطول، ترتدي عادة بنطالاً وتنتعل صندلاً، أو تنورة واسعة متموجة وتنتعل صندلاً لرقص الباليه. وكانت تحتسي جميع أنواع المشروبات الكحولية القوية بكميات كبيرة؛ وقد أجهضت مرتين، وتكتب قصصاً عن الحيوانات، وكما يعرف القارئ، فهي مولعة برسم مشاهد البحيرة، وكانت تعالج السرطان الذي كان على وشك أن يقتلها وهي لا تزال في الثالثة والثلاثين من عمرها، ولم أكن أشعر بالانجذاب نحوها على الإطلاق. إذاً احكموا بأنفسكم على الذعر الذي اعتراني، عندما وضعت جين يدها، قبل أن أغادر بثوان قليلة (وقفنا أنا

Twitter: @ketab_n

وهي في المدخل)، ولامست صدغيّ بأصابعها المرتعشة دائماً، والدموع تترقرق في عينيها الزرقاوين اللامعتين، في محاولة فاشلة لتلصق شفتيها بشفتيّ.

«اعتنِ بنفسك»، قالت، «قبّل ابنتك بالنيابة عني».

قصف الرعد فاهتزّت أركان البيت، وأضافت: «ربما، في مكان ما، في يوم ما، في زمن أقل بؤساً، قد يرى أحدنا الآخر مرة أخرى». (جين، مهما كانِ، حيثما كنت، في فضاء الزمن السالب أو روح الزمن الموجب، اغفري لي كلّ ذلك، بما في ذلك علامتا التنصيص).

أما الآن، فقد رحت أصافحهما في الشارع، الشارع المنحدر، وكان كلّ شيء يدور ويطير قبل حدوث الطوفان الأبيض القادم. وكانت هناك شاحنة تحمل فراشاً قادمة من فيلادلفيا تتهادى بثقة باتجاه بيت فارغ، وكان التراب يتطاير ويتلوّى فوق الحجرة ذاتها التي ظهرت عليها شارلوت، عندما رفعوا الرداء عنها كي ألقي نظرة عليها، متكوّرة، عندما كانت عيناها سليمتين، ورموشها السوداء لا تزال ندية، مثل رموشك يا لوليتا.

٢٥

قد يخيّل إلى المرء أنه بعد أن زالت جميع العقبات، ولاحت أمامي آفاق التمتع بالمسرّات الهذيانية وغير المحدودة، فإنني سأعود وأغوص عقلياً، وأطلق تنهيدة تنمّ عن راحة لذيذة. لا، على الإطلاق. فبدلاً من أن أرتع تحت أشعّة الحظ الباسم، أخذت تنهشني جميع أنواع الشكوك والمخاوف الأخلاقية. فعلى سبيل المثال: ألا يمكن أن يتساءل الناس عن سبب حرمان «لو» من حضور مراسم جنازة أمّها؟ وكما تتذكّرون - فهي لم تحضر حفل زفافنا أيضاً. أو ربما شيء آخر:

Twitter: @ketab_n

لنفترض جدلاً أن ذراع «الصدفة» الطويلة المكسوة بالشعر هي التي امتدّت لتقضي على امرأة بريئة، فقد لا تتجاهل «الصدفة»، في لحظة وثنية، ما فعلت يدها الأخرى، وأعطت «لو» رسالة رثاء قبل الأوان؟ صحيح أن نبأ الحادث لم يرد إلا في صحيفة «رامسدال جورنال»، وليس في صحيفة «باركينغتون ريكوردر» أو «كلايماكس هيرالد». وبما أن مخيّم كيو يقع في ولاية أخرى، فإن الولاية الأخرى لن تبدي أي اهتمام بأخبار الوفيات المحليّة؛ لكن خيّل إليّ أن دولي هايز لا بد أن تكون قد سمعت بالخبر، وأن بعض الأصدقاء الذين لا أعرفهم قد أعادوها إلى رامسدال، وأنا في طريقي لإحضارها. وكان الشيء الذي أثار قلقي أكثر من جميع المخاوف الأخرى التي ساورتني، هو أن همبرت همبرت، المواطن الأمريكي الجديد من الأصل الأوروبي المغمور، لم يتخذ أي خطوة للحصول على الوصاية القانونية لابنة زوجته المتوفاة (التي تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر). هل أجرؤ على اتخاذ هذه الخطوات؟ ولا يمكنني أن أكبح ارتعاشة تسري في أوصالي عندما أتخيّل نفسي عارياً أمام القوانين الغامضة في ذلك الوهج الشديد الذي يغلّف القانون العام.

كانت خطتي إحدى أعاجيب الفنّ البدائي: سأنطلق الآن إلى مخيّم كيو، وأخبر لوليتا أن أمّها ستجري عملية في مستشفى أخترع اسمه من بنات أفكاري، ثم أواصل رحلتي مع حوريّتي الناعسة، متنقلاً من نزل إلى نزل حتى تسوء صحة أمّها، وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وبينما واصلت طريقي نحو المخيّم، ازداد قلقي حدّة. ولم أكن أحتمل مجرد التفكير بأنني قد لا أجد لوليتا هناك - أو قد أجد، بدلاً منها، لوليتا أخرى، خائفة، تلحّ بصخب لآخذها إلى بيت أحد أصدقاء الأسرة: لا السيد والسيدة فارلو، الحمد لله - فلم تكد تعرفهما - لكن أليس من الممكن أن يكون هناك أشخاص آخرون لا أعرفهم؟ وقررت أخيراً أن أجري

Twitter: @ketab_n

المكالمة الخارجية التي تظاهرت بأنني أجريتها قبل عدة أيام. كان المطر يهطل مدراراً عندما توقفت في إحدى ضواحي باركينغتون الموحلة، عند المنعطف، وهو تفرّع يجتاز المدينة ويفضي إلى الطريق السريع الذي يمرّ عبر التلال مؤدياً إلى بحيرة كلايماكس ومخيّم كيو. أوقفت محرك السيارة، وجلست في السيارة دقيقة أهيّئ نفسي لإجراء تلك المكالمة الهاتفية، ورحت أحدّق في قطرات المطر المتساقطة على الرصيف الذي بدأ يفيض بالماء، حيث تنتصب حنفية لإطفاء الحريق: التي كانت شيئاً قبيحاً للغاية، المطلية بلون فضّي وأحمر داكن، تمدّ أطرافها الحمراء اللامعة بفعل المطر الذي كانت قطراته تتساقط مثل قطرات الدم فوق سلاسلها الفضّية. ولا عجب أن يحظر التوقف بالقرب من حنفيات إطفاء الحريق المرعبة غير المجدية تلك. ثمّ قدت سيارتي إلى محطة بنزين، حيث كانت تنتظرني مفاجأة عندما سمعت صوت رنين القطع النقدية أخيراً، وتناهى إليّ صوت يجيبني.

أخبرتني هولمز، مديرة المخيّم، بأن دولي كانت قد ذهبت يوم الاثنين (كنا في يوم الأربعاء) في رحلة مع فرقتها إلى التلال، ومن المتوقع أن تعود في وقت متأخر من اليوم. وسألتني هل يمكنني أن آتي غداً، وما هو السبب بالتحديد - ومن دون الدخول في تفاصيل، قلت لها إن أمّها في المستشفى، وإنها في حالة خطرة، لكن يجب عدم إخبار الطفلة بخطورة حالة أمّها، وإنها يجب أن تكون مهيأة للمغادرة معي بعد ظهر يوم غد. وافترق صوتانا في انفجار دافئ يشي بنوايا حسنة. ومن خلال خطأ ميكانيكي، سقطت جميع القطع النقدية التي كنت قد ألقمتها الهاتف، وعادت إليّ مصدرة رنيناً وخشخشة كأنني ربحت الجائزة الكبرى فكدت أضحك بالرغم من شعوري بالاستياء بسبب تأجيل هذه النعمة. ويتساءل المرء إن لم تكن عودة تلك القطع النقدية إليّ، هذا التعويض السريع، ترتبط بطريقة ما، في

Twitter: @ketab_n

عقل ماك فايت، بقيامي بتلك الرحلة الصغيرة قبل أن أعرف بها كما أعرف الآن.

وماذا بعد؟ واصلت طريقي إلى مركز باركينغتون التجاري وخصصت فترة بعد الظهر كلها (فقد صفت السماء، وبدت البلدة المبللة أشبه بإناء من الفضة والبلور) لشراء بعض الأشياء الجميلة للوليتا. يا إلهي، يا لها من مشتريات مسعورة هيمن عليها نزوع همبرت المحزن في تلك الأيام إلى الأقمشة ذات النقوش المربعة، والأقمشة القطنية البراقة، والأثواب ذات الأهداب، والأكمام القصيرة الواسعة، والثنيات الرقيقة، والقمصان الضيقة، والتنورات الفضفاضة! آه، لوليتا، إنكِ فتاتي، كما كانت «في» فتاة آلن بو و«بي» فتاة دانتي، ومن هي الفتاة الصغيرة التي لا تحب أن تدور وهي ترتدي تنورة مستديرة واسعة وسروالاً داخلياً؟ أيوجد شيء خاص في عقلي؟ سألتني أصوات متملقة. مايوهات سباحة؟ هناك الكثير منها بألوان مختلفة. وردية حالمة، زرقاء سماوية، بنفسجية، حمراء بلون الزنبق، سوداء.

وماذا عن تلك الثياب الرياضية المؤلفة من شورت وقميص بلا أكمام؟ أو القمصان التحتية؟ لا قمصان تحتية. فقد كنا، أنا و «لو» نكره القمصان التحتية.

وكان دليلي في مشترياتي صفحة مقاييس الجسم التي كانت أمّها قد سجلتها في عيد ميلاد «لو» الثاني عشر (لعل القارئ يتذكّر كتاب «اعرف طفلك»). وخامرني شعور بأن شارلوت، لدوافع غامضة من الحسد والكراهية، ازدادت إنشاً هنا، ورطلاً هناك؛ لكن بما أن الحورية لا بد أنها كبرت قليلاً خلال الشهور السبعة الأخيرة، فقد قلت لنفسي إنني أستطيع أن أقبل بأمان معظم القياسات التي كانت قد أُخذت في كانون الثاني (يناير): محيط الردف: ٢٩ إنشاً؛ محيط الفخذ (أسفل الشق الذي يفصل بين الإليتين): ١٧؛ محيط ربلة الساق ومحيط الرقبة:

Twitter: @ketab_n

١١؛ محيط الصدر: ٢٧؛ محيط الذراع الأعلى: ٨؛ الخصر: ٢٣؛ القامة: ٥٧ إنشاً؛ الوزن: ٧٨ رطلاً؛ القوام: طولي؛ معامل الذكاء: ١٢١؛ توجد زائدة دودية، شكراً لله.

وما عدا هذه المقاييس، يمكنني بالطبع تصوّر لوليتا بجلاء هلوسي؛ وسرت رعشة في صدري، في نفس المكان الذي لامس فيه قميصها الحريري قلبي مرّة أو مرّتين؛ وأحسست بجسدها الدافئ وهي تجثم فوق حضني (وبذلك، بمعنى ما، كنت دائماً «مع لوليتا» كما تكون امرأة «مع طفلة»)، ولم أفاجأ عندما اكتشفت لاحقاً أن حساباتي كادت أن تكون صحيحة. وبعد أن تفحّصت قائمة مصورة فيها حسومات منتصف الصيف، رحت أتملّى بروح العارف تماماً قطع ثياب جميلة مختلفة، أحذية رياضية، وأحذية أطفال. وراحت الفتاة التي ترتدي ثوباً أسود، والتي كانت ترافقني وتلبي جميع احتياجاتي المؤثرة، وتقدّم لي نصائح أبوية، وتصف لي بعبارات تجارية ملطّفة دقيقة، مثل «القياسات الصغيرة». وبدا أن المرأة الأخرى التي تكبرها سناً، والتي ترتدي فستاناً أبيض، وتضع مكياجاً مبهرجاً، قد أبدت إعجابها باستغراب بمدى معرفتي بأزياء الشابات الصغيرات. ربما كانت لديّ عشيقة قزمة. لذلك، عندما أرتني تنورة لها جيوب «جميلة» في المقدمة، تعمّدت أن أسألها سؤالاً ذكورياً ساذجاً، وكافأتني بأن عرضت عليّ تنورة لها سحّاب من الوراء. ثم وجدت متعة كبيرة عندما رأيت جميع أنواع الشورتات والكيلوتات - وأخذ طيف لوليتا يتراقص أمامي، متمايلاً مثل زهرة أقحوان فوق المنضدة. وأنهينا الصفقة بأن اشتريت بيجاما قطنية أنيقة من طراز «صبي الجزّار» السائد. همبرت، الجزّار الشعبي.

توجد لمسة أسطورية وفاتنة تميّز تلك المخازن الكبيرة، حيث تستطيع الفتيات العاملات، حسب ما تقوله وتصوّره الإعلانات - الحصول على مجموعة كاملة من الثياب العصرية، وحيث تستطيع

Twitter: @ketab_n

الأخوات الصغيرات أن يحلمن باليوم الذي يجعلن فيه الفتيان الجالسين في الصفوف الخلفية في فصولهن الدراسية، يسيل لعابهم ما إن تقع أعينهم على بلوزاتهن الصوفية. وحامت حوله أشكال بلاستيكية في هيئة طفلات بأحجام حقيقية لهن أنوف فطساء ووجوه مخضوضرة، وبنيّة منقّطة، تشبه وجوه آلهة الغابات. وأدركت أنني كنت المتسوق الوحيد في هذا المكان الغريب بعض الشيء، حيث رحت أتنقّل مثل سمكة في حوض أسماك أخضر شاحب. وأحسست بأفكار غريبة بدأت تدور في عقول السيدات الكسولات اللاتي رحن يرافقنني من قسم إلى قسم في المخزن، ومن حافة صخرة إلى الأعشاب البحرية، وبدا لي أن الأحزمة والأساور التي اخترتها كانت تنسل من أيادٍ فاتنة إلى مياه شفّافة. واشتريت حقيبة أنيقة، وضعت فيها الأشياء التي اشتريتها، واتجهت إلى أقرب فندق، سعيداً بيومي.

وبعد عملية التسوّق المضنية التي أمضيتها في عصر ذلك اليوم الشاعري الهادئ، تذكرت بطريقة ما الفندق أو النزل الذي يحمل الاسم المغري «الصيّادون المسحورون»، والذي كانت شارلوت قد ذكرته بالصدفة قبل أن أتحرّر منها بفترة وجيزة. وبمساعدة دليل تمكّنت من تحديد مكانه في بلدة برايسلاند النائية، على مسافة أربع ساعات بالسيارة من مخيّم لوليتا. وكان بإمكاني أن أخابرهم لكنني خشيت ألاّ أسيطر على صوتي ويبدأ ينعق بلكنة إنكليزية ركيكة، لذلك قرّرت أن أرسل لهم برقية أحجز فيها غرفة بسريرين لليلة القادمة. كنت «الأمير الفاتن» المتردّد الهزلي الأخرق! كم سيضحك بعض قرّائي مني عندما أحدّثهم عن المشكلة التي اعترضتني في صياغة البرقية التي سأرسلها! ماذا يمكنني أن أكتب: همبرت وابنته؟ همبرغ وابنته الصغيرة؟ همبرغ وابنته غير البالغة؟ همبرغ وطفلة؟ الخطأ المضحك الـ«غ» في النهاية - وربما كان الشيء الذي خطر في بالي لم يكن إلا صدىً تخاطرياً لترددي ذاك.

Twitter: @ketab_n

وفي خميلة ليلة صيفية، بدأت أفكّر بالشراب السحري الذي أحمله! آه، همبرغ البخيل! ألم يكن صيّاداً ساحراً عندما بدأ يناجي نفسه حول صندوقه المليء بالأشياء السحرية؟ وكي يدحر وحش الأرق، هل عليه أن يجرّب واحدة من تلك الكبسولات الأرجوانية؟ فهناك أربعون كبسولة، أربعون ليلة تنام فيها إلى جانبي الخافق فتاة صغيرة هشّة نائمة. هل يمكنني أن أحرم نفسي من إحدى تلك الليالي لكي أنام؟ بالتأكيد لا: إذ إن كلّ حبة صغيرة في شكل إجاصة ثمينة للغاية، كلّ قبة سماوية ميكروسكوبية بهبائها الحيّ. آه، دعوني أكون مقرفاً ولو لمرّة واحدة! لقد سئمت من الانحلال القيمي الذي يعتريني.

٢٦

إن هذا الصداع اليومي في ظل هذا الهواء الكثيف الخانق في هذا السجن المقبب، يكاد يصدع رأسي، لكن يجب عليّ مواصلة الكتابة. فقد كتبت أكثر من مائة صفحة ولم أصل إلى أي شيء حتى الآن، ويبدأ تقويمي يغشاه الارتباك والتشويش. لا بد أن ذلك كان في حوالى ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٧. لا أظن أن بإمكاني الاستمرار. القلب، الرأس، كلّ شيء.

لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا. أعيدها حتى تمتلئ الصفحة.

٢٧

لا أزال في باركينغتون. تمكّنت أخيراً من نيل قسط من النوم قرابة ساعة انتزعني منه لقاء غير مبرر ومنهك للغاية مع خنثى صغيرة مشعرة،

Twitter: @ketab_n

غريبة الأطوار. فقد كانت الساعة السادسة صباحاً، وخطر لي بغتة أن من الأفضل أن أصل إلى المخيّم في وقت أبكر مما كنت قد خططت له. إذ لا يزال أمامي مائة ميل لكي أصل إلى هناك من باركينغتون، وستكون أمامي أميال أخرى حتى أصل إلى هايزي هيلز ويرايسلاند. وكانت رغبتي في الوصول إليها بعد الظهر لأخذ دولي، تنبع من نزوتي الملحة بأن تكون معي قبل أن يخيّم الليل الرحيم. ولكن بدأت تساورني الآن جميع أنواع سوء الفهم، واعتراني قلق شديد من أن يتيح لها تأخري إجراء مكالمة هاتفية إلى رامسدال. لكنني عندما حاولت الانطلاق في رحلتي في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، فوجئت بأن بطارية سيارتي فارغة تماماً، ولم أتمكن من مغادرة باركينغتون إلا حوالى الظهيرة.

وصلت حوالى الساعة الثانية والنصف، وركنت السيارة بجانب حرش تظلله أشجار الصنوبر، حيث رأيت فتى شقياً، أحمر الشعر، يرتدي قميصاً أخضر، كئيباً، يرمي حدوات حصان، دلّني بكلمات مقتضبة إلى مكتب يقع في كوخ مصنوع من الجصّ. وتعيّن عليّ أن أتحمل لبضع دقائق، وأنا في حالة احتضار، مواساة مديرة المخيّم الفضولية، وهي امرأة فاسقة، ذاوية، ذات شعر بلون الصدأ، وقالت لي إن دولي قد حزمت أمتعتها وأصبحت على أهبة المغادرة، وقالت إنها تعرف أن أمّها مريضة، لكن ليس مرضاً خطيراً. وسألت هل يمانع السيد هايز، أقصد السيد همبرت، في لقاء المشرفات على المخيّم؟ أو هل يريد أن يلقي نظرة على الحجرات التي تقيم فيها الفتيات؟ التي تمثّل كلّ حجرة منها إحدى شخصيات ديزني؟ أو هل أريد أن أزور المنتجع؟ أم هل يجب أن تبعث بتشارلي لكي يحضرها؟ وقالت إن الفتيات على وشك الانتهاء من تهيئة غرفة الطعام لإقامة حفلة راقصة. (وربما ستقول في ما بعد لإحداهن: «كان يبدو أن الرجل المسكين مجرد شبح»).

Twitter: @ketab_n

دعوني أحدّثكم لبرهة عن ذلك المشهد بكلّ تفاصيله التافهة والمصيرية: هولمز الشمطاء تكتب إيصالاً، تحكّ رأسها، تسحب أحد الأدراج في طاولة مكتبها، وتصبّ القطع النقدية المتبقية في راحة يدي التي عيل صبرها، ثمّ تضع فيها، بابتسامة وعناية، ورقة نقدية «. . . وخمسة!»؛ صور غلامات؛ حشرة عثّ أو فراشة ملونة، لا تزال حيّة، مثبّتة على الحائط («دراسة الطبيعة»)؛ شهادة داخل إطار لأخصائية التغذية في المخيّم؛ يداي المرتعشتان؛ بطاقة أبرزتها هولمز الكفوءة فيها تقرير عن سلوك دولي هايز خلال شهر تموز (يوليه) («من وسط إلى جيد؛ تحبّ السباحة والتجذيف بالقارب»)؛ حفيف أوراق الشجر وزقزقة العصافير، وخفقات قلبي. . . كنت أقف مولياً ظهري للباب المفتوح، ثمّ شعرت بالدم يتدفق إلى رأسي بسرعة عندما تناهى إليّ صوتها وصوت أنفاسها خلفي. جاءت وهي تجرّ حقيبتها الثقيلة. «مرحبا!» قالت، ولبثت واقفة في مكانها لا تأتي بحركة، تنظر إليّ بعينين خبيثتين، سعيدتين. وافترت شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة حمقاء، لكنها محبّبة على نحو رائع.

بدت لي أنحف وأطول قامة، ولوهلة، بدا لي وجهها أقل جمالاً من الصورة التي رسمتها في مخيّلتي منذ أكثر من شهر: فقد كانت وجنتاها غائرتين، وكان نمش كثيف يغطي محيّاها الريفي الوردي. وأوحى الانطباع الأول هذا (فاصل إنساني شديد الضيق بين خفقتيَ قلب نمر) بوضوح أن كلّ ما على الأرمل همبرت أن يفعله، أو ما يريد أن يفعله، أو ما سيفعله، هو أن يوفر لهذه الفتاة الصغيرة اليتيمة الشاحبة، بالرغم من أن الشمس قد لوّحت وجهها، ذات العينين الكليلتين (حتى إن الدوائر تحت عينيها قد غشاها النمش) تعليماً جيداً، طفولة سعيدة مفعمة بالصحة، بيتاً نظيفاً، صديقات جميلات في عمرها، قد أجد بينهن (إذا تكرّم عليّ القدر وكافأني) ماجدولين صغيرة

Twitter: @ketab_n

جميلة كرمى للسيد الدكتور همبرت وحده. لكن «في غمضة عين»، كما يقول الألمان، مُحي سطر السلوك الملائكي، وتمكنت من الانقضاض على فريستي (الزمن يسبق مخيلاتنا!) وغدت لوليتاي ثانية - بل في الحقيقة، أضحت لوليتا حبيبتي أكثر من أي وقت مضى. أرخيت يدي فوق شعرها الكستنائي الدافئ، وحملت حقيبتها. كانت كتلة من الورد والعسل، ترتدي أجمل فساتينها، وأكثرها تألقاً، ذاك الذي تزيّنه رسوم تظهر تفاحات حمراء صغيرة. وكانت أطرافها سمراء ذهبية، عليها خدوش مثل خطوط صغيرة منقطة من الياقوت المتخثّر، وقد تهدلت أطراف جوربها الأبيض إلى المستوى الذي كانت تتهدل باستمرار حسب ما أذكر، بسبب طريقة مشيتها الطفولية. وبما أنها كانت تنتعل حذاء بدون كعب، بدا لي حذاؤها من ماركة «أكسفورد» كبيراً على قدمها وكعبه عالياً بالنسبة لفتاة في عمرها. الوداع يا مخيّم كيو، مخيّم كيو المرح، الوداع أيها الطعام الذي يخلو من أي نكهة، إلى اللقاء أيها الصبي تشارلي. وفي السيارة الحارة، جلست إلى جانبي، وصفعت ذبابة حطّت على ركبتها الجميلة. كانت تلوك علكة في فمها، وبسرعة أنزلت النافذة بجانبها، ثم اعتدلت في جلستها ثانية، وانطلقنا بسرعة عبر الغابة.

«كيف حال أمّي؟» سألت بإحساس بالواجب.

قلت لها إن الأطباء لا يعرفون بعد حقيقة مرضها بدقة. شيء في البطن. شيء بغيض؟ لا، شيء في البطن. علينا أن نتسكّع قليلاً. فالمستشفى يقع في الريف، بالقرب من بلدة ليبينغفيل الجميلة، حيث كان يعيش شاعر عظيم في مطلع القرن التاسع عشر، وحيث سنشاهد جميع الأفلام المعروضة في دور السينما. قالت إنها فكرة جيدة، وسألت هل سنصل إلى ليبينغفيل قبل التاسعة مساء.

قلت: «ينبغي أن نصل إلى برايسلاند عند العشاء»، وأضفت،

Twitter: @ketab_n

«وغداً سنزور ليبينغفيل. كيف كانت رحلتك؟ هل أمضيت وقتاً ممتعاً في المخيّم؟»

«مهه - مهه»

«هل أنت حزينة لأنك غادرت المخيّم؟»

«مم -مهه».

«تكلمي يا «لو». لا تهمهمي وتنخري هكذا. قولي شيئاً».

«أي شيء، يا أبي؟» (مطّت الكلمة ساخرة).

«أيّ شيء».

«هل يمكنني إن أدعوك هكذا؟» (العينان مركّزتان على الطريق).

«بالتأكيد».

«غريب، كما تعرف. متى أحببت أمي؟»

«ذات يوم ستفهمين أشياء كثيرة عن العواطف، كالانسجام والجمال والعلاقة الروحية».

«هه!» قالت الحورية المتهكمة.

سادت فترة من الهدوء الضحل بين الحوار، ملأته بعض المشاهد الطبيعية.

«لوليتا، انظري إلى كل هذه الأبقار المنتشرة على سفح الربوة تلك».

«أحسّ بأنني سأتقيأ إذا نظرت إلى بقرة مرة أخرى».

«أتعرفين كم اشتقت إليك يا «لو»؟».

«أما أنا فلم أشتق إليك. الحقيقة هي أنني لم أكن مخلصة لك، لكن هذا لا يهمّ على الإطلاق، لأنك لم تعد تبدي اهتماماً بي. إنك تقود السيارة أسرع مما كانت تقود أمي، يا سيد».

خفضت السرعة من سبعين إلى خمسين ميلاً.

«لماذا تظنين أنني لم أعد أهتم بك يا «لو»؟»

Twitter: @ketab_n

«حسناً، إنك لم تقبّلني بعد، أليس كذلك؟»

أحسست أن قلبي يحتضر، قلبي يئن. انعطفت إلى جانب الطريق، فارتجّت السيارة، وتوقفت في منطقة تحيط بها أعشاب. تذكّر أنها مجرد طفلة، تذكّر أنها مجرد -

ما كادت السيارة تتوقّف حتى ارتمت لوليتا بين ذراعيَّ. لا أجرؤ، لا أجرؤ على إطلاق العنان لنفسي - حتى إنني لم أجرؤ على أن أدرك بأن ذلك (الرطوبة الجميلة والنار المرتعشة) كان بداية الحياة الرائعة التي يتعذر وصفها، والتي ساعدني القدر على تحقيقها إلى درجة كبيرة، وأردت أخيراً - لكنني لم أجرؤ على تقبيلها. لمست شفتيها المفترتين الحارتين بتقوى شديدة، رشفات صغيرة، تخلو من أي شبق، لكنها، تلوّت بتبرم، وضغطت فمها على فمي بقوة حتى أنني أحسست بأسنانها الأمامية الكبيرة، وتذوقت طعم لعابها بنكهة النعناع. بالطبع، كنت أعرف أن ذلك كان مجرد لعبة بريئة من جانبها، طيش فتاة مراهقة تقلّد العشاق في القصص الرومانسية المزيفة، وبما أن (كما سيخبركم المعالجون النفسيون، بالإضافة إلى المغتصب نفسه) حدود وقواعد هذه الألعاب البناتية مائعة، أو على الأقل طفولية رهيفة، إلى درجة أن الشريك البالغ لا يدركها - كان أشدّ ما أخشاه هو أن أنجرف معها وأجعلها تجفل، نفوراً وخوفاً. وبما أنني كنت متلهفاً لتهريبها إلى خلوة سحرية في نزل «الصيّادون المسحورون»، ولمّا كان لا يزال أمامنا ثمانون ميلاً، قطع حدسنا المبارك عناقنا - قبل عشر من الثانية، إذ توقّفت سيارة دورية الطرق السريعة بجانب سيارتنا.

حدّق الشرطي في وجهي، بوجهه المتورّد، وحاجبيه اللذين يشبهان الخنفساء، وقال:

«هل رأيتما سيارة صغيرة زرقاء، من نوع سيارتكما، اجتازتكما عند التقاطع؟»

Twitter: @ketab_n

«الماذا، لا».

«لم نرها»، قالت «لو»، وانحنت بحماسة فوقي، وأرخت يدها البريئة فوق ساقي، «لكن هل أنت متأكد من أنها زرقاء، لأن_»

أظهر الشرطي (ماذا يريد منا؟) للفتاة المراهقة الصغيرة إحدى أجمل ابتساماته، واستدار بسيارته وانطلق في الاتجاه المعاكس.

«هذا الأحمق»، قالت «لو»، «كان يجب أن يقبض عليك».

«الماذا يقبض عليّ بحق السماء؟»

«حسناً، إن حدود السرعة في هذه الولاية التافهة خمسون ميلاً، و - لا، لا تخفف سرعتك، أيها المغرور الأحمق. لقد ذهب الآن».

«لا تزال أمامنا رحلة طويلة»، قلت، «وأريد أن نصل قبل حلول الظلام. لذلك أرجو أن تكوني قد أصبحت فتاة جديدة».

«سيئة، فتاة سيئة سلوك»، قالت لوليتا بارتياح، «مراهقة منحرفة، لكنها جذّابة. كان ذلك الضوء أحمر. لم أر في حياتي قيادة كهذه».

اجتزنا بلدة صغيرة صامتة.

«قل لي، ألن يجنّ جنون أمي إذا اكتشفت أننا عاشقان؟»

«يا إلهي. «لو»، أرجو ألاّ نتحدث بهذه الطريقة».

«لكننا ألسنا عاشقين؟»

«لا علم لي بذلك. أظن أن المزيد من الأمطار ستهطل. ألا تريدين أن تحدثيني عن المقالب الصغيرة التي فعلتها في المخيّم؟»

«إنك تتكلم مثل كتاب، يا أبي».

«ماذا تقصدين؟ أصرّ على أن تخبريني».

«هل تُصدم بسهولة؟»

«لا. تابعي».

«سأخبرك إذا انعطفت إلى طريق جانبي منعزل».

«لو، يجب أن أطلب منك ألاّ تتظاهري بالحماقة. اتفقنا؟»

Twitter: @ketab_n

«حسناً – لقد شاركت في جميع النشاطات التي كانوا يقدمونها لنا».

«وماذا بعد؟»

«بعد ذلك، تعلمت كيف أعيش بسعادة مع الأخريات وكيف أنمي شخصية مفيدة، وأن أكون فتاة جيدة».

«نعم. رأيت شيئاً من هذا القبيل في الكتيب».

«كنا نحبّ أن نغنّي ونحن متحلّقين حول النار الموقدة في المجمر الحجري الكبير، أو تحت النجوم المتناثرة في السماء، حيث تتوحد أرواح سعادة جميع الفتيات مع صوت الفرقة».

«الديك ذاكرة رائعة يا «لو»، لكن يجب أن أطلب منك ألاّ تتلفظي بكلمات بذيئة. هل حدثت أمور أخرى؟»

«شعار المرشدات(*)»، قالت «لو» بحماسة شديدة، «وشعاري أيضاً. كنت أملأ حياتي بأعمال مفيدة مثل – حسناً، لا تهتم بذلك. إن واجبي هو – أن أكون مفيدة. إنني صديقة للحيوانات، وأطيع الأوامر. كنت سعيدة. تلك سيارة شرطة أخرى. إنني مقتصدة وقذرة في أفكاري وأقوالي وتصرفاتي».

«أرجو أن يكون ذلك كلّ شيء، أيتها الطفلة الذكية».

«نعم. كلّ شيء. لا انتظر لحظة. كنا نخبز الخبز في فرن شمسي. أليس هذا رائعاً؟»

«حسناً، هذا أفضل».

«لقد غسلنا «زليونات» من الصحون. كما تعرف فإن «زليونات» هي كلمة عامية تستخدمها التلميذات وتعني الكثير – الكثير – الكثير- الكثير. آه، نعم، وأخيراً وليس آخراً، كما تقول أمّي – الآن دعني أرى

(*) فتيات الكشافة – م.

Twitter: @ketab_n

- ماذا حدث؟ أعرف أننا كنا نرسم رسوماً ظلالية. كان ذلك أمراً ممتعاً للغاية».

«هل هذا كلّ شيء؟»

«نعم. باستثناء شيء صغير، شيء لا يمكنني أن أخبرك إياه من دون أن يحمرّ وجهي خجلاً».

«هل ستخبرينني لاحقاً؟»

«إذا جلسنا في الظلام وتركتني أهمس، سأخبرك. هل ما زلت تنام في غرفتك القديمة أم تتكور في الفراش بجانب أمّي؟»

«في الغرفة القديمة. يجب أن تجري أمّك عملية كبيرة، يا «لو»».

«هل يمكنك أن تتوقّف عند محل الحلويات»، قالت «لو».

جلست على مقعد مرتفع، وغمر نور الشمس ساعدها الأسمر العاري، وطلبت لوليتا مزيجاً من المثلجات اللذيذة يعلوها شراب اصطناعي، أحضرها لها فتى همجي تكسو وجهه بثور ويضع ربطة عنق في شكل قوس ملطخة بالدهن، ووضعها أمام طفلتي الرقيقة التي ترتدي فستانها القطني الرقيق، بشهوانية ملحوظة. بدأ صبري يعيل حتى نصل إلى برايسلاند، وإلى نزل «الصيّادون المسحورون»، ولم أعد أطيق أي تأخير. لحسن الحظ، التهمت «لو» المثلجات بسرعتها المعهودة.

«كم لديك من النقود؟» سألتها.

«ولا سنتاً واحداً»، قالت بأسى، رافعة حاجبيها، وأرتني داخل محفظتها الخاوية من أي نقود.

«سنتدبر هذا الأمر في الوقت المناسب»، قلت بخبث، «هل ستأتين؟»

«يا ترى هل يوجد تواليت».

Twitter: @ketab_n

«لن تذهبي إلى هناك»، قلت بحزم، «لا بد أنه مكان قذر. هيا بنا».

كانت فتاة صغيرة مطيعة، وقبّلتها من عنقها عندما عدنا إلى السيارة.

«لا تفعل ذلك»، قالت وهي ترمقني، ويبدا لي أنها فوجئت تماماً، «لا تجعل لعابك يسيل عليّ، أيها الرجل القذر».

وفركت البقعة التي قبّلتها فيها بكتفها المرتفعة.

«أنا آسف»، دمدمت، «إني أحبّك، هذا كلّ ما في الأمر».

وتابعنا طريقنا تحت سماء مكفهرّة، صاعدين في طريق متعرّجة، ثمّ هبطنا ثانية.

«حسناً، وأنا أحبّك قليلاً أيضاً»، قالت لوليتا بصوت ناعم ممطوط، بنوع من التنهيدة، واستقر بها المقام بقربي.

(أوه، لوليتاي، لن نصل إلى هناك أبداً).

بدأ الظلام يغلّف برايسلاند الصغيرة، وتكوينها المعماري الكولونيالي المزيّف، ومحلاتها التي تبيع مواد غريبة وأشجار ظل مستوردة، عندما قدنا السيارة عبر الشوارع المضاءة قليلاً بحثاً عن نزل «الصيّادون المسحورون». وعلى الرغم من الرذاذ الذي بدأ يهمي، كان الهواء دافئاً، وكان رتل من الناس معظمهم من الأطفال والرجال العجائز، قد تشكّل أمام شباك تذاكر دار السينما، المشعّة بجواهر نيرانية.

«آه، أريد أن أرى ذلك الفيلم. لنذهب ونشاهده بعد العشاء مباشرة. آه، لنذهب!»

«قد نذهب»، هتف همبرت - الشيطان المتورّم الماكر الذي يعرف تماماً أنه في الساعة التاسعة، عندما يكون العرض الخاص به قد بدأ، ستكون مستلقية بين ذراعيه.

Twitter: @ketab_n

«تمهّل!» صاحت «لو»، ومالت مترنّحة إلى الأمام، عندما توقفت شاحنة لعينة أمامنا، أضواؤها الخلفية تومض، عند التقاطع.

ولو لم نصل إلى الفندق بسرعة، على الفور، بإعجوبة، لكنت قد أحسست، عندما وصلنا إلى الشارع التالي، بأنني سأفقد السيطرة على سيارة هايز القديمة التي لا تعمل فيها جيداً ماسحات الزجاج والكوابح. أما المشاة الذين كنت أسألهم عن الاتجاهات، فكانوا إمّا غرباء، أو كانوا يتساءلون باستغراب وتجهّم: «المسحورون ماذا؟» وكما لو كنت مجنوناً، كانوا يسهبون في تفسيرات معقّدة، وإيماءات هندسية، وعموميات جغرافية، وأوصاف محليّة محضة (... ثمّ اتّجه جنوباً بعد أن تصل إلى قصر العدل...) ولم يكن أمامي إلا أن أضلّ طريقي في متاهة ثرثراتهم الحسنة النيّة. أما «لو»، التي كانت أحشاؤها الموشورية الرائعة قد هضمت المرطبات التي كانت قد تناولتها، فقد كانت تتطلّع إلى تناول وجبة طعام دسمة، فبدأت تتململ. أما أنا، فمع أنني اعتدت منذ فترة طويلة على تلك الأشياء الثانوية (سكرتيرة ماكفات الغبية، إذا جاز لي التعبير) التي تتدخّل بتفاهة في خطة الرئيس الرئيسية الرائعة - كي نتلمّس طريقنا عبر شوارع برايسلاند، التي ربما كانت من أشدّ المحن التي اعترضت طريقنا حتى الآن. وفي الشهور اللاحقة، سخرت من نفسي عندما تذكّرت الطريقة الصبيانية العنيدة التي ركّزت فيها على ذلك النزل الذي يحمل اسماً غريباً. فقد كانت، على امتداد الطريق، نزل لا حصر لها، تعلن جميعها عن وجود غرف شاغرة بلافتات تضيئها أضواء النيون، المجهزة لإيواء الباعة المتجولين، والمحكومين الهاربين، والعاجزين جنسياً، والمجموعات العائلية، بالإضافة إلى الأزواج الفاسدين، وأولئك الذين يتمتعون بنشاط مفرط. آه، سائقون لطيفون يقودون سياراتهم في ليالي الصيف المعتمة، يا لحفلات السمر، التواءات الشهوة التي يمكنك أن تراها على الطرق السريعة المعصومة

Twitter: @ketab_n

التي تجتازها إذا زالت أصباغ كومفي كابنس فجأة، وأضحت شفّافة مثل الصناديق الزجاجية!

وأخيراً، وقعت المعجزة التي طالما تقت إليها. فقد أخبرنا رجل وفتاة، يكادان يتوحّدان في سيارة تغمرها العتمة، مركونة تحت الأشجار التي تقطر من أوراقها قطرات ماء، أننا في قلب الحديقة العامة، ولكي نصل إلى مبتغانا، علينا أن ننعطف يساراً عند إشارة المرور التالية. لكننا لم نر إشارة ضوئية تالية - كانت الحديقة سوداء كالآثام التي تخبئها - لكن بعد أن انعطفنا إلى منحنى سلس متدرّج، شاهد المسافران وهجاً ماسياً عبر الضباب، ثمّ بزغ وميض مياه البحيرة - وها هو، يقبع بروعة وعناد، تحت الأشجار الطيفية، عند نهاية درب تكسوه الحصى - القصر الباهت «الصيّادون المسحورون».

وكان هناك صفّ من السيارات المركونة، مثل خنازير في حظيرة، بدا للوهلة الأولى أنها تسدّ الطريق. لكن بعد برهة، وبفعل ساحر، بدأت سيارة مكشوفة ضخمة براقة، حمراء ياقوتية، ترجع إلى الوراء تحت قطرات المطر المتلألئة، يقودها بحيوية سائق عريض المنكبين - وبامتنان انسللنا إلى الفجوة التي تركها لنا. وعلى الفور ندمت لأنني أسرعت في أخذ مكانه، لأنني لاحظت أنه ركن سيارته في بقعة مغطاة تشبه المرآب في مكان قريب، وكان بجانبها مكان يتسع لسيارة أخرى، لكن لم يعد لديّ صبر لأحذو حذوه.

«يا إلهي! يا له من مكان جميل»، قالت حبيبتي السوقية وهي تحدّق في الواجهة المطلية بالجصّ عندما ترجّلت من السيارة إلى الرذاذ الهامي، وبيد طفولية شدّت ثنية فستانها القرنفلي، التي علقت في الشقّ - مقتبساً عبارة روبرت براونينغ. وكانت الأوراق الكستنائية التي تضخّمت تحت أقواس الضوء تتساقط وتتلاعب فوق الأعمدة البيضاء. فتحت صندوق السيارة، وحمل رجل زنجي أحدب، أشيب الشعر،

Twitter: @ketab_n

يرتدي زياً رسمياً، حقائبنا وجرّها ببطء إلى رواق الفندق الذي يعجّ بسيدات مسنّات ورجال دين. وأقعت لوليتا على ردفيها، وراحت تداعب كلباً صغيراً، شاحب الوجه، يكسوه نمش أزرق، له أذنان سوداوان، كان مستلقياً على السجادة الزهرية، مسترخياً تحت يديها - ومن لن يسترخي، يا قلبي - بينما أخذت أتنحنح وأنا أشقّ طريقي عبر الحشد باتجاه مكتب الاستقبال، حيث يقف رجل عجوز أصلع يشبه الخنزير - علماً أن جميع النزلاء في هذا الفندق القديم عجائز - وأخذ يحدّق في وجهي، ويتفحّص ملامحي، وبدت على وجهه ابتسامة مهذبة، وببطء استلّ برقية (مجعّدة)، وهو يصارع بعض الشكوك السوداء، ثمّ استدار ونظر إلى الساعة على الجدار، وقال أخيراً إنه يأسف كثيراً، لأنه احتفظ بالغرفة ذات السريرين حتى الساعة السادسة والنصف، لكنه اضطر لإعطائها لشخص آخر. وقال إن اجتماعاً دينياً تزامن مع إقامة معرض للزهور في برايسلاند؛ فقلت ببرود: «إن الاسم ليس هومبيرغ وليس همبغ، بل هربرت، أعني همبرت، ولا أمانع في إعطائي أيّ غرفة، ويكفي وضع سرير صغير لابنتي الصغيرة. فهي في العاشرة ومتعبة للغاية».

نظر الرجل العجوز الوردي الوجه بودّ إلى «لو» - التي كانت لا تزال مقرفصة، منصتة، وقد افترت شفتاها، إلى ما تقوله لها صاحبة الكلب، السيدة العجوز التي تضع حجاباً بنفسجي اللون، من أعماق كرسي يكسوه قماش الكريتون.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت الرجل الداعر، فقد بدّدتها تلك الرؤية التي تشبه الزهرة المتبرعمة. فقال، إنه ربما كانت لا تزال لديه غرفة، غرفة واحدة شاغرة، في الواقع - فيها سرير مزدوج. أما بالنسبة للسرير الصغير - سيد بوتس، هل بقي لدينا أسرّة صغيرة؟ فردّ السيد بوتس، الأصلع، الوردي الوجه أيضاً، الذي نبتت شعرات بيض من

Twitter: @ketab_n

فتحتيَ أذنيه، ومن فتحات أخرى، بأنه سيرى ماذا بوسعه أن يفعل. جاء وتكلّم عندما بدأت أزيل غطاء قلم الحبر. همبرت، الذي عيل صبره!

«تتسع أسرّتنا المزدوجة لثلاثة أشخاص»، قال بونس بدفء، وهو يرمقني ويرمق طفلتي، «ففي إحدى الليالي المزدحمة، نزلت عندنا ثلاث سيدات وطفلة تشبه طفلتك ونمن جميعهن معاً على السرير. وأظن أن إحدى السيدات كانت رجلاً متنكّراً [هذا تعليقي أنا]. على أي حال - هل يوجد سرير صغير احتياطي في الغرفة ٤٩، يا سيد خنزير؟»

«أظن أننا أخذناه إلى غرفة أسرة سوون»، قال السيد خنزير، المهرّج العجوز الأول.

«ستتدبر الأمر بطريقة ما»، قلت، «فقد تلتحق بنا زوجتي لاحقاً - لكننا نستطيع أن نتدبر أمرنا آنذاك، على ما أظن».

أصبح الخنزيران الورديان الآن من أعزّ أصدقائي. وقد كُتب بيد الجريمة الواثقة البطيئة: الدكتور إدغار هـ. همبرت وابنته، شارع ٣٤٢ لوون ستريت، رامسدال. ورأيت جزءاً من المفتاح (٣٤٢!) (كالساحر الذي يضم شيئاً يوشك أن يخفيه في راحة يده) ويسلّمه إلى العم توم. أما «لو» فقد تركت الكلب كما ستتركني ذات يوم، واستوت واقفة. وسقطت قطرة مطر على قبر شارلوت، فقد فتحت شابة زنجية جميلة باب المصعد، ودخلت الطفلة المنكودة إلى المصعد، يتبعها والدها وهو يتنحنح، وتوم، سرطان البحر وهو يحمل الحقائب.

محاكاة ساخرة لرواق الفندق. محاكاة ساخرة للصمت والموت.

«إنه رقم بيتنا»، قالت «لو» المبتهجة.

كان في الغرفة سرير مزدوج، مرآة، سرير مزدوج في المرآة، باب خزانة له مرآة، وباب حمّام أيضاً، ونافذة زرقاء داكنة، وسرير منعكس هناك، والشيء نفسه في مرآة الغرفة، وكرسيان، وطاولة يغطيها لوح من

Twitter: @ketab_n

الزجاج، ومنضدتان صغيرتان تنتصبان إلى جانب السرير، سرير مزودج: سرير خشبي كبير، بدقة، وقد مدّ فوقه شرشف توسكان وردي اللون، وعلى اليسار وعلى اليمين، مصباحان جانبيان ورديان مزركشان مظلّلان.

واعترتني رغبة في أن أدسّ ورقة من فئة خمسة دولارات في راحة اليد السمراء الداكنة تلك، لكنني فكّرت بأنه يمكن أن يساء تأويل هذه الهبة السخية، لذلك دسست ربع دولار في يده، ثمّ أضفت ربعاً آخر. انسحب. تك. أصبحنا وحدنا أخيراً.

«هل سننام في غرفة واحدة؟» قالت «لو»، وقسماتها تتلوى بتلك الطريقة الحيوية - لا غضباً ولا اشمئزازاً (مع أنها كانت عادية على حافته) بل حيوية فقط - عندما أرادت أن تطرح سؤالاً شديد الأهمية.

«لقد طلبت منهم أن يحضروا سريراً صغيراً، سأنام عليه إذا أردت».

«إنك مجنون»، قالت «لو».

«لماذا يا عزيزتي؟»

«لأنه، يا هزيزي(*)، عندما تكتشف أمّي هزيزتي، فإنها ستطلّقك وتخنقني».

رائع. في الواقع، كأنها لم تأخذ الأمر بجدية.

«انظري هنا»، قلت. كنتُ جالساً، وهي واقفة على بعد بضعة أقدام مني، تحدّق في نفسها بسعادة، تملأ بشمسها الوردية المشرقة مرآة باب الخزانة المندهشة والسعيدة.

«انظري يا «لو». لنحسم الأمر. ففي جميع الأمور العملية، أنا أبوك، وأشعر بعطف شديد نحوك. وأنا المسؤول عنك في غياب

(*) «عزيزي» كما تلفظها لوليتا - م.

Twitter: @ketab_n

أمّك. إننا لسنا أغنياء، وعندما نسافر، فإننا سنضطر - للمكوث معاً لفترة طويلة. شخصان يعيشان في غرفة واحدة، يدخلان حتماً في نوع من - كيف يمكنني أن أعبّر عنها - نوع من -»

«الكلمة هي سفاح القربى»، قالت «لو»، ودخلت إلى الخزانة، ثم خرجت، ويضحكة ذهبية شابة، فتحت الباب المجاور، وبعد أن أمعنت النظر في داخلها بعينيها المدخّنتين الغريبتين لكي لا ترتكب خطأ آخر، توجهت إلى الحمّام.

فتحت النافذة، وخلعت قميصي الذي يرشح عرقاً. بدّلت ثيابي، وتأكدت من وجود قارورة الحبوب في جيب معطفي، وفتحت -

انسلّت إلى الخارج. حاولت أن أعانقها: عرَضَاً. قليل من الحنان قبل العشاء.

قالت: «انظر، لنتوقّف عن لعبة التقبيل هذه ولنتناول شيئاً».

عندها أخرجت مفاجأتي.

آه، يا لها من حيوان أليف حالمة! توجّهت إلى الحقيبة المفتوحة بحركة بطيئة، وعيناها على صندوق الكنز البعيد القائم فوق مسند الأمتعة. (هل هناك خطأ ما، تساءلت، بعينيها الرماديتين الواسعتين، أم أننا غصنا كلانا في نفس السديم المسحور؟) اقتربتُ منها. رفعت قدميها المنتعلتين حذاء بكعب عال قليلاً، وثنت ركبتيها الجميلتين الصبيانيتين، وسارت في فضاء الغرفة بتؤدة مثل شخص يمشي تحت الماء، أو يطير في حلم. وبيديها رفعت سترة داخلية نحاسية اللون، ساحرة، غالية الثمن، ومدّتها ببطء شديد بين يديها الصامتتين مثل صيّاد طيور مرتبك، حابساً أنفاسه فوق الطير المدهش الذي يمدّده بأطراف أجنحته الملتهبة. ثمّ (بينما وقفت أنتظرها) سحبت حزاماً رائعاً مثل أفعى بطيئة، ولفته حول خصرها.

ثمّ انسلّت بين ذراعيّ المتلهفتين، متألقة، مسترخية، تداعبني

Twitter: @ketab_n

بعينيها الرقيقتين، الغامضتين، الدنستين، اللامباليتين، مثل الغسق – لجميع العالم، مثل أرخص أرخص الجميلات. لأن هذا ما تقوم الحوريات بتقليده – ثمّ نتأوه ونموت.

«ما مشبلة (مشكلة) الآنسة؟» دمدمت (إذ فقدت السيطرة على كلماتي) من خلال شعرها.

«إذا كان عليك أن تعرف»، قالت، «فإنك لا تفعلها كما ينبغي».

«أريني، أي طريقة».

«كل شيء في حينه»، ردّت الحورية.

ورحت ألغو بكلمات مختلطة من اللغات اللاتينية والإنكليزية والألمانية والفرنسية [النسغ يتصاعد، ينبض، يحترق، يحك، أقصى درجات الجنون، مصعد، صخب، تبعثر، توقف، أشخاص في الممر] لكن، بالطبع، لعلي ارتكبت في لحظة أخرى خطأً فاحشاً مخيفاً، لكنها، لحسن الحظ، عادت إلى صندوق الكنز.

من الحمّام، حيث أمضيت بعض الوقت كي أستعيد أنفاسي، سمعت، وأنا واقف، أهمهم، حبيبتي لوليتا وهي تقول «أووو» و «يا له من لذيذ» بفرحة صبيانية.

لم تستخدم قطعة الصابون إلا لأنها كانت عيّنة من الصابون الذي رأته في أحد الإعلانات.

«حسناً، هيا يا عزيزتي، إن كنت جائعة مثلي».

وهكذا توجّهنا إلى المصعد، الابنة تؤرجح محفظتها القديمة البيضاء، والأب يسير أمامها (لا وراءها، لأنها ليست سيدة). عندما وقفنا (الآن بجانب بعضنا) ننتظر أن يهبط بنا، ألقت برأسها إلى الوراء، وتثاءبت من دون أن تتحكم بنفسها، وهزّت ضفائرها.

«متى كانوا يوقظونك في ذلك المخيّم؟»

«السادسة –»، وخنقت تثاؤباً آخر «والنصف» – تثاؤباً كاملاً ترافقه

Twitter: @ketab_n

رعشة سرت في أنحاء جسدها. «والنصف»، كرّرت، وقد امتلأت حنجرتها ثانية.

استقبلتنا قاعة الطعام برائحة الدهن المقلي بابتسامة باهتة. كانت قاعة واسعة عُلِّقت على جدرانها لوحات تصوّر صيّادين مسحورين في أوضاع مختلفة، وحالات من الفتنة وسط مزيج من الحيوانات والجنيات والأشجار المصفرّة. وكانت تتناثر هنا وهناك حفنة من السيدات المسنّات، وقسيسان، ورجل يرتدي سترة رياضية، على وشك أن يفرغوا من تناول طعامهم بصمت. قاعة الطعام تغلق في الساعة التاسعة، وكانت النادلات المرتديات أردية خضراء بوجوههن التي تشبه البوكر، سعيدات، يسرعن بيأس لإنهاء عملهن.

«ألا يشبه تماماً، تماماً، كويلتي؟» قالت «لو» بصوت ناعم، ومرفقها الأسمر المدبب لا يشير، لكن من الواضح أنها كانت تتلهف لأن تشير إلى الزبون الوحيد الجالس في الزاوية القصية من القاعة.

«إنه يشبه طبيب الأسنان البدين في رامسدال؟»

جرعت «لو» الماء، ووضعت كأسها الراقصة على الطاولة.

«بالطبع لا»، قالت وقد تناثر رذاذ الماء، «أقصد الكاتب في إعلان درومس».

أيتها الشهرة! أيتها المرأة!

عندما التهمت الحلوى - فطيرة كرز ضخمة للسيدة الشابة والمثلجات بنكهة الفانيليا للرجل الذي يحميها، أضافت معظمها بسرعة إلى فطيرتها - أخرجت قنينة صغيرة تحوي «حبوب الأب الأرجوانية». وعندما التفتُّ إلى الوراء لأنظر إلى تلك اللوحات الجدارية المثيرة للغثيان، إلى تلك اللحظة الغريبة والفظيعة، فإنني لا أستطيع إلا أن أوضّح سلوكي آنذاك بآلية فراغ الحلم ذاك الذي يدور حوله عقل مشوّش؛ لكن، في ذلك الحين، بدا لي أن كلّ شيء بسيط تماماً

Twitter: @ketab_n

وحتمي. تطلعت حولي، وأحسست بالرضا لأن الزبون الأخير كان قد غادر. أزلت الغطاء، وبدقة شديدة وضعت شراب المحبّة في راحة يدي. كنت قد تدرّبت على ذلك بعناية شديدة أمام المرآة، وهي أن أضع يدي على فمي الفاغر وأبتلع (خيالياً) حبّة. وكما توقّعت، انقضّت على القارورة ذات الكبسولات الممتلئة الجميلة المشحونة «بنوم الجميلة».

«إنها زرقاء!» صاحت، «زرقاء بنفسجية. من أي شيء مصنوعة؟»

«سماء الصيف»، قلت، «وخوخ وتين، وشراب دم الأباطرة».

«لا، بجد، أرجوك قل لي مم هي مصنوعة».

«آه، إنها مجرد حبوب أرجوانية. فيتامين «الثور». تجعل المرء قوياً كالثور أو كالفأس. أريد أن أجرّب واحدة؟»

مدّت لوليتا يدها، وهي تومئ برأسها بقوة.

كنت أتمنى أن يؤدي الدواء مفعوله بسرعة. وبالفعل حدث ذلك. فقد كانت قد أمضت يوماً طويلاً، طويلاً، لأنها ذهبت في رحلة في القارب في الصباح مع بربارة أخت مديرة منطقة المرفأ، عندما بدأت الحورية الرائعة السهلة المنال تخبرني بين تؤباء مكتومة، تجعل فكّيها يتقوسان، يزداد حجمها - يا للسرعة التي عمل فيها مفعول هذا الشراب السحري - وشاركت في نشاطات أخرى أيضاً.

وقد نسيت الفيلم الذي لاح بغموض في عقلها، بالطبع، عندما غادرنا قاعة الطعام. وما إن وقفنا في المصعد، حتى اتكأت عليّ، وابتسمت ابتسامة باهتة - ألا تريدني أن أخبرك - وهي تغمض عينيها ذات الرموش الداكنة نصف إغماضة. «إنك نعسة، أليس كذلك؟» قال العم توم الذي كان يرافق الرجل المحترم الهادئ ذا الأصول الفرنسية الآيرلندية وابنته، بالإضافة إلى امرأتين ذاويتين، خبيرتين بالورود. نظروا بتعاطف إلى وردتي العزيزة، الرهيفة، التي لوّحتها الشمس،

Twitter: @ketab_n

المترنحة، الدائخة. حتى شعرت بأنّ عليّ أن أحملها إلى غرفتنا. وهناك، جلست على حافة السرير، تترنح قليلاً، تهدل كالحمامة، بنغمات ممطوطة طويلة.

«إذا أخبرتك - إذا أخبرتك، هل تعدني [نعسانة، نعسانة كثيراً - الرأس يتمايل، والعينان تخرجان من بؤبؤيهما]، أتعدني بأنك لن تتذمر؟»

«فيما بعد يا «لو». نامي الآن. سأتركك هنا لتنامي. سأمنحك عشر دقائق».

«كنت فتاة مقرفة»، واصلت كلامها وهي تهزّ شعرها، وبأصابع بطيئة، أزالت عصابة شعر مخملية، «دعني أخبرك-»

«غداً، يا «لو». نامي، نامي بحق الله».

وضعت المفتاح في جيبي وهبطت الدرج.

٢٨

سيداتي، عضوات هيئة المحلفين! أرجو أن تتحلين بالصبر، وأن تسمحن لي بأن آخذ قليلاً من وقتكن الثمين. لقد حانت اللحظة الكبرى. فقد تركتُ حبيبتي لوليتا جالسة على حافة السرير السحيق، رافعةً قدمها بتكاسل وخمول، تلمس رباط حذائها، فكشفت، وهي مستغرقة في ذلك، عن الطرف السفلي من فخذها حتى ملتقى سروالها الداخلي - فقد كانت دائماً ساهمة، أو قليلة الحياء، أو كلا الأمرين، فيما يتعلق بالكشف عن ساقيها. هذه هي إذن الرؤية السحرية الخاصة بها عندما أقفلت الباب عليها - بعد أن تأكدت من عدم وجود مزلاج على الباب من الداخل. وأضحى المفتاح، بحمّالته الخشبية التي حفر عليها رقم الغرفة، «السمسم» الذي سيفتح أمامي مستقبلاً جذلاً هائلاً.

Twitter: @ketab_n

إنه لي، إنه جزء من قبضتي الحارة المكسوة بالشعر. وبعد بضع دقائق، لنقل، عشرين دقيقة، لنقل نصف ساعة، "sicher ist sicher" (الأكيد أكيد) كما كان يقول عمّي غوستاف - سألج الغرفة رقم «٣٤٢» تلك، وأرى حوريتي، حسنائي وعروسي، حبيسة في نومها البلّوري. أعضاء هيئة المحلّفين! لو كان لسعادتي فم، لملأت هذا الفندق النبيل بصيحة تبعث على الصمم. وأسفي الوحيد اليوم هو أنني لم أودع المفتاح رقم «٣٤٢» بهدوء لدى موظف الاستقبال، وأغادر البلدة، والبلد، والقارة، ونصف الكرة الأرضية - بل الكرة الأرضية - في تلك الليلة بالذات.

دعوني أوضح لكم. بالرغم من أن إساءاتها المبطّنة لي كانت تزعجني كثيراً، كنت لا أزال عازماً بحزم على مواصلة سياستي الرامية إلى الحفاظ على طهارتها بممارسة نشاطي فوق عريها المخدّر تماماً خلسة في هدأة الليل. وكنت حريصاً على التشبث بشعارين رئيسين هما تمالك نفسي والحفاظ على وقاري - حتى لو كانت قد أفسدت تلك «الطهارة» (التي يرتاب بها العلم الحديث تماماً) تجربة شهوانية، لا ريب في أنها تجربة جنسية مثليّة، خاضتها في ذلك المخيّم اللعين. وبالطبع، فقد اعتبرتُ، بأسلوبي القديم، أسلوب العالم القديم، أنا، جان جاك همبرت، عندما رأيتها للمرة الأولى، أنها لم تكن «طفلة عادية»، منذ أن رثيت لنهاية العالم القديم قبل الميلاد، وأساليبه الفاتنة. ففي عصرنا المتنور هذا، لم نعد محاطين بالجواري الصغيرات اللاتي يشبهن الأزهار التي يمكنك أن تقطفها بين الحين والآخر، الأزهار التي تنمو بين الحانات والحمّامات، كما كان الحال في عهد الرومان. كما أننا لا نستخدم، كما دأب الشرقيون المبجّلون في العصور الأكثر ترفاً، الراقصين والراقصات وهم يرقصون بين الموائد العامرة بأطباق الضأن وشراب الورد. إلا أن العادات الجديدة والقوانين الجديدة قطعت الصلة القديمة التي تربط بين عالم الكبار وعالم الأطفال في عصرنا هذا.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرغم من أنني عملت في مجال الطب النفسي والإرشاد الاجتماعي، فلم أكن أعرف أشياء كثيرة عن الأطفال. فلوليتا لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، ومهما قدمت من تنازلات للزمان والمكان - مع أنني أضع في عين الاعتبار السلوك الفظ الذي يمارسه التلاميذ الأميركيون - كان لا يزال لديّ انطباع بأنه مهما جرى بين هؤلاء الأطفال الصفيقين، فإنه كان يجري وهم في عمر أكبر، وفي بيئة مختلفة. لذلك (لاسترجاع خيط هذا التفسير) تجاوز الفيلسوف الأخلاقي في داخلي الأمر، بالتمسك بالأفكار التقليدية عما يجب أن يكون سلوك الفتيات ممن هن في الثانية عشر ربيعاً. وكان المعالج المختص بالأطفال في داخلي (وهو معالج مزيّف، شأنه في ذلك شأن معظم المعالجين - لكن هذا لا يهم) يجترّ الأفكار الفرويدية الحديثة ويستحضر دولي الحالمة وهي تمر في فترة «كمون» الطفولة. وأخيراً، لم يكن لدى الشخص الشهواني في داخلي (زهو وحش هائل ومجنون) أي اعتراض على قليل من الفسوق والانحراف كان يراه في فريسته. لكن في بقعة ما وراء النشوة الهائجة، تكمن ظلال حائرة تتناجى - لم أعرها اهتماماً، وهذا ما آسف له! أيها البشر، انتبهوا! كان ينبغي لي أن أفهم أن لوليتا تختلف اختلافاً تاماً عن أنابيل البريئة، وأن هذه الحورية الشيطانية تتنفّس من خلال كلّ مسام من مسامات هذه الطفلة التي هيأتها لمتعتي السرية، والتي ستجعل السرية ضرباً من المستحيل، وتجعل المتعة قاتلة. كان يجوز لي أن أعرف (من خلال الإشارات التي تبينتها في لوليتا - الطفلة الحقيقية لوليتا، أو الملاك النحيفة وراء ظهرها) أنه لن يسفر شيء عن نشوة الطرب المرتقبة سوى الألم والرعب. أيها السادة المحترمون المجنّحون، أعضاء هيئة المحلفين!

لقد أصبحت لي، أضحت ملكي، وها قد أصبح المفتاح في قبضتي، وأصبحت قبضتي في جيبي. إنها لي. وفي أثناء استعادة

Twitter: @ketab_n

ذكرياتي ومخططاتي التي غشاها الكثير من الأرق، أزلت، شيئاً فشيئاً، الغشاوة الزائدة. وعندما وضعت طبقة فوق أخرى من الرؤية نصف الشفافة، انبثقت الصورة النهائية. كانت عارية، ماعدا فردة جورب في قدمها، وسوار يدرأ عنها العين الشريرة، متمددة على السرير، هامدة بفعل شراب المحبّة الذي قدمته لها- هكذا رأيتها: عصابة شعر مخملية لا تزال تمسكها بيدها؛ جسدها الأسمر العسليّ، بالصورة النيجاتيف البيضاء لمايوه السباحة الصغير الذي يزيّن سمرتها، تعرض أمام عينيّ برعميَ نهديها الشاحبين؛ وتحت ضوء المصباح الوردي، تلألأ خيط رفيع من زغب عانتها الحريري فوق رابيتها المربربة. كان المفتاح البارد بعلاّقته الخشبية الدافئة في جيبي.

ورحت أتنقل من صالة إلى أخرى، المجد في الأسفل، والكآبة في الأعلى: لأن الشهوة كئيبة على الدوام، الشهوة ليست واثقة تماماً - حتى عندما تُحبس الضحية المخملية في زنزانتها - من أن شيطاناً منافساً أو إلهاً مؤثراً قد لا يقضيان على انتصار المرء. وبلغة مشتركة، أحسست بالرغبة في احتساء شراب، لكن لم يكن هناك مشرب في هذا المكان الموقّر الذي يعجّ بأناس متخلفين يرشحون عرقاً.

توجهت إلى حمّام الرجال. سألني شخص يرتدي رداءً كهنوتياً أسود هل أعجبني حديث الدكتور بويد؛ وبدا عليه الارتباك عندما قلت (الملك سيغموند الثاني) إن بويد «ولد» بكل معنى الكلمة. ثم ألقيت المنديل الورقي الذي جففت به أطراف أصابعي الحسّاسة في السلة، واتجهت نحو الردهة. أسندت مرفقيّ بارتياح إلى المنضدة، وسألت السيد بوتس هل هو متأكد من أن زوجتي لم تتصل بالهاتف، وسألته عن السرير الصغير؟ فأجاب لا (بالطبع، لأنها ميتة) وقال إنهم سيحضرون السرير غداً إذا قرّرنا المكوث. ومن قاعة كبيرة مزدحمة تدعى «قاعة الصيّادين» تعالت أصوات عديدة تناقش مسائل الزراعة أو

Twitter: @ketab_n

الخلود. وكان الضوء يغمر غرفة أخرى، تسمى «غرفة التوت»، تناثرت فيها مناضد صغيرة تلمع، وكان فيها طاولة كبيرة وضعت عليها «مرطبات»، لا تزال فارغة ما عدا مضيفة (من نوع النساء المرهقات، ترتسم على وجهها ابتسامة فاهية، وتتحدث كما تتحدث شارلوت)؛ اتجهت نحوي وسألتني هل أنا السيد برادوك، لأنني لو كنتُ أنا السيد برادوك، فإن الآنسة بيرد تبحث عني. «يا له من اسم لامرأة»، قلت ومشيت مبتعداً.

كان الدم يتدفق بقوة إلى قلبي الذي يشبه قوس قزح. قلت في نفسي سأدعها في الغرفة حتى الساعة التاسعة والنصف. وعندما عدت إلى البهو، وجدت أن تغييراً قد طرأ: فقد شكّل عدد من الأشخاص الذين يرتدون ثياباً موشاة بالزهور أو أردية سوداء، مجموعات صغيرة هنا وهناك، وأتاحت لي فرصة عفريتية رؤية طفلة تغمرها البهجة في عمر لوليتا، ترتدي فستاناً يشبه الفستان الذي ترتديه لوليتا، لكنه أبيض نقي، وتضع على شعرها الأسود عصابة بيضاء. لم تكن جميلة، لكنها كانت حورية، وذكّرتني ساقاها العاجيتان وعنقها الذي يشبه الزنبق، للحظة لاتنسى برغبتي اللذيذة (من حيث الموسيقى الفقرية) تجاه لوليتا، السمراء والوردية، المتوردة والشنيعة. ولاحظت الطفلة البيضاء نظراتي إليها (كانت حقاً نظرات عرضية وبشوشة)، ولمّا كانت خجولة على نحو مضحك، دحرجت عينيها، ووضعت ظاهر يدها على خدها، وزالت ملامحها تماماً، وشدّت حاشية تنورتها، ثم أدارت نحوي عظام كتفيها النحيفتين أخيراً، متظاهرة بأنها تتحدث مع أمّها التي تشبه البقرة.

غادرت البهو الذي كانت تعلو فيه الأصوات، ووقفت في الخارج على الدرجات البيض؛ ورحت أتأمل مئات الحشرات وهي تتطاير حول المصابيح في الليلة الندية المظلمة، المفعمة بالحركة والهدير. وسيكون

Twitter: @ketab_n

كلّ ما سأفعله - كلّ ما سأجرؤ على فعله - أمراً تافهاً. . . وفجأة أدركت أن إلى جانبي شخصاً في الظلام يجلس على كرسي في الشرفة ذات العواميد. لم أتمكن من تبين ملامحه، لكن ما أشعرني بوجوده صوت فتح قنينة، ثمّ صوت غرغرة، ثمّ ثانية صوت إغلاق السدادة بهدوء. كنت على وشك أن أخطو مبتعداً، عندما تناهى إليّ صوته يخاطبني:

«من أين أتيت بها بحق الشيطان ؟»

«عفواً؟»

«قلت: إن الطقس بدأ يتحسن».

«يبدو ذلك».

«من هي الفتاة؟»

«ابنتي».

«إنك تكذب - إنها ليست ابنتك».

«أستميحك عذراً؟»

«قلت: كان شهر تموز (يوليه) حاراً. أين أمّها؟»

«توفيت».

«نعم. آسف. بالمناسبة، لماذا لا تشاركانني في تناول الغداء غداً. سيكون هذا الحشد الرهيب قد ذهب».

«سنكون قد ذهبنا نحن أيضاً. طابت ليلتك».

«آسف. إني سكران. طابت ليلتك. إن طفلتك تحتاج إلى فترة طويلة من النوم. إن النوم وردة، كما يقول الفرس. أتدخن؟»

«ليس الآن».

أشعل عود ثقاب، وإمّا لأنه كان سكراناً، أو لأن الريح هي السكرى، لم يضء اللهب وجهه، بل أضاء وجه شخص آخر، وجه رجل عجوز، أحد هؤلاء الضيوف الدائمين الذين ينزلون الفنادق

Twitter: @ketab_n

القديمة - وكرسيه الهزاز الأبيض. لم يقل أحد شيئاً، وعاد الظلام كما كان. ثمّ تناهى إليّ صوت سعال العجوز الذي بصق قدراً كبيراً من المخاط السميك.

غادرت الشرفة. كانت قد انقضت حوالى نصف ساعة. كان يجب أن أطلب جرعة. بدأ الإجهاد يظهر عليّ. وإن كان بوسع وتر كمان أن يتألم، فأنا هو ذلك الوتر. لكنّ ليس من اللائق أن أبدي أيّ عجلة. وبينما رحت أشقّ طريقي عبر كوكبة من الأشخاص الثابتين في إحدى زوايا بهو الفندق، انبعث وميض يخطف الأبصار - وقد خُلِّد الدكتور برادوك المبتسم، وامرأتان تزينهما أزهار الأوركيد، والفتاة الصغيرة المرتدية الفستان الأبيض، وربما همبرت همبرت الذي كشّر عن أنيابه وهو ينسلّ خفية بين الفتاة التي تشبه العروس ورجل الدين المفتون - إذا أردنا أن نحسن الظن بأن طبعة صحيفة هذه البلدة الصغيرة ستظل خالدة. وتحلّق عدد من الأشخاص بالقرب من المصعد وهم يثرثرون. ومرة أخرى، قررت أن أرتقي الدرج، فقد كانت الغرفة ٣٤٢ تقبع بجانب منفذ النجاة. لا يزال بإمكان المرء - لكن المفتاح أصبح للتو في القفل، وما هي إلا لحظات حتى صرت داخل الغرفة.

٢٩

كان باب الحمّام المضاء موارباً. وكان وهج باهت من ضوء الشارع يتسلل عبر شقوق الستارة؛ لقد اخترقت هذه الأشعة المهجّنة عتمة غرفة النوم وأظهرت الوضع التالي.

فقد كانت لوليتاي، المرتدية أحد فساتينها القديمة، مستلقية على أحد جنبيها، في منتصف السرير، مولية ظهرها لي. وكان جسدها وأطرافها التي تغلفها غلالة رقيقة تشكّل حرف Z. وقد وضعت

Twitter: @ketab_n

وسادتين تحت رأسها افترش عليهما شعرها الأسود المشعّث، واجتاز خط من نور شاحب فقراتها العليا.

يبدو أنني خلعت ثيابي وارتديت بيجامتي بنوع من التلقائية الرائعة كالتي تظهر في مشهد سينمائي، حيث يُقطع فيه مشهد عملية تغيير الملابس. وكنت قد أسندت ركبتي على حافة السرير، عندما استدارت لوليتا وحدّقت فيّ عبر الظلال المخطّطة.

لم يكن المتطفل يتوقع أمراً كهذا. فقد جعلتها الحبّة الرائعة (وهو شيء يتسم بالدناءة، أقول هذا سراً بيني وبينكم) تغطّ في نوم عميق بحيث لا يستطيع حشد كامل أن يوقظها، وها هي تحدّق فيّ، وتناديني «باربرة» بصوت ثقيل. ولبثت باربرة، التي ترتدي بيجامتي الضيقة عليها، ساكنة فوق الفتاة الصغيرة التي تتكلم في نومها. ثم استدارت دولي برقة، وندت منها تنهيدة يائسة، وعادت إلى وضعيتها السابقة. وانتظرتُ قرابة دقيقتين، وأنا أقف بصعوبة عند الحافة، مثل ذلك الخيّاط الذي حاول أن يقفز من برج إيفل بمظلته التي صنعها بنفسه قبل أربعين سنة. وكنت أحسّ في تنفّسها الخافت إيقاع النوم. وأخيراً، نهضت قليلاً عند الهامش المتبقي لي من السرير، وسحبت خلسة أطراف الشراشف المكوّمة لأغطي كعبي قدميّ الباردتين، فرفعت لوليتا رأسها ونظرت إليّ.

وكما أخبرني صيدلاني مفيد لاحقاً، لم تكن الحبة الأرجوانية تنتمي حتى إلى عائلة حامض البربتيورات الكبيرة والنبيلة، وعلى الرغم من أنها قد تجعل شخصاً مصاباً بمرض عصابي يغط في النوم، يُعتقد بأنها عقار فعّال، لكنها مهدئ لطيف لا يؤثّر كثيراً على حورية حذرة، حتى إن كانت مرهقة. وسواء كان الطبيب في رامسدال نصّاباً أم وغداً عجوزاً ماكراً، فلا يهمّ كثيراً. بل إن ما يهمّ حقاً هو أنني خُدعت. وعندما فتحت لوليتا عينيها ثانية، أدركتُ أنه سواء أثّر العقار الآن أم في

Twitter: @ketab_n

وقت لاحق من الليل، فقد كان شعوري بالأمان الذي كنت أركن إليه زائفاً. وأدارت رأسها ببطء، ثم سقط في الحيز الواسع الذي كان يشغله على الوسادة. وتمددت بهدوء تام على الحافة التي تركتها لي، ورحت أحدق في شعرها المجعّد، وفي بشرة تلك الحورية اللامعة، حيث بدا لي جزء من وركها وجزء من كتفها، ورحت أحاول تحديد مدى عمق نومها من معدّل تنفسها. ومرّت فترة من الزمن، ولم يتغيّر فيها شيء، فقرّرت أن بإمكاني المجازفة والاقتراب أكثر من ذلك البريق الرائع الذي كان يفقدني صوابي، لكن ما إن كدت أقترب من هالتها الدافئة، حتى توقف تنفّسها، واعتراني شعور بغيض بأن دلوريس الصغيرة مستيقظة وستصيح إذا لمستها بأيّ جزء من حقارتي. أرجوك أيها القارئ: مهما بلغ حنقك من بطل كتابي الحسّاس، الرهيف القلب، الشديد الحذر، لا تقلب هذه الصفحات الأساسية! تخيّلني، فلا وجود لي إن لم تتخيّلني؛ حاول أن تتعرف على الغزالة في داخلي، أرتعش في غابة خطيئتي، فلنبتسم قليلاً. فلا ضير في ابتسامة حتى لو كانت باهتة. فمثلاً (كدت أكتب «عثلاً»)، لم يكن هناك مكان أضع عليه رأسي، وما أضاف إلى إحساسي بالضيق، حرقة في المعدة (فهم يطلقون على البطاطا المقلية اسم «فرنسية» يا إلهي).

غطّت في نوم عميق ثانية، حوريتي، ومع ذلك لم أجرؤ على الانطلاق في رحلتي البحرية المسحورة. «العذراء النائمة، أو العشيقة السخيفة». غداً سأحشوها بتلك الحبوب التي خدّرت أمها بالكامل. لكن هل هي في صندوق تابلوه السيارة - أم في حقيبة غلادستن؟ هل عليّ الانتظار ساعة كاملة ثم أبدأ بالزحف نحوها ثانية؟ إن علم الهيجان العاطفي الذي تشعله الحوريات فينا علم دقيق. سيطلقه التواصل الحقيقي خلال جزء من الثانية. إن الفرجة التي مسافتها ملليمتر واحد قد تحتاج إلى عشر ملامسات. لننتظر.

Twitter: @ketab_n

لا يوجد مكان أكثر صخباً وضجيجاً من أي فندق أمريكي. ويجب أن نتذكر أنه يفترض أن يكون هذا المكان هادئاً، مريحاً، ودياً، من الطراز القديم - «حياة مترفة» وما إلى ذلك. صوت صرير باب المصعد - الذي يبعد حوالى عشرين ياردة إلى شمال شرق رأسي، لكني أسمعه وكأنه يرنّ داخل صدغي الأيسر - يتناوب مع صوت هدير المصعد الذي استمر حتى بعد منتصف الليل. وبين الحين والآخر، إلى شرق أذني اليسرى تماماً (بافتراض أنني مستلق على ظهري دائماً، لا أجرؤ على توجيه طرفي الحقير نحو الورك السديمي لشريكة فراشي)، يعجّ الممر بالصياح البهيج السخيف منتهياً بوابل من الأمنيات بقضاء ليلة طيبة. وعندما توقّف ذلك، انطلق صوت قرقعة حمّام يقع إلى شمال مخيخي مباشرة. كان حمّاماً رجولياً عميقاً نشيطاً، يستعمل مراراً وتكراراً. فلم تتوقف أصوات الغرغرة وتدفق الماء فيه، وبعد فترة طويلة من التدفق كان الحائط خلفي يهتزّ بقوة. ومن الاتجاه الجنوبي، خرج شخص يترنّح بقوة، ويسعل، يكاد يتقيأ الكحول الذي جرعه، وسال الماء في مرحاضه مثل شلالات نياغارا، خلف حمّامنا مباشرة. وعندما توقّفت أخيراً جميع الشلالات، وغطّ الصيّادون المسحورون في النوم، تحوّل الدرب الواقع تحت نافذة أرقي، غرب صحوتي - وهو زقاق سكني رصين، فخم، وقور تحفّه أشجار ضخمة - إلى مكان حقير تؤمه شاحنات هائلة لم تكف طوال الليل عن الهدير العاصف الندي.

وعلى مسافة لا تزيد على ستّ بوصات منّي ومن حياتي المحترقة، كان تقبع لوليتا السديمية! وبعد فترة طويلة من السهر بقيت فيها لابثاً لا آتي بأي حركة، تحركت مجساتي باتجاهها مرة أخرى، وهذه المرة، لم يوقظها صرير الفراش. وما إن اقتربت منها كتلة كبيرة من جسدي المفترس، حتى أحسست بهالة كتفها العارية مثل نَفَسٍ دافئ على خدّي. ثم انتصبت جالسة، لهثت، ثم تمتمت بسرعة مجنونة شيئاً عن

Twitter: @ketab_n

المراكب، وتشبثت بالملاءة، ثم عادت وغرقت في إغماءتها الشابة المظلمة. وعندما بدأت تتقلّب، داخل ذلك الدفق الوافر من النوم، الذي كان كستنائياً منذ قليل، وأصبح قمرياً الآن، لطمني على الوجه. ولثانية ضممتها. لكنها حرّرت نفسها من ظلّ معانقتي - لم تفعل ذلك وهي في وعيها، ولا بقسوة، ولا بنفور شخصي، بل بهمهمة طفلة محايدة حزينة تطلب استراحتها الطبيعية. ومرة أخرى، ظل الوضع على حاله: لوليتا بعمودها الفقري المقوّس باتجاه همبرت، وهمبرت يسند رأسه على يده، يتحرّق شهوة، وقد انتابه عسر هضم.

وقد اضطره عسر الهضم إلى القيام برحلة إلى الحمّام ليشرب كمية من الماء الذي أعتبر أنه أفضل دواء لحالتي، ربما باستثناء الحليب مع الفجل، وعندما عدت بسرعة غريبة إلى الغرفة حيث كانت ثياب لوليتا القديمة والجديدة ملقاة في أوضاع مختلفة من الفتنة فوق قطع الأثاث التي بدت عائمة على نحو مبهم، اعتدلت ابنتي المستحيلة في جلستها، وبنبرة واضحة قالت إنها تريد أن تشرب أيضاً. أخذت الكوب الورقي المرن البارد بيدها المظللة، وجرعت محتوياته بامتنان، رموشها الطويلة متجهة نحو الكوب، ثمّ، وبحركة طفولية حملت في طياتها سحراً أكثر من أيّ مداعبة جسدية، مسحت لوليتا الصغيرة شفتيها على كتفيّ. وتهالكت على وسادتها (فقد أبعدت وسادتي وهي تشرب) وعادت وغطّت في النوم على الفور.

لم أجرؤ على إعطائها جرعة ثانية من الدواء، ولم أتخلّ عن الأمل بأن مفعول الجرعة الأولى سيجعلها تغرق في النوم. وبدأت أتحرّك نحوها، مستعداً لأيّ إحباط، مدركاً أن من الأفضل لي الانتظار لكنني لم أعد أقوى عليه. كانت رائحة شعرها تفوح من وسادتي. تحرّكت نحو حبيبتي المتألقة، وكنت أتوقف أو أتراجع، في كلّ مرّة يخيّل إليّ أنها تحرّكت، أو أنها على وشك التحرّك. وبدأ نسيم يهبّ من بلاد

Twitter: @ketab_n

العجائب ويحدث تأثيراً على أفكاري؛ وبدا الآن أنها واقعة بين قوسين، كما لو كان السطح الذي يعكسها مجعداً بوهم ذلك النسيم. ومرة تلو المرة، كان وعيي ينثني بطريقة خاطئة، ودلف جسمي المتقاذف في عالم النوم، ثم ألقي بي إلى خارجه، ومرّة أو مرّتين، وجدت نفسي أنجرف في شخير كئيب. وطوت سحب الرقة جبال الشوق والتوق. وكان يبدو لي، بين الحين والآخر، أن الفريسة المسحورة على وشك أن تلتقي بالصيّاد المسحور في منتصف الطريق، وأن وركها يشقّ طريقه نحوي تحت الرمل الناعم لشاطئ بعيد ورائع، ثم كانت تغيّر من حركتها، فأعرف عندها أنّها ابتعدت عني أكثر من أي وقت مضى.

وإذا ما أفضتُ في الحديث عن الرعشات التي انتابتني في تلك الليلة البعيدة، فإن سبب ذلك هو أنني أصرّ على إثبات أنني لست، ولم أكن قط، ولن أكون أبداً، وحشاً وغداً. والمناطق اللطيفة والحالمة التي زحفت فيها هي أرض الشعراء - وليست الجريمة. ولو كان هدفي قد تحقق، لانطوت نشوتي على الرقة والنعومة كلها، حالة من الاحتراق الداخلي ليس من المحتمل أن تكون قد أحسّت بحرارته، حتى لو كانت مستيقظة تماماً. لكني ما زلت آمل في أن يضمني رويداً رويداً، في ذهول تام يتيح لي تذوق المزيد من ألقها. وهكذا، بين محاولات الاقتراب منها، بإدراك مشوش يحوّلها إلى بقع من ضوء القمر، أو إلى أجمة مزهرة مخملية، كنت أحلم بأنني استعدت وعيي، أحلم بأنني أكمن لها.

وفي ساعات الصباح الأولى، سادت فترة هدوء في ليل الفندق الهائج. وفي حوالى الساعة الرابعة، انبعث صوت دفق الماء في حمّام الممر، أعقبه صوت صفق بابه. وبعد الساعة الخامسة بقليل، بدأت تتناهى إليّ مناجاة من الاهتزازات، على مراحل متعددة، من إحدى الباحات أو من موقف للسيارات. لم تكن حقاً مناجاة، لأن المتحدث

Twitter: @ketab_n

كان يتوقف كلّ بضع ثوان ليستمع (يخيّل إليّ) إلى شخص آخر، لكن الصوت الآخر ذاك لم يكن يصلني، لذلك لم أتبين أي معنى حقيقي من الكلام الذي كنت أسمعه. لكن نغماتها الواثقة ساعدت في اقتراب الفجر، وغرقت الغرفة للتو في لون رمادي بنفسجي، عندما بدأت حمّامات عديدة عملها الدؤوب، حمّام تلو الآخر، وصرير وأنين المصعد الذي بدأ ينقل المستيقظين المبكرين إلى الأعلى وإلى الأسفل، وغفوت بضع دقائق على نحو مثير للشفقة، وحلمت أن شارلوت حورية بحر تقبع في خزان ماء مائل للون الأخضر، وفي مكان ما من الحلم قال الدكتور بويد: «صباح الخير»، بصوت رقيق، وكانت العصافير تعشش بين أغصان الأشجار، ثم تثاءبت لوليتا.

أيتها السيدات الباردات، عضوات هيئة المحلفين! كان يخيّل إليّ أن شهوراً ستمر، بل ربما سنوات، قبل أن أجرؤ على أن أكشف نفسي لدلوريس هايز. لكن في الساعة السادسة، كانت في كامل يقظتها، وفي الساعة السادسة والربع، كنّا عاشقين. سأخبركنّ شيئاً شديد الغرابة: فهي التي أغوتني.

فعندما تناهت إليّ أول تثاؤب صدر منها هذا الصباح، تظاهرت بالنوم. لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أفعل. هل ستشعر بالصدمة إن هي رأتني بجانبها، ولست نائماً على السرير الآخر؟ هل ستجمع ثيابها وتحبس نفسها في الحمّام؟ هل ستطلب أن أعيدها على الفور إلى رامسدال - إلى جانب سرير أمّها - أم إلى المخيّم؟ لكن دعوني أقول لكم إن «لو» فتاة لعوب. فقد أحسست أن عينيها ترمقانني، وعندما أطلقت أخيراً تلك النبرة المحببة لديها، كنت أعرف أن عينيها تضحكان. تقلّبت وأصبحت بجانبي، ولامس شعرها البني الدافئ صدري. تظاهرت بشكل غير متقن بأنني استيقظت. استلقينا بهدوء. داعبتُ شعرها بلطف، وقبّل أحدنا الآخر برقة. ولحيرتي الهذيانية،

Twitter: @ketab_n

اتسمت قبلتها بارتعاشة. وكانت استكشافية مما جعلني أستنتج أنّ سحاقية صغيرة درّبتها على هذا الأمر وهي في سنّ مبكّرة. ولا يمكن أن يكون الصبي تشارلي هو الذي علّمها ذلك. وكما لو أنها أرادت أن تتأكد من أنني أحسست بالارتواء منها، وأنني تعلّمت الدرس، تراجعتْ قليلاً إلى الوراء، وراحت ترمقني بعينيها. كانت وجنتاها متوردتين، وشفتها السفلى المكتنزة متلألئة. لقد أضحى فنائي وشيكاً. وبغتة، بانطلاقة غبطة عارمة (وهي من أمارات الحوريات)، قرّبت فمها من أذني - لكن عقلي لم يتمكن، لفترة طويلة، من الانشطار إلى كلمات. دويّ همساتها الحارة، وضحكت، ثم أزاحت خصلات شعرها عن وجهها، وحاولت ثانية، وشيئاً فشيئاً، تملكني إحساس غريب بأنني أعيش في عالم أحلام جديد، عالم مجنون جديد، كلّ شيء فيه جائز، عندما أدركت ما كانت تريد أن توحي به. وأجبت بأنني لا أعرف اللعبة التي كانت تلعبها هي وتشارلي. «أتقصد أنك لم _؟» ولوت قسمات وجهها، وحدّقت بنظرة مفعمة بالنفور وعدم التصديق، «أنك في حياتك لم -»، رددت مرة أخرى. حاولت التهرب من الإجابة بأن قرّبتها مني قليلا. «ابتعد عني»، قالت بأنّة فيها خنّة، وأبعدت كتفها الأسمر بسرعة عن شفتيّ. (كانت تعتبر - واستمرت هكذا لفترة طويلة - أن جميع المداعبات، ماعدا التقبيل في الفم، أو ممارسة الحبّ المحض، هي إما «دفق رومانسي» أو «شيء غير طبيعي»).

«أتقصد»، تابعت كلامها، وأصبحت جاثية فوقي الآن، «ألم تفعلها أبداً عندما كنت طفلاً؟»

«أبداً»، أجبت بصدق مطلق.

«حسناً»، قالت لوليتا، «إذن، هيا لنبدأ».

لكنني لن أُضجر قرّائي المثقفين بتقديم عرض مفصل لصفاقة لوليتا. وغني عن القول إنني لم أر أي أثر لحياء في هذه الفتاة الشابة

Twitter: @ketab_n

الجميلة التي لم تكتمل تقاطيع جسدها بعد، والتي جعل منها التعليم المختلط المعاصر، وأخلاق اليافعين، وحفلات السمر حول نار المخيّم، وما إلى ذلك، فتاة منحرفة على نحو يائس. فقد كانت ترى أن الفعل المحض هو مجرد جزء من عالم اليافعين السري، الذي لا يعرفه الكبار، وأن ما يقوم به الكبار لأغراض التناسل لم يكن يعنيها. وكانت «لو» الصغيرة تتلاعب بحياتي، وتحركها بطريقة حيوية واقعية، كما لو كانت أداة عديمة الحس لا علاقة لها بي. وبينما كانت متلهفة لإثارة دهشتي بعالم الأطفال القساة، لم تكن مهيأة لبعض الاختلافات بين حياة طفلة وبين الحياة التي عشتها. ولم يمنعها من الاستسلام سوى شعورها بالزهو، لأنني تظاهرت وأنا في محنتي الغريبة هذه، بالغباء الشديد، وتركتها تفعل ما يحلو لها - على الأقل بالقدر الذي أمكنني تحمّله. لكن لا علاقة لهذه الأمور بالموضوع؛ فلم أكن مهتماً بما يدعى «الجنس» على الإطلاق. ويستطيع أي شخص تخيّل عناصر الحيوانية تلك. هناك شيء أهم يغريني: وهو أن أثبت مرة وإلى الأبد أن سحر الحوريات خطير.

٣٠

يجب أن ألتزم جانب الحذر عندما أطأ بقدمي. يجب أن أتكلّم همساً. أيها الصحفي المخضرم الخبير في شؤون الجريمة، أيها المرشد العجوز الرزين، يا من كنت ذات يوم شرطياً معروفاً، لقد أصبحتُ الآن نزيل زنزانة انفرادية، بعد أن كنت أجوب الطريق المفضي إلى المدرسة لسنوات عديدة؛ أيها البروفسور التعس الذي كان فتى يقرأ لك! لن أدعكم، أيها الفتيان، تهيمون بحبيبتي لوليتا! لو كنتُ رسّاماً، لو فقدت إدارة «الصيّادون المسحورون» صوابها ذات يوم أحد صيفي، وكلّفتني

Twitter: @ketab_n

بتجديد قاعة الطعام لديهم وطلبت مني رسم لوحات جدارية، فإن هذا ما يمكنني أن أبتدعه. دعوني الآن أنقل لكم بعض الشذرات:

ستكون هناك بحيرة. ستكون هناك شجرة تلتهب بالأزهار المتبرعمة. ستكون هناك دراسات عن الطبيعة - نمر يطارد طير الجنة، وأفعى تبتلع خنزيراً صغيراً مسلوخاً، وسيكون هناك سلطان تظهر على وجهه تعابير ألم شديد (تكذّبها مداعباته الشهوانية)، يساعد جارية طفلة لها ردفان جميلان على تسلق عمود من العقيق اليماني. وستكون هناك كرات صغيرة مضيئة لغدد تناسلية تتوهّج وهي تصعد فوق جوانب الصناديق الموسيقية البرّاقة. وستكون هناك في المخيّم كلّ أنواع النشاطات التي تمارسها مجموعة من الفتيات في المرحلة المتوسطة، بدءاً من تجديف القوارب إلى تمشيط الضفائر تحت الشمس على ضفاف البحيرة. وستكون هناك أشجار حور وأشجار تفاح، ويوم أحد في الضواحي. وسيكون هناك عقيق ناري يذوب داخل بركة تحيط بها مويجات، خفقة أخيرة، لمسة لون أخيرة، أحمر فاقع، وردي مبقع، تنهيدة، طفلة تجفل.

٣١

إني أحاول أن أصف هذه الأشياء لا لأعيشها مرة أخرى في بؤسي الحالي الذي لا حدود له، بل لأصنّف ذلك الجزء من الجحيم، وذلك الجزء من الجنة في عالم حبّ الحوريات الغريب، الفظيع، الذي يفقد العقول صوابها. البغيض والجميل يلتقيان في نقطة واحدة. ولأنني أحبّ أن أرسم حدود ذلك الخطّ الذي يفصل بينهما، فإني أشعر أنّني فشلت في عمل ذلك فشلاً ذريعاً. لماذا؟

فقد اعتمدت الكنيسة القانون الروماني الذي ينص على أنه يمكن

Twitter: @ketab_n

للفتاة أن تتزوج وهي في الثانية عشرة من العمر، ولا يزال هذا القانون سارياً، ولو ضمنياً، في بعض الولايات الأميركية. أما زواجها وهي في الخامسة عشرة فهو قانوني في جميع الولايات.

ويقول الذين يعيشون في نصفيَ الكرة الأرضية، ما الضير في أن يخلع رجل عنيف في الأربعين من العمر، بعد أن يباركه الكاهن المحلي، وبعد أن يكون قد شرب حتى الثمالة، ثيابه الأنيقة التي ترشح عرقاً، ويولج قضيبه كله في عروسه الشابّة. «ففي هذا المناخ المعتدل المثير [تقول مجلة قديمة رأيتها في مكتبة السجن هذا] كما هو الحال في سانت لويس وشيكاغو وسينسيناتي، تبلغ الفتاة سن النضج في نهاية سنتها الثانية عشرة تقريباً». وقد ولدت دلوريس هايز على مسافة تقل عن ثلاثمائة ميل عن سينسيناتي المثيرة. لقد تتبعت الطبيعة. إنني كلب الطبيعة المخلص. إذاً، لماذا لا أستطيع أن أنفض هذا الرعب عن كاهلي؟ هل سلبتها زهرتها؟ أيتها السيدات الحسّاسات عضوات هيئة المحلفين، لم أكن أنا أول عشيق لها.

٣٢

روت لي كيف أُفسدت أخلاقها. فبينما كنا نتناول موزاً مهروساً عديم الطعم، وحبات خوخ ليس في حالة جيدة، ورقائق بطاطا لذيذة، حكت لي الفتاة الصغيرة كلّ شيء. وتخللت حكايتها التي روتها بلسان طلق، لكن بطريقة مفكّكة مهلهلة، وقفات وفواصل كثيرة من التهكم والازدراء. وكما أظن أنني ذكرت من قبل، فإني أتذكّر على نحو خاص، وجهاً ملتوياً لا يكفّ عن القول «هاه»، وفماً هلامياً مورورباً إلى الجانب، وعينين تزوغان بمزيج روتيني من الاشمئزاز الساخر والاستسلام لهذه الصغيرة الهشّة، وتحمّلها.

Twitter: @ketab_n

بدأت حكايتها المدهشة بذكر رفيقتها في الخيمة في الصيف الماضي، في مخيّم آخر، «رفيقة مختارة» على حد تعبيرها. وكانت رفيقتها في الخيمة تلك («شخصية مهملة تماماً»، «نصف مجنونة»، لكنها «طفلة رائعة») علّمتها أشياء عديدة. في البداية، رفضت «لو» المخلصة أن تذكر لي ما هو اسمها.

«هل كان اسمها غرايس أنجيل؟» سألتها.

هزّت رأسها. لا. كانت ابنة شخص مهم. إنه -

«لعل اسمها روز كارمن؟»

«لا، طبعاً لا. كان أبوها - ».

«هل كانت إذن أغنيس شريدان، بالصدفة؟»

ابتلعت ريقها وهزّت رأسها -

«كيف تسنى لك أن تعرف جميع تلك الفتيات؟»

أوضحت لها.

«حسناً»، قالت، «كانت بعض الفتيات في تلك المدرسة سيئات جداً، لكنهن لم يكنّ سيئات إلى تلك الدرجة. إن كنت تريد أن تعرف، فإن اسمها إليزابيث تولبوت، وهي تذهب الآن إلى مدرسة خاصّة راقية. كان والدها مدير شركة».

تذكّرت بانقباضة مضحكة عدد المرات التي كانت تردد فيها شارلوت المسكينة في أحاديثها أثناء حفلات الدردشة، عبارات راقية مثل «عندما كانت ابنتي في رحلة في العام الماضي برفقة الفتاة تولبوت».

كنت أريد أن أعرف هل كانت أمّها أو أمّ الفتاة تعرفان شيئاً عن هذه الانحرافات السحاقية؟

«يا إلهي لا»، زفرت «لو» النحيفة، متظاهرة بالفزع، وضغطت بيد مرتعشة بتصنع على صدرها.

Twitter: @ketab_n

لكنني أبديت اهتماماً أكثر بمعرفة تجاربها مع الجنس الآخر. فقد التحقت في الصف السادس وهي في الحادية عشرة، فور انتقالها هي وأمّها إلى رامسدال من الغرب الأوسط. ماذا كانت تقصد عندما قالت «سيئات جداً»؟

حسناً، كانت الاختان التوأمان ميراندا تنامان في سرير واحد منذ عدة سنوات، وكان دونالد سكوت، أغبى فتى في المدرسة، يمارس الجنس مع هايزل سميث في مرآب عمّه، وكان نايت كينيث - أذكى فتى في المدرسة - يكشف عن عضوه حيثما وأينما أتيحت له الفرصة، و -».

فقلت: «لننتقل إلى المخيّم كيو». وعلى الفور، عرفت القصّة برمتها.

فقد كانت باربرة بورك، الشقراء، القوية البنية، التي تكبر «لو» بسنتين، أمهر سبّاحة في المخيّم بلا منازع، وكان لديها زورق خاص، وكانت تشارك «لو» في الغرفة "لأنها كانت الفتاة الوحيدة الأخرى التي فازت في مسابقة «جزيرة الصفصاف» (أظن أنها مسابقة في السباحة). وفي بداية صباح كل يوم من شهر تموز، أيها القارئ، صباح كل يوم مبارك - كان تشارلي هولمز، ابن مديرة المخيّم، البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، الذكر البشري الوحيد الموجود على مسافة ميلين (بالإضافة إلى رجل عجوز وديع، فاقد السمع، يزاول عدة مهن في وقت واحد؛ ومزارع يأتي بسيارة فورد قديمة ويبيع البيض للمشاركات في المخيّم كما يفعل المزارعون عادة)؛ وفي صباح كل يوم، يا قارئي العزيز، كان الأطفال الثلاثة يسلكون طريقاً مختصراً عبر الغابة الجميلة البريئة، مفعمين بحيوية الشباب، وسط الندى، وزقزقة العصافير، وفي بقعة ما، كانت «لو» تبتعد قليلاً وتقف بين الشجيرات المنخفضة الكثيفة لتحرس باربرة وتشارلي، وهما يتضاجعان وراء إحدى الشجيرات.

Twitter: @ketab_n

في البداية، رفضت لوليتا «أن تجرّب ذلك» لكن حبّ الفضول والمودّة الشديدة دفعاها للقيام بذلك، وسرعان ما أصبحتا تتناوبان، هي وباربرة، على عمل ذلك مع تشارلي الصامت، الفظّ، المتجهم، الذي لم يكن يعرف الكلل، والذي لم تكن لديه أي جاذبية جنسية، بل كانت لديه مجموعة رائعة من الواقيات الذكرية يجمعها من بحيرة قريبة، لا شك أنها كانت بحيرة أكبر بكثير، ترتادها أعداد كبيرة من الناس، تدعى بحيرة كلايماكس (بحيرة «ذروة الرعشة»)، اقتداء باسم البلدة الصناعية الصغيرة الآخذة بالازدهار. ومع أن لوليتا كان ترى في ذلك «نوعاً من المتعة والمرح» وأنها «جيدة للبشرة»، يسعدني أن أقول إنها أقرّت بأنها تحتقر عقل تشارلي وسلوكه كثيراً. ولم يتمكن ذلك الشيطان القذر من إثارة أحاسيسها، بل أحسب أنه أخمد لهيب مشاعرها، بالرغم من المتعة التي تبعثها تلك العملية.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة. ومع انحسار سعير الرغبة، تملكني إحساس كئيب بالفظاعة، زاده شعور بالكآبة الواقعية سببه يوم عصابي رمادي، أخذ يطنّ داخل صدغي. وكانت «لو» السمراء، الهشّة، العارية، بردفيها الأبيضين الضيّقين المتّجهين نحوي، ووجهها المتجهّم في اتجاه مرآة الباب، واقفة مسندة ذراعيها إلى خصرها، وكانت قدماها (في خفّين جديدين يعلوهما في المقدمة فراء قطة) متباعدتين، تلوي قسمات وجهها وهي تحدّق في المرآة من خلال خصلة شعرها المتهدلة. ومن الممر تردد صوت الخادمات الملوّنات يهدلن وهن منهمكات في عملهن، وجرت محاولة طفيفة لفتح باب غرفتنا. كنت قد طلبت من «لو» أن تذهب إلى الحمّام لتستحم وأن تستخدم قدراً وافراً من الصابون. كان السرير في حالة شديدة من الفوضى حيث تناثرت فوق ملاءاته رقائق البطاطا المتعددة الألوان. وجرّبت «لو» فستاناً صوفياً أزرق داكناً مؤلفاً من قطعتين، ثمّ ارتدت

Twitter: @ketab_n

بلوزة بلا أردان ولها تنورة رسمت عليها خطوط لولبية، لكن الفستان كان ضيقاً جداً عليها، في حين كانت البلوزة والتنورة واسعتين، وعندما استعجلتها (فقد بدأ الوضع يثير مخاوفي)، أخذت «لو» تلقي بالهدايا التي أحضرتها لها بعنف إلى زاوية الغرفة، ثم ارتدت الفستان الذي كانت ترتديه البارحة. وعندما أصبحت جاهزة أخيراً، أعطيتها محفظة جديدة جميلة من جلد العجل المقلّد (وضعت فيها عدداً من البنسات وقطعاً من فئة العشر بنسات اللامعة التي سكت حديثاً) وطلبت منها أن تشتري لنفسها مجلة في بهو الفندق.

وقلت لها: «سأنزل بعد دقيقة»، وأضفت، «لو كنت مكانك يا عزيزتي، لما تحدثت مع الغرباء».

وباستثناء الهدايا الصغيرة التي أحضرتها لها، لم تكن هناك أشياء كثيرة يتعين حزمها، لكنني اضطررت لقضاء فترة طويلة (هل كانت تزمع أن تفعل شيئاً في بهو النزل؟) لأرتّب السرير بطريقة توحي بعشّ مهجور لأب قلق وابنته المسترجلة، بدلاً من أن توحي بأن متهماً سابقاً كان قد أحيا ليلة حمراء صاخبة مع عاهرتين بدينتين عجوزين. وعندما انتهيت من حزم الحقائب ناديت خادم الفندق ليحملها.

كان كلّ شيء يسير على ما يرام. كانت تجلس هناك، في البهو، تغوص في أريكة وثيرة حمراء قانية، مستغرقة في قراءة مجلة سينمائية ملونة. وكان هناك رجل في عمري تقريباً يرتدي بدلة أنيقة من قماش التويد (بين ليلة وضحاها تغيّر نوع المكان ليصبح مكاناً يضم إقطاعيين مزيفين من الريف) يحدّق في لوليتاي من وراء سيجاره المطفأ، وصحيفته القديمة. كانت ترتدي جوربها الأبيض وحذاءها الرياضي، وذلك الفستان الفاتح ذا المربعات والياقة المربّعة؛ وكان شعاع الضوء المنبعث من المصباح يظهر الزغب الذهبي على زنديها السمراوين الدافئين. كانت جالسة هناك، تلف ساقاً على ساق بلا مبالاة، وعيناها

Twitter: @ketab_n

الشاحبتان تتابعان السطور، وترمشان بين الفينة والأخرى. كانت زوجة بيل قد أحبّته قبل أن يلتقيا بفترة طويلة: في الواقع، كانت معجبة سرّاً بالممثل الشاب المشهور عندما كان يأتي إلى مطعم «شواب» ليتناول المرطبات. لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر طفولية من أنفها المشمور للأعلى، ووجهها المكسو بالنمش، أو تلك البقعة الأرجوانية في عنقها العارية حيث غرز مصّاص الدماء أنيابه كما ورد في إحدى قصص الجنيات، أو حركة لسانها العفوية الذي يجوس مستكشفاً بقعة من الطفح الوردي حول شفتيها المكتنزتين. ولا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر إيذاء من قراءة جيل، النجمة الصغيرة المفعمة بالحيوية التي تصنع ثيابها بنفسها، والطالبة التي تدرس الأدب الجاد؛ ولا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر براءة من ذلك الجزء من الشعر البني بذلك اللمعان الحريري على صدغها؛ ولا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر سذاجة - لكن أي شعور بالحسد المثير للغثيان الذي قد ينتاب هذا الشخص الداعر - يفكّر بها، الذي كان يشبه عمّي السويسري الصغير غوستاف، والذي كان كذلك شديد الإعجاب بالاستكشاف - لو كان يعرف أن كلّ عصب من أعصابي لا يزال محاطاً بملمس جسدها - جسد شيطان خالد متنكّر في هيئة جسد طفلة.

هل الخنزير الوردي السيد سوان متأكد من أن زوجتي لم تخابر؟ قال نعم إنه متأكد. وإن اتصلت، فهل سيخبرها أننا انتقلنا إلى منزل العمّة كلير؟ بالطبع سيفعل ذلك. سددت الفاتورة، وطلبت من «لو» أن تنهض من على كرسيها، ولم تتوقف عن القراءة حتى صعدت إلى السيارة. وواصلت القراءة حتى وصلنا إلى ما يدعى «مقهى» يقع بعد عدة شوارع جنوباً. آه، لقد أكلت. حتى أنها وضعت مجلتها جانباً لتأكل، لكن مللاً غريباً حلّ محلّ بهجتها المعهودة. ولمّا كنت أعرف جيداً أن «لو» الصغيرة قد تستحيل فجأة إلى فتاة بغيضة، تمالكت

Twitter: @ketab_n

نفسي، وابتسمت ابتسامة عريضة، وانتظرت هبوب عاصفة. لم أكن قد استحممت، ولم أكن قد حلقت ذقني، ولم أذهب إلى الحمّام. كانت أعصابي متوترة للغاية. لم أكن أحبّ الطريقة التي تهزّ فيها محبوبتي الصغيرة كتفيها، وتنفث بمنخريها عندما كنت أحاول فتح حديث عادي معها. هل كان فيليس يعرف قبل أن تنضم إلى والديها في ماين؟ سألتها بابتسامة. فقالت لوليتا: «انظر»، وهي تصطنع البكاء، «دعنا من هذا الموضوع». ثمّ حاولت أيضاً - من دون نجاح، مهما زممت شفتيّ - أن أثير اهتمامها بالخارطة. إذ كانت البلدة المتجهين إليها، دعوني أذكّر قارئي الحليم الذي يجب أن تتحلى «لو» بوداعة مزاجه، هي بلدة ليبينغفيل البهيجة، التي تقع بالقرب من مستشفى افتراضي. وكنت قد اخترت هذا المكان اعتباطياً (كما اخترت، للأسف، العديد من الأماكن)، وارتعشت في حذائي وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أجعل الأمر برمته يبدو معقولاً، وما هي الأهداف المعقولة الأخرى التي يجب أن أستنبطها بعد أن شاهدنا كلّ الأفلام في ليبينغفيل. وبدأ مزيد من القلق يعتري همبرت. كان شيئاً خاصاً جداً، ذلك الشعور: قيد مستبدّ بشع، وكأنني أجلس مع طيف شخص صغير أرديته قتيلاً للتو.

وعندما عادت «لو» إلى السيارة، كانت قسمات الألم تبدو على محياها. وازدادت حدة عندما استقر بها المقام إلى جانبي. لا ريب في أنها فعلتها ثانية من أجلي. وبحماقة، سألتها ما خطبها، فأجابت، «لا شيء، إنك فظ»؛ فسألتها «وأنتِ ماذا؟» صمتت. غادرنا برايسلاند. لاذت «لو» الثرثارة بالصمت الآن. وبدأت عناكب الرعب الباردة تزحف فوق ظهري. إنها فتاة يتيمة. طفلة وحيدة، مشرّدة، ضاجعها رجل ثقيل الأطراف، كريه الرائحة، ثلاث مرات هذا الصباح. سواء كان بلوغ حلم كنت قد حلمت به طوال الحياة قد فاق جميع التوقعات أم لا، فقد تجاوز الهدف المحدد، ووقع في هوة كابوس. كنت مستهتراً، غبياً،

Twitter: @ketab_n

خسيساً. دعوني أكون صريحاً جداً معكم: ففي بقعة ما في قعر ذلك الاضطراب المظلم، أحسست بالرغبة تتلوى ثانية، واشتعلت رغبتي نحو تلك الحورية البائسة. وامتزج الشعور بوخز الضمير بالفكرة المعذبة بأنه من الممكن أن يمنعني مزاجها من أن أضاجعها ثانية عندما أعثر على طريق ريفي لطيف يمكنني أن أتوقف فيه بسلام. بمعنى آخر، كان همبرت همبرت المسكين حزيناً للغاية، وبينما كان يقود سيارته بثبات باتجاه ليبينغفيل، لم يتوقف عقله عن التفكير في نكتة يقولها لها ليتمكن من قضاء وطره منها. لكنها خرجت عن صمتها وقالت:

«آه، سنجاب مدهوس. ياحرام».

«نعم، أليس كذلك؟» (دندنة متفائلة متلهّفة).

«لنتوقّف عند محطة البنزين التالية»، واصلت «لو»، «أريد أن أذهب إلى الحمّام».

«سنتوقّف حيثما أردتِ»، قلت. ثم بدأت تتراءى أمامنا بقعة خضراء زاهية، منعزلة، جميلة (من أشجار البلوط، كما أظن، لأن الأشجار الأميركية كانت تتجاوز طاقتي في تلك المرحلة) تتسارع مع سيارتنا، ثم انعطف طريق أحمر تحفّه أعشاب السرخس إلى اليمين قبل أن ينحرف إلى الغابة، فاقترحت أن نتوقف. لكن «لو» صاحت بصوت أجش «لا تتوقف».

«حسناً. مهلاً». (استمر، أيها الوحش المسكين، تابع)

نظرت إليها. شكراً لله، كانت الطفلة تبتسم.

«أيها الأحمق»، قالت، وقد افترت عنها ابتسامة حلوة، «أيها المخلوق المقزز. كنت فتاة أقحوانة جديدة، انظر ماذا فعلت بي. كان يجب أن أستدعي الشرطة وأخبرهم أنك اغتصبتني. آه، أيها العجوز الوسخ الداعر».

هل كانت تمزح؟ كانت نبرة هستيرية مشؤومة تظهر في كلماتها

Twitter: @ketab_n

السخيفة. وبدأت الآن، مصدرة هسيساً بشفتيها، تشكو من ألم، وقالت إنها لا تستطيع أن تجلس، وأضافت أنني مزّقتُ شيئاً في داخلها. وبدأت قطرات العرق تنزلق على رقبتي، وكدنا ندهس حيواناً صغيراً كان يجتاز الطريق وذيله منتصب؛ ومرة أخرى نعتتني رفيقتي الحقيرة بأوصاف قبيحة. وعندما توقّفنا عند محطة بنزين، نزلت من السيارة دون أن تنبس بكلمة وغابت مدة طويلة.

بتؤدة، بمودّة، أخذ رجل مسنّ ذو أنف مكسور يمسح زجاج السيارة الأمامي- إنهم يفعلون ذلك بطريقة مختلفة في أماكن أخرى، من قطعة قماش من الشاموا إلى فرشاة مغمورة بالصابون، كان هذا الرجل يستخدم اسفنجة وردية.

ظهرت أخيراً. «انظر»، قالت بذلك الصوت المحايد الذي جرحني كثيراً، «أعطني بعض البنسات. أريد أن أخابر أمي في ذلك المستشفى. ما هو الرقم؟»

«اصعدي»، قلت، «لا تستطيعين الاتصال بذلك الرقم».

«لماذا؟»

«إصعدي وأغلقي الباب».

ركبت وصفقت الباب. ابتسم رجل المرآب المسن لها. وانطلقتُ إلى الطريق السريع.

«لماذا لا أستطيع أن أخابر أمّي إذا أردت ذلك؟»

فأجبت: «لأن أمّك ماتت».

٣٣

في بلدة ليبينغفيل البهيجة، اشتريت لها أربعة كتب فيها قصص مصورة بالرسوم، وعلبة حلوى، وعلبة فوط صحية، وقنينتي كولا،

Twitter: @ketab_n

ومجموعة تجميل أظافر، وساعة سفر يضيء سطحها، وخاتماً مرصّعاً بفص من الياقوت الحقيقي، ومضرب تنس، ومزلجات ذات أحذية عالية بيضاء، ومنظاراً، ومذياعاً صغيراً، وعلكة، ومعطفاً مطرياً شفّافاً، ونظارات شمسية، وبعض الثياب الأخرى، وجميع أنواع الفساتين الصيفية. وحجزنا غرفتين منفصلتين في الفندق، لكنها جاءت إلى غرفتي في منتصف الليل وهي تبكي، ومارسناها برقة شديدة. وكما ترون، لا مكان آخر لديها تلجأ إليه.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

عند ذاك بدأت رحلتنا في أرجاء الولايات المتحدة. وكان من بين الأماكن السياحية التي بدأت أفضّل ارتيادها، سلسلة «موتيل فونكسيونيل» النظيفة، الأنيقة، الآمنة والمثالية للنوم فيها، والمناقشة، والمصالحة، والحبّ النهم المحرم. في البداية، ولكي لا أثير أي شكوك، كنت أدفع بحماسة أجرة جناحين يضم كل منهما سريراً مزدوجاً. لكنني تساءلت ما الهدف من هذه التشكيلة الرباعية، لأنه لا يمكن تحقيق هذا النوع من التظاهر الفريسي(*) في الخصوصية إلا عن طريق هذا الحاجز غير المكتمل الذي يقسّم الحجرة أو الغرفة إلى عشيّ حبّ للتواصل. وسرعان ما زادتني شجاعة هذه الاحتمالات التي يوحي بها هذا الاختلاط الصادق (زوجان شابان يتبادلان الأزواج ببهجة أو طفلة تتظاهر بالنوم لتشهد على الأصوات المنبعثة عن طريق السماع) فبدأت أحجز، بين الآونة والأخرى، غرفة بسرير مزدوج وسرير صغير، أو غرفة فيها سرير مزدوج، أو زنزانة في سجن، أو في الجنة، تغطي نوافذها ستائر صفراء أسدلها كي أشيع أجواء توحي بأننا في صباح يوم مشرق في فينيسيا، بينما نحن، في الواقع، في صباح يوم ماطر في بنسلفانيا.

(*) طائفة من اليهود يعتبرون أنفسهم مفروزين عن الشعب لقداستهم - م.

Twitter: @ketab_n

وتعرّفنا - nous connûmes، حسب تعبير فلوبير - على أكواخ حجرية تحت أشجار ضخمة، وأكواخ مشيّدة من الآجر، وأكواخ مشيّدة من الطين، فيها باحة من الجص، يصفها الكتيب السياحي الصادر عن رابطة سائقي السيارات بأنها ملاعب «مظلّلة» أو «رحبة» أو «ذات مشاهد طبيعية». وتذكّر هذه الأكواخ المشيّدة من جذوع أشجار الصنوبر المصقولة باللون الذهبي المائل إلى البني «لو» بعظام الدجاج المشوي. وكنا نكره الأكواخ ذات الألواح الخشبية المطلية باللون الأبيض، التي تفوح منها رائحة تشبه رائحة المجاري، أو روائح كريهة أخرى بائسة، ولا يوجد فيها شيء جدير بالتحدث عنه (سوى وجود «أسرّة جيدة»)، ومديرة متجهّمة مستعدة دائماً لرفض أي هدية تقدمها لها («. . . حسناً، يمكنني أن أعطيكِ. . .»).

وقد عرفنا (هذا المرح الملكي) الاغراءات المنتظرة لأسمائها المتكررة - سلسلة نزل سنست، وأكواخ يو بيم، وهيلكريست كورتس، وباين فيو كورتس، وسكاي لاين كورتس، وبارك بلازا كورتس، وغرين أيكرس، وماك كورتس. وكنت ترى أحياناً لافتات كتبت عليها عبارات مثل: «نرحب بالأطفال، يُسمح بدخول الحيوانات الأليفة» (أهلاً بكم، يسمح لكم). وكانت معظم حمّاماتها عبارة عن دوشات صغيرة مبلطة، مجهزة بمجموعة لانهائية من أدوات تنفث فوقك رذاذ ماء إما أن يكون حاراً إلى درجة متوحشة، أو بارداً يعمي البصر، ويتوقف ذلك على إن كان جارك قد فتح صنبور الماء البارد أو الحار ويحرمك من إنهاء حمامك الضروري في الدوش الذي كنت قد مزجت ماءه بعناية. وتضع بعض النزل تعليمات على باب الحمّام (الذي تتكدس فوق خزان الماء فيه مناشف بطريقة غير صحية) تطلب من نزلائها عدم رمي الأوساخ، أو علب البيرة الفارغة، أو علب الورق المقوى، أو الأطفال المجهضة؛ وبعضها الآخر يضع تعليمات خاصة

Twitter: @ketab_n

تحت الزجاج، من قبيل الأشياء التي يجب القيام بها (ركوب الخيل: سترى الفرسان، في معظم الأحيان، وهم عائدون في الشارع الرئيسي من جولة رومانسية تحت ضوء القمر).

«غالباً في الساعة الثالثة صباحاً»، قالت «لو» (التي لا تعرف الرومانسية).

وتعرّفنا على أنواع مختلفة من الأشخاص الذين يشرفون على هذه النزل، فمن الذكور، ترى هناك المجرم الذي أمضى فترة في إصلاحية، والمعلّم المتقاعد، ومدير الأعمال الفاشل؛ ومن الإناث، ترى من تتظاهر بأنها سيدة أنيقة، حنونة، مجنونة. وفي بعض الأحيان، كانت القطارات تطلق صافراتها في الليالي الحارة والرطبة بصخب مشؤوم يمزّق نياط القلوب، ويمزج القوة والهستيريا في صيحة مستميتة واحدة.

وكنا نتحاشى «البيوت السياحية» التي تشبه البيوت الجنائزية، القديمة الطراز، والتي لا يوجد فيها حمامات، ذات مناضد صغيرة متقنة الصنع في غرف نوم صغيرة وردية وبيضاء كئيبة، تنتصب فوقها صور أطفال صاحبة النزل في جميع أطوار نموهم. لكنني كنت أستسلم، بين الحين والآخر، لرغبة «لو» بارتياد الفنادق «الحقيقية». وكانت تختار من الكتيب الذي تسلّط عليه ضوء مصباحها اليدوي وتحرّكه يمنة ويسرة، وأنا أربّت عليها في السيارة المركونة في صمت الغسق المعتق، على أحد الطرق الفرعية المعتمة، نزلاً قريباً من البحيرة يقول إنه يقدم خدمات عديدة، مثل تقديم خدمات متجانسة روحاً وطبعاً، بين وجبات الطعام الخفيفة، والشواء في الهواء الطلق - لكني كنت استحضر في مخيلتي رؤى مقززة عن طلاب المدرسة الثانوية الذين تفوح منهم روائح كريهة، ويرتدون سترات، وهم يضغطون بخدودهم الحمراء كالجمر على خدّيها، بينما لا يفعل الدكتور همبرت المسكين شيئاً، سوى أن يعانق ركبتيه الذكوريتين، ويبرّد بواسيره فوق العشب الرطب. وكان

Twitter: @ketab_n

أكثر ما يجذبها أيضاً، تلك النزل «الكولونيالية»، التي تتمتع «بأجواء مترفة أنيقة» ذات النوافذ الواسعة، والتي تقدم «كميات غير محدودة من أطايب الطعام». وكانت ذكرياتي العزيزة عن فندق أبي الفخم تقودني أحياناً للبحث عن فندق يشبهه في ذلك الريف الغريب الذي أتنقّل في أرجائه، لكن سرعان ما تثبط همتي، أما «لو» فكانت تتعقب رائحة الإعلانات التي تتحدث عن الأطعمة الدسمة، بينما كانت تجذبني، لا بدافع اقتصادي بحت، يافطات الطرق الجانبية مثل «فندق تيمبر، الأطفال دون الرابعة عشرة مجاناً». ومن الناحية الأخرى، كانت تعتريني رعشة عندما أتذكّر ذلك المنتجع الذي يدعى «الطبقة الراقية» في إحدى ولايات الغرب الأوسط، الذي يقول في إعلانه «هاجم الثلاجة» في منتصف الليل لتتناول وجبة خفيفة، والذي أراد المشرف، بعد أن ساورته الشكوك من لهجتي، معرفة اسم زوجتي المرحومة واسم أمّي المرحومة قبل زواجيهما. وقد كلفتني الإقامة فيه لمدة يومين مائة وأربعة وعشرين دولاراً! وهل تتذكّر، «ميراندا»، عرين اللصوص «الدهاة» مع قهوة الصباح المجانية والماء المثلّج الذي يوزع على الزبائن، والذي لايسمح فيه بدخول الأطفال ممن هم دون السادسة عشرة (بالطبع لا يسمح بدخول الفتيات ممن هن في سن لوليتا)؟

وفور وصولنا إلى إحدى تلك النزل العادية التي أصبحنا نؤمها عادة، كانت «لو» تشغّل المروحة الكهربائية، أو تقنعني بأن أضع ربع دولار لتشغيل المذياع، أو تقرأ جميع اللافتات وتسألني وهي تزفر لماذا لا يمكنها الذهاب وركوب الخيل، أو الذهاب للسباحة في المسبح المحلي الذي تغمره مياه معدنية دافئة. وبالطريقة المملة والمتراخية التي بدأت تسلكها، كانت «لو»، في معظم الأحيان، تنبطح على بطنها بطريقة مثيرة للغاية على كرسي أحمر له نابض، أو على أريكة خضراء، أو على كرسي مصنوع من حبال الخيش المخطّطة له مسند للقدمين

Twitter: @ketab_n

ينتصب تحت مظلة، أو أيّ كرسي آخر على العشب يقبع تحت مظلّة، وأحتاج إلى ساعات من التملق، والوعيد، والوعود حتى تعيرني أطرافها السمراء، لبضع ثوان في خلوة الغرفة التي نستأجرها بخمسة دولارات قبل القيام بأيّ شيء قد تفضّله على بهجتي المسكينة.

وعندما كانت لوليتا، التي تجتمع فيها السذاجة والمكر، الفتنة والسوقيّة، الحرائر الزرقاء والمرح الوردي، تريد، كانت تستطيع أن تصبح شقية ساخطة. فلم أكن مهيأً لنوبات ضجرها المضطربة، وتوترها، وحدّة مزاجها، واستلقائها على بطنها، وطريقتها عندما تُذبل عينيها بغباء، وتهرج بطريقة صبيانية شريرة. ومن الناحية العقلية، كنت أجدها فتاة تقليدية صغيرة مثيرة للغثيان. وكانت موسيقى الجاز المثيرة الجميلة، وباحة الرقص، والمثلجات اللذيذة، والمسرحيات الموسيقية، والمجلات السينمائية، وما إلى ذلك - تتصدر قائمة الأشياء الأثيرة لديها. ويعلم الله كم قطعة معدنية من فئة الخمسة بنسات ألقمتها في صناديق الموسيقى الرائعة في كلّ وجبة طعام تناولناها! ولا أزال أسمع الأصوات الحادة المنبعثة من مغنين غير مرئيين يبثون ألحانهم الغرامية، مغنين ذوي أسماء مثل سامي وجو وإدي وتوني وبيغي وغاي وباتي وريكس، الذين يغنون أغاني عاطفية مثيرة، تتشابه كلّها في أذني، كما تتشابه في حلقي جميع حلوياتها المختلفة. وكانت تصدّق، بنوع من الثقة السماوية، أيّ إعلان أو نصيحة تظهر في مجلات السينما «عشق الأفلام» أو «أرض الشاشات» بأن «ستاراسيل يجفف البثور» أو «أيتها الفتيات، يجب أن تحرصن على ألاّ تنسلّ أطراف قمصانكن من حواف بنطال الجينز، لأن جيل تقول إنه يجب ألا تفعلن ذلك». وإذا كانت هناك لافتة على الطريق تقول: زوروا محلنا لبيع الهدايا - فيجب أن نزوره، ونشتري منه تحفاً هندية، ودمى، ومجوهرات نحاسية، وحلوى الصبّار. وكانت عبارة «الأشياء الجديدة والتذكارية»، تدوّخها

Twitter: @ketab_n

وتدخل النشوة إلى نفسها. وإذا رأت يافطة كتب عليها أن هناك مقهى يقدم مشروبات باردة جداً، كانت تطلب مني التوجه إليه في الحال، مع أن جميع المحلات تبيع مشروبات باردة كالثلج. وكانت الإعلانات مخصصة لها: المستهلكة المثالية، موضوع وهدف كلّ ملصق كريه. وقد فشلت في محاولاتي بعدم - ارتياد المطاعم التي هبطت عليها روح قدس هانكان داينز المرسوم على المناديل الورقية اللطيفة فيها، والسَلَطة التي يعلوها الجبن الريفي.

في تلك الأيام، لم نكن، أنا وهي، قد ابتدعنا نظام الرشاوى النقدية الذي أتلف أعصابي وأتلف أخلاقها فيما بعد. فقد كنت أعتمد على ثلاثة أساليب أخرى لكي تظل محظيتي المراهقة مستسلمة، وفي مزاج يمكنني السيطرة عليه. فمنذ بضع سنوات، أمضت فترة صيف ماطرة تحت عينيّ الآنسة فالين المغبشتين، في منزل ريفي في جبال أبالاش يملكه أحد أفراد أسرة هايز المعقدين منذ زمن بعيد. وكان المنزل لا يزال قائماً بين هكتاراته الكثيرة المكسوة بنبات القضيب الذهبي على حافة غابة تخلو من الأزهار، في نهاية طريق موحل على الدوام، يبعد عشرين ميلاً عن أقرب قرية. وتذكّرت «لو» فزّاعة البيت تلك، والعزلة، والمراعي القديمة التي تغمرها المياه، والريح، والبراري الشاسعة، المفعمة بطاقة من القرف الذي شوّه فمها، وجعل لسانها نصف المكشوف سميكاً. وحذّرتها بأنها ستقيم معي في المنفى لمدة شهور أو سنوات إذا استدعى الأمر ذلك، وأنني سأعلمها اللغتين الفرنسية واللاتينية، إذا غيّرت «سلوكها الحالي». شارلوت، لقد بدأتُ أفهمك!

وكانت «لو» الطفلة البسيطة تصرخ لا! وتمسك بقوة وبشكل مسعور يدي التي أقود بها، كلما وضعت حداً لأعاصير مزاجها بالانعطاف في منتصف الطريق السريع والعودة لأوهمها بأنني سآخذها

Twitter: @ketab_n

مباشرة إلى ذلك المسكن المظلم والكئيب. وكلما ابتعدنا عن الغرب، قلّ ذلك الخطر، وتعيّن عليّ أن أتبع سبلاً أخرى في إقناعها.

ومن بين هذه الأمور، أذكر التهديد الذي كنت أوجهه لها بأنين يشوبه الخجل كي تعدل سلوكها. ومنذ بداية لقائي بها، كنت من الذكاء بحيث أدركت أنني يجب ضمان تعاونها التام للحفاظ على سرية علاقتنا، وأن يصبح ذلك طبيعة ثانية لديها، مهما بلغت كراهيتها لي، بغض النظر عن المتعة الأخرى التي تسعى إليها.

وكنت أقول لها: «تعالي وقبّلي والدك، وكفّي عن ممارسة هذه السخافات المزاجية. ففي الماضي، عندما كنت لا أزال معبود أحلامك [سيلاحظ القارئ الألم الذي يعتصرني عندما أتحدث بلسان «لو»] كان يغشى عليكِ وأنتِ تستمعين إلى اسطوانات مغنين عاطفيين في مثل عمرك [«لو»: أنا ماذا؟ تكلّمي بالإنكليزية»]. كنت تقولين إن معبود صديقاتك يشبه الصديق همبرت. أما الآن، فأنا والدك فقط، مجرد أب أحلام يحمي ابنة أحلامه».

«عزيزتي دلوريس! أريد أن أحميك، يا عزيزتي، من جميع الأهوال التي تتعرض لها الفتيات الصغيرات في مخازن الفحم والأزقة الضيقة، وأنك تعرفين جيداً، يا عزيزتي، ماذا يمكن أن يحدث في غابة أشجار التوت عندما تكون السماء زرقاء صافية في الصيف. لكن مهما حدث، فسأظل ولي أمرك، وإن كنتِ فتاة جيدة، فإنني آمل أن توافق المحكمة على طلبي لأن أصبح ولي أمرك بسرعة. لكن، دعينا ننسى يا دلوريس هايز، ما يطلق عليها العبارة القانونية، العبارة التي تقبل عبارة «المساكنة الماجنة الفاسقة» بأنها العبارة المنطقية. فأنا لست شخصاً مصاباً باضطراب عقلي، ولست مجرماً مهووساً جنسياً يقضي وطره مع طفلة. إن المغتصب الحقيقي هو تشارلي هولمز، أما أنا، فإنني المعالج النفسي - يجب التمييز بين الاثنين. يجب التمييز بدقة

Twitter: @ketab_n

بين الاثنين. فأنا والدك يا «لو». انظري، ها هنا كتاب قيّم عن الفتيات الشابات. انظري يا عزيزتي، ماذا يقول. وها أنا أقتبس منه: «تحرص الفتاة الطبيعية - انتبهي - الفتاة الطبيعية، كثيراً على إرضاء أبيها. فهي تشعر بأنه المؤشر على الذكر المراوغ المرغوب («مراوغ» جيدة، قالها بولونيوس!). وتشجّع الأمّ الحكيمة (لو كانت أمّك المسكينة على قيد الحياة، لكانت حكيمة) على الصحبة بين الأب وابنته، وتدرك - سامحيني على أسلوبي السخيف - أنّ الفتاة هي مثلها الأعلى في الأمور الرومانسية وفي العلاقة مع الرجال وهذا يتوقف على متانة علاقتها بأبيها. الآن، أي علاقة يقصدها هذا الكتاب المبهج - ويوصي؟ أقتبس مرة أخرى: بالنسبة للصقليين، فإن العلاقات الجنسية بين الأب وابنته تعتبر مقبولة باعتبارها أمراً طبيعياً، ولا ينظر المجتمع إلى الفتاة التي تشارك في هذه العلاقة، باستهجان. إني معجب كثيراً بالصقليين، فهم عداؤون جيدون، موسيقيون ممتازون، وأناس مستقيمون طيبون، يا «لو»، وهم عشاق رائعون أيضاً. لكن دعينا لا نحيد عن الموضوع. فقد قرأنا في الصحف منذ أيام قليلة كلاماً سخيفاً عن مجرم أخلاقي متوسط العمر، أقرّ بالتهمة الموجهة إليه بأنه انتهك «قانون مان» لأنه نقل فتاة في التاسعة من عمرها عبر حدود الولاية لأغراض لا أخلاقية، مهما كانت. عزيزتي دلوريس! إنك لست في التاسعة، بل في الثالثة عشرة تقريباً، ويجب ألا تعتبري نفسك جارية لي أطوف بك في أرجاء الولايات المتحدة، كما أني أشجب «قانون مان» لأنه يتلاعب بالكلمات على نحو مخيف، الانتقام الذي تمارسه آلهة دراسة دلالات الألفاظ ضد المتخلفين المتشددين. فأنا أبوك، وإني أتكلّم الإنكليزية، وأنا أحبّك.

«أخيراً، لنر ماذا يحدث لو اتُّهمتِ، وأنت فتاة قاصر، بأنك أفسدتِ أخلاق رجل بالغ في نزل محترم، ماذا يحدث إذا اشتكيتِ

Twitter: @ketab_n

للشرطة بأنني اختطفتك واغتصبتك؟ لنفترض أنهم صدقوك. فتاة قاصر تسمح لشخص يكبرها بواحد وعشرين سنة أن يتعرّف على جسدها، وتورّط ضحيّتها بارتكاب اغتصاب قاصر، أو لواطة من الدرجة الثانية، حسب العبارة القانونية، فإن العقوبة القصوى لهذا الأمر هي السجن لمدة عشر سنوات. وهكذا، سيُزجّ بي في السجن. حسناً. سيُزجّ بي في السجن. لكن ماذا يمكن أن يحدث لك، يا يتيمتي؟ حسناً، ستكونين أسعد حظاً. ستصبحين تحت وصاية إدارة الرعاية العامة - أرجو ألا أبدو كئيباً بعض الشيء. مربية متجّهمة لطيفة من نوع الآنسة فالين، لكنها أشدّ صلابة، ولن تكون امرأة سكيرة، وستحرمك من استخدام أحمر الشفاه ومن الثياب الجميلة. ولن تتاح لك فرصة للعبث واللعب! لا أعرف إن كنتِ قد سمعت بالقوانين المتعلقة بالأطفال الجانحين، الفاسدين، المهملين، المعالين. وبينما أقبع أنا وراء القضبان، ستُخيّرين أنتِ، يا طفلتي المهملة السعيدة، في أن تقيمي في مساكن مختلفة، تكاد تكون جميعها متشابهة، المدرسة الإصلاحية، أو إصلاحية الأحداث، أو دار احتجاز الأحداث، أو إحدى تلك الدور المثيرة للإعجاب التي توفر الحماية للفتيات، حيث تمضين وقتك في الحياكة، وترتيل الأناشيد، وتتناولين فطائر فاسدة في أيام الأحد. ستذهبين إلى هناك، يا لوليتا - لوليتاي، ولن تستطيع لوليتا أن تستخدم كلمات أكثر بساطة. وإذا كُشف أمرنا، فإنك ستخضعين للتحليل وستودعين في إحدى المؤسسات، يا قطتي، هذا كل شيء. ستقيمين يا عزيزتي لوليتا، ستسكنين (تعالي يا زهرتي السمراء) مع تسع وثلاثين فتاة غبية في مهجع وسخ (لا، اسمحي لي، أرجوك) تحت رعاية مشرفات قبيحات. سيكون هذا هو الحال، هذا هو الاختيار. ألا تظنين أنه من الأفضل لدلوريس هايز، في الظروف الحالية، أن تتشبث بأبيها؟»

بعد أن بثثت كلّ هذه الأفكار فيها، نجحت في بثّ الرعب في

Twitter: @ketab_n

قلب «لو»، التي على الرغم من طفرات يقظتها وفطنتها، لم تكن تتمتع بدرجة الذكاء التي يوحي بها مقياس الذكاء. ومع أنني نجحت في إرساء تلك الخلفية من السرّية المشتركة، والإثم المشترك، فلم أحقق نجاحاً كبيراً في إدخال السرور والمتعة إلى نفسها. وفي صباح كلّ يوم من الأيام التي أمضيناها في جولاتنا طوال السنة، كان يتعين عليّ أن أستحدث شيئاً جديداً، توقعاً جديداً، نقطة خاصة تصبو إليها، في المكان والزمان، كي تظلّ متحمسة ومتلهفة حتى يحين موعد النوم، وإلا فإن تركيبة يومها تتهدل وتنهار. وقد يكون الشيء المنظور أيّ شيء - منارة في فرجينيا، كهف طبيعي في آركانساس تحوّل إلى مقهى، ومجموعة من المسدسات والكمانات في مكان ما في أوكلاهوما، نسخة طبق الأصل من كهف لوردز في لويزيانا، وصور رثّة تعود إلى فترة التنقيب عن الذهب في المتحف المحلي لمنتجع جبال روكي، أيّ شيء آخر - لكن يجب أن يكون هناك، ماثلاً أمام أعيننا، مثل نجمة ثابتة، مع أنه ليس من غير المحتمل أن تتظاهر «لو» بأنها تحتجّ عندما نصل إليها.

وكنت أبذل جهوداً مضنية وأمضي ساعات طويلة وأنا أحاول منحها الانطباع وأشير إلى أماكن معينة على خارطة الولايات المتحدة، بأننا ننوي التوجّه إلى مكان محدد، نحو متعة فائقة. ولم أر في حياتي طرقاً جميلة مثل سلسلة الطرق هذه التي تلمع أمامنا على امتداد الولايات الثمانية والأربعين. وكنا نلتهم هذه الطرق السريعة الطويلة بنهم، وننزلق بصمت جذل على دروبها السوداء البراقة، وكأنها حلبات رقص. ولم تكن «لو» تنظر إلى المشاهد الطبيعية الجميلة، بل كانت تبدي استهجانها عندما ألفت انتباهها إلى بقعة جميلة هنا أو هناك، التي لم أبدأ تذوقها والاستمتاع بها إلا بعد أن رأيت نقاط الجمال المرهفة التي تزيّن هامش رحلتنا المرهقة. وبتناقض الأفكار التصويرية، بدت لي

Twitter: @ketab_n

المناطق الريفية الأميركية الشمالية الواطئة في البداية شيئاً بدأت أتقبله بصدمة اعتراف ممتع، بسبب تلك الثياب الموشّاة برسوم زيتية، المستوردة من أميركا في الماضي، المعلّقة فوق المغاسل في رياض الأطفال في أوروبا الوسطى، التي فتنت طفلة ناعسة، المرسوم عليها مشاهد ريفية خضراء - أشجار باسقة وحظيرة وأبقار وجدول ماء، ورياض بساتين مبهمة مملّة، وربما سياج من الحجارة، أو تلال مخضوضرة. لكن شيئاً فشيئاً، بدأت أشكال تلك المشاهد الريفية تزداد غرابة على العين، كلما ازددت قرباً للتعرف عليها. أما خلف السهول المحروثة، ووراء أسطح البيوت التي تبدو كالألعاب، فسرعان ما كان يغمرها ببطء جمال عديم الجدوى، شمس منخفضة في سديم بلاتيني، ذات مسحة بلون ثمرة دراق مقشّرة تتخلّل الحافة العليا لغيمة ثنائية الأبعاد، رمادية كالحمامة تنصهر في سحابة شهوانية بعيدة. وقد يبدو هناك صف من الأشجار المتباعدة إزاء الأفق، وظهيرات حارة هادئة تنتشر على امتداد حقول واسعة مزروعة بالبرسيم، وغيوم كلود لورين منقوشة من بعيد في سماء لازوردية تتناثر فيها السحب، وقد برز جزؤها الركامي إزاء نشوة الخلفية المحايدة. أو قد تكون لوحة سماء «إل غريكو» المكفهرّة، الحبلى بالمطر، بلون الحبر، ونظرة عابرة لمزارع له رقبة مومياثية، تحيط بها جداول متناوبة من المياه السريعة المائلة إلى اللون الفضي، وحقول الذرة الخضراء القاسية، وينفتح كل ذلك مثل مروحة، في مكان ما في كانساس.

وبين الحين والآخر، وعلى امتداد تلك السهول الشاسعة، كانت أشجار ضخمة تتقدم نحونا لتتجمّع بوعي ذاتي بجانب الطريق، لتوفر قليلاً من الظلّ الإنساني فوق طاولة للتنزه، تتناثر فوقها بقع من الشمس، وأكواب ورقية مسطحة، وأعواد المثلجات المتناثرة فوق الأرض البنية اللون. وكانت «لو» من أشدّ مستخدمي المراحيض في

Twitter: @ketab_n

محطات الطريق، و كانت تفتنها لافتات المراحيض - للذكور، للإناث، جون - جين، جاك - جيل، بل حتى باك- دو. وباستغراق حلم فنان، كنت أحدّق في بريق مضخات محطة البنزين إزاء خضرة أشجار البلوط الرائعة، أو تلّة بعيدة تبدو كالندبة، لكنها جامحة من أراض مزروعة تحاول ابتلاعها.

وفي الليل، كانت تلوح شاحنات طويلة، مرصّعة بأضواء ملوّنة مثل أشجار عيد ميلاد عملاقة مخيفة في الظلام، تهدر إلى جانب سيارتنا الصغيرة. وفي اليوم التالي، تستعيد السماء المأهولة الرقيقة زرقتها وتحل محلّها الحرارة القائظة التي تذيب الرؤوس، وتطلب «لو» شراباً، ويصبح خدّاها غائرين وهي تمتص الشراب بواسطة قصبة، وعندما نعود إلى السيارة، تكون قد أصبحت لاهبة كالفرن، ويلتمع الطريق أمامنا، وتغيّر سيارة بعيدة شكلها الذي يشبه السراب في الوهج السطحي، وتبدو كأنها معلّقة للحظة، مربعة وعالية بالأسلوب القديم، في السديم الحار. وبينما كنا نتجّه غرباً، كانت تظهر برك أطلق عليها رجل المرآب اسم «الفرشاة العاقلة»، ثم تبدو ملامح الروابي المغبشة وكأنها منضدة، ثم المنحدرات الحمراء الملطّخة بأشجار العرعر، التي تعقبها سلسلة جبال، يستحيل لونها شيئاً فشيئاً إلى الأزرق، ثم يتحول اللون الأزرق إلى حلم، وترحب بنا الصحراء بعاصفة تهبّ، وغبار، وشجيرات شوك رمادية، وقصاصات قبيحة من المناديل الورقية تشبه أزهاراً شاحبة بين أشواك القصبات الذابلة المعذّبة بالريح على طول الطريق السريع، تقف في وسطها، أحياناً، أبقار بسيطة، لابثة في مكانها (ذيلها إلى اليسار، رموش بيضاء إلى اليمين) غير مبالية بجميع قواعد المرور البشرية.

وقد اقترح محاميّ أن أقدم وصفاً واضحاً وصريحاً لمسار الرحلة الذي سلكناه، وأظن أنني بلغت الآن نقطة لا يمكنني معها تفادي هذا

Twitter: @ketab_n

العمل الرتيب. وبشكل عام، خلال تلك السنة المجنونة (من آب (أغسطس) ١٩٤٧ إلى آب ١٩٤٨)، بدأنا نسلك طريقنا بسلسلة من الانحناءات والانعطافات في نيو إنغلند، ثمّ انعطفنا جنوباً، ثم شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً؛ وغصنا في أعماق ما يدعى ديكسيلاند (الجنوب الأميركي)، وتحاشينا فلوريدا لأن أسرة فارلو تقيم هناك، فاتجهنا غرباً، وسرنا بشكل متعرّج عبر أحزمة حقول الذرة وأحزمة حقول القطن (أخشى أن يكون هذا الكلام غير واضح، يا كلارينس، لكنني لم أدوّن أيّ ملاحظات، وكان أمامي كتاب سياحي غير مفيد يتألف من ثلاثة مجلدات، أصبح يشكّل تقريباً رمزاً لماضيّ الممزّق المهترئ، لكي أدقّق في صحة هذه الذكريات)؛ واجتزنا سلسلة جبال الروكيز ثم اجتزناها ثانية، وضللنا طريقنا في الصحارى الجنوبية حيث أمضينا فصل الشتاء؛ وبلغنا شواطئ المحيط الهادئ، واتجهنا شمالاً عبر الزغب الليلكي الشاحب للشجيرات المزهرة المنتصبة على امتداد طرق الغابات، حتى كدنا نبلغ الحدود الكندية؛ ومضينا شرقاً، عبر أراض خصبة، وأراض مقفرة، ثم عدنا إلى أراض مزروعة شاسعة، متحاشين، بالرغم من إصرار «لو»، الذهاب إلى مسقط رأسها في مناطق إنتاج الذرة والفحم والخنازير. ثمّ عدنا أخيراً شرقاً، وتلاشينا في بلدة جامعة بيردسلي.

٢

الآن، بعد التمعّن في قراءة ما سيرد أدناه، يجب على القارئ ألاّ يضع نصب عينيه الجولة الشاملة كما بدت أعلاه، فضلاً عن الرحلات الجانبية، والفخاخ السياحية، والدوائر الثانوية، والانحرافات المتقلّبة فحسب، بل عليه أن يدرك أيضاً أن رحلتنا لم تكن رحلة مفعمة بالمتعة

Twitter: @ketab_n

والاسترخاء التام، بل كانت رحلة قاسية، متشابكة، تنمو نمواً غائياً، كان الهدف منها أن تظل رفيقتي في حالة مرح دائمة، تنتقل من قبلة إلى قبلة.

وأثناء تصفّح الدليل السياحي المهترئ، أتذكّر على نحو باهت حديقة المانوليا في إحدى الولايات الجنوبية التي كلّفني الدخول إليها أربعة دولارات، والتي، بحسب الإعلان عنها في الدليل، يجب أن تزورها لثلاثة أسباب: لأن جون غالسورثي (وهو كاتب متوفى) اعتبرها أجمل حديقة في العالم، ولأن دليل بايديكير الصادر في عام ١٩٠٠ قد وضع بجانبها نجمة من حيث الأهمية والترتيب، وأخيراً، لأن... أيها القارئ، يا قارئي، إحزر... لأن الأطفال (استناداً إلى جينكو فإن لوليتاي ليست طفلة) «سيجدون فيها الكثير من المسرات، ويجوبون حالمين هذه الأرض التي تشبه الجنة، يحتسون الجَمَال الذي قد يؤثّر على حياة أحدهم». لكن لوليتا المتجّهمة قالت: «إنها لا تناسبني»، وجلست على مقعد، وأسندت على حضنها الرائع صفحتين من صحيفة الصنداي.

وخلال جولاتنا، زرنا مراراً سلسلة المطاعم الأميركية الممتدة على طول الطريق، بدءاً من مطعم «إيت» الوضيع الذي ارتفعت فوقه يافطة رسم عليها رأس ظبي (وأثر دمعة طويلة سوداء في موق العين الداخلي)، وبطاقات بريدية رسمت عليها عجيزة «مضحكة» من نمط المنتجع الصحي «كورورت»، ومنقذين، ونظارات شمسية، ورؤى وكلاء إعلانات عن مثلجات سماوية، ونصف قطعة من كيك الشوكولا تحت كأس، وذبابات خبيرة تحطّ فوق قطع السكر الدبقة المتناثرة فوق المنضدة الحقيرة، إلى المطعم الغالي الثمن ذي الأضواء الخافتة، الذي تكسو طاولاته مفارش من قماش رديء، ويعمل فيه ندل غير أكفاء (الذين كانوا إما سجناء سابقين أو طلاب جامعة)، وظهر أسمر لممثلة

Twitter: @ketab_n

سينمائية، وحواجب داكنة لرجلها الحالي، وأوركسترا مؤلفة من عازفي أبواق.

وفي أحد الكهوف حيث تلتقي عائلات تأتي من ثلاث ولايات جنوبية شرقية، وحيث رأينا أضخم الصواعد والنوازل في العالم، الذي كان رسم الدخول إليه بحسب العمر: دولار للكبار، وستين سنتاً لليافعين، ومسلّة من الغرانيت إحياء لذكرى «معركة البحيرات الزرقاء». ورأينا في متحف قريب عظاماً قديمة وأوان فخارية هندية، حيث دفعت عشرة سنتات رسماً لدخول لوليتا. مبلغ معقول جداً. ويحاكي البيت الخشبي الحالي البيت الخشبي السابق الذي ولد فيه لينكولن. وهناك صخرة، تعلوها لوحة، إحياء لذكرى الشاعر جويس كليمر، مؤلف كتاب «الأشجار» (وصلنا الآن إلى بوبلار كوف، في نورث كارولينا، الذي يطلق عليه دليلي السياحي اللطيف، المتسامح، بغضب «طريق ضيّقة للغاية، سيئة الصيانة»، مع أنني لا أعير بالاً لما يقوله كيلمير). ومن قارب مستأجر يعمل بمحرّك يشغلّه رجل عجوز روسي أبيض، لكنه لا يزال وسيماً على نحو بغيض، قالوا إنه بارون (كانت راحتا يدي «لو» رطبتين، تلك الحمقاء الصغيرة)، تعرّف في كاليفورنيا على ماكسيموفيتش العجوز وفاليريا الطيبين، وباستطاعتنا أن نميّز «مستوطنة المليونيرات» التي يصعب بلوغها في جزيرة تقع قبالة ساحل جورجيا. وتفحّصنا كذلك: مجموعة من البطاقات البريدية فيها صور فنادق أوروبية في متحف مخصص للهوايات في منتجع في الميسيسيبي، حيث اكتشفت بفخر شديد صورة ملوّنة لفندق «ميرانا» الذي كان أبي يمتلكه، بمظلاته المخطّطة، وعلمه المرفرف فوق أشجار النخيل.

«وماذا يعني ذلك؟» قالت «لو»، وهي ترمق صاحب سيارة فارهة، أسمر، لحق بنا حتى قسم الهوايات. آثار من عصر القطن. غابة في آركانساس، وكان على كتفها الأسمر انتفاخ أرجواني وردي اللون (بفعل

Twitter: @ketab_n

ناموسة)، رحت أعصر سمّها الشفّاف الجميل بين أظافر إبهامي الطويلة، ثم رحت أمتصها حتى تمكنت من رشف دمها الحار. وشارع بوربون (في بلدة تدعى نيو أورلينز) التي قد [لقد أحببت كلمة «قد»] يقيم على أرصفتها أطفال زنوج عروضاً مسلية، الذين سوف [بل أحببت «سوف» أكثر] يرقصون بالنقر بأقدامهم على الأرض لقاء عدة «بنسات» (يالها من متعة)، بينما تعجّ «نواديها الليلية الصغيرة العديدة والحميمة بالزوّار» (داعرة). ومجموعات من عصر الرواد. بيوت تعود إلى ما قبل الحرب الأهلية فيها شرفات تعلوها عرائش حديدية، ودرجات منحوتة يدوياً، من النوع الذي تهبط عليه سيدات السينما اللاتي لوّحت الشمس أكتافهن وهن يركضن على الشاشة الملونة، ويرفعن أطراف تنوراتهن ذات الأهداب، بأيديهن الصغيرة بتلك الطريقة الخاصة، والزنجية المخلصة الواقفة على بئر الدرج في الطابق الأعلى وهي تهزّ رأسها. ومؤسسة مينينجير، للعلاج النفسي. وبقعة جميلة من الطين المتآكل؛ وبراعم اليوكا، النقية جداً، الشمعية جداً، لكن الرديئة بكلّ هذا الذباب الأبيض الذي يتسلقها. الاستقلال، ميزوري، نقطة انطلاق طريق أوريغون القديم؛ وأبيلين، وكانساس، وبيت وايلد بيل في روديو؛ والجبال البعيدة؛ والجبال القريبة. المزيد من الجبال الجميلة المائلة إلى اللون الأزرق البعيدة المنال، أو التي تتحوّل إلى تلّ مأهول إثر تلّ؛ وسلاسل جبلية جنوبية شرقية، عبارة عن ارتفاعات تشبه قمم جبال الألب، وثلوج تغطي صخور عملاقة تتخللها عروق رمادية تثقب القلوب والسماء، قمم متواصلة تظهر فجأة عند كل انعطافة على الطريق السريع؛ أشجار ضخمة، تتداخل بمهارة مع أشجار التنّوب الداكنة، تتخللها في بعض الأماكن بقع شاحبة من أشجار الحور؛ وتشكيلات وردية وليلكية، فرعونية، قضيبية، «كلمات تعود إلى ما قبل التاريخ» (قالت «لو»)، تلال من الحمم السوداء؛ جبال في مطلع الربيع

Twitter: @ketab_n

تشبه صغار الفيلة يكسو الفراء أعمدتها الفقرية؛ جبال نهاية الصيف، جميعها محدودبة، أطرافها المصرية الثقيلة مثنية تحت طيّات من قماش أكلها العث؛ وتلال من الشوفان تتخللها أشجار البلوط الخضراء المستديرة؛ وجبل أخير مائل للحمرة يكسو سفحه بساط كثيف من نبات الفصة.

وشاهدنا أيضاً: بحيرة ليتل أيسبرغ، في مكان ما في كولورادو، وضفاف الثلج، وحقول صغيرة من زهور الألب الصغيرة، والمزيد من الثلوج، حيث حاولت «لو» التي تعتمر قبعة حمراء، التزلج، وكانت تصيح عندما قذفها عدد من الشبان الصغار بكرات الثلج، وكانت تعود وتقذفهم بكرات أخرى انتقاماً. وكانت هناك مجموعات من أشجار الحور المحترقة، ويقع من الزهور الزرقاء. عناصر مختلفة للتنزه. مئات المناظر الطبيعية، آلاف الجداول، وينابيع الصودا، والوديان الملونة. تكساس، سهل ضربه الجفاف. الغرفة البلّورية في أطول كهف في العالم، أطفال دون الثانية عشرة من العمر أحرار، «لو» أسيرة شابة. مجموعة من التماثيل المنحوتة لسيدة محلية، لا يسمح بزيارتها في صباح يوم الإثنين البائس، بسبب الغبار والرياح. كونسبشن بارك، تقع في بلدة على الحدود المكسيكية لم أجرؤ على اجتيازها. وفي أماكن أخرى، كانت هناك مئات من الطيور الطنّانة الرمادية في الغسق، تسبر حناجر الزهور الخافتة. شكسبير، مدينة أشباح في نيو مكسيكو، حيث شُنق الرجل الشرير، الروسي بيل، قبل سبعين سنة. مفرخات السمك. مساكن على المنحدر. مومياء طفل (في زمن فلورينتين بي الهندي). وادي الجحيم العشرون. بوابتنا الخمسون إلى شيء أو آخر، التي يعرضها كتاب الدليل السياحي المهترئ الذي زال غلافه. أشعر بحكة بين فخذيّ. الرجال العجائز الثلاثة دائماً، يعتمرون قبعات، ويضعون حمّالات على سراويلهم، يمضون فترات بعد الظهر في الصيف تحت

Twitter: @ketab_n

الأشجار بجانب النافورة العامة. مشهد أزرق مغبش يمتد وراء درابزين على ممر جبلي، وظهور أفراد أسرة تستمتع بهذا المشهد (مع «لو» في همسة حارة، سعيدة، وحشية، حادّة، متفائلة، يائسة - «انظر إلى أسرة ماكريستال، أرجوك، هيا لنتكلّم معهم، أرجوك» - لنتكلّم معهم، أيها القارئ! -«أرجوك، سأفعل أيّ شيء تريد، أوه، أرجوك...»). رقصات احتفالية هندية، إعلانات تجارية محضة. أ ن ث: شركة نقل الثلاجات الأميركية. أريزونا، مساكن هنود حمر، كتابات مصورة للسكان الأصليين، مسار ديناصورات في وادٍ ضيق في الصحراء، حفر هناك منذ ثلاثين مليون سنة، عندما كنت طفلاً. فتى شاحب، نحيف، طوله ستة أقدام، له تفاحة آدم لا تتوقف عن الصعود والهبوط، «لو» تحدّق وبطنها العارية البرتقالية السمراء، التي قبّلتها بعد خمس دقائق، يا جاك. الشتاء في الصحراء، نبع في سفوح التلال، حبات لوز مزهرة. رينو، بلدة كئيبة في نيفادا، فيها حياة ليل يقال إنها «عامة وناضجة». مصنع نبيذ في كاليفورنيا، وكنيسة مشيّدة في شكل برميل نبيذ. وادي الموت. قلعة سكوتي. أعمال فنية جمعها شخص يدعى روجرز على مدى سنوات. الفيلات القبيحة التي تقيم فيها ممثلات جميلات. آثار أقدام ستيفينسون فوق بركان خامد. مهمة دلوريس: عنوان جيد لكتاب. أكاليل محفورة من الحجر الرملي. رجل مصاب بالصرع مسجّى على الأرض في حديقة غولتش الروسية العامة. زرقاء، بحيرة كرايتر الزرقاء. مفرخة سمك في إيداهو، وإصلاحية رسمية. حديقة سومبر بلوستون وينابيعها الحارة الملوّنة، سخّانات وينابيع مياه حارة صغيرة، أقواس قزح من الطين الفائر مثل شهوتي. قطيع من الظباء في محمية للحياة البريّة. كهفنا المئة، دولار واحد للكبار، وخمسون سنتاً لمن هم في عمر لوليتا. بيت ريفي ضخم شيّدته مركيزة فرنسية في ولاية نورث داكوتا، وقصر كورن بالاس في ساوث داكوتا؛

Twitter: @ketab_n

والرؤوس الضخمة للرؤساء التي حفرت في الغرانيت الشاهق. المرأة ذات اللحية قرأت إعلاننا ولم تعد عزباء الآن. حديقة حيوانات في إنديانا تعيش فيها مجموعة من القردة الكبيرة في بقعة خرسانية مصنوعة على شكل سفينة كريستوفر كولومبوس. بلايين من ذباب أيار الميتة، أو شبه الميتة، على واجهات جميع المطاعم على طول شاطئ رملي كئيب تفوح منه رائحة السمك. نوارس سمينة تجثم فوق أحجار كبيرة كما تبدو من عبّارة مدينة شيبويغان، التي يعلو دخانها الصوفي الأسمر في شكل قوس، ثم يهبط فوق الظلّ الأخضر الذي تلقيه على البحيرة الزمردية. نزل تمر تحت إنبوب مروحته مجاري المدينة. بيت لينكولن، المزيف إلى درجة كبيرة، فيه كتب وقطع أثاث من تلك الفترة التي يقبلها الزوّار بوقار باعتبارها ممتلكات شخصية.

كنا نتشاجر، شجارات كبيرة وصغيرة. أكبرها وقعت: في لايسورك كابينز، فرجينيا؛ وفي بارك أفنيو، وليتل روك، وقرب إحدى المدارس؛ وفي ممر ميلنير، على ارتفاع ١٠,٧٥٩ قدماً في كولورادو؛ وعند ناصية الشارع السابع والجادة المركزية في فينكس بأريزونا؛ وفي الشارع الثالث، في لوس أنجليس، لأن تذاكر دخول أحد الاستوديوهات كانت قد نفدت؛ وفي نزل يدعى «ظل شجرة الحور»: في يوتا، حيث تنتصب ست أشجار لا تكاد أطول شجرة فيها أطول من لوليتاي، عندما سألتني متى نتوقف عن العيش في نزل سيئة، ونفعل أشياء قذرة معاً، ولا نتصرف كما يتصرف الناس العاديون؟ وفي شمال برودواي، بيرنز، أوريغون، وعند ناصية واشنطن ساوث، قبالة سيفواي، محل بقالة. وفي بلدة صغيرة في وادي الشمس في إيداهو، أمام فندق من الآجر، آجر شاحب وأحمر ممزوجين جيداً، وتنتصب قبالته شجرة حور تتلاعب بظلالها المائعة فوق المقبرة المحلية. وفي برية واسعة تقع بين بينيدال وفارسون. وفي مكان ما في نبراسكا، في

Twitter: @ketab_n

الشارع الرئيسي، قرب فيرست ناشيونال بنك، الذي أُسّس في سنة ١٨٨٩، والذي يطلّ على سكة حديد تقطع الشارع، وخلف ذلك الأنابيب البيضاء لصومعة متعددة الأغراض. وفي سانت ماكيوين، ناصية ويتون أفنيو، في بلدة في مشيغان تحمل اسمه الأول.

وشاهدنا تلك الأنواع الغريبة المنتشرة على جانب الطريق، الرجال الذين يطلبون توصيلة، جميع أنواع البشر، الجندي المتواضع، البالغ النظافة والأناقة، ينتظر بهدوء، يدرك بهدوء جاذبية الخاكي؛ تلميذ مدرسة يأمل في أن يبتعد مسافة شارعين. القاتل يأمل في أن يبتعد ألفيْ ميل؛ السيد المسنّ، العصبي، الغامض، الذي يحمل حقيبة جديدة، له شاربان مشذبان؛ وثلاثة مكسيكيين متفائلين؛ وطالب جامعي يعمل في الخارج بافتخار لا يقل عن افتخاره بالجامعة المشهورة التي كتب اسمها بشكل مقوّس على بلوزته؛ السيدة المستميتة التي ماتت بطاريتها عليها؛ والوحوش الصغيرة ذات الوجوه البيضاء، النظيفة، ذات العيون الماكرة، والشعر اللمّاع، بقمصان ومعاطف ترتفع ياقاتها، تدفع بقوة أصابع إبهامها المتوترة لإغراء النساء الوحيدات أو الباعة بنزوة شهوانية.

«لنأخذه معنا»، كانت «لو» تقول غالباً بتوسل، وهي تفرك ركبتيها معاً كما كان دأبها، عندما يرتفع إبهام مقرف، لرجل في عمري، كتفاه بعرض كتفيّ، له وجه بشع مثل ممثل عاطل عن العمل، يمشي إلى الخلف، عملياً في طريق سيارتنا.

يا إلهي، يجب أن أراقب «لو» عن كثب. «لو» الصغيرة الهشة، ربما بسبب السلوك الشهواني المستمر الذي تشعّه، على الرغم من مظهرها الطفولي، وهجاً ناعساً خاصاً، تلقيه على العاملين في المرآب، وعلى العاملين في الفندق، والمصطافين، والحمقى الذين يقودون سيارات فاخرة، والبليدين المستلقين على حواف المسابح الزرقاء، بنوبات من الشهوة الجنسية التي قد تدغدغ كبريائي، إن لم تثر غيرتي

Twitter: @ketab_n

بسخط شديد. ولأن «لو» الصغيرة كانت تدرك ذلك الوهج المنبعث منها، وهي ترمق، بنظرة خبيثة، ذكراً لطيفاً، عاملاً ميكانيكياً، شمّر عن ساعدية الذهبيين الأسمرين، وينظر إلى ساعة يده ذات السلسلة. وما إن أدير ظهري لأذهب وأشتري لـ «لو» مصاصة، حتى أسمعها تنطلق هي والميكانيكي في أغنية حبّ خالصة.

وخلال فترات توقّفنا الطويلة للاستراحة، بعد صباحات عنيفة على السرير، وبدافع من طيبة قلبي الذي يكون قد سكن وهدأ قليلاً، كان همبرت المتساهل يسمح للوليتا بزيارة حديقة الورود، أو مكتبة الأطفال في الشارع المقابل برفقة ماري الصغيرة العادية الجمال وشقيقها البالغ من العمر ثماني سنوات، لكنني كنت أرى «لو» عائدة بعد حوالى ساعة، وأرى ماري تمشي حافية وراءهما على مسافة بعيدة، ويحلّ محلّ الصبي الصغير شابان فتيان، فارعا الطول، قبيحان، لهما شعر ذهبي طويل، تكسوهما العضلات، والسيلان، من طلاب المدرسة الثانوية. وربما يتخيّل القارئ ماذا أجيب قطتي الأليفة عندما تسألني - بشيء من الحيرة، أعترف بذلك - إن كان بإمكانها الذهاب مع كارل وآل للتزلج.

ففي المرة الأولى، تركتها تذهب إلى ساحة التزحلق بعد ظهر يوم عاصف مترب. وأذكر أنها قالت لي بفظاظة إنه من غير المناسب أن أرافقها، لأن تلك الفترة من اليوم مخصصة للمراهقين. ثم توصلنا إلى حل وسط: فقد مكثتُ في السيارة بين سيارات (فارغة) أخرى تتجه أنوفها إلى ساحة التزحلق المكشوفة التي تغطيها ستارة من الخيش، حيث كان يتزلج حوالى خمسين شاباً، العديد منهم أزواج، بشكل دائري لانهائي على أنغام موسيقى آلية، وكانت الريح قد كست الأشجار بلون فضي. وكانت دولي ترتدي بنطلون جينز أزرق وحذاءً عالياً أبيض، شأن معظم الفتيات الأخريات. وظللت أحصي عدد دورات

Twitter: @ketab_n

المتزلجين - وفجأة اختفت عن ناظري. وعندما ظهرت ثانية وهي تتزلج، كانت برفقة ثلاثة شبان أشرار كنت قد سمعتهم يقارنون الفتيات المتزلّجات قبل دخولهم إلى ساحة التزلج - ثم سخروا من فتاة جميلة لها ساقان جميلتان كانت قد وصلت للتو وهي ترتدي شورتاً أحمر لا بنطال جينز أو أي بنطال آخر كما تفعل الفتيات الأخريات عادة.

عند إحدى نقاط التفتيش على الطريق السريع باتجاه أريزونا أو كاليفورنيا، كان أحد أقارب شرطي يحدّجنا بقوة حتى كاد قلبي المسكين أن يهبط من مكانه. وسأل: «هل معكما عسل؟» فانفجرت حلوتي الحمقاء في الضحك. ولا يزال لديّ رؤى تتذبذب على طول أعصابي البصرية، تصوّر «لو» وهي تمتطي صهوة حصان. واحدة في سلسلة من الفرسان في رحلة مخطط لها: «لو» تعلو وتهبط على خطوات الحصان، وفارسة عجوز تمتطي حصاناً في المقدمة وخلفها صاحب مزرعة داعر له رقبة حمراء، وأنا وراءه، أمقت ظهره البدين الذي يكسوه قميص وردي مزهر، أسير بحماسة أقوى من حماسة سائق يقود شاحنة ببطء على طريق جبلي، أو في منتجع التزلج ذاك، وأراها تطفو بعيداً عني، ثم تطير في السماء وحيدة، في مصعد أثيري، إلى الأعلى والأعلى، إلى قمّة تتلألأ حيث وقف عدد من الرياضيين الضاحكين المتعرين حتى الخصر ينتظرونها.

وفي جميع البلدات التي كنا نتوقّف فيها، كنت أسأل، بأسلوبي الأوروبي المهذب، عن مواقع المسابح، والمتاحف، والمدارس المحليّة، وعن عدد الأطفال في أقرب مدرسة وما إلى ذلك؛ وعندما تصل حافلة مدرسة، كنت أركن سيارتي، وأنا ابتسم، أرتعش قليلاً (اكتشفت هذا التشنج اللاإرادي، العصبي لأن «لو» الفظة كانت أول من قلّده)، عند نقطة استراتيجية، وتلميذتي المتشرّدة تجلس بجانبي في السيارة، أراقب الأطفال وهم يغادرون المدرسة - كان مشهداً جميلاً

Twitter: @ketab_n

على الدوام. وسرعان ما بدأ هذا الشيء يُضجر لوليتا التي تضجر عادة بسهولة، والتي تفتقد، كطفلة، إلى أي تعاطف مع نزوات الآخرين، وكانت تشتمني وتشتم رغبتي في أن أجعلها تداعبني عندما تمر فتيات سمراوات ذوات عيون زرقاء، يرتدين شورتات زرقاء، وفتيات بشعر نحاسي يرتدين سترات خضراء فضفاضة، وشقراوات يشبهن الصبية يرتدين بناطيل فاهية اللون يتمشين تحت الشمس.

وكحلّ وسط، كنت أشجعها بحرية، حينما وحيثما كان ممكناً، على الذهاب إلى المسابح برفقة الطفلات الأخريات؛ فقد كانت تعشق المياه البراقة، وكانت تجيد الغوص. وفي أصيل أحد الأيام، عندما كنت جالساً باسترخاء تحت مظلة بعد أن سبحت قليلاً، متدثراً بمئزري، ممسكاً كتاباً وهمياً، أو كيساً من السكاكر أو كليهما، أو لا أمسك شيئاً سوى غددي الناغلة، وأراقبها وهي تثب، تغطي شعرها بقبعة مطاطية، لوّحتها الشمس بنعومة، جذّابة مثل الإعلان، بسروالها الحريري المشدود وحمالة صدرها. حبيبتي المراهقة! ولشدّ ما يلذّ لي بزهو شديد أن أعتبر أنها لي، لي أنا، لي أنا، فأستعيد نشوات الصباح مثل هديل حمام، وأستبق نشوات المساء، وأغمض عينيّ اللتين وخزتهما الشمس، وأقارن لوليتا بالحوريات الأخريات اللاتي كن يتحلّقن حولها في المناسبات الشحيحة، لكي أضمهنّ إلى مجموعة متعتي، وأضع يدي على قلبي المريض، لكن لا أظن أن أياً منهن تفوقها شهوة، وإذا تفوقت إحداهن عليها، فكان ذلك، في معظم الأحيان، ينحصر في أمور محددة، بعطور معينة اختلطت في الهواء - مرّة في الحالة اليائسة لطفلة إسبانية شاحبة، ابنة نبيل له فكّان ثقيلان، ومرّة أخرى - لكنني بدأت أهذي وأحيد عن موضوعنا الرئيسي.

وكان من الطبيعي أن أتوخى الحذر على الدوام، وكنت أدرك غيرتي الشديدة بوضوح شديد، من خطر حفلات الصخب المبهرة

Twitter: @ketab_n

تلك. استدرت للحظة- ومشيت بضع خطوات لأرى إن كانت حجرتنا قد هُيِّئت أخيراً بعد تغيير الملاءات في الصباح - وعندما عدت رأيت «لو» ساهمة، تغمر قدميها ذات الأصابع الطويلة في الماء، تحرّكهما على حافة البلاطة التي تدلي قدميها منها، وقد جثم إلى جانبها، مراهق أسمر، من المؤكد أن جمالها الخمري والزئبقي القابع في طيّات بطنها - آه بوديلير - سيظهر في أحلامه لشهور عديدة قادمة.

وكنت قد حاولت أن أعلّمها التنس لنلعب معاً ونمضي وقتاً ممتعاً، ومع أنني كنت لاعباً جيداً في فترة شبابي، فقد اكتشفت فشلي الذريع كمدرب. لذلك، عندما كنا في كاليفورنيا، أقنعتها بأن يعطيها مدرّب مشهور عدداً من الدروس الباهظة التكاليف. وكان هذا المدرّب لاعباً قديماً ذا صوت أجشّ، تملأ وجهه التجاعيد، وعنده مجموعة من الفتيات اللاتي يجمعن الكرات من الملعب. أما خارج الملعب، فكان يبدو حطاماً رهيباً. ومن أجل الاستمرار في تبادل رمي الكرة خلال الدرس، كان يرميها بين الحين والآخر، بضربة كأنها زهرة ربيعية رائعة، ثم ينقر الكرة لتعود إلى تلميذته. وقد جعلتني تلك الطيبة القدسيّة للسلطة المطلقة أتذكّر أنني رأيته منذ ثلاثين سنة، في إحدى المدن عندما هزم غوبيرت العظيم! وإلى أن بدأت تأخذ تلك الدروس، ظننت أنها لن تتعلّم التنس مطلقاً. وكنت أدرّب «لو» في ملعب في هذا الفندق أو ذاك، محاولاً استحضار ذلك اليوم، عندما هبّت ريح حارة، دوّار من الأتربة، بعد أن اعتراني تعب غريب، عندما كنت أرمي كرة إثر كرة إلى أنابيل المرحة، البريئة، الرائعة، (بريق إسوارة، تنورة بيضاء ذات ثنيات، وشريط شعر أسود من المخمل). وكانت كلّ كلمة من النصائح والإرشادات التي لم أكن أكفّ عن تقديمها للوليتا تثير غضبها. ومن الغريب أنها أصبحت تفضّل - على الأقل قبل أن نصل إلى كاليفورنيا - مطاردة الكرات والتقاطها على اللعب الحقيقي مع فتاة في

Twitter: @ketab_n

عمرها، نحيلة، ضعيفة، رائعة الجمال، ملاك صعبة المراس. وكنت أهرع لمساعدتهما، فأقترب من الطفلة الأخرى، وأعبّ من عبيرها المسكي الخفيف، وألمس ساعدها، وأمسك رسغها ذا النتوءات العقدية. وكنت أدفع فخذها الباردة إلى هنا وهناك لأريها كيف تمسك المضرب جيداً لتتمكن من صدّ الكرة. وفي هذه الأثناء، كانت «لو»، المنحنية إلى الأمام، تدع ضفائرها البنية اللامعة من أشعة الشمس تتدلى إلى الأمام، تتكئ على عصا مضربها التي تبدو أشبه بعصى شخص مقعد، تصيح باشمئزاز احتجاجاً على تدخلي في لعبهما. فأتركهما تلعبان، وأتفرج عليهما، فأقارن جسديهما وهما تتقافزان، وألفّ وشاحاً حريرياً حول عنقي. أظن أن ذلك كان في جنوب أريزونا - حيث كانت الأيام تكتسي بغلالة من الدفء، عندما كانت «لو» تحاول صدّ الكرة المرمية إليها لكنها لم تكن تستطيع صدّها، فتطلق اللعنات، ثم ترسل ضربة ضعيفة فتصيب الشبكة، ويظهر الزغب الخفيف الندي اللامع النابت تحت إبطها عندما تلوّح بمضربها بيأس، أما منافستها التي لم تكن تجيد اللعب، فتندفع وراء كلّ كرة، ولا تتمكن من صدّ أيّ منها، لكنهما كانتا تستمتعان كثيراً باللعب معاً، ولم تكفّا طوال الوقت، وبنبرات رنانة واضحة، عن الإعراب عن أهداف حماقتهما.

وذات يوم، كما أذكر، عرضتُ أن أجلب لهما مشروبات باردة من الفندق، وصعدت إلى الدرب المكسو بالحصى، وعدت حاملاً كأسين طويلتين من عصير الأناناس والصودا والثلج؛ ثم جعلني فراغ مفاجئ في صدري أتوقّف، عندما رأيت ملعب التنس خاوياً. انحنيت لأضع الكأسين على المقعد، ولسبب ما، بنوع من الحيوية المتجمّدة، رأيت وجه شارلوت وهي ميتة، فتطلعت حولي، ورأيت «لو» بشورتها الأبيض تبتعد عبر الظلّ المرقط في درب الحديقة مع رجل طويل يحمل مضربيْ تنس. قفزت وراءهما، وبينما رحت أشقّ طريقي من خلال

Twitter: @ketab_n

الشجيرات، رأيت، رؤية بديلة، وكأن مسار الحياة يتفرّع باستمرار، «لو»، وهي ترتدي بنطالاً، ورفيقها يرتدي شورتاً، يسيران بتثاقل في البقعة المليئة بأعشاب صغيرة، يبعدان الشجيرات بمضربيهما، بحثاً عن كرتهما الأخيرة التي ضاعت بينها.

إني أعرض عليكم هذه الأشياء التافهة بالتفصيل لكي أثبت لقضاتي بأنني بذلت كلّ ما بوسعي لأمنح لوليتاي وقتاً ممتعاً. لشدّ ما كان ممتعاً عندما كنت أراها، وهي تري طفلة أخرى بعض إنجازاتها القليلة، مثل طريقتها الخاصة بالقفز على الحبل. إذ كانت الحورية الأصغر، ذات الجمال الشفّاف، تمسك ذراعها اليسرى بيدها اليمنى من وراء ظهرها الذي لم تسمّره الشمس، وتحدّق بعينيها، كما تحدّق الشمس الطاووسية في الحصى تحت الأشجار التي تبرعمت فيها الأزهار، وفي وسط هذه الجنة التي تراها العين، كانت فتاتي الداعرة التي يكسو وجهها النمش تقفز، تكرّر حركات الكثير من الفتيات الأخريات اللاتي كنت أحدّق فيهن بنهم وهنّ يتقافزن على الأرصفة التي جعلتها الشمس حارة، ندية، رطبة، على أسوار أوروبا القديمة. أما الآن، فها هي تعيد الحبل إلى صديقتها الإسبانية الصغيرة، وتراقب الدرس المتكرّر، وتزيح خصلات شعرها التي تهدلت فوق حاجبها، وتثني ذراعيها، وتطأ على أحد أصابع قدمها بالإصبع الآخر، أو تسقط يديها باسترخاء على ردفيها اللذين لم يتوهّجا بعد، وكنت أشعر بالرضا عندما تنهي الخادمات تنظيف حجرتنا، فألقي ابتسامة سريعة على وصيفة أميرتي الخجولة ذات الشعر الأسود، وأدفع أصابعي الأبوية في أعماق شعر «لو» من الخلف، ثم، أشبكها بلطف، لكن بحزم، حول مؤخرة رقبتها، وأقود قطتي الأليفة الممانعة إلى بيتنا الصغير من أجل وصال سريع قبل موعد العشاء.

«قطة مَنْ خدشتك أيها المسكين؟» سألتني امرأة أنيقة بدينة من

Twitter: @ketab_n

النوع البغيض كانت قد أعجبت بي في النزل، أثناء العشاء الذي أعقبته رقصة كنت قد وعدت «لو» بها. وكان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أحاول الابتعاد عن الناس بقدر ما أستطيع، بينما كانت «لو» تبذل، من الناحية الأخرى، كلّ ما بوسعها لجذب العديد من الشهود المحتملين إلى مدارها.

ومجازاً، كانت تهزّ ذيلها الصغير، بل مؤخرتها كلّها، كما تفعل الجراء - عندما يقترب منها شاب غريب تعلو وجهه ابتسامة عريضة، ويبدأ حديثاً ذكياً عن دراسة مقارنة حول منح رخص للوحات السيارات. «إنكما بعيدان كثيراً عن بلدتكما»، يقول آباء فضوليون، لكي يألّبون «لو» عليّ، ويعرضون عليها مرافقتهم إلى السينما مع أطفالهم. وقد نجونا بإعجوبة عدة مرات. وبالطبع كان الشلال المزعج يلاحقني في كل مكان نتوّقف فيه. لكنني لم أدرك قط مدى رقة جدران الغرف، إلا مساء ذات يوم، بعد أن ضاجعتها وكان صوتي عالياً، وملأ سعال شخص في غرفة مجاورة فترات استراحتنا، كما كان صوت سعالي عالياً. وفي صباح اليوم التالي، عندما كنت أتناول طعام الفطور في مطعم النزل (كانت «لو» تظل نائمة حتى الضحى، وكنت أحبّ أن أجلب لها قِدراً من القهوة الساخنة إلى السرير)، استطاع جاري في ذلك المساء، وهو رجل مسنّ أحمق، يضع نظارات على أنفه المستقيم الطويل، يثبت على ياقة سترته شارة تدل على انتسابه إلى إحدى الأخويات الدينية، أن يفتح حديثاً معي بطريقة ما، وسأل أثناء الحديث، إن كانت زوجتي لا تستيقظ باكراً، كما تفعل زوجته عندما تكون خارج المزرعة، ولو لم يكن الخطر القبيح يكاد يطبق عليّ ويخنقني، لاستمتعت بنظرات الدهشة الغريبة التي ارتسمت على وجهه المهترئ، المتآكل، بشفتيه الرقيقتين، عندما أجبت بجفاف، بعد أن انزلقت من مقعدي، بأنني أحمد الله بأنني أرمل.

Twitter: @ketab_n

كم كان جميلاً أن أجلب لها تلك القهوة، مع أنني كنت أرفض تقديمها لها قبل أن تنهي واجباتها الصباحية. فقد كنت ذلك الصديق الطيب القلب، ذلك الأب العاطفي، طبيب الأطفال الجيد، أرعى جميع رغبات جسد حسنائي السمراء! وكان حقدي الوحيد على الطبيعة يتمثّل في أنني لم أتمكن من كشف حقيقة لوليتاي وتمرير شفتيّ الشرهتين على جسدها الصغير، قلبها المجهول، وعلى كبدها الصدفي، ورئتيها اللتين تشبهان عنب البحر، كليتيها التوأم الجميلتين. وفي الأصائل الإستوائية على نحو خاص، خلال فترات القيلولة الدبقة، كنت أحبّ ملمس جلد الأريكة البارد على عريّ الهائل وهي تجثم فوق حضني. كانت طفلة نموذجية تنكش أنفها وهي منهمكة في تصفح أبواب الصحيفة الخفيفة، لا تبالي بنشوتي وكأنها تجلس على حذاء، دمية، مقبض مضرب تنس، وكانت كسولة إلى حد أنها لم تكن تأتي بأي حركة، بينما كانت عيناها تلاحقان مغامرات شخصيات قصصها المصوّرة الأثيرة لديها: التي كانت إحداها شخصية مرسومة ببراعة لبوبي سوكسر القذرة ذات الوجنتين البارزتين، والقسمات الحادة، وكنت أشاركها في متعتها. وكانت تحدّق في صور السيارات المهشمة نتيجة اصطدامها، ولم تكن تشكّ في حقيقة المكان والزمان والظروف التي تزعم أنها تجاري صور إعلانات لحسناوات يظهرن أفخاذهن العارية. وكانت تفتنها صور العرائس المحليّات، بعضهن في فساتين زفاف كاملة، يحملن باقات زهور، ويضعن نظارات.

وكانت تحطّ ذبابة على بقعة بجانب سرتها وتمشي فوقها، أو تستكشف هالتيْ نهديها الأبيضين الناعمين. وكانت تحاول أن تمسكها بقبضتها (كما كانت تفعل شارلوت) ثم تعود إلى الباب الذي تقرأه «لنستكشف عقلك».

«لنستكشف عقلك. هل ستنخفض معدلات جرائم الجنس إذا

Twitter: @ketab_n

نفذت الطفلات بعض اللاءات؟ لا تلعبي بالقرب من المراحيض العامة. لا تأخذي حلوى من الغرباء ولا تستجبي إذا طلبوا إيصالك بالسيارة. وإذا ركبتِ سيارة أحدهم سجلي رقم لوحتها».

«. . . ونوعية الحلوى»، قلت متطوّعاً.

وتابعت، خدّها (المتقهقر) على خدّي (المهاجم)؛ وكان ذاك يوماً جيداً، انتبه، أيها القارئ!

«إن لم يكن لديكِ قلم رصاص، لكنك في سنّ تستطيعين فيه القراءة -».

«نحن» اقتسبتُ مازحاً، «بحارو القرون الوسطى، قد وضعنا في هذه القنينة -»

وكررت «وإذا لم يكن معك قلم رصاص، لكنكِ في سنّ تستطيعين فيه القراءة والكتابة - هذا ما يقصده الرجل، أليس كذلك، أيها الأحمق - ارسمي الرقم بأظافرك بطريقة ما على قارعة الطريق».

«بمخالبك الصغيرة، يا لوليتا».

٣

كانت قد دخلت عالمي، أرض همبرلاند القرمزية والسوداء، بفضول متهور، تفحصتها بعينيها بلا مبالاة، ويبدا لي الآن أنها أصبحت مستعدة لتخرج منها كما دخلتها بنفور تام. فلم تعد ترتعش للمساتي، وكان كلّ ما أناله منها لقاء الألم الذي يعتصرني ترديدها بحزم: «ماذا تظن أنك تفعل؟» ولقاء اصطحابي لها إلى بلاد العجائب، وإلى أشد الأفلام سخفاً التي كانت تفضّلها، وأُتخمها بالحلوى. وإذا خيّرتها بين هامبرغر وهومبرغر، فلا شك أنها ستختار ببرودة شديدة، الأولى. إذ لا يوجد شيء أقسى من قساوة طفل تحبّه. هل ذكرت اسم المطعم

Twitter: @ketab_n

الذي ارتدناه منذ لحظة؟ لقد كانت «ملكة باردة». تبتسم بشيء من الحزن، وقد أطلقت عليها اسم «أميرتي الباردة». لم تكن تفهم مغزى الدعابة الحزينة.

لا تقطّب حاجبيك في وجهي، أيها القارئ، فأنا لا أسعى لأن أشيع الانطباع بأنني لم أكن سعيداً. بل يجب على القارئ أن يفهم أن المسافر المفتون الذي يكون ملكاً لحورية وعبداً لها، لا يكون سعيداً. لأنه لا توجد على وجه الأرض روعة كروعة مداعبة حورية. روعة لا تفوقها روعة، تنتمي إلى فئة أخرى، واد آخر من الحساسية. وعلى الرغم من المشاحنات التي كانت تنشب بيننا، وبالرغم من وقاحتها، وبالرغم من كلّ الجلبة التي كانت تحدثها، ولوي قسمات وجهها، وسوقيتها، والخطر، واليأس المروّع الذي ينجم عن كلّ ذلك، فقد كنت لا أزال أغوص عميقاً في فردوسي الذي اخترته - فردوس ألوان سمائه بلون الجحيم - لهيب - لكن مع ذلك، فهي لا تزال فردوساً.

لا شكّ أن الطبيب النفساني القدير الذي يدرس حالتي - والذي جعله الآن الدكتور همبرت يعيش، كما أعتقد، في حالة من الافتتان - متلهف لأن أصطحب لوليتا إلى شاطئ البحر لكي أحصل هناك، أخيراً، على «متعة» عمر كامل، وأطلق الهوس «اللاشعوري» لرومانسية طفولة لم تكتمل مع الآنسة الصغيرة الأولى، الآنسة لي.

حسناً، يا رفيقي، دعني أخبرك بأنني عثرت على شاطئ، لكن يجب أن أعترف أيضاً أننا ما إن وصلنا إلى سراب مائه الرمادي، حتى منحتني مرافقتي مسرّات كثيرة، وأصبح البحث عن «مملكة» قريبة من البحر، عن «شاطئ الريفيرا الرائع»، أو عما هو أبعد ما يكون عن دافع اللاوعي، المسعى العقلاني من أجل استنباط نظرية مجردة. كانت الملائكة تعرفها، وقد رتّبت الأمور وفقاً لذلك. وكان الطقس السيء قد أفسد زيارة قمنا بها إلى خليج صغير جميل على المحيط الأطلسي -

Twitter: @ketab_n

سماء رطبة سميكة، موجات موحلة، إحساس سديمي لا حدود له، لكنه حقيقي - أي شيء آخر يمكن إزالته من السحر الهشّ، المناسبة الياقوتية والطوارئ الوردية لرومانسيتي على شاطئ الريفييرا الخاص بي؟ شاطئان من الشواطئ شبه المدارية في الخليج، مع أنها تتلألأ، ونثرتها وحوش سامّة وجعلتها تتلألأ كالنجوم، ثم أزالتها رياح الإعصار. وأخيراً، على أحد شواطئ كاليفورنيا، قبالة خيال المحيط الهادئ، عثرت على مكان سري منحرف بعض الشيء يشبه الكهف، تتردد منه صيحات عدد كبير من فتيات الكشافة وهن يأخذن أول حمّام لهن، في مكان منعزل من الشاطئ، وراء أشجار متعفنة. لكن الضباب كان أشبه ببطانية مبللة، والرمل حُبَيبيّ ورطب، وسرت قشعريرة في جسد «لو»، وللمرة الأولى في حياتي، لم أشعر برغبة شديدة تجاهها. ولعل قرّائي المثقفين يشنّفون آذانهم إذا قلت لهم إننا حتى لو تمكنّا من اكتشاف بقعة ملائمة على شاطئ البحر، فقد فات الأوان، لأن انعتاقي الحقيقي تم قبل ذلك بكثير: أما الآن، في الواقع، عندما بدت لي أنابيل هايز، المعروفة باسم دلوريس، أو لوليتا، وتراءت لي، ذهبية وسمراء، جاثية، تنظر إلى الأعلى، في تلك الشرفة الرديئة، بنوع من الترتيب الساحلي الخيالي، المزيّف، لكن المرضي (مع أنه لم يكن يوجد في الجوار شيء سوى بحيرة من الدرجة الثانية).

لذلك تتأثر الكثير من هذه الأحاسيس الخاصة، إذا لم تطرحها فعلاً، بمبادئ الطب النفسي الحديث. وهكذا، كنت أستدير وأبتعد - أبعد لوليتاي - عن الشواطئ الخاوية عندما يكون الطقس غائماً، أو مزدحمة عندما تكون الشمس لاهبة. لكنني عندما أسترجع شريط ذكرياتي وأنا أرتاد يائساً الحدائق العامة في أوروبا، لأنني كنت مولعاً بالتنزه في الحدائق، والبحث عن ملاعب ملائمة كنت أعاني فيها حرماناً مخجلاً. وكنت هنا فاشلاً أيضاً. إن خيبة الأمل التي أصابتني والتي

Twitter: @ketab_n

يجب أن أسجّلها الآن (بينما أعرض قصتي برقة، ينغل الخطر والفزع في إحساسي بالنعمة والروعة) يجب ألا تنعكس بحكمة على البراري المأساوية الملحمية الغنائية، لكن ليس في براري أركاديا الأميركية(*). كانت هذه البراري جميلة، جميلة للغاية، بنوع من الاستسلام البريء، التي لم تعد مثل القرى السويسرية البراقة التي تشبه الألعاب المتناثرة على سفح الألب. حيث تتعانق أعداد لا تحصى من العشاق فوق الأعشاب المشذّبة على سفوح الجبال القديمة، فوق طحالب الينابيع، بالقرب من غدير مياه صحيّة مفيدة، وعلى المقاعد الريفية تحت أشجار البلوط التي حُفرت عليها الأحرف الأولى من أسماء العشاق، وفي مناطق عديدة في الكثير من غابات أشجار الزان. أما في براري أميركا، فلا يجد العاشق مكاناً في الهواء الطلق يمكنه أن يرتكب فيه أقدم الجرائم والتسالي. إذ تحرق النباتات السامّة ردفيّ عشيقته، وتلسع حشرات لا اسم لها مؤخرته، وتخزّ الأشواك التي تنبت في أرض الغابة ركبتيه، وتخزّ ركبتيها كذلك، ويُسمع حولهما فحيح ثعابين، كما يقال، تنانين شبه منقرضة - بينما تعلق بذور الزهور البرية الشرسة الشبيهة بالسلطعان، في قشرة خضراء قبيحة، بجوربها الأسود ذي الرباط، وجوربه الأبيض المتسخ.

هناك شيء من المبالغة في ما أقوله. ففي ظهر أحد أيام الصيف، وجدت أنا ولوليتا، تحت خط الأشجار، حيث تنتشر أزهار ملوّنة سماوية كثيفة على امتداد ساقية جبلية، بقعة رومانسية نائية، فوق الدرب على ارتفاع مائة قدم في المكان الذي تركنا فيه السيارة. وبدا لنا أن أحداً لم يطأ هذا المنحدر من قبل. ووصلنا لاهثين إلى المكان حيث تنتصب آخر شجرة صنوبر فوق الصخرة. وصفّر لنا حيوان المرموط ثم جرى

(*) أركاديا: مكان وهمي يعيش فيه الناس ببساطة ومتعة - م.

Twitter: @ketab_n

منسحباً. وتحت المفرش الذي مددته على الأرض من أجل «لو»، تكسّرت الأزهار الجافة وانبعث من تحته صوت خشخشة خفيفة.

كانت فينوس تأتي وتذهب. وتراءى لنا الجرف الصخري المسنن فوق المنحدر، والشجيرات المتشابكة التي تحمينا من قيظ الشمس ومن البشر على حدّ سواء. وللأسف، لم أولِ أي اهتمام بالسياج الباهت الممتد بين الشجيرات التي تكوّمت بحذر على مسافة أقدام قليلة منّا.

في تلك المرة، كاد ينكشف أمرنا أكثر من أي وقت مضى، ولا عجب في أن هذه التجربة قد أخمدت توقي لممارسة الغرام في الريف إلى الأبد.

وأذكر أن العملية كانت قد انتهت، انتهت تماماً، وراحت «لو» تبكي بين ذراعيّ، ودهمتها عاصفة من البكاء بعد إحدى تلك النوبات المزاجية التي بدأت تدهمها مرات عديدة في تلك السنة. ولولا تلك النوبات لكانت في غاية الروعة! فقد تراجعتُ عن وعد سخيف كانت قد انتزعته مني في لحظة عاطفية جياشة، فأخذت تتقلب على الأرض محتجة وأجهشت في البكاء، ولم تتوقف عن قرص يدي التي كانت تداعبها منذ قليل. أضحك سعيداً، وعرفت أن الذعر الفظيع، الذي لا يطاق، ولا يصدق، الأبدي، لم يعد الآنِ سوى نقطة سوداء في سماء نعمتي الزرقاء. فبعد أن تمددنا، بعد انقضاء واحدة من تلك الرعشات القوية، كاد قلبي المسكين أن يهبط من مكانه، عندما التقت عيناي بأعين سوداء، ثابتة، لا ترفّ، لطفلين غريبين وجميلين، حورية وطفل داعر، يدّل شعرهما الأسود المسترسل، وخدّاهما الشاحبان على أنهما شقيقان، إن لم يكونا توأمين. فقد كانا يجلسان القرفصاء ممتزجين بأزهار الجبل يراقباننا فاغريْ الفم، وكانا يرتديان لباساً رياضياً. فسحبت الغطاء للاختباء باستماتة - وفي اللحظة نفسها، كان هناك شيء يبدو مثل كرة دفع منقّطة بين الشجيرات على مسافة بضع

Twitter: @ketab_n

خطوات عنا، بدأت تستحيل شيئاً فشيئاً إلى هيئة منتصبة لسيدة بدينة شعرها أسود لمّاع، كانت تضيف الزنبق البري إلى باقتها، وهي تحدّق بنا من وراء كتفها من خلف أطفالها الرائعين المسمّرين فوق الأحجار الزرقاء.

ولمّا كنت أشعر الآن بثقل مختلف تماماً على ضميري، فقد عرفت أنني كنت رجلاً شجاعاً، لكنني لم أدرك ذلك آنذاك، وأتذكر أنني فوجئت بالبرودة التي اعترتني. وبأمر يعطيه المرء بهدوء لحيوان ساهم مُدرَّب ذليل، ينضح عرقاً حتى في أسوأ محنة (ما هو الأمل أو الحقد المجنون الذي يجعل خاصرتيْ وحش صغير تنبضان، ما هي النجوم السوداء التي تثقب قلب المروّض)، نهضت «لو»، ومشينا بتهذيب، ثم غذذنا الخطى عائدين إلى السيارة. وكانت تقف وراء سيارتنا شاحنة صغيرة أنيقة، ورجل آشوري وسيم، له لحية قصيرة شديدة السواد، يرتدي قميصاً حريرياً وبنطالاً أحمر، لعله كان خبير نباتات، يلتقط صورة كتب عليها ارتفاع الممر الذي كان يزيد على عشرة آلاف قدم. كنت ألهث عندما ركبنا السيارة وانطلقنا، وكانت «لو» لا تزال تتخبط وهي ترتدي ثيابها وتشتمني بأقذع الكلمات التي لم أكن أحلم أن فتاة صغيرة يمكن أن تعرفها، ناهيك عن أن تستخدمها.

ووقعت حوادث مزعجة أخرى، منها مثلاً، ما جرى في السينما. ففي ذلك الوقت، كانت «لو» لا تزال مولعة بارتياد السينما (لكن رغبتها خبت قليلاً عندما أصبحت في السنة الثانية في المدرسة الثانوية). فقد شاهدنا في تلك السنة، بشكل شهواني وعشوائي، آه، لا أعرف، مائة وخمسين فيلماً أو مئتي فيلم، وخلال فترات ارتيادنا لدور السينما، كنا نشاهد نشرات الأخبار أكثر من ست مرات، لأن نشرة الأخبار الأسبوعية كانت تعرض قبل عرض الأفلام الرئيسية المختلفة، وكانت تلاحقنا من بلدة إلى بلدة. وكانت «لو» تفضّل مشاهدة الأفلام وفق

Twitter: @ketab_n

الترتيب التالي: الأفلام الموسيقية، ثم أفلام العصابات والجريمة، وتليها أفلام الكاوبوي.

ففي الفئة الأولى، كان مغنون وراقصون حقيقيون يمثّلون شخصيات غير واقعية تعيش في عالم لا يعرف الحزن ولا يعرف الموت، وتنتهي عادة بأن يصفّق الأب لابنته المهووسة بالرقص، الذي كان يرفض رفضاً قاطعاً أن ترقص، بشعره الأبيض، وعينيه الدامعتين، ويظل خالداً من الناحية الفنية، للنجاح الذي حققته ابنته في العرض الرائع الذي قدمته على أحد مسارح برودواي. أما عالم الجريمة فكان عالماً مفصّلاً: إذ يُعذّب فيه الصحفيون الأبطال، وتبلغ فواتير الهاتف فيه البلايين، في أجواء عنيفة من المجرمين والأوغاد الذين يطاردهم رجال شرطة لا يهابون شيئاً عبر أنفاق المجاري والمخازن. وأخيراً المشهد الطبيعي الرائع: فرسان ذوو وجوه متورّدة، وعيون زرقاء، ومعلّمة مدرسة جميلة تصل إلى غولتش الصاخبة، وحصان يشبّ على قائمتيه الخلفيتين، والاندفاع الهلع، والمسدس الذي ينطلق من وراء لوح الزجاج المرتعش، والمعركة الهائلة التي تستخدم فيها القبضات، التي يتحطم فيها جبل من قطع الأثاث القديمة المتربة، حيث تستخدم الطاولة كسلاح، والقفزات، واليد المثبتة التي لا تزال تمتد باحثة عن السكين التي سقطت منها، وصوت النخير، واللكمة الجميلة على الذقن، والركلة في البطن، والأشياء الطائرة. وبعد هذا القدر من الألم الذي يمكن أن يُدخل هرقل إلى المستشفى (أصبحت خبيراً بهذه الأمور الآن)، فلا يظهر شيء سوى كدمة على خد البطل البرونزي المتهيج الذي يعانق عروسته الرائعة. وأذكر أحد العروض الصباحية في صالة صغيرة خانقة، تخلو من الهواء، حُشر فيها عدد كبير من الأطفال، تغمرها الأنفاس وتملؤها رائحة البوشار الحار. وكان ضوء القمر الأصفر يغمر مغنياً لفّ حول رقبته منديلاً، ووضع إصبعه على آلته

Twitter: @ketab_n

الوترية، وأسند قدمه فوق جذع شجرة صنوبر، وكنت أرخي ذراعي ببراءة فوق كتف «لو»، مقرّباً خدي من وجنتها، عندما بدأت امرأتان عجوزان خلفنا تهمسان كلمات شديدة الغرابة - لا أعرف إن كنت قد فهمتها جيداً، لكن ما خيّل إليّ أنني فهمته، جعلني أسحب يدي الرقيقة، وبالطبع فقد استحال ما تبقى من الفيلم إلى ضباب كثيف بالنسبة لي.

هزة قوية أخرى أتذكّرها ترتبط ببلدة صغيرة كنا نعبرها أثناء الليل، خلال رحلة عودتنا. وقبل حوالي عشرين ميلاً، أخبرتها أن المدرسة النهارية التي ستداوم فيها في بيردسلي هي مدرسة غير مختلطة، من الدرجة الأولى، لا تدرّس أشياء تافهة حديثة، عندها ألقت عليّ «لو» إحدى خطبها العنيفة التي نُسج فيها التوسل والإهانة والثقة بالنفس والكلام المخادع، وسوقيّة شريرة ويأس طفولي، بمظهر بائس يشبه المنطق الذي تطلب تفسيراً مني. ومن بين سيل الكلمات الوحشية التي كالتها لي (فرصة رائعة... سأكون حمقاء إن أخذت برأيك بجدية. . . الكريه. . . سأكون غبية إن سمعت نصيحتك... . إني أحتقرك... وما إلى ذلك)، رحت أقود السيارة عبر البلدة النائمة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة على الطريق السريع الناعم، عندما وجّه شرطيان في دورية مصباحيهما اليدويين على السيارة، وطلبا مني التوقف. وطلبت من «لو» المستثارة كعادتها أن تصمت. وحدّق الرجلان فينا بفضول خبيث. وفجأة أشّعت ابتسامتها الجميلة في وجهيهما، وبرزت غمازتاها على وجنتيها، بطريقة لم تفعلها معي قط كرمى لذكورتي اللاهبة، لأن «لو» كانت تخاف من القانون أكثر مني - وعندما عفا عنا الشرطيان اللطيفان، تابعنا طريقنا على نحو ذليل، وأطبقت جفنيها، ورمشتهما مقلدة وضع سجود.

وهنا أريد أن أقدم اعترافاً غريباً. أعرف أنكم ستضحكون - لكنني

Twitter: @ketab_n

حقاً وصدقاً لم أتمكن من معرفة الوضع القانوني بدقة. فأنا لا أعرفه بعد. آه، لقد تعلّمت بضعة أشياء مختلفة. إذ تمنع ولاية ألاباما الوصي أو ولي الأمر من أن يغيّر مكان إقامته من دون أمر من المحكمة؛ أما قانون ولاية مينيسوتا، اللذي أرفع قبعتي احتراماً له، فهو ينص على أنه عندما يتولى أحد الأقارب رعاية طفل دون الرابعة عشرة من العمر بصورة دائمة، فلا تكون للمحكمة أي سلطة في ذلك. سؤال: هل يعتبر زوج أمّ فتاة صغيرة، زوج أمّ لم يمض عليه سوى شهر واحد، أرمل عصابي في سنوات عمره الناضجة، يملك سبل عيش متواضعة، لكنها مستقلة، كان قد تربى وعاش في أوروبا، مطلق، وكان قد مكث منذ فترة قريبة في مصحات عديدة للأمراض العقلية، وإذا كان كذلك فهو ولي أمر طبيعي؟ وإذا لم يكن كذلك، فهل يجب عليّ، وهل يمكنني أن أجرؤ على إبلاغ مجلس الرعاية الاجتماعية وتقديم التماس (كيف تقدّم التماساً؟) وأدع وكيل محكمة أن يحقق معي، أنا الشخص الوديع، المريب، ودلوريس هايز الخطيرة؟ ولم تخبرني الكتب الكثيرة التي اطلعت عليها التي تتعلق بالزواج والاغتصاب والتبني وما إلى ذلك، بشعور بالذنب في المكتبات العامة في المدن الكبيرة والبلدات الصغيرة، شيئاً يتجاوز التلميح المظلم إلى أن الولاية هي الوصي الرئيسي على الأطفال القاصرين. فقد تجاهل بيلفين وزابيل، إن كنت أذكر اسميهما بصورة صحيحة، في مجلد رائع عن الجانب القانوني للزواج، تجاهلاً تاماً أزواج الأمهات المسؤولين عن فتيات لا توجد لديهن أمّهات كنّ يحبين على أيديهن وركبهن. وكانت أفضل دراسة عن الخدمة الاجتماعية (شيكاغو، ١٩٣٦)، قد استخرجتها لي عانس مسنّة بريئة بمشقة شديدة من مستودع يكسوه الغبار، تقول: «لا يوجد مبدأ يقول إنه يجب أنه يكون لكلّ قاصر ولي أمر؛ وتكون المحكمة سلبية ولا تتدخل في الأمر إلا عندما تصبح حالة الطفل خطيرة جداً».

Twitter: @ketab_n

وخلصت إلى أنه لا يتم تعيين ولي الأمر، إلا عندما يبدي رغبته الجدّية والرسمية؛ لكن قد تمضي أشهر قبل أن يُبلَّغ بالمثول أمام المحكمة، وينبت له جناحان رماديان، وفي هذه الأثناء، تُترك الطفلة الشيطانة الجميلة لشأنها من الناحية القانونية، وتنطبق هذه الحالة على حالة دلوريس هايز. ثمّ تعقد المحكمة. ويسأل القاضي بضعة أسئلة، ويجيب المحامي بضعة أجوبة مطمئنة، ثم يتبع ذلك ابتسامة، وهزة رأس، ثم يُحدد الموعد. لكنني لا أزال لا أملك الجرأة. ابتعد، كن فأراً، تكوّم في جحرك. ولا يزداد نشاط المحاكم إلا عندما يتعلق الأمر بالأمور النقدية: ولي أمر جشع، يتيمة مسروقة، وطرف ثالث لا يزال جشعاً. أما هنا فكلّ شيء مرتّب على نحو مثالي، إذ لا يمكن لأحد أن يتصرف بأملاك أمّها القليلة حتى تكبر دلوريس هايز، ويبدو أن أفضل سياسة تكمن في عدم التقدم بأي طلب، أو أن يتدخل فضولي ما، أو جميعة إنسانية، إذا ما لذت بالصمت المطبق؟

كان الصديق فارلو، المحامي البارز، الذي كان ينبغي أن يقدم لي بعض النصائح الجيدة، مشغولاً بإصابة زوجته جين بالسرطان، ولم يتمكن من تنفيذ أيّ شيء أكثر مما وعد به - أي رعاية عقار شارلوت الضئيل حتى أتعافى شيئاً فشيئاً من صدمة وفاتها. فلكي أجعله يصدق أن دلوريس طفلتي الطبيعية، أقنعته بألاّ يشغل نفسه بهذه المسألة. ومع أنني، كما يمكن أن يكون القارئ قد عرف الآن، رجل أعمال فقير، لكن يجب ألا يمنعني الجهل أو الكسل من السعي للحصول على النصيحة المهنية في مكان آخر. لكن الشيء الذي حال دون قيامي بذلك، الشعور السيء بأنني إذا تدخّلت في شؤون القدر بأي طريقة، وحاولت أن أعقلن هديته الرائعة، فإن تلك الهدية ستُختطف مني مثل ذلك القصر الذي ينتصب فوق قمّة الجبل في الحكاية الشرقية، الذي يختفي عندما يسأل مالك جديد القيّم على القصر كيف يكون شريط

Twitter: @ketab_n

سماء الغروب واضحاً من بعيد بين الصخرة السوداء والصخرة الأمّ.

قرّرت أن أقرأ في بيردسلي (موقع كليّة بيرسلي للنساء) مراجع لم يتح لي الوقت لدراستها، مثل مقالة ويرنير «عن قانون الوصاية الأميركي»، وبعض منشورات مكتب الأطفال الأميركيين. وقرّرت أيضاً أن أيّ شيء لا بد أن يكون أفضل للوليتا من حالة الفراغ والكسل المحبطة لمعنوياتها التي تعيشها. كان بإمكاني إقناعها أن تفعل أشياء كثيرة - قد تُذهل قائمتها أي مربٍ محترف، لكن مهما بلغ توسلي لها أو غضبي منها، لم أتمكن قط من إقناعها بقراءة أيّ كتاب غير الكتب التي يطلق عليها «الكتب أو القصص المصورة بالرسوم» في المجلات المخصصة للإناث الأميركيات. أو أيّ كتاب أدبي آخر، حتى لو ارتقى في أسلوبه على أسلوب كتبها المدرسية، بالرغم من أنها تستمتع نظرياً بقراءة «فتاة ليمبيرلوست» أو «ألف ليلة وليلة»، أو «نساء صغيرات»، فقد كانت واثقة من أن قراءة أشياء رفيعة الثقافة، تسلبها متعة «عطلتها».

يخيّل إليّ الآن أن انتقالي شرقاً مرة أخرى لتسجيلها في المدرسة الخاصّة في بيردسلي كان خطأً كبيراً، بدلاً من اجتياز الحدود المكسيكية لنعيش في الخفاء لمدة سنتين بنعمة شبه استوائية حتى أتمكن من الزواج من حبيبتي كريبول الصغيرة بأمان. ويجب أن أعترف أنه وفق الظروف التي كانت تعترضني، كنت أنتقل في اليوم نفسه من قطب الجنون إلى القطب الآخر - في حوالى عام ١٩٥٠ يجب أن أتخلّص من مراهقة صعبة المراس تبخّر سحرها الحوري - إلى الفكرة بأنها، بالصبر والحظّ، قد تنجب أخيراً حورية يسري دمي في عروقها الرائعة، لوليتا الثانية، التي ستبلغ الثامنة أو التاسعة من العمر في سنة ١٩٦٠، وأنا لا أزال في عنفواني. بالفعل، كان تلسكوب عقلي، أو اللاعقلي قوياً بما يكفي لتمييز، في الزمن السحيق، عجوزاً لا يزال أخضر العود - أم كان أخضر متعفناً؟ - الدكتور همبرت الغريب، الرقيق، الذي

Twitter: @ketab_n

يسيل لعابه، وهو يمارس على لوليتا الرائعة الجمال، لوليتا الثالثة، فنّ كينونته.

في أيام رحلتنا البرّية تلك، لم أشكّ قط في أنني، بصفتي والد لوليتا الأول، كنت فاشلاً على نحو سخيف. فقد بذلت كل ما بوسعي. إذ قرأت وأعدت قراءة كتاب يحمل عنواناً توراتياً غير مقصود «اعرف ابنتك»، كنت قد اشتريته من المكتبة التي اشتريت منها للوليتا، بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر، مجلداً فاخراً للكاتب أندرسن مليئاً برسوم جميلة عنوانه «حورية البحر الصغيرة». لكن حتى في أفضل لحظاتنا، عندما كنا نجلس في يوم ماطر نقرأ (نظرات «لو» تقفز من النافذة إلى ساعة يدها، ثم تعود لتنظر من النافذة)، أو نتناول وجبة طعام لذيذة هادئة في مطعم مزدحم، أو نلعب لعبة ورق طفولية، أو نذهب إلى السوق، أو نحدّق صامتين، مع سائقي السيارات الآخرين وأطفالهم، بسيارة محطمة ملطّخة بالدم، وحذاء فتاة صغيرة في الخندق («لو»، ونحن نشقّ طريقنا: «كان ذلك نوع الخفّ الذي حاولت أن أصفه لذلك الأحمق في المخزن»)؛ وكنت أبدو لنفسي في جميع تلك المناسبات العشوائية، أباً لا يطاق، كما كانت تبدو ابنة لا تحتمل. لعلي كنت أداة متنقلة مذنبة بإفساد قوتنا في التمثيل؟ هل يمكن أن يطرأ تحسن على مكان إقامة ثابت ويوم مدرسي روتيني؟

لم أختر بلدة بيردسلي لأن فيها مدرسة جيدة للفتيات فقط، بل لأن فيها أيضاً كليّة للنساء. وبسبب رغبتي في الاستقرار، ولكي أربط نفسي، بطريقة ما، بسطح مبرقع تمتزج فيه خطوطي، تذكّرت رجلاً أعرفه في قسم اللغة الفرنسية في جامعة بيردسلي. وكان من الطيبة بمكان أنه كان يدرّس كتابي الدراسي في فصوله، وحاول إقناعي ذات مرة أن آتي وألقي محاضرة. لكن لم تكن لديّ نية في عمل ذلك، لأنه توجد، كما أوضحت في هذه الاعترافات، أجسام قليلة أكرهها أكثر مما

Twitter: @ketab_n

أكره الحوض المنخفض الثقيل، والربلات الغليظة، والبشرة البائسة، لتلميذة متوسطة الجمال (ربما كنت أرى فيها تابوت لحم أنثى خشن تُدفن فيه حورياتي وهن على قيد الحياة)؛ لكنني كنت أتوق إلى ملصق، وخلفية صورة، وصورة زائفة، وكما سيتضح الآن، كان هناك سبب، سبب أحمق بالأحرى، يجعل شركة غاستون غودن القديمة، آمنة تماماً.

وأخيراً، انبثقت مسألة النقود. فقد كانت النقود التي أملكها تقلّ كثيراً بسبب رحلتنا الممتعة. لكن بالرغم من أننا كنا نرتاد النزل الرخيصة، فإننا كنا، بين الحين والآخر، نرتاد فندقاً فخماً، أو نذهب إلى مزرعة رجل مدّع، فتتشوه ميزانيتنا، ويتهاوى المبلغ الذي بحوزتي، الذي كنا ننفقه في الرحلات لمشاهدة معالم المدينة وشراء ثياب «لو»، وسيارة هايز القديمة التي لم تكن تتوقف عن السير والتي كانت بحاجة إلى إصلاحات رئيسية وثانوية. وفي إحدى خرائطنا التي بقيت بالصدفة بين الأوراق التي تفضّلت السلطات بالسماح لي باستخدامها لكتابة إفادتي، وجدت بعض الملاحظات التي ساعدتني على حساب ما يلي: خلال فترة الإسراف بإفراط من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٧ إلى شهر آب ١٩٤٨، بلغت تكلفة السكن والطعام حوالى ٥٥٠٠ دولار؛ وكلفة البنزين والزيت والتصليحات، ١٢٣٤ دولاراً، وأشياء إضافية مختلفة بنفس المبلغ. فخلال المائة والخمسين يوماً من التنقل الفعلي (قطعنا حوالى ٢٧٠٠٠ ميل) بالإضافة إلى حوالى ٢٠٠ يوم من التوقّف في محطات عديدة، أنفق هذا الرجل المتواضع حوالى ٨٠٠٠ دولار، أو لنقل ١٠٠٠٠ دولار، لأنني، لمّا كنت شخصاً غير عملي، لا بد أنني نسيت تسجيل أشياء أخرى عديدة.

وهكذا انطلقنا شرقاً، وكنت أشعر أن إرضاء شهوتي قد حطّمني أكثر مما أنعشني، وكانت هي مفعمة بالصحة، ولا يزال خصرها نحيلاً

Twitter: @ketab_n

مثل فتاة صغيرة، مع أنها أضافت بوصتين إلى طولها وثمانية باوندات إلى وزنها. وزرنا جميع الأماكن، لكننا لم نر شيئاً مهماً حقاً. وأجد نفسي أفكّر بأن رحلتنا الطويلة لم تفعل شيئاً سوى أنها دنّست البلد الضخم ذي التعرجات والانعطافات الموحلة الحالمة الواثقة الرائعة، التي لم تكن آنذاك، عند التفكير بما حدث، بالنسبة لنا سوى مجموعة من الخرائط التي تآكلت حوافها، والكتيبات السياحية المهترئة، والعجلات القديمة، وبكاؤها في الليل - كلّ ليلة، كلّ ليلة - عندما كنت أتظاهر بأنني نائم.

٤

عندما وصلنا إلى شارع ١٤ ثاير ستريت، المزدان بالأضواء والظلال، استقبلنا فتى صغير متجهم، وأعطانا المفاتيح ورسالة من غاستون الذي أجرّنا المنزل. ودون أن تلقي «لو» نظرة على المكان الجديد الذي ستقيم فيه، هرعت وفتحت المذياع الذي قادتها غريزتها إليه واستلقت على الأريكة في غرفة الجلوس حيث تكدست مجموعة من المجلات القديمة، وانكبّت على قراءتها بإسلوبها الدقيق الأعمى المعتاد، وأضاءت المصباح على المنضدة الصغيرة.

لم أكن أبالي حقاً بالمكان الذي أقيم فيه شريطة أن أتمكن من حبس حبيبتي لوليتا فيه. لكنني أظن أنه من خلال مراسلاتي مع غاستون الغامض، تراءت لي صورة غامضة عن بيت مشيد من الآجر يكسوه اللبلاب. وفي الحقيقة، كان هذا البيت يشبه على نحو محزن منزل هايز (يبعد عنه ٤٠٠ ميل فقط): فقد كان مصنوعاً من إطار خشبي رمادي باهت، وله سقف خشبي، ومظلات خضراء باهتة، ومع أن الغرف كانت أصغر حجماً ومؤثثة بفخامة، فقد كانت مرتبة بنفس الطريقة

Twitter: @ketab_n

تقريباً. وكانت غرفة مكتبي أكبر بكثير، يغطي جدرانها من الأرض إلى السقف حوالى ألفَي كتاب في الكيمياء، لأن صاحب البيت (الذي كان في إجازة دراسية الآن) يدرّس في كليّة بيردسلي.

كنت آمل أن تعدّ مدرسة بيردسلي للبنات، وهي مدرسة نهارية أقساطها مرتفعة، وتقدّم للتلميذات وجبة غداء، وفيها قاعة رياضية رائعة، تلك الأجساد الصغيرة جميعها، وتثقف عقولهن بشيء من التعليم الرسمي. وكان غاستون غودين، الذي كان محقاً في حكمته حول الوضع الأخلاقي الأميركي، قد حذّرني من أن هذه المدرسة هي واحدة من تلك المدارس التي تتعلم فيها الفتيات، كما قال بحبّ أجنبي لهذه الأشياء: «الكنهنّ يتخرجنّ منها وليس بمقدورهن تهجئة الكلمات جيداً، بل تتطور لديهن حاسة الشمّ بشكل جيد».

وفي أول لقاء لي مع المديرة برات، امتدحت «عينيّ طفلتي الزرقاوين الجميلتين» (زرقاوان! لوليتا!) وامتدحت صداقتي مع «ذلك العبقري الفرنسي» (عبقري! غاستون!) - ثم، بعد أن وضعت دولي في رعاية الآنسة كورمورانت، قطّبت حاجبيها بنوع من التواصل الذاتي وقالت: «لا يهمنا كثيراً يا سيد همبيرد، أن تصبح تلميذاتنا ديدان كتب، أو أن يتمكّن من سرد جميع عواصم أوروبا التي لا يعرفها أحد على أي حال، أو أن يحفظن عن ظهر قلب تواريخ المعارك التي عفا عليها الزمن. بل إن كلّ ما يهمنا هو تدريب فتياتنا على أصول الحياة الاجتماعية؛ لذلك نشدّد على أربعة مبادئ هي: فن التمثيل وفن الرقص وفن المناقشة وفن التواعد. لكن تواجهنا بعض الحقائق، إذ إن ابنتك البهيجة دولي على وشك الولوج في فئة عمرية تهتم بالتواعد، وبالملابس التي ينبغي أن ترتديها في هذه اللقاءات، والكتب، وفن الإتكيت التي هي هامة بالنسبة لها بأهمية الأعمال والارتباطات والنجاحات التي تحققها أنت في عملك، أو على الأقل بنفس الدرجة

Twitter: @ketab_n

من الأهمية [تبتسم] وهذا الأمر يعني بالنسبة لي سعادة فتياتي. وبدأت دوروثي همبيرد تتحدث عن نظام كامل من الحياة الاجتماعية التي تشمل، شئنا أم أبينا، أكشاك بيع النقانق، والصيدليات عند ناصية الشارع، وأنواع المشروبات الخفيفة، والأفلام، والرقصات الجماعية، والحفلات الراقصة على الشواطئ، بل حتى حفلات تصفيف الشعر! بالطبع، نحن المشرفين على مدرسة بيردسلي لا نوافق على بعض هذه النشاطات، ونوجّههن إلى نشاطات أكثر فائدة. لكنّنا نحاول أن ندير ظهورنا للضباب، ونواجه الشمس المشرقة مباشرة. باختصار، عندما نعتمد بعض أساليب التعليم، فإننا نبدي اهتماماً بالتواصل أكثر من الاهتمام بدروس الإنشاء. ومع كلّ الاحترام الواجب لشكسبير وآخرين، فإننا نريد أن تتمكن فتياتنا من التواصل بحرية وانفتاح مع العالم الذي يعشنه بدلاً من دفن رؤوسهن في الكتب القديمة المتعفّنة. ربما كنا لا نزال نتلمّس طريقنا، لكننا نتلمّسه بذكاء، كما يفعل الطبيب النسائي عندما يتحسّس ورماً. وأننا نؤمن، دكتور همبيرغ، بالأشياء العضوية والتنظيمية. فقد تخلّصنا من المواضيع الجماعية أو المواضيع عديمة الجدوى التي تقدم عادة للفتيات الشابات، والتي لم تكن تتيح لهن، في الماضي، الإطلاع على المعارف والمهارات والمواقف التي يحتجن إليها في إدارة حياتهن - وكما يمكن للمتهكمين أن يضيفوا - حياة أزواجهن. سيد همبيرسون، سأحدثك بصراحة: إن معرفة موقع نجم في السماء أمر مهم، لكن قد يكون مكان الثلاجة في المطبخ أهم بكثير بالنسبة لربّة البيت الناشئة. إنك تقول إن كلّ ما تتوقّع أن تحصل عليه الطفلة من المدرسة هو التعليم الجيد. لكن ماذا نقصد بالتعليم؟ في الماضي، كان يعني بشكل رئيسي ظاهرة شفوية. أعني أنه بوسعك أن تجعل طفلاً يحفظ موسوعة عن ظهر قلب، وبإمكانه أن يعرف أكثر مما يمكن أن تقدمه له المدرسة. دكتور همبير، هل تدرك أن تواريخ

Twitter: @ketab_n

الأحداث التي جرت في القرون الوسطى بالنسبة لطفل معاصر قبل بلوغه سن المراهقة، أقل أهمية بكثير من الأنشطة التي يقوم بها في عطلة نهاية الأسبوع [تبرق عيناها]؟ ودعني أكرر تورية سمعتها من المحلّلة النفسانية في معهد بيردسلي قبل عدة أيام. إننا لا نعيش في عالم الأفكار فقط، بل نعيش في عالم الأشياء كذلك. فلا معنى للكلمات من دون تجربة. ماذا يهمّ بحق السماء أن تعرف دوروثي هميرسون ما حدث في اليونان وفي المشرق بكلّ حريمه وجواريه؟»

أثار هذا البرنامج فزعي، لكنني تحدثت إلى سيدتين ذكيتين لهما علاقة بالمدرسة، فأكّدتا لي أن الفتيات يتعلمن القراءة وأن موضوع «التواصل» ما هو إلا دعاية مضللة تهدف إلى إضفاء لمسة عصرية مدفوعة الأجر على مدرسة بيردسلي القديمة الطراز، لكنها لا تزال في حقيقة الأمر كما هي.

وثمة سبب آخر جعلني أنجذب إلى هذه المدرسة بعينها قد يبدو مضحكاً لبعض القرّاء، لكنه سبب في غاية الأهمية بالنسبة لي، لأنني شخص جُبلت هكذا. ففي الجانب المقابل من الشارع الذي نقيم فيه، قبالة بيتنا تماماً، رأيت فرجة من فسحة أرض تكسوها الأعشاب، تتناثر فيها عدة شجيرات ملوّنة، وكومة من الأحجار، وبضعة ألواح خشبية، وأزهار بنفسجية فاهية اللون، وأزهار خريفية تنمو على قارعة الطريق. ومن خلال تلك الفرجة، يمكنك رؤية جزء براق من الطريق المؤدي إلى المدرسة، الموازي لشارع ثاير ستريت، وتلوح لك وراءه مباشرة باحة المدرسة. وبالإضافة إلى الراحة النفسية التي يجلبها لي هذا الأمر، وبقاء دولي بالقرب مني أثناء النهار، استشرفت البهجة التي ستغمرني، لأن باستطاعتي أن أعرف من غرفة نومي - مكتبي - بواسطة منظار قوي، النسبة المئوية الهامة إحصائياً للحوريات من بين الطفلات الأخريات اللاتي يلعبن حول دولي خلال فترة الاستراحة. لكن من

Twitter: @ketab_n

سوء حظي، جاء عمّال، في اليوم الأول من افتتاح المدرسة، وأقاموا سياجاً عند الفرجة، ثم أقاموا هيكلاً خشبياً أصفر على نحو خبيث وراء ذلك السياج فمنعني من رؤية ذلك المشهد السحري. لكن ما إن وضع هؤلاء العمال التافهون كمية كافية من المواد التي أفسدت كلّ شيء، حتى توقفوا عن العمل، ولم يظهر أحد منهم ثانية.

٥

في شارع ثاير ستريت، وفي الجزء السكني الأخضر والذهبي من هذه البلدة الأكاديمية، لا بد أن يعترضك عدد من الجيران اللطيفين. وشعرت بالزهو لأنني تمكنت من تحديد علاقاتي بهم بحرص شديد: لم أكن صفيقاً، بل كنت مترفعاً على الدوام. فقد كان جاري إلى جهة الغرب، الذي ربما كان رجل أعمال أو أستاذ معهد، أو كليهما، يحدثني بين الحين والآخر وهو منهمك في رعاية أزهار حديقته، أو يقوم بغسل سيارته، أو يذيب الصقيع من مرآب سيارته (لا يهمني إن كانت كل هذه الأفعال خاطئة تماما)، أما همهماتي القصيرة، التي كانت تبدو كأنها موافقات تقليدية، أو فترات صمت قصيرة لإبداء الاستفهام، فقد حالت دون تطور علاقتنا إلى مرحلة من الودّ والصداقة. وكان أحد البيتين اللذين يحيطان بقطعة الأرض الصغيرة المليئة بالأوساخ، مغلقاً، أما البيت الآخر فكانت تقيم فيه معلمتيْ لغة إنكليزية، هما الآنسة ليستر، ذات الشعر القصير الخشن، والآنسة فابيان التي بدأت أنوثتها في الأفول، وكان موضوع المناقشة القصير الوحيد الذي يدور بيننا على الرصيف هو (بارك الله كياستهما) رقة ابنتي الصغيرة، وسحر غاستون غودين البسيط. أما جارتي إلى جهة الشرق، المربوعة القامة، التي يتوسط وجهها أنف طويل حادّ، والتي أشرف أخوها المرحوم على

Twitter: @ketab_n

المباني والملاعب في المعهد، فقد كانت أشدّهن خطراً. وأذكر كيف كانت تكمن لدولي، عندما أكون واقفاً بجانب نافذة غرفة الجلوس، أنتظر قدوم عزيزتي من المدرسة، بشكل محموم. وفي محاولة لإخفاء فضولها السقيم تحت ستار النوايا الحسنة العذبة، كانت هذه العانس البغيضة، تقف متكئة على مظلّتها الرفيعة (فقد كان المطر الممزوج بالثلج قد توقف عن الهطول للتو، وبدأت الشمس الرطبة الباردة تنشر أجنحتها)، وكانت دولي، بمعطفها البني المفتوح بالرغم من هذا الطقس السيء، تضغط كومة كتبها على بطنها، وبان اللون الوردي على ركبتيها أعلى حذائها الطويل الأخرق، وكانت ابتسامة خفيفة خجولة خائفة تظهر على وجهها الذي يتوسطه أنف أفطس ثم تنطفئ، ربما بسبب الضوء الشتوي الباهت - تبدو فتاة ذات جمال عادي مثل فلاحة ألمانية تشبه مجدلين، وهي واقفة هناك ترد على أسئلة الآنسة إيستر: «وأين أمّك يا عزيزتي؟ وماذا يعمل والدك المسكين؟ وأين كنتما تقيمان؟» وذات مرة، اقتربت هذه المرأة الكريهة مني، وبادرتني مرحبة بصوت يشبه الأنين لكنني تحاشيتها؛ ووصلتني منها بعد عدة أيام رسالة في مغلّف تزيّنه حواف زرقاء، فيها مزيج لطيف من السمّ والعسل الأسود، تقترح فيها أن تقوم دولي بزيارتها يوم الأحد لتسترخي وتتكور في أحد كراسيها وتنقّب في «أكداس الكتب الجميلة التي كانت أمّي العزيزة قد أعطتني إياها عندما كنت طفلة، بدلاً من أن تدير المذياع بأعلى صوت له، طوال ساعات الليل».

وكان عليّ كذلك أن أحذر من السيدة هوليغان، الخادمة والطاهية التي ورثتها إلى جانب المكنسة الكهربائية التي خلّفها المستأجرون السابقون. ولمّا كانت دولي تتناول وجبة الغداء في المدرسة، لم أكن أرى في ذلك أي مشكلة. وكنت قد أتقنت إعداد وجبة فطور جيدة لها، وأسخّن لها طعام العشاء الذي تعدّه السيدة هوليغان قبل مغادرتها

Twitter: @ketab_n

المنزل. وكانت إحدى عينيّ تلك المرأة العطوفة البريئة، حمداً لله، مصابة بالعشى قليلاً، لذلك لم تكن ترى الأشياء بتفصيل دقيق، وكنت قد اكتسبت خبرة كبيرة في ترتيب السرير، لكنني كنت أتوجّس دائماً من وجود بقعة قاتلة في مكان ما، أو استسلام «لو» البسيطة، في المرات النادرة التي يتصادف فيها وجود هوليغان ولوليتا، وتكشف عما يدور بيننا خلال أحاديثهما الدافئة في المطبخ. وغالباً ما كان يخامرني شعور بأننا نعيش في بيت من زجاج تضيئه الأنوار، ويستطيع أي وجه تكسوه طبقة رقيقة من الجلد وله شفتان رقيقتان، أن يسترق النظر في أيّ لحظة من وراء نافذة نسيت أن أسدل ستارتها جيداً، فيرى أشياء مجاناً، يكون أشدّ المتلصصين حماسة مستعداً لدفع ثروة صغيرة لقاء رؤيتها.

٦

لا بد من ذكر كلمة عن غاستون غودين. فقد كان السبب الرئيسي الذي جعلني أستمتع بصحبته - أو على الأقل أن أحتملها بسرور - هو الإحساس بالأمان الذي يشيعه هذا الرجل الممتلئ بأنه لن يفشي سرّي. لا لأنه مطلع عليه، فلم يكن هناك سبب يجعلني أفضي به له، بل لأنه كان رجلاً متحفظاً ومجرّداً إلى حدّ أنه لم يكن يلاحظ أو يتوقّع أيّ شيء قد يؤدي إلى أن يسألني بصراحة وأن أجيبه بردود صريحة. وكان يمتدحني أمام سكان بيردسلي، ويتحدث عني بطريقة جيدة. ولو أنه كان قد اكتشف «ميولي وذوقي» تجاه لوليتا، لأثار ذلك اهتمامه وجعله يركّز على بساطة موقفي تجاهه، وهو الموقف الذي يخلو من التوتر المهذب، وإبداء تلميحات بذيئة. وعلى الرغم من بساطة عقله وضعف ذاكرته، فإنه ربما أدرك أنني أعرف عنه أموراً أكثر مما يعرفه عنه أهالي

Twitter: @ketab_n

بيردسلي. فقد كان عازباً صاحب مزاج سوداوي كئيب، وكان وجهه مترهلاً كالعجينة، وكتفاه ضيّقتين مستدقتين نحو الأعلى، ولم تكونا كتفين مستويتين تماماً؛ وكان رأسه مخروطياً يشبه ثمرة الكمثري، وقد نبت على أحد جانبي رأسه شعر أسود أملس، التصقت بضع خصلاته بالطرف الآخر من رأسه. وكان الجزء السفلي من جسمه ضخماً، وكان يمشي بحركات تشبه حركات الفيل على ساقين سميتين هائلتين. وكان يرتدي دائماً ثياباً سوداء، حتى ربطة عنقه. ونادراً ما كان يستحمّ، وكانت لغته الإنكليزية مضحكة. وبالرغم من ذلك، كان الجميع يعتبرونه شخصاً محبوباً، محبوباً غريب الأطوار! وكان الجيران يدلّلونه، وكان يعرف أسماء جميع الفتيان الصغار في الجوار (كان يقيم على مسافة بضعة أحياء من الشارع الذي أقيم فيه) وكان بعض هؤلاء الفتيان ينظّفون الرصيف أمام بيته، ويحرقون أوراق الأشجار في باحة منزله الخلفية، ويجلبون الحطب من سقيفته، بل حتى أنهم كانوا يقومون ببعض الأعمال البسيطة حول بيته، وكان يقدم لهم لقاء ذلك قطعاً لذيذة من الشوكولاتة، في داخلها مشروب كحولي حقيقي - في خلوة عرين مؤثّث على الطريقة الشرقية في قبو بيته، الذي اصطفت على جدرانه المتعفن، المزيّن بالسجاد، خناجر وبنادق، بين أنابيب المياه الحَارة المموّهة. وفي الطابق العلوي، كان هناك استوديو - طلى جزءاً منه، ذلك العجوز المحتال. وكان قد زيّن جدار الاستوديو المائل (الذي لم يكن سوى سقيفة تقع تحت السقف مباشرة) بلوحات مصورة كبيرة لأندريه جيد وهو يفكّر، وتشيكوفسكي، ونورمان دوغلاس، وكاتبين إنكليزيين مشهورين آخرين، هما نيجينسكي (جميعها أفخاذ وأوراق تين)، وهارولد د. دوبلينام (أستاذ يساري له عينان ضبابيتان يدرّس في جامعة ميد ويسترن) ومارسيل بروست. وكان يخيّل إليك أن هؤلاء الأشخاص المساكين سيقعون عليك من طائرتهم المائلة. وكان

Twitter: @ketab_n

لديه كذلك ألبوم صور يضم صور جميع فتيان وفتيات الحيّ. وعندما كنت أتصفح الألبوم، وأبدي ملاحظة عرضية، كان غاستون يزمّ شفتيه المكتنزتين، ويغمغم بتجهم حزين «نعم، إنهم لطيفون». وكانت عيناه البنيتان تجولان على الأشياء العاطفية والفنية، ولوحاته المبتذلة (العيون البدائية التقليدية، غيتارات مقطّعة إلى شرائح، حلمات زرق، وتصاميم هندسية معاصرة)، ويقول بإشارة غامضة مشيراً إلى زبدية خشبية مطلية أو مزهرية ذات عروق، «خذ واحدة من هذه الإجاصات. فالسيدة التي تقيم في البيت المقابل تعطيني إجاصات أكثر مما يمكنني تناولها» أو «قدمت لي الآنسة تيلور بعضاً من أزهار الأضاليا التي أكرهها» (حزين متجّهم، مثقل بمرارة وهموم العالم).

ولأسباب واضحة، كنت أفضّل أن نلعب الشطرنج في بيتي لا في بيته هو، وكنا نلعب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. وكان يبدو مثل عجوز محطّم وهو يضع يديه السمينتين في حضنه، ويحدّق في لوحة الشطرنج وكأنها جثّة هامدة ملقاة أمامه. وكان يمعن النظر في لوحة الشطرنج لمدة عشر دقائق مصدراً أزيزاً من منخريه، ثم يحرك بيدقه حركة خاسرة. أو قد يقول الرجل الطيب، بعد إمعان: «ملك»، بصوت يشبه عواء كلب عجوز أجش بطيء مصدراً وراءه صوت غرغرة يجعل خديه يرتعشان. ثم يرفع حاجبيه المقوسين ويطلق تنهيدة عميقة، عندما أشير له بأنه أخطأ في تحريك بيدقه.

ومن المكان الذي كنا نجلس فيه في غرفة مكتبي الباردة، كان يتناهى إلينا أحياناً صوت قدميّ «لو» الحافيتين، وهي تتدرب على رقصة معينة في غرفة الجلوس في الطابق السفلي، لكن أحاسيس غاستون الخارجية تكون متبلّدة عادة، ويظل غافلاً عن تلك الايقاعات العارية - وواحد، واثنان - وواحد، واثنان، ثم ينتقل الثقل إلى الساق المستقيمة، الساق إلى الأعلى وإلى الجانب، وواحد، واثنان، وعندما

Twitter: @ketab_n

تبدأ بالوثوب، فاتحة ساقيها على ارتفاع القفزة، ثم تثني ساقاً، وتمدّ الساق الأخرى، وتطير في الهواء، ثمّ تقف على أصابع قدميها - عندها فقط يحكّ منافسي الشاحب، البهي، المتجّهم، رأسه أو خدّه، كما لو كان يخلط بين هذه الخبطات المكدومة البعيدة وبين طعنات ملكتي الرائعة.

وفي بعض الأحيان، كانت لولا تدخل إلينا ونحن مستغرقين في اللوحة أمامنا - وكانت رؤية غاستون متعة كبيرة عندما يستوي واقفاً ليصافحها بطريقة احتفالية، وإحدى عينيه الفيليتين لا تزال مسمّرة على أحد بيادق الشطرنج، ثمّ تفرج يده عن أصابعها الرخصة، ومن دون أن ينظر إليها، يعود ويتهاوى على كرسيه، ليقع في الفخّ الذي أكون قد نصبته له. وفي يوم قريب من عيد الميلاد، وكان قد مضى عليّ حوالى أسبوعين لم أره فيهما، سألني، «هل جميع بناتك بخير؟» وتبيّن لي أنه ضاعف لوليتاي الوحيدة بعدد الثياب التي رأتها عينه المزاجية المكتئبة عبر سلسلة الثياب التي ظهرت فيها أمامه: بنطلون جينز أزرق، تنورة، شورت، فستان ببطانة.

إني أكره التحدث كثيراً عن هذا الرجل المسكين (فمن المحزن أنه بعد سنة، خلال رحلة بحرية قام بها إلى أوروبا، ولم يعد منها، تورط في «قضية وسخة»، في نابولي من بين جميع الأماكن). ولم أكن لأذكر شيئاً عنه لو لم يكن لوجوده في بيردسلي هذا التأثير العجيب على قضيتي، لأنني أحتاج إليه للدفاع عني. فقد كان رجلاً مجرداً من أيّ موهبة، مجرد أستاذ عادي، عالم عديم القيمة، رجل لوطي عجوز بدين بغيض كئيب، يمقت أسلوب الحياة الأميركية، ويجهل اللغة الإنكليزية - كان يعيش في نيو إنغلند المتزمتة، يهدهده العجائز ويداعبه الصغار - آه، لقذ أمضى وقتاً رائعاً وخدع الجميع، وها أنذا.

Twitter: @ketab_n

٧

يجب عليّ التصدي للمهمة المقيتة المتعلقة بتدني مستوى لوليتا الأخلاقي. فلو لم تعمل هي على إذكاء جذوة اللهيب، لما حصل كلّ ما حصل. لكنني كنت رجلاً ضعيفاً، تعوزني الحكمة، لأن حوريتي، تلميذة المدرسة، أسرتني في عبوديتها. ومع تضاؤل العنصر الإنساني، والعاطفة، والرقة، ازداد تعذيبها لي، وقد استغلت ذلك لصالحها.

وكان مصروفها الأسبوعي، الذي لم أكن أعطيه لها إلا بعد تأدية التزاماتها الأساسية، واحداً وعشرين سنتاً في بداية عهدنا في بيردسلي، ثم أصبح دولاراً وخمسة سنتات قبل نهايته. وكان هذا الترتيب أكثر من سخي إذا علمنا أنني لم أكفّ عن تقديم جميع أنواع الهدايا الصغيرة والحلوى لها ومرافقتها إلى السينما لمشاهدة الأفلام التي ترغب في مشاهدتها- مع أنني، بالطبع، كنت أطلب منها بتحبّب قبلة إضافية، بل مجموعة من المداعبات المختلفة، وكنت أعرف أنها تريد أن تحصل على ملذات كتلك التي يتمتع بها الكبار. لكن التعامل معها لم يكن سهلاً. ولم تكن تحصل على بنساتها الثلاثة - أو النكلات الثلاثة - في اليوم بسهولة، وكانت مفاوضة صعبة المراس عندما تتمكن من حرماني من احتساء شراب المحبة الفردوسي، الغريب، المحطِّم، الذي لا يمكنني العيش بدونه أكثر من بضعة أيام متتالية، والتي، بسبب طبيعة وهن الحبّ، لا أستطيع أن أتملكها بالقوة. ولمّا كانت تعرف سحر فمها الناعم ومقدراته، تمكّنت - خلال سنة دراسية واحدة - من رفع المبلغ لقاء معانقة لذيذة إلى ثلاثة دولارات، بل إلى أربعة دولارات. عزيزي القارئ، لا تضحك عندما تتخيّلني وأنا أتقلّب في لوعة المتعة وأنا أنثر عليها بصخب قطعاً معدنية من عشرات السنتات وأرباع الدولار، والدولارات الفضّية الكبيرة مثل آلة تقذف

Twitter: @ketab_n

نقوداً وتبعث رنيناً. وعلى هامش حالة الصرع المفاجئة تلك، كانت تحكم قبضتها الصغيرة على حفنة من النقود المعدنية، التي كنت أتمكن من فتحها إذا لم تتمكن من الانسلال وإخفاء غنيمتها. وبين يوم وآخر، كنت أطوف في أرجاء المنطقة المحيطة بالمدرسة، ويقدمين فاقدتي الوعي، أتوجه إلى الصيدليات، وأجول في أزقة يغشاها الضباب، وأنصت إلى صوت ضحكة فتاة، فألوذ بحسرة بين خفقات قلبي، وبين أوراق الأشجار المتساقطة. وكنت بين الحين والآخر، أتسلل إلى غرفتها وأفتّش في قصاصات الأوراق الممزّقة المرمية في سلة المهملات، التي رسمت عليها ورود، وأبحث تحت وسادة السرير العذري الذي أكون قد رتبته للتو. وفي إحدى المرات، وجدت ثمانية دولارات من فئة الدولار في أحد كتبها (وعنوانه ملائم تماماً «جزيرة الكنز»)، ومرة أخرى، اكتشفت في فتحة في الحائط خلف كتاب «الأمّ» لويسلر، أربعة وعشرين دولاراً وقليلاً من الفراطة - ستّون سنتاً - فأخذتها بهدوء، وفي اليوم التالي، اتّهمت بصفاقة السيدة هوليغان النزيهة، وقالت إنها لصّة قذرة.

وفي النهاية، ازداد ذكاؤها ووجدت مكاناً أكثر أماناً تخبئ فيه غنائمها، ولم أكتشفه، لكنني خفضت المبلغ الذي كنت أعطيه لها، وأصبحت تحصل على موافقتي للمشاركة في برنامج المدرسة المسرحي، بشق النفس وبطريقة مقززة؛ لأن ما كنت أخشاه، ليس أنها قد تحطمني، بل أن تتمكن من جمع مبلغ كاف وتهرب به. إذ يخيّل إلى تلك الطفلة المسكينة ذات العينين العنيفتين، أنها إذا كان في محفظتها خمسون دولاراً، فسيكون بإمكانها الوصول، بطريقة ما، إلى برودواي أو إلى هوليود، أو إلى مطبخ كريه في أحد المطاعم (مطلوب عاملة) في ولاية كئيبة، حيث تهب الرياح، وتتلألأ النجوم، وحيث السيارات، والحانات، والندل، وكلّ شيء ملوّث، ممزّق، ميت.

Twitter: @ketab_n

٨

سعادة الرئيس، لقد بذلت قصارى جهدي لمعالجة مشكلة الفتيان.
آه، حتى أنني بدأت أقرأ في قسم «المراهقين» في صحيفة «بيردسلي ستار» لأعرف كيف يمكنني أن أتصرّف!

كلمة إلى الآباء. لا تثر الخوف في نفوس أصدقاء ابنتك. ربما يصعب عليك إدراك أن الفتيان قد أصبحوا يرونها جذابة. لكنها لا تزال في عينيك تلك الفتاة الصغيرة. أما في أعين الفتيان، فهي تلك الفتاة الفاتنة الجميلة المرحة المبتهجة. إنهم يحبّونها. وقد أصبحت اليوم تعقد صفقات هامة في شركة ما، لكن تذكر أنك كنت البارحة، جيم، ذلك التلميذ في المدرسة الثانوية الذي يحمل كتب جين المدرسية. أتذكر؟ ألا تريد أن تكون ابنتك، التي جاء دورها الآن، سعيدة في صحبة الفتى الذي تحبّه والذي يبدي إعجابه بها ويحبّها؟ ألا تريدهما أن يستمتعا بوقتهما معاً؟

يستمتعا بوقتهما معاً؟ يا إلهي!

لماذا لا تعامل هذا الشاب باعتباره ضيفاً في بيتك؟ لماذا لا تتحدث إليه؟ مازحه، اجعله يضحك ويشعر بالارتياح؟

أهلاً بكم، أيها الشباب، في هذا الماخور.

إذا خرقت القاعدة لا توبخها بصوت عال أمام شريكها في الجريمة. دعها تتحمل وطأة شعورك بالاستياء على حدة. ولا تجعل الفتى يشعر بأنها ابنة غول عجوز.

قبل كل شيء، أعدّ الغول العجوز قائمة بعنوان «ممنوع منعاً باتاً»،

Twitter: @ketab_n

وقائمة أخرى بعنوان «مسموح بها على مضض». أما الأشياء الممنوعة منعاً باتاً، فهي المواعيد الغرامية، سواء كانت منفردة أو ثنائية أو ثلاثية - فلا بد أن تكون الخطوة التالية، حفلة عربدة جماعية. وقد تذهب إلى محل حلوى برفقة صديقاتها، حيث تضحك وتدردش مع شبان يأتون عرضاً، بينما أنتظرها في السيارة على مسافة معقولة. وكنت قد وعدتها بأنها إذا دعت مجموعة مقبولة من زملائها من أكاديمية بتلر للفتيان في الحفلة التي يقيمونها سنوياً (كمرافق صارم بالطبع)، فقد أبحث في إمكانية أن ترتدي فتاة في الرابعة عشرة فستان «سهرة» (فستاناً يجعل المراهقة ذات الذراعين النحيلتين تبدو مثل طائر الفلامينغو). ووعدتها أيضاً بأنني سأسمح لها بأن تقيم حفلة في بيتنا تدعو إليها أجمل صديقاتها وألطف الفتيان، الذين تعرفت عليهم في قاعة الرقص في أكاديمية بتلر. لكنني كنت حريصاً على اتباع النظام الذي وضعته، بعدم السماح لها بمرافقة شاب شبق إلى السينما، أو معانقة في السيارة، أو ارتياد حفلة تضم فتيات وفتياناً في بيوت زميلاتها في المدرسة، أو الابتعاد عن مسمعي وهي تتحدث على الهاتف مع فتى أو فتاة، حتى لو كانا «يناقشان أمراً يتعلق بإحدى صديقاتها».

استشاطت «لو» غضباً من قراراتي هذه - وشتمتني وقالت إنني «محتال فاسد»، وأطلقت عليّ عبارات قاذعة - وكان من الممكن أن أفقد أعصابي، لولا أنني سرعان ما اكتشفت، وهذا ما جعلني أشعر بالارتياح، أن ما أثار حنقها حقاً هو ليس لأنني حرمتها من أشياء تحبّ أن تفعلها، بل لأنني حرمتها من حقوقها العامة. فكما ترون، حرمتها من برنامجها التقليدي، ومن أوقات متعتها، «الأشياء التي تكمل» روتين الشباب، لأنه لا يوجد هناك شيء محافظ أكثر من أن تدع طفلاً، وخاصة طفلة، سواء كانت الأشد سمرة أو الأشد حمرة، أو أعظم حورية أسطورية، في سديم بستان في شهر تشرين الأول (أكتوبر).

Twitter: @ketab_n

لا أريد أن يسيء أحد فهمي. فأنا لست متأكداً تماماً من أنها لم تقم أي علاقة عرضية خلال فصل الشتاء، علاقة عرضية غير ملائمة مع شبان مجهولين. وبطبيعة الحال، مهما تمكنت من التحكم في أوقات فراغها ومراقبتها، فلا بد أنها تجد مسارب غير محسوبة، تبررها بتفسيرات وأعذار متقنة، وبالطبع، فقد كنت أغرز مخالب غيرتي في ثنايا ثوب كذب حوريتي الرقيق. لكنني لم أكن أشعر آنذاك - ويمكنني الآن أن أثبت حقيقة مشاعري - أن ناقوس الخطر لم يقرع بعد. ولم يخامرني ذلك الشعور لأنني لم أجد حنجرة صغيرة أطبق عليها وأسحقها بين الخرس الذكوري الذي يومض في مكان ما في الخلفية، بل اتضح لي «إلى درجة ساحقة» (عبارة تفضل عمّتي سيبيل استخدامها) أن فتيان المدرسة الثانوية جميعاً - بدءاً من ذلك المغفل الذي يرشح عرقاً والذي يجعله «تشابك الأيدي» يرتعش، إلى ذلك المغتصب المكتفي ذاتياً الذي تملأ البثور وجهه، ويقود سيارة فارهة، يضجر عشيقتي الصغيرة الراقية. «إن الضجيج الذي يثيره هؤلاء الفتيان يزعجني كثيراً»، خربشت «لو» في كتابها المدرسي، وكُتب تحته بخطّ مونا (ستأتي مونا في أيّ دقيقة الآن)، وكانت هناك العبارة الماكرة: «وماذا عن ريغير؟» (هل سيأتي دوره أيضاً؟).

هكذا إذن، لا وجه لهؤلاء الشباب الذين صدف أن رأيتهم بصحبتها. فعلى سبيل المثال، هناك رد سويتر الذي أوصلها إلى البيت ذات يوم، اليوم الذي هطل فيه الثلج لأول مرة. ومن نافذة صالة الاستقبال رأيتهما يتكلّمان بالقرب من شرفتنا. كانت ترتدي أول معطف قماشي بياقة من الفراء اشتريته لها؛ وكانت تعتمر قبعة بنيّة صغيرة تغطي تصفيفة شعرها الأثيرة لديّ - فرق في المقدمة، تموجات على الجانبين، ضفائر عادية في الخلف - وتنتعل خفين رطبين غامقين، وجوارب بيضاء متهدلة أكثر من أي وقت مضى. وكعادتها، كانت

Twitter: @ketab_n

تمسك كتبها وتضغطها على صدرها، وهي تتكلم أو تنصت، ولا تكفّ عن تحريك قدميها: فقد كانت تقف على مشط قدمها اليسرى، وتحرك إصبع قدمها اليمنى إلى الوراء، ثم تشبك قدميها، تهتزّ قليلاً، وتتحرك بضع خطوات، ثم تعيد هذه الحركات من البداية. وهناك ويندبريكير الذي كلّمها أمام مطعم في أصيل يوم أحد، بينما كانت أمّه وأخته تحاولان إبعادي عنهما لكي يتجاذبا أطراف الحديث، فكنت أجرّ قدميّ بتثاقل، وألتفت لأرى حبيبتي الوحيدة، التي بدأ سلوكها يتخذ أسلوباً تقليدياً، مثل أسلوب المراهقين المهذب بأن يُري أحدهما الآخر بأنه «غارق في الضحك» بإمالة الرأس، وهكذا (عندما أحسّت أنني أناديها) ظلت تتظاهر بأنها مرحة، ثم خطت خطوتين إلى الوراء، ثم استدارت، وسارت نحوي وعلى وجهها ابتسامة باهتة. ومن الناحية الأخرى، كنت أحبّ كثيراً - ربما لأنها ذكّرتني بأول اعتراف أدلت به لي لا يمكنني أن أنساه - حيلتها في التنهّد «يا إلهي»، باستسلام حزين مضحك للقدر، أو عندما تقول «لا - آه» بنبرة طويلة عميقة خفيفة عندما تقع خبطة القدر. والأهم من ذلك - بمناسبة الحديث عن الحركة والشباب - كنت أحبّ أن أراها وهي تقود دراجتها الصغيرة الجميلة في شارع ثاير ستريت: تعلو لتدوس على دواستيّ الدراجة وتبدأ تحركهما بشبق، ثمّ تقعي على المقعد بحركة بطيئة واهنة، ثم تخفف سرعتها، وتتوقّف عند صندوق البريد الخاص بنا، وتبدأ تتصفّح مجلة تجدها هناك، وهي لا تزال ممتطية الدراجة منفرجة الساقين ثم تعيدها إلى مكانها، وتضغط بلسانها على أحد طرفَي شفتها العليا، ثم تنطلق بدفعة من قدمها، ثم تنطلق ثانية عبر الظلّ والشمس الشاحبة.

بصورة عامة، بدا لي أنها تكيّفت مع بيئتها أكثر مما كنت آمل، عندما أتذكّر جاريتي الطفلة المدلّلة، وسلوكها الذي كانت تتظاهر به بسذاجة عندما كنا في كاليفورنيا في الشتاء الماضي. ومع أنني لم أعتد

Twitter: @ketab_n

على حالة القلق التي تعتري المذنبين، العظماء، أصحاب القلوب الرهيفة، أحسست أنني كنت أبذل كلّ ما بوسعي لمحاكاة ذلك. وعندما كنت أستلقي على سريري الضيّق بعد جلسة إعجاب ويأس في غرفة نوم لوليتا الباردة، أبدأ أستعرض اليوم المنتهي بتدقيق صورتي وهي تلوح أمامي، بدلاً من أن تعبر أمام عين خيالي الحمراء. وكنت أرى الدكتور همبرت الداكن - و- الوسيم، الذي ربما كان ينتمي إلى الكنيسة الأنغليكانية، لعله أنغليكاني حتى النخاع، وهو يرافق ابنته إلى المدرسة. رأيته وهو يحيّي بسرور، بابتسامته الواهية، وحاجبيه المقوّسين الكثين الأسودين، السيدة هوليغان الطيبة، التي تفوح منها رائحة الطاعون (وستندفع، كنت أعرف، إلى أحضان السيد في أول فرصة تسنح لها). ومع السيد ويست، الجلاد المتقاعد، أو مؤلف الكراسات الدينية - من يعبأ بذلك؟ - ورأيت جاراً، لا أعرف اسمه، أحسب أنه فرنسي أو سويسري، يتأمّل في غرفة مكتبه ذات النوافذ الكبيرة، منكباً على آلة كاتبة، هزيل قليلاً، تتدلى على جبينه خصلة شعر على الطريقة الهتلرية، تتهدل فوق حاجبه الشاحب. وفي عطلة نهاية الأسبوع، كان يرتدي معطفاً فُصِّل عليه جيداً، ويرتدي قفازات بنيّة اللون، وربما يُشاهد البروفسور هاء وهو يسير مع ابنته إلى مطعم والتن (المشهور بأرانبه الخزفية البنفسجية الملفوفة بشرائط، وعلب الشوكولا التي تجلس بينها وتنتظر «مائدة لشخصين» لا تزال وسخة من مخلفات وفتات الزبون السابق). وكان يُشاهد خلال أيام الأسبوع، في حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر، وهو يحيّي بمهابة السيد إيست الذي تشبه عيناه عينيّ آرغس (عملاق أسطوري) وهو يحاول إخراج سيارته من المرآب، ويقودها إلى المرج اللعين الدائم الخضرة، ثم إلى الطريق الزلقة. ويرفع عيناً باردة من فوق الكتاب وينظر إلى ساعة الحائط في مكتبة معهد بيردسلي الخانقة، بين شابّات مكتنزات تسمّرن وتحجّرن في

Twitter: @ketab_n

فيض المعارف الإنسانية. ويسير في الحرم الجامعي مع كاهن المعهد، القسّ ريغير (الذي يدرّس الكتاب المقدس أيضاً في مدرسة بيردسلي). «أخبرني أحدهم أن أمّها كانت ممثلة مشهورة لقيت حتفها في حادث طائرة. يا إلهي؟ أحسب أنه خطئي، أليس كذلك؟ فهمت. يا له من شيء حزين». (ترفع أمّها إلى الأعالي، إيه؟) وأدفع عربتي الصغيرة ببطء عبر متاهة السوبر ماركت، وراء البروفسور ي. وهو أرمل لطيف أيضاً يمشي ببطء وله عينا عنزة. أنفض نثار الثلج عن قميصي ذي الردنين الطويلين، وقد ألقيت شالاً ضخماً أسود وأبيض حول رقبتي. أتبع، من دون أن أبدي عجلة ضارية (حتى أنني آخذ وقتي لأنظّف حذائي على الحصيرة) ابنتي، تلميذة المدرسة، إلى البيت. وأصطحب دولي لزيارة ممرضة طبيب الأسنان الجميلة التي تبدي لها ابتسامة مشرقة - مجلات قديمة - «لا تكشفي عن ساقيك». وقد شوهد السيد إدغار همبرت همبرت وهو يتعشى مع دولي في البلدة، يتناول شريحة من اللحم بالسكّينة والشوكة على الطريقة الأوروبية. يستمتع بحفلة موسيقية: يجلس فرنسيان لهما وجهان رخاميان، بهدوء جنباً إلى جنب، وتجلس ابنة المسيو همبرت همبرت الموسيقية الصغيرة على يمين أبيها، ويجلس ابن البروفسور ي. الموسيقي الصغير (الأب يمضي أمسية صحّية في بروفيدانس) على يسار المسيو ج.ج. الذي يفتح المرآب، ويغمر نور مربع الشكل السيارة ثم يتلاشى. ويسدل ستارة النافذة في غرفة نوم دولي، وهو يرتدي بيجامته الزاهية. صباح يوم السبت، لم يره أحد، يزيّن الفتاة التي ابيضّت في الشتاء في الحمّام. شوهد وسُمع صباح يوم الأحد، فهو لا يرتاد الكنيسة، يقول لدولي التي ستذهب إلى الملعب الشتوي لا تتأخري كثيراً. ودخلت إحدى رفيقات دولي في المدرسة ولاحظت باستغراب: «لأول مرة في حياتي أرى رجلاً يرتدي سترة منزلية، إلا في الأفلام، طبعاً».

Twitter: @ketab_n

٩

أحسست بخيبة أمل كبيرة عندما رأيت صديقات «لو» اللاتي كنت في لهفة شديدة للقائهن. فها هي أوبال سمثينغ، وليندا هول، وأفيس تشابمان، وإيفا روزن، ومونا داهل (ماعدا واحدة منهن، فإن جميع هذه الأسماء تقريبية، طبعاً). كانت أوبال فتاة خجولة، تضع نظارات لا شكل لها، وتملأ البثور وجهها، وكانت تحب دولي إلى درجة الجنون، لكن دولي كانت تتنمر عليها. وكانت دولي تلعب مع ليندا هول، الحاصلة على بطولة التنس في المدرسة، مرّتين في الأسبوع على الأقل: وكنت أحسب أن ليندا حورية حقيقية، لكن لسبب أجهله، لم تأت - ربما لم يُسمح لها بالمجيء - إلى بيتنا، لذلك فإنني لا أتذكّرها إلا كوميض شروق شمس طبيعي في ملعب تنس داخلي. أما ما تبقى من الفتيات، فلم تحظ أي واحدة منهن بلقب «حورية» إلا إيفا روزن. وكانت أفيس طفلة مكتنزة لها ساقان مشعرتان، أما مونا، بالرغم من أنها كانت جميلة بطريقة حسّية فظة، فقد كانت تكبر حبيبتي بسنة واحدة، فلم تعد حورية منذ فترة طويلة، هذا إن كانت حورية ذات يوم. أما إيفا روزن، الطفلة الصغيرة التي جاءت من فرنسا، فقد كانت مثالاً جيداً على طفلة لا تتمتع بجمال كبير لكنها تظهر للهاوي الحاد الذهن بعض العناصر الأساسية من السحر الذي تمتلكه الحوريات، كالجسد الرائع، والعينين الناعستين، والوجنتين الممتلئتين. وكان شعرها النحاسي اللمّاع ناعماً مثل نعومة شعر لوليتا، وكانت قسمات وجهها الحليبي البياض رقيقة، وشفتاها ورديتين، ورموشها فضية، تنتشر فيه بقع بنية مائلة إلى الأصفر بدرجة أقل من قريناتها- عشيرة الفتيات المتعددات الأعراق ذوات الشعر الأحمر. ولم تكن ترتدي الزيّ الأخضر مثلهن، بل كانت ترتدي، كما أذكر، ثوباً أسود أو كرزياً

Twitter: @ketab_n

غامقاً - كنزة سوداء شديدة الأناقة، مثلاً، وحذاءً أسود بكعب عال، وأظافر مصقولة مطلية بلون العقيق الأحمر. وكنت أكلّمها بالفرنسية (مما كان يثير نفور «لو» إلى درجة كبيرة). وكانت تتكلم بنبرة صافية على نحو يثير الدهشة، أما في المدرسة وأثناء اللعب، فكانت تستخدم الكلمات الأميركية الدارجة، وتبدو في حديثها لكنة طفيفة تشبه لكنة أهالي بروكلن، وكان هذا شيئاً مسلياً بالنسبة لباريسية صغيرة تذهب إلى مدرسة مختارة من مدارس نيو إنغلند ذات تطلّعات بريطانية مزيّفة. ولسوء الحظ، مع أن «عمّ الطفلة الفرنسية تلك» كان «مليونيراً»، فقد نبذت «لو» إيفا لسبب ما، قبل أن تتاح لي فرصة الاستمتاع بطريقتي المتواضعة بوجودها الأريجي تلبية لدعوة همبرت المفتوحة. ويعرف القارئ الأهمية التي أعلقها على وجود سرب من الوصيفات، جائزة ترضية مؤلفة من حوريات يتحلّقن حول حبيبتي لوليتا. ولوهلة، أردت أن أبدي اهتمامي بمونا داهل التي كانت تأتي لزيارتنا في أحيان كثيرة، وخاصة في فصل الربيع عندما تشتد حماستها هي ولوليتا للمشاركة في التمثيل. وغالباً ما كنت أتساءل ما هي الأسرار التي أفضت بها دلوريس هايز بشكل شنيع لمونا، بينما تخبرني، بناءً على إلحاحي بعد أن أمنحها مبلغاً جيداً من المال، تفاصيل مدهشة حول علاقة مونا بأحد الجنود على شاطئ البحر. وكان من صفات «لو» اختيار أقرب صديقة لها، تلك الشابة الفاسقة، الباردة، الشهوانية، الخبيرة التي سمعتها ذات مرة (سمعت بالصدفة، أقسمت «لو») تقول للوليتا بمرح في المدخل - مشيرة إلى أن بلوزة (لو) مصنوعة من الصوف البكر: «الشيء الوحيد الذي يتعلق بك هو أنك، يا صديقتي...». وكان في صوتها بحّة غريبة، وشعرها أسود مموّج اصطناعياً، وتضع قرطين على أذنيها، وكانت عيناها بنيتين جاحظتين - عنبريتين - وشفتاها ممتلئتين. قالت لي «لو» إن المعلمات كنّ يوبخنها كثيراً لأنها تضع الكثير من

Twitter: @ketab_n

المجوهرات وترتدي ثياباً مبهرجة. وكانت يداها ترتعشان، وترهقها علامة عامل الذكاء البالغة ١٥٠ درجة. كما عرفت أن لها شامة كبيرة بنّية بلون الشوكولاتة على ظهرها الذي يشبه ظهر امرأة، اكتشفتها في تلك الليلة عندما ارتدت هي و«لو» ثوبين شفافين قصيرين فاتحي اللون لتذهبا إلى حفلة رقص في أكاديمية بتلر.

لا أتوقّع الكثير، لكنني لا أستطيع أن أمنع ذاكرتي من استحضار ما جرى خلال تلك السنة الدراسية. وإزاء محاولاتي الرامية إلى اكتشاف نوع الفتيان الذين تعرفهم «لو»، كانت الآنسة داهل تراوغ على نحو مدهش. فقد خابرتني «لو» التي ذهبت لتلعب التنس في نادي ليندا الريفي، وقالت إنها قد تتأخر نصف ساعة كاملة، لذلك، سألتني هل يمكنني أن أسلّي مونا التي ستأتي لكي تتدرب معها على مشهد من مسرحيّة «ترويض الشرسة». وعندما سألت مونا الجميلة عنها، أجابت مستخدمة جميع التحويرات، وجميع الإغراءات في أسلوبها وصوتها وهي تحدّق فيّ وتردد كلمة ربما - قد أكون مخطئة؟ - لمحة باهتة من السخرية البلّورية: «حسناً يا سيدي، الحقيقة هي أن دولي لا تبدي اهتماماً كبيراً بالفتيان لمجرد أنهم فتيان. في واقع الحال، إننا متنافستان. ونحن، أنا وهي، مغرمتان بالقسّ ريغير». (كانت تلك نكتة - فقد نوهت سابقاً إلى ذلك الرجل الكئيب العملاق، الذي يشبه فكّه فكّ حصان: كان قد أضجرني حتى الموت بانطباعاته عن سويسرا في إحدى حفلات الشاي التي أقيمت للأباء، والتي لا أستطيع أن أضعها في إطارها الزمني).

كيف كانت الحفلة؟ آه، كانت عاصفة. ماذا؟ مسعورة. رائعة، باختصار. هل رقصت «لو» كثيراً؟ آه، ليس كثيراً، بقدر ما استطاعت. ما رأي مونا الناعسة بلوليتا؟ ماذا؟ هل تظن أن «لو» تتقدم جيداً في المدرسة؟ يا إلهي، من المؤكد أنها طفلة، لكن سلوكها بشكل عام كان

Twitter: @ketab_n

-؟ آه، إنها طفلة رائعة، لكنها؟ «آه، إنها دمية»، خلصت مونا، وتنهّدت فجأة، والتقطت كتاباً صادف أنه كان قريباً منها، وبعد أن غيّرت قسمات وجهها، قطّبت حاجبيها على نحو متكلف، وسألت: «حدثني عن حفلة زاك الراقصة، يا سيدي. هل هو جيد حقاً؟» واقتربتْ من كرسيي كثيراً، فتمكنت من تحديد أنواع المستحضرات والكريمات التي فاحت رائحتها من بشرتها. وبغتة، طعنتني فكرة غريبة: هل كانت حبيبتي «لو» تؤدي دور قوّادة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فقد وجدت البديل الخاطئ. متحاشياً نظرة مونا الباردة، رحت أحدّثها عن الأدب قليلاً. ثم وصلت دولي وحدّقت بنا بعينيها الشاحبتين. تركتُ الصديقتين وحدهما. وفي إحدى مربعات الشبك الذي يغطي النافذة الصغيرة عند منعطف الدرج المغطاة بشبك العنكبوت، كانت تشعّ ياقوتة. كان ذلك الجرح الجديد بين المستطيلات غير المبقعة وموقعها غير المتناسق - حركة ليلية من الأعلى - يزعجني على الدوام.

١٠

في بعض الأحيان... هيا، كم مرّة بالتحديد يا بيرت؟ هل يمكنكِ أن تذكري أربع مناسبات كهذه، خمس، أكثر؟ أم أنه لا يمكن لقلب إنسان أن يحتمل مرتين أو ثلاثة؟ في بعض الأحيان (لا يوجد لديّ ردّ على سؤالك)، عندما تكون لوليتا منهمكة في إعداد فروضها المدرسية، تمصّ قلم رصاص، وهي مسترخية على الكرسي مدليّة ساقيها من فوق مسنديه، فأنسى القدرة على كبح جماح نفسي التربوية، وأتناسى شجاراتنا، وأنسى كبريائي الذكوري - بكل ما في الكلمة من معنى، أزحف على ركبتيّ إلى كرسيكِ، يا حبيبتي لوليتا!

ترمقينني بنظرة - نظرة رمادية تشوبها علامة استفهام يكسوها فراء:

Twitter: @ketab_n

«آه لا، ليس ثانية» (ريبة، غضب)، لأنك لم تتكرمي وتصدقي بأنني، من دون أيّ خطط معيّنة، أشتهي أن أدفن وجهي في تنورتك، يا عزيزتي! هشاشة ذراعيك العاريتين هاتين - لشدّ ما اشتقت إلى ضمهما ومعانقتهما، أطرافك الأربعة الطرية الشفيفة جميعاً، مهرة منكفئة على نفسها، وآخذ رأسك بين يدي الحقيرتين، وأشدّ جلد صدغيك على الجانبين، وأقبّل عينيك اللتين أصبحتا تشبهان الآن عيني فتاة صينية، وتقولين «أرجوك اتركني وشأني. بحق المسيح دعني وشأني». أنهض من على الأرض، وتطلّين عليّ من الأعلى، وجهك ينتفض ويرتعش مثل الحركات العصبية اللاإرادية التي تنتابني. لكن لا تهتمي، لا تهتمي، إنني مجرد رجل فظ، لا تهتمي، ولنواصل رواية قصتي البائسة.

١١

في ضحى أحد أيام الإثنين في كانون الأول (ديسمبر) على ما أظن، طلبت مني برات أن أزورها في المدرسة لتحدثني في أمر هام. فقد علمت أن التقرير المدرسي الأخير لدولي لم يكن جيداً. لكنني بدلاً من أن أقنع نفسي بهذا التفسير المنطقي لطلب حضوري، بدأت أتخيّل جميع أنواع الأهوال الأخرى، فقررت أن أحصّن نفسي بتناول جرعة من الشراب قبل المضي للقائها. استجمعت رباطة جأشي، وأخذت أرتقي درجات منصة الإعدام بتؤدة.

كانت امرأة ضخمة الجثة، ناعسة، شعرها أشيب، ولها أنف مسطح عريض، وعينان صغيرتان تتواريان وراء نظارات ذات إطار أسود. قالت: «اجلس»، وأشارت إلى كرسي وضيع محشو بالأعشاب، وجثمت هي بتثاقل فوق ذراع كرسي مصنوع من خشب

Twitter: @ketab_n

البلوط. وللحظة أو لحظتين، نظرت إليّ وهي تبتسم بفضول. تذكّرت أنها كانت قد فعلت ذلك أثناء لقائنا الأول، لكنني أعدت لها آنذاك ذلك التجهم. غادرتني نظرتها، وبدأت تفكّر بعمق - ربما كانت تصطنع ذلك. وبينما كانت تفكّر بالقرار الذي ستتخذه، راحت تفرك، ثنية ثنية، تنورتها الرمادية الغامقة عند الركبة، تزيل آثار طباشير أو شيئاً ما كان عليها، ثمّ قالت، وهي لا تزال تفركها، دون أن ترفع بصرها:

«دعني أسألك سؤالاً صريحاً يا سيد هايز. إنك والد أوروبي من الطراز القديم، أليس كذلك؟»

«لماذا، لا»، قلت، «ربما كنتُ محافظاً، لكن ليس من النوع الذي تطلقين عليه من الطراز القديم».

أطلقت تنهيدة، متجهّمة، ثمّ صفقت بيديها اللحيمتين بأسلوبها في الدخول في الموضوع مباشرة، ومرة أخرى، عادت وثبّتت عينيها الصغيرتين عليّ.

ثمّ قالت: «إن دولي هايز طفلة رائعة، لكن يبدو أن بداية نضوجها الجنسي يسبّب لها بعض المشاكل».

انحنيت قليلاً. ماذا بوسعي أن أفعل غير ما فعلته؟

«إنها لا تزال تتأرجح»، قالت الآنسة برات، مظهرة بيديها اللتين تتناثر عليهما نقاط داكنة بسبب الكبد، «بين منطقة النمو الشرجي والمنطقة التناسلية. في الأساس إنها طفلة جميلة».

فقلت: «عفواً. أي منطقتين؟»

«هذا هو الأوروبي من الطراز القديم فيك»، صاحت برات، ونقرت نقرة خفيفة على ساعة يدي، وأبدت فجأة طاقم أسنانها، «إن ما أقصده هو أن الدوافع البيولوجية - هل تدخّن؟ لم تلتحم بعد في دولي، لم تتشكل، إن جاز لي القول، في شكل مستدير»، ورسمت بيديها بطيخة غير مرئية في الهواء.

Twitter: @ketab_n

«إنها فتاة جذّابة ذكية مع أنها غير مبالية» (وكانت تتنفّس بصعوبة، ومن دون أن تترك مقعدها، استغرقت المرأة وقتاً لكي تلقي نظرة على صفحة تقرير الطفلة الجميلة الملقى على الطاولة إلى يمينها)، وأضافت: «إن درجاتها تزداد سوءاً. الآن أتساءل، يا سيد هايز-». مرة أخرى ذلك التأمل المصطنع.

«حسنا»، واصلت كلامها بحماسة، «أما أنا فإني أدخّن، وكما كان الدكتور العزيز بيرس يقول: لست فخورة بذلك لكنني أحبّ التدخين». أشعلت سيجارة ونفثت الدخان من منخريها كأنهما نابان.

«دعني أقدم لك بضعة تفاصيل، لن يستغرق ذلك أكثر من لحظة. دعني أرى [تفتّش بين صفحاتها]. إنها وقحة مع الآنسة ريدكوك، وفظة مع الآنسة كورمورانت. الآن، ها هو أحد تقارير أبحاثنا الخاصة: إنها تستمتع بالغناء مع فرقة في فصلها الدراسي، مع أنها تبدو كثيرة الشرود. تجلس وتلفّ ساقاً على ساق، وتهزّ ساقها اليسرى على نحو إيقاعي. مثل المثل القائل: مئتان واثنان وأربعون كلمة من أشد الكلمات العامية سوقية مسيّجة بعدد من الكلمات الأوروبية المتعددة المقاطع. وهي تتنهد كثيراً في الصف. دعني أرى. نعم. ها هنا الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وهي تمضغ علكة بصوت مرتفع. وهي لا تقضم أظافرها، لكنها إذا قضمتها، فإن ذلك يتماشى مع أسلوبها العام بصورة أفضل - من الناحية العلمية، طبعاً. فترات الطمث، كما تقول، منتظمة. ولا تنتمي حالياً إلى أي تنظيم كنسي. بالمناسبة، يا سيد هايز، كانت أمّها -؟

آه، فهمت. وأنت -؟ لا أظن أن ذلك بيد أحد، إنه بيد الله. شيء آخر نريد أن نعرفه. أفهم أنه لا توجد لديها واجبات بيتية منتظمة. لقد جعلت من دولي أميرة يا سيد هايز، أليس كذلك؟ حسناً، ماذا يوجد في جعبتنا من أشياء أخرى؟ إنها تعامل الكتب برشاقة وأناقة.

Twitter: @ketab_n

صوتها رقيق. تقهقه كثيراً في معظم الأحيان. حالمة قليلاً. تلقي نكات من ابتكارها، فعلى سبيل المثال تقلب الحروف الأولى من أسماء بعض معلماتها. شعرها بني فاتح وغامق، براق - حسناً [تضحك] إنك تدرك ذلك، على ما أظن. الأنف، قدمان عاليتان مقوستان، العينان - دعني أرى، لديّ هنا تقرير أحدث. هاها، ها هو. تقول الآنسة غولد إن أداء دولي في التنس يتراوح بين ممتاز ورائع، حتى أنه أفضل من أداء ليندا هول، أما التركيز وجمع النقاط تتراوح «بين سيء ووسط». ولا تستطيع الآنسة كورمورانت أن تقرر إن كان لدى دولي القدرة على التحكم بعواطفها الاستثنائية أم أنها لا تستطيع ذلك على الإطلاق. وتقول الآنسة هورن إنها - أقصد، لا تستطيع دولي التعبير عن عواطفها شفوياً، برأي الآنسة كول، فإن القدرة الأيضية عند دولي فائقة. وترى الآنسة مولار أن دولي حسيرة النظر ويجب أن تزور طبيب عيون ماهراً، لكن الآنسة ريدكوك تصرّ على أن الفتاة تتظاهر بأنها حسيرة النظر لكي تفلت من العقاب لعدم إتمامها واجباتها المدرسية. وختاماً يا سيد هايز، يتساءل الباحثون لدينا عن شيء في غاية الأهمية. الآن، أريد أن أطرح عليك سؤالاً. أريد أن أعرف هل زوجتك المسكينة، أو أنت نفسك، أو أي شخص آخر في الأسرة - أفهم أن لديها عدّة عمّات ولها جدّ لأمّها في كاليفورنيا؟ آه، عندها! - آسفة - حسناً، نتساءل جميعاً هل قدّم أحد في الأسرة لدولي معلومات عن عملية التناسل عند الثدييات. إن الانطباع العام هو أن دولي ذات الخمسة عشر ربيعاً لا تزال غير مهتمة بالأمور الجنسية، أو بدقة أكبر، تكبح فضولها للحفاظ على جهلها وكرامتها الذاتية. حسناً - أربعة عشر. كما ترى يا سيد هايز، فإن مدرسة بيردسلي لا تؤمن بنظرية النحل والأزهار، واللقالق وطيور الحب، بل تؤمن كثيراً بأن تعدّ طالباتها للتزاوج بشكل مرضي وتربية أطفالهن بنجاح. لدينا شعور بأنه بوسع دولي أن تحقق تقدّماً باهراً إن

Twitter: @ketab_n

هي وضعت عقلها في رأسها. إن تقرير الآنسة كورمورانت هام في هذا المجال. وتنحو دولي لأن تكون، وهذا أقل ما يقال عنها، صفيقة وماجنة. لكننا نشعر جميعاً بأن عليك، أولاً، أن تجعل طبيب أسرتك يخبرها بجميع حقائق الحياة، وثانياً، أن تسمح لها أن تتمتّع بصحبة أخوة زميلاتها في المدرسة في نادي الشبان الصغار أو في منظمة الدكتور ريغير، أو في بيوت أبائنا الجميلة».

«يمكنها أن تلتقي بفتيان في بيتها الجميل»، قلت.

«أرجو ذلك»، قالت برات بانشراح. «عندما سألناها عن همومها، رفضت دولي مناقشة الأوضاع المنزلية، لكننا تحدثنا مع بعض صديقاتها، وحقاً - حسناً، مثلاً، نصرّ على ألاّ تمنعها من المشاركة في فريق التمثيل. عليك أن تسمح لها بالمشاركة في مسرحية «مطاردة الساحرات». كانت حورية صغيرة رائعة أثناء التدريب، وسيمكث المؤلف بضعة أيام في معهد بيردسلي في الربيع القادم، وقد يحضر تدريباً أو تدريبين في قاعتنا الجديدة. أقصد أن كلّ هذا يشكل جزءاً من المتعة عندما يكون المرء شاباً وحيوياً وجميلاً. يجب أن تفهم -».

قلت: «كنت أعتبر نفسي دائماً أباً متفهماً ومتعاطفاً».

«لا شكّ في ذلك، لا شكّ في ذلك، لكن الآنسة كورمورانت ترى، وأنا أنحو للاتفاق معها، بأن دولي مهووسة بأفكار جنسية لا تجد منفذاً لها، وأنها تثير الفتيات الأخريات وتعذّبهن، أو حتى معلماتنا الأصغر سناً، لأنهن يتواعدن ببراءة مع الفتيان».

هززت كتفيّ. مهاجر حقير.

«لنفكر معاً يا سيد هايز. ما مشكلة هذه الطفلة؟»

«تبدو طبيعية وسعيدة بالنسبة لي»، قلت (بدأت رياح الكارثة تهبّ أخيراً؟ هل اكتشف أمري؟ هل يستخدمون أسلوب التنويم المغناطيسي؟).

Twitter: @ketab_n

«إن ما يقلقني»، قالت الآنسة برات وهي تنظر إلى ساعتها، وبدأت تتحدث في الموضوع برمته مرة أخرى، «هو أن معلمات دولي وزميلاتها يجدن أنها عدوانية، مستاءة، كتومة - وجميعهن يتساءلن عن سبب معارضتك بقوة جميع التسليات التي تستمتع بها طفلة طبيعية».

«أتقصدين الألعاب الجنسية؟» سألتها بسرعة، بيأس، جرذ عجوز محاصر.

«حسناً، من المؤكد أنني أرحّب بهذا التعبير المتحضّر»، قالت برات بابتسامة، «لكن ليست هذه هي النقطة تماماً. إذ تجري تحت رعاية مدرسة بيردسلي أنشطة تتعلق بعرض مسرحيات، ورقص ونشاطات طبيعية أخرى ليست ألعاباً جنسية من الناحية الفنية، مع أن الفتيات يقابلن الفتيان، إذا كان هذا ما تعترض عليه».

«حسناً»، قلت، وقد انبعثت من الكرسي الذي أجلس عليه شهقة مرهقة. «حسناً. يمكنها أن تشارك في هذه المسرحية. شريطة أن تقوم فتيات بأداء أدوار الذكور».

فقالت برات: «تسحرني دائماً الطريقة الجميلة التي يستخدم فيها الأجانب - أو على الأقل الأميركيون الذين حصلوا على الجنسية - لغتنا الغنية. إني واثقة من أن الآنسة غولد التي تدير الفريق المسرحي، ستكون سعيدة للغاية. ألاحظ أنها إحدى المعلمات القليلات التي يبدو أنها تحبّ - أقصد التي يبدو أنها تجد دولي فتاة سهلة الانقياد. أظن أن هذا يشمل مواضيع عامة، والآن تأتي مسألة خاصّة. إننا أمام ورطة مرة أخرى».

توقّفت برات بشكل مشاكس، ثمّ حكّت بسبابتها تحت منخريها بقوة، فتلوى أنفها مؤدياً إحدى رقصات الحرب.

قالت: «إنني امرأة صريحة، لكن الأعراف هي أعراف، وأجد من

Twitter: @ketab_n

الصعوبة... دعني أعبّر عن نفسي بهذه الطريقة... إن أسرة ووكر التي يقيم أفرادها في ما نطلق عليه هنا دووك مانور... تعرف ذلك البيت الرمادي الضخم القائم فوق الربوة - ترسل ابنتيها إلى مدرستنا، ولدينا ابنة أخت الرئيس مور، وهي طفلة رائعة حقاً، بالإضافة إلى بنات عدد من أشخاص بارزين آخرين. حسناً، في الظروف الحالية، إن ما يصدمنا هو أن دولي، التي تبدو مثل سيدة صغيرة، تستخدم كلمات، ربما لأنك أجنبي لا تعرفها أو لا تفهمها. ربما كان من الأفضل - هل تريدني أن أستدعي دولي لمناقشة الأمور فوراً؟ لا؟ إذن - حسناً، لندع الأمر. لقد كتبت دولي كلمة بذيئة للغاية تتألف من أربعة حروف، أخبرني الدكتور كتلر أنها كلمة مكسيكية عامية تعني مبولة، بقلم أحمر الشفاه على بعض الكراريس الصحية التي وزعتها الآنسة ريدكوك، التي ستعقد قرانها في حزيران (يونيه)، على الفتيات، وظننا أنه يجب أن نحتجزها لساعات بعد دوام المدرسة - بعد نصف ساعة على الأقل. لكن إذا أردت -».

قلت: «لا، لا أريد أن أتدخل في القواعد المتبعة. سأكلّمها فيما بعد. سأعاقبها».

«إفعل»، قالت المرأة وهي تنهض من فوق ذراع الكرسي الذي تجلس عليه، «وربما نلتقي مرة أخرى قريباً، وإذا لم تتحسّن الأمور، فيمكننا أن نطلب من الدكتور كتلر أن يجري تحليلاً نفسياً لها».

هل ينبغي لي أن أتزوّج برات وأخنقها؟

«... وربما رغب طبيبك في أن يجري لها فحصاً شاملاً - مجرد فحص روتيني. إنها في فصل «الفطر» الصف الأخير في آخر الممر».

وبوسعي القول إن مدرسة بيردسلي تقلّد مدرسة مشهورة للبنات في إنكلترا بإطلاق أسماء «تقليدية» على مختلف الفصول الدراسية فيها: «فطر»، الغرفة - N8، الغرفة - B، الغرفة - BA، وما إلى ذلك. وكانت رائحة الغرفة التي تحمل اسم «فطر» كريهة، وعُلِّقت

Twitter: @ketab_n

فوق السبورة صورة للوحة «عصر البراءة» لرينولدز، وفيها صفوف عديدة من المقاعد السيئة المظهر. وكانت حبيبتي لوليتا تجلس على أحد هذه المقاعد، تقرأ فصل «الحوار» من كتاب «أساليب التمثيل» لبيكر، حيث يسود الهدوء، وكانت هناك فتاة أخرى ذات عنق عار أبيض كالخزف، وشعر بلاتيني رائع، تجلس في الصف الأمامي تقرأ أيضاً، ساهمة في هذا العالم، تلفّ حول أحد أصابعها ضفيرة ناعمة. جلست إلى جانب دولي، مباشرة وراء ذلك العنق، وذلك الشعر، وحللت أزرار معطفي. ولقاء خمسة وستين سنتاً، والسماح لها بالمشاركة في مسرحيّة المدرسة، أقنعت دولي أن تضع يدها الملطخة بالحبر والطباشير، ومفصل أصابعها الحمراء تحت المقعد. وأعطيتها آه، لا ريب أن ذلك كان غباء وطيشاً مني، لكن بعد العذاب الذي عانيته، كان عليّ أن أستفيد من الظروف التي كنت أعرف أنها لن تحدث مرة أخرى.

١٢

عندما اقترب عيد الميلاد، أصيبت لوليتا بزكام شديد، فقامت بفحصها صديقة الآنسة ليستر، الدكتورة إليز تريسترامسون (تحية طيبة لك يا إليز، يا من كنتِ روحاً عزيزة غير فضولية، ويا من لمستِ حمامتي برقة بالغة). فقد تبين لها أنها مصابة بالتهاب في القصبات الهوائية، وربتت على ظهر «لو» (فقد انتصبت زهرتها كلّها بسبب الحمّى) وطلبت منها أن تلزم الفراش لمدة أسبوع أو أكثر. وفي البدء «ارتفعت حرارتها» حسب التعبير الأمريكي، ولم يكن بمقدوري أن أقاوم حرارة المتع والمسرّات غير المتوقّعة - فينوس المحمومة - مع أنها كانت هي، لوليتا الواهنة، التي تئن وتسعل وترتعش وأنا أحتضنها

Twitter: @ketab_n

بين ذراعيّ. وعندما تماثلت للشفاء، أقمت حفلة دعت إليها عدداً من الفتيان.

لعلي شربت أكثر مما ينبغي استعداداً لهذه المحنة. ولعلي جعلت من نفسي أضحوكة. فقد انتهت الفتيات من تزيين البيت، ووضعن شجرة تنّوب صغيرة - عادة ألمانية - واستخدمن مصابيح ملوّنة بدلاً من الشموع، واخترن الاسطوانات وألقمنها في حاكي صاحب البيت. وارتدت دولي فستاناً أنيقاً رمادياً له صدرية ضيّقة وتنورة واسعة. صعدت إلى غرفتي في الطابق العلوي وأنا أدندن لحناً - كنت أنزل إلى الطابق السفلي كلّ عشر أو عشرين دقيقة كأبله وأمضي بضع ثوان، متظاهراً بأنني أريد أن آخذ غليوني من فوق رف الموقد، أو أبحث عن صحيفة. وكان القيام بذلك يزداد صعوبة في كلّ مرة، وتذكّرت الأيام الخوالي المرعبة عندما كنت أتظاهر بأنني أدخل الغرفة عرضاً في البيت في رامسدال، عندما تكون كارمن الصغيرة هناك.

لم تكلل الحفلة بالنجاح. فمن بين الفتيات المدعوات الثلاث، لم تأت أياً منهن، وأحضر أحد الفتيان ابن عمه روي، لذلك كان هناك صبيّان زائدان، وكان أبناء العم يجيدان الرقص، أما الفتيان الآخرون فبالكاد كانوا يجيدونه، وأمضى الجميع معظم الأمسية وهم يتعابثون في المطبخ، ثم في ثرثرة لانهائية عن لعبة الورق التي سيلعبونها، ثم جلست فتاتان وأربعة فتيان على أرضية غرفة الجلوس، وشرّعوا النوافذ جميعها، وراحوا يلعبون لعبة كلمات لم يفهمها أويال، بينما راحت مونا وروي، وهو فتى وسيم نحيف، يحتسيان البيرة في المطبخ، وجلسا على الطاولة وكانا يدلّيان ساقيهما، ويناقشان أمور القضاء والقدر وقانون المعادلات. وبعد أن غادروا جميعاً، قالت «لو» آه، وأغمضت عينيها، وتهاوت على كرسي ورفعت أطرافها الأربعة مبدية أقصى درجات الاشمئزاز والإعياء، وأقسمت بأن هؤلاء الفتيان هم أسوأ فتية

Twitter: @ketab_n

رأتهم في حياتها. اشتريت لها مضرب تنس جديد لقاء هذه الملاحظة.

كان شهر كانون الثاني (يناير) رطباً ودافئاً، وكان شهر شباط (فبراير) محموماً: فلم ير أحد من أهالي البلدة مثل هذا الطقس قط. وبدأت الهدايا الأخرى تترى. فقد اشتريت لها بمناسبة عيد ميلادها دراجة عادية، دراجة رائعة تشبه ظبية، وأضفت إليها كتاب «تاريخ الرسم الأمريكي الحديث». وكانت طريقتها في ركوب الدراجة، أقصد طريقتها في ركوبها، حركة الورك عندما تركبها، بهاء ذلك، وما شابه ذلك، تمنحني أعظم متعة، لكن محاولتي لتشذيب ذوقها في الرسم باءت بالفشل. وكانت تريد أن تعرف هل أن الرجل الذي يأخذ قيلولة الظهيرة فوق كومة القشّ في بيت دوريس لي، هو والد الفتاة الصاخبة الشهوانية الزائفة في مقدمة الصورة، ولم أفهم لماذا قلت لها إن غرانت وود أو بيتر هيرد جيدان، وأن ريغنالد مارش أو فردريك ووغ سيئان.

١٣

ما إن لامس الربيع شارع ثاير ستريت وكساه بألوانه الزاهية الأصفر والأخضر والوردي، حتى تملكت لوليتا الرغبة في التمثيل. ففي صباح أحد أيام الأحد، رأتني برات من بعيد عندما كانت تتناول طعام الغداء مع أشخاص آخرين في حانة والتون، فصفقت بيديها ببطء وبطريقة عاطفية، ولم تكن «لو» تنظر ناحيتها. إني أمقت المسرح وأعتبره، من الناحية التاريخية، ظاهرة بدائية عفنة، ظاهرة تقلّد طقوس العصر الحجري، والتفاهات المجتمعية بالرغم من حقنها بالعبقريات الفردية، مثل الشعر من العصر الإليزابيثي ويمكن للقارئ المنغلق أن يتبين ذلك تلقائياً. ولما كنت منهمكاً حالياً في أعمالي الأدبية، فلم أكترث بقراءة النص الكامل لمسرحية «الصيّادون المسحورون»، التي ستؤدي فيها

Twitter: @ketab_n

دلوريس هايز دور ابنة مزارع تظن نفسها ساحرة من ساحرات الغابات، أو ديانا، إلهة الصيد، تورّط، بعد أن تعثر على كتاب عن التنويم المغناطيسي، عدداً من الصيّادين التائهين في مغامرات مسلّية مختلفة، قبل أن تسقط تحت تأثير شاعر متشرّد (مونا داهل). لقد تمكّنت من جمع ذلك من شذرات من مخطوطة مجعّدة سيئة الطباعة بعثرتها «الو» في أرجاء البيت. وكانت الصدفة بتطابق عنوان المسرحية مع اسم الحانة التي لا يمكن نسيانها أمر لطيف على نحو حزين: وقلت لنفسي بمرارة من الأفضل ألاّ ألفت انتباه ساحرتي إلى ذلك، لكي لا تتهمني بشكل مقزز وتجرح مشاعري، وأدعها تلاحظ ذلك بنفسها. ويخيّل إليّ أن هذه المسرحية ما هي إلا نسخة أخرى، غير معروفة عملياً، من أسطورة مبتذلة. ويخيّل إليّ أن مؤسس الفندق كان يبحث عن اسم جذّاب، وتأثر بمخيلة رسام جداريات من الدرجة الثانوية فطلب منه أن يرسم تلك اللوحات على جدران النزل، فأوحى اسم الفندق عنوان المسرحيّة. لكن في رأيي الساذج، البسيط، المجبول على حبّ الخير، أنني تمكنت من نقل الأمر إلى الجانب الآخر. ومن دون إيلاء الأمر الكثير من التفكير، خيّل إليّ أن اسم تلك اللوحة الجدارية وعنوانها مستمدان من مصدر مشترك، من أحد التقاليد المحلية، الذي يفترض بي، أنا الأجنبي الجاهل في أمور نيو إنغلند، أن أعرفها. باختصار، تكوّن لديّ انطباع (حدث كلّ ذلك بشكل عرضي، كما تعرفون، خارج مدار اهتمامي تماماً) بأن هذه المسرحية اللعينة تنتمي إلى ذلك النوع من الاستهلاك النزواتي الصبياني، الذي يتم اقتباسه مراراً وتكراراً، مثل «هانسيل وغريتيل» لريتشارد رو، أو «الحسناء النائمة» لدوروثي دو، أو «ثياب الامبراطور الجديدة» لموريس فيرمونت وماريون رومبيلمير - ويمكنك أن تراها جميعها في أيّ من هذه الكتب «مسرحيّات للممثلين في المدارس» أو «لنمثّل مسرحيّة». بمعنى آخر، لم أكن أعرف - ولم

Twitter: @ketab_n

أكن أعبأ، إن كنت أعرف - أن مسرحيّة «الصيّادون المسحورون» قد كتبت مؤخراً، وأنها أصلية تقنياً، وأن مجموعة مثقّفة في نيويورك كانت قد عرضتها للمرة الأولى قبل ثلاثة أو أربعة أشهر. وبدت لي - تمكنت من الحكم عليها بواسطة ساحرتي - عملاً كئيباً، مع أصداء من لينورماند ومايترلنك، وحالمين بريطانيين هادئين مختلفين.

وكان أحد هؤلاء الصيّادين الذين يعتمرون قبعات حمر، ويرتدون زياً موحداً، مصرفياً، وآخر سبّاكاً، وشرطياً، وحانوتياً، ووكيل شركة تأمين، وسجيناً هارباً (لا بد أنكم ترون الاحتمالات)، وقد أدخلت عليها تغييرات كاملة في وادي دولي الصغير، ولم يتم تذكّر حياتهم الحقيقية إلا كأحلام أو كوابيس أثارتها دايانا الصغيرة؛ أما الصيّاد السابع (المعتمر قبعة خضراء، ذلك الأحمق) الذي كان شاعراً شاباً، ويصرّ، بالرغم من إزعاج ديانا، على أنها هي والتسلية التي تقدّمها (حوريات يرقصن وجنيات ووحوش) من اختراعه هو، الشاعر. وفهمت أخيراً، باشمئزاز تام من ثقته الشديدة بنفسه، أن على دلوريس الحافية القدمين أن تقود مونا التي ترتدي بنطالاً ذا مربعات إلى مزرعة والديها وراء «غابة الأخطار» لكي تثبت للمتبجّحين أنها ليست من نسج خيال شاعر، بل فتاة ريفية، ابنة الأرض البنيّة، وتؤكد في آخر دقيقة الرسالة العميقة للمسرحيّة، وهي أن الوهم والحقيقة يمتزجان في الحب. واعتبرت أن من الحكمة ألاّ أنتقد ذلك أمام «الوليتا»: التي كانت منهمكة تماماً في «مشاكل التعبير»، إذ كانت تضم يديها النحيلتين الجميلتين، بطريقة فاتنة وجذابة، وترمش بأهدابها وهي تتوسل إليّ بأن لا أحضر تلك التدريبات، كما يفعل بعض الأباء التافهين، لأنها تريد إبهاري بعرضها في ليلة الافتتاح - ولأنني أتدخّل دائماً في شؤونها، ولا أقول الأشياء بصورتها الصحيحة، وأنتقد أسلوبها في حضور الآخرين.

ثم حلّ يوم التدريب ذاك، الذي كان خاصاً جداً. . . آه يا قلبي،

Twitter: @ketab_n

يا قلبي. . . فقد عمّ المرح أحد أيام شهر أيار (مايو) - لقد أضحى كل ذلك من ضرب الماضي، وتجاوز حدود رؤيتي ومعرفتي، محصّناً إزاء ذاكرتي. وعندما رأيت «لو» بعد ذلك، في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، تحاول أن تتوازن على درّاجتها، وتضغط براحة يدها على اللحاء الرطب لشجرة بتولا صغيرة على حافة عشب حديقتنا، أذهلتني رقة ابتسامتها المتألقة، وخيّل إليّ لوهلة أن جميع مشاكلنا قد تلاشت. وقالت: «هل تتذكّر اسم ذلك الفندق، إنك تعرف [أنفها مشموراً]، هيا، إنك تعرف - الذي توجد فيه الأعمدة البيضاء، والبجعة الرخامية في البهو؟ آه، إنك تعرف [تتنفس بصوت ينبعث منه ضجيج] الفندق الذي اغتصبتني فيه. حسناً، انس الأمر. أقصد، إنه هو [يكاد يكون همساً] «الصيّادون المسحورون»؟ أوه، إنه هو؟ [بتأمل] هل كان ذلك؟» ويضحكة ربيعية شهوانية صاخبة، صفعت ساقها اللمّاع، وانطلقت بدراجتها صاعدة الربوة، حتى نهاية الشارع، ثم عادت، وقدماها مسترخيتان فوق الدواستين الواقفتين، في وضعية استرخاء، إحدى يديها ترقد حالمة في حضن فستانها المزهر.

١٤

سمحت للوليتا أن تأخذ دروساً في البيانو على يد امرأة تدعى الآنسة إمبرور «إمبراطور» (كما يمكننا أن نطلق عليها، نحن المثقفين الفرنسيين) بسبب اهتمامها الشديد بالرقص والتمثيل. وكان على «لو» الذهاب بالدراجة إلى ذلك البيت الأبيض الصغير الذي تغطي نوافذه مصاريع زرقاء، ويبعد قرابة ميل وراء بيردسلي، مرّتين في الأسبوع. وفي إحدى ليالي الجمعة في أواخر شهر أيار (مايو) (بعد مضي حوالى أسبوع على ذلك التدريب الخاص الذي طلبت فيه «لو» مني ألا

Twitter: @ketab_n

أحضره)، رنّ جرس الهاتف في غرفتي، وأنا على وشك أن أهزم «ملك» غوستاف - أقصد غاستون - وسألتني الآنسة إمبراطور هل ستأتي «لو» يوم الثلاثاء القادم لأنها لم تحضر الدرس يوم الثلاثاء الماضي، ولم تحضر الدرس اليوم. فقلت لا بد أنها ستأتي - وواصلت اللعب. وكما يمكن للقارئ أن يتصور، فقد انتاب ملكاتي الفكرية الآن وهن شديد، وبحركة أو حركتين لاحقتين، عندما جاء دور غاستون في اللعب، لاحظت من خلال غشاوة كآبتي الرقيقة أنه يستطيع أن يهزم «ملكتي»، وقد لاحظ ذلك هو أيضاً، لكنه حسب أن ذلك قد يكون فخّاً نصبه له خصمه العنيد، فاعترض لوهلة، وأرغى وأزبد، وحرّك فكيه، بل رمقني بنظرات خفيّة، وحرّك أصابعه المكتنزة متردّداً - متلهفاً لأن يهزم تلك الملكة الشهية، لكنه لم يجرؤ - وبغتة انحنى فوقها (من يعرف إن لم يعلّمه ذلك شيئاً من الجرأة؟) وأمضيت ساعة كئيبة لتحقيق التعادل. جرع كأس البراندي وابتعد بتثاقل في الحال، راضياً كل الرضى بهذه النتيجة (صديقي المسكين، لم أرك بعد ذلك قط، وبما أنك قد لا ترى كتابي، فاسمح لي أن أخبرك بأنني أريد أن أشدّ على يدك بودّ شديد، وأن فتياتي الصغيرات يرسلن لك تحياتهن). وجدت دلوريس هايز تجلس إلى طاولة المطبخ، وهي تلتهم فطيرة، وعيناها مسمّرتان على دورها في المسرحية. رفعت عينيها لتلتقيان بعينيّ بنوع من تفاهة سماوية. لبثت هادئة من دون أن يرمش لها جفن، عندما واجهتها باكتشافي، فقالت بتعابير تشي بالزيف إنها تعرف أنها طفلة شرّيرة، لكن لم يكن بإمكانها مقاومة السحر، وإنها أمضت ساعات الموسيقى تلك - أيها القارئ، يا قارئي! - في حديقة عامة قريبة تتدرّب على مشهد الغابة السحرية مع مونا. قلت «حسناً» - وهرعت إلى الهاتف. أجابت أمّ مونا: «نعم، إنها هنا»، وتراجعت وأطلقت ضحكة أمّ حيادية تشي بمتعة مهذبة، وصاحت، «روي على الهاتف»،

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما جاءت مونا، وعلى الفور، بدأت توبّخ روي بصوت خفيض رتيب مباشر، لكنه غير لطيف، على شيء كان قد قاله أو فعله، فقاطعتها، وفي الحال، قالت مونا بصوت متواضع، مثير للغاية: «نعم يا سيدي»، «بالتأكيد، سيدي»، «أنا من يستحق اللوم، يا سيدي، في هذا الأمر المؤسف» (أي طلاقة! أي ثقة بالنفس!) «صدقاً، إني آسفة جداً لما حدث». وما إلى ذلك من الأشياء التي تقولها تلك العاهرات الصغيرات.

وهكذا هبطت إلى الطابق السفلي، أتنحنح واضعاً يدي على قلبي. وكانت «لو» قد انتقلت الآن إلى غرفة الجلوس، وتمددت على الكرسي الوثير الذي كانت تحب التمدد عليه. كانت تقضم أظافرها هازئة بي بعينيها الضبابيتين، المجردتين من الرحمة، وتهزّ كرسياً بكعب قدمها الحافية. وأدركت بغثيان شديد مدى التغيّر الذي طرأ عليها فجأة، منذ أن التقيتها للمرة الأولى قبل سنتين. أم هل حدث ذلك خلال هذين الأسبوعين الأخيرين؟ الرقة؟ بالتأكيد كان ذلك مجرد أسطورة. جلست في بؤرة غضبي المتقد، بعد أن تلاشى ضباب شبقي كلّه، ولم يتبق لي سوى هذا الصفاء المخيف. آه، لقد تغيّرتْ! وأضحت بشرتها مثل بشرة أيّ فتاة سوقية وسخة في المدرسة الثانوية تضع مكياجاً تتقاسمه مع فتيات أخريات بأصابع قذرة على وجه لم يُغسل، غير عابئة بالمزيج الملطخ، ولا بالبثور التي قد تسببها لجلدها. كانت طراوتها الناعمة رائعة في الأيام القليلة الماضية، براقة بالدموع، عندما كنت أدحرج رأسها بشعره الأشعث على ركبتيّ وأنا ألاعبها. أما الآن فقد حلّت بشرة حمراء خشنة محل ذلك الاشعاع البريء. ولوّن ما يُعرف محلياً «بزكام الأرنب» حواف فتحتيْ أنفها المزريتين، بلون وردي ملتهب. وعندما خفضت عينيّ مذعوراً، انزلقت لا شعورياً على طول باطن فخذها العارية الممدودة بتوتر - اكتست فخذاها المصقولتان بالعضلات!

Twitter: @ketab_n

وظلت عيناها الواسعتان، اللتان يغشاهما لون زجاجي رمادي، والمحتقنتان بلون أحمر قانٍ، مسمّرتين عليّ، ورأيت فيهما فكرة خفيّة بأن مونا قد تكون على حق، وأنها تستطيع، «لو» اليتيمة، أن تكشفني من دون أن تلوم نفسها. لشدّ ما كنت مخطئاً. لشدّ ما كنت مجنوناً! كان كلّ شيء فيها يوحي بذلك الاستفزاز الذي لا يمكن اختراقه - قوة ساقيها الرشيقتين، نعل جوربها الأبيض الوسخ، كنزتها السميكة التي ترتديها بالرغم من حرارة الغرفة، ورائحتها تلك، وخاصة طرف وجهها باحمراره الغريب، وشفتاها المطليتان حديثاً بأحمر الشفاه. وكان الاحمرار الطفيف قد خلّف بقعاً حمراء على أسنانها الأمامية، وتذكرت أمراً أذهلني - فلم تكن الصورة المستحضرة هي صورة مونيك، بل صورة مومس شابة أخرى في مبغى سري، منذ زمن طويل، تلقّفها شخص آخر قبل أن يتاح لي الوقت لأتأكد من أن شبابها فقط هو الذي جعلني أجازف بالإصابة بمرض مروّع - وكانت وجنتاها ناتئتين، وأمها ميتة، وأسنانها الأمامية كبيرة، وعصابة حمراء قذرة تحيط بشعرها الفلاحي البني اللون.

«هيا تكلّم»، قالت «لو»، «هل اقتنعت بالدليل؟»

«آه، نعم»، قلت، «رائع. نعم. ولا أشكّ في أنكما اختلقتما هذه القصة. في الواقع، لا أشكّ في أنك قد أخبرتها كلّ شيء عنا».

«ماذا؟»

تمالكت نفسي وقلت: «دلوريس، يجب أن يتوقّف كلّ ذلك في الحال. فأنا مستعد لأن أخرجك من بيردسلي، وأسجنك في مكان لا يعرفه أحد، لكن يجب أن يتوقّف كل ذلك. إني مستعدّ لأن آخذك بعيداً خلال الفترة التي يستغرقها حزم حقيبة. يجب أن يتوقّف كلّ ذلك، وإلاّ فإن أيّ شيء قد يحدث».

«يمكن أن يحدث أيّ شيء، ههه؟»

Twitter: @ketab_n

انتزعت الكرسي الذي كانت تهزّه بكعبها من تحت قدمها، فسقطت قدمها على الأرض.

«هيه»، صاحت، «هوّن عليك».

«قبل كلّ شيء، إصعدي إلى الطابق العلوي»، صحت فيها - أمسكتها وسحبتها - منذ تلك اللحظة، لم أعد أخفض صوتي، وراح أحدنا يصيح في وجه الآخر، وقالت، أشياء لا يمكنني ذكرها هنا. قالت إنها تمقتني. وصارت تلوي وجهها ببشاعة أمامي، تنفخ خديها، وتصدر صوت فرقعات شيطانية. قالت إني حاولت اغتصابها عدة مرات عندما كنت نزيلاً في بيت أمّها. وقالت إنها واثقة من أنني قتلت أمّها. وأضافت أنها ستنام مع أول رجل يطلب منها ذلك، وأنني لا أستطيع أن أمنعها من ذلك. فطلبت منها أن تصعد إلى غرفتها وأن تريني الأماكن التي تخبئ فيها أشياءها. كان مشهداً صاخباً مشحوناً بالضغينة. أمسكتها من رسغها الناتئ فجاهدت للتملص مني، لكنني أمسكتها بقوة، وفي الواقع آلمتها كثيراً، وتمنيت أن يتعفّن قلبي بسبب ذلك، وحاولتْ، مرّة أو مرّتين، أن تسحب ذراعها بشدة، إلى درجة أنني خشيت أن ينخلع رسغها، ولم ترفع عينيها عني طوال الوقت، هاتين العينين اللتين لا يمكن نسيانهما وهي تغالب غضبها ودموعها الحارة. وغطى صوتنا على رنين الهاتف، وعندما أدركنا أنه يرنّ، أفلتت مني وجرت مبتعدة في الحال.

ويبدا لي أنني أشارك الآخرين في خدمات الآلة التلفونية وإلهها المفاجئ. وكانت هذه المرة جارة غاضبة. فقد صادف أن النافذة الشرقية في غرفة الجلوس كانت مشرّعة، وحمدت الله أن الستارة كانت مسدلة، وكانت هذه الجارة تقف من ورائها، تنصت إلينا بلهفة في عتمة الليل في ربيع نيو إنغلند الرطب. وخيّل إليّ أن شخصية تلك العانس ذات الجلد السميك والعقل الفاحش هي من بنات خيال التوالد الأدبي

Twitter: @ketab_n

الكبير في الرواية الحديثة، لكنني أضحيت مقتنعاً الآن بأن تلك المرأة المتزمتة والشهوانية، الآنسة إيست - أو للكشف عن اسمها الحقيقي، الآنسة فيتون ليبون - التي كان ثلاثة أرباع جسدها يتدلى من نافذة غرفة نومها، باذلة أقصى ما يمكنها لتفهم ما يدور بيننا.

«. . . هذه الضوضاء. . . تفتقر إلى كلّ إحساس بـ. . .»، قرقرت المرأة على السماعة، «إننا لا نعيش في مبنى يضم شققاً كثيرة. يجب أن أؤكد. . .».

اعتذرت منها قائلاً إن ذلك بسبب أصوات صديقات ابنتي المرتفع. إنهم شباب، كما تعرفين - وهكذا قطعت عليها الطريق.

وفي الطابق السفلي، صفق الباب الخارجي. هل هربت «لو»؟

ومن النافذة الصغيرة على الدرج، رأيت طيفاً صغيراً طائشاً يجري عبر الشجيرات. نقطة فضية في محور عجلة الدراجة المظلم وهي تتحرك، ارتجفت. لقد هربت.

وصادف أن السيارة كانت تمضي الليلة في ورشة تصليح في وسط المدينة. ولم يكن أمامي بديل آخر سوى أن أجرى للحاق بهذه الهاربة ذات الأجنحة. وعلى الرغم من مضي أكثر من ثلاث سنوات، لا أستطيع تصوّر ذلك الشارع في تلك الليلة الربيعية، ذلك الشارع الذي تحفّه الأشجار، من دون أن ألهث فزعاً. وأمام شرفتها المضاءة، كانت الآنسة ليستر تنزّه كلب الآنسة فافيان، الذي كاد أن يدهسه السيد هايد بقدميه. إمش ثلاث خطوات، واركض ثلاثاً أخرى. ويبدأ نثيث ناعم من المطر يهمي على أوراق الأشجار الكستنائية. وعند الناصية التالية، رأيت شاباً لم تكن قسماته واضحة يدفع لوليتا نحو درابزين حديدي، يضمها ويقبّلها - لا، ليست هي، إنني مخطئ. لا تزال مخالبي تؤلمني، تابعت الجري.

وبعد حوالى نصف ميل إلى شرق البيت رقم أربعة عشر، يتفرّع

Twitter: @ketab_n

شارع ثاير ستريت إلى زقاق خاص ويتقاطع مع شارع آخر، يفضي إلى البلدة نفسها. وأمام أول صيدلية، رأيت - بارتياح شديد - دراجة لوليتا الجميلة تنتظرها. أخذت أدفع بدلاً من أن أسحب، أسحب، أدفع، أسحب، ودخلت. انتبه! لوليتا على مسافة عشر خطوات تقريباً، من وراء زجاج مقصورة الهاتف (إله غشائي لا يزال يرافقنا) ممسكة بيدها سماعة الهاتف، متكوّرة فوقها تخبئها، وعندما رأتني، استدارت، وأعادت السماعة إلى مكانها بسرعة، وهرعت خارج المقصورة.

«كنت أحاول الاتصال بك في البيت»، قالت مبتسمة، وأضافت، «لقد اتخذت قراراً عظيماً، لكن إشترِ لي أولاً مشروباً يا أبي».

وراحت تراقب الفتاة البائعة الشاحبة الواهنة وهي تضع الثلج في الكأس، ثم تصبّ فيها الكولا، ثم تضيف عصير الكرز - غمر قلبي ألم الحبّ - ذلك الرسغ الطفولي. طفلتي الجميلة. لديك طفلة جميلة يا سيد همبرت. إننا نعجب بها دائماً عندما تمرّ من هنا. وراح السيد بيم يراقب بيبا وهي تمتص ذلك المزيج من الشراب.

«طالما أعجبت بفندق أورموند الرائع في دبلن».

وفي هذه الأثناء، بدأ المطر ينهمر بغزارة.

«انظر»، قالت وهي تمتطي الدرّاجة إلى جانبي، وأحد قدميها يقشط فوق الرصيف المظلم بشكل متألّق، «انظر، لقد قرّرت شيئاً. أريد أن أترك المدرسة، لأنني أكرهها، إنني أكره المسرحيّة، هذه هي الحقيقة! لا تعد أبداً. ابحث عن مدرسة أخرى. لنغادر في الحال. لننطلق في رحلة طويلة أخرى. لكن هذه المرة سنذهب إلى المكان الذي أحدده أنا، أليس كذلك؟»

أومأت. حبيبتي لوليتا.

أنا التي «أختار؟ مفهوم؟» سألت وهي تتمايل نحوي. كنت أستخدم اللغة الفرنسية عندما كانت طفلة صغيرة جيدة.

Twitter: @ketab_n

«حسناً. اتفقنا. هيا اقفز - اقفز - اقفز الآن، يا لينور، وإلا تبللت حتى العظام». (عاصفة من التنهدات كانت تملأ صدري).

كشفت عن أسنانها، وبأسلوبها كتلميذة مدرسة رائعة، مالت إلى الأمام، وانطلقت عصفورتي بسرعة.

كانت يد الآنسة ليستر المشذّبة تفتح باب الشرفة لكلبها العجوز الذي كان يبول.

كانت «لو» تنتظرني قرب شجرة البتولا الشبحية.

«إني مبللة حتى العظم»، صاحت بأعلى صوتها، «هل أنت سعيد؟ لتذهب المسرحية إلى الجحيم! أتفهم قصدي؟»

مخلب عجوز شمطاء غير مرئية صفقت نافذة في أحد الطوابق العلوية.

في بهو بيتنا الذي تغمره الأضواء المرحبة، نزعت لوليتاي بلوزتها، ونفضت شعرها المرصّع بالجواهر، مدّت نحوي ذراعين عاريتين، ورفعت إحدى ركبتيها وقالت: «احملني إلى الطابق العلوي من فضلك. يخالجني شعور بالرومانسية هذه الليلة».

وقد يثير اهتمام علماء الفيزيولوجيا أن يعرفوا، في هذه اللحظة، بأن لديّ القدرة - ويخيّل إليّ أنها قدرة فريدة - على ذرف سيول من الدموع في العاصفة الأخرى كلها.

١٥

دفع بابا همبرت الذي لا يتقن الأمور المتعلقة بالميكانيك، أجر إصلاح الفرامل، والأسلاك والصمامات في السيارة، بالإضافة إلى عدد من التصليحات والتحسينات الأخرى، فغدت سيارة المرحومة السيدة همبرت في حالة محترمة، وأصبحت مهيأة للانطلاق في رحلة جديدة.

Twitter: @ketab_n

وكنا قد وعدنا مديرة مدرسة بيردسلي، مدرسة بيردسلي الجيدة القديمة، بأننا سنعود إليها عندما أنهي ارتباطاتي في هوليود (فقد غدا المبدع همبرت، كما ألمحتُ، كبير المستشارين لإنتاج فيلم يتناول قضية «الوجودية»، الموضوع الذي كان لا يزال موضوعاً لاهباً آنذاك). وفي واقع الحال، كانت تداعبني فكرة عبور الحدود المكسيكية - فقد أضحيت أكثر شجاعة مما كنت عليه في السنة الماضية - وأقرر هناك ماذا أفعل بخليلتي الصغيرة التي أصبح طولها ستين بوصة، ووزنها تسعين باونداً. وهكذا رحنا نبحث في الكتب والخرائط السياحية، وراحت تتبع الطريق الذي سنسلكه، بحماسة منقطعة النظير.

هل جعلتها الأدوار المسرحية التي أتقنت أداءها تتخلى عن تصرفاتها الطفولية، وأصبحت تبدو متحمسة لسبر معالم الواقع الثري؟ لقد اعترتني تلك الخفّة الغريبة من الأحلام في صباح يوم أحد شاحب لكن دافئ، عندما غادرنا منزل أستاذ الكيمياء الذي يعجّ بالألغاز، وأسرعنا على طول الشارع الرئيسي باتجاه الطريق السريع المقسم إلى أربعة مسارات. ولم يكن فستان محبوبتي القطني بخطوطه البيضاء والسوداء، وقبعتها الزرقاء الأنيقة، وجوربها الأبيض، وخفّها من دون كعب، تناسب قطعة الزبرجد الكبيرة الجميلة المعلّقة في سلسالها الفضّي التي ترصّع رقبتها: الهدية التي قدمتها لها في الربيع. اجتزنا «الفندق الجديد»، وضحكت. قلت لها: «تُرى بماذا تفكّرين»، فمدّت راحة يدها على الفور، لكن تعيّن عليّ في تلك اللحظة أن أضغط على الفرامل بقوة وبصورة مفاجئة عند الضوء الأحمر. وما إن توقفنا، حتى انزلقت سيارة أخرى، وتوقّفت بجانب سيارتنا. حيّت «لو» شابة ضامرة ذات جسد رياضي (أين رأيتها؟) وبشرة بيضاء نقية، وشعرها البرونزي البراق ينسدل على كتفيها، وقالت لها «مرحبا»، بنبرة فيها جرس رائع - ثم قالت تخاطبني، بحيوية، مشدّدة على بعض الكلمات، «من

Twitter: @ketab_n

المؤسف أنك لم تسمح لدولي أن تمثّل في المسرحية - كان يجب أن تسمع المؤلف وهو يمتدحها بعد ذلك التدريب ـــ». فقالت «لو» هامسة، «لقد أضاء الضوء الأخضر، أيتها الغبية»، وبطريقة آلية، لوّحت مودعة بذراعها ذات الأساور، جان دارك (في دور في مسرحية شاهدناها على مسرح البلدة) وابتعدت بسيارتها بسرعة كبيرة، ثم انعطفت إلى جادة كامبوس.

«من هو بالتحديد؟ فيرمونت أم رومبيلميير؟»

«لا - إنها إدوسا غولد - التي تدرّبنا».

«لم أقصدها هي. ما اسم الشخص الذي كتب المسرحية؟»

«آه! نعم، طبعاً. امرأة عجوز، تدعى كلير كذا، على ما أظن. كان هناك عدد منهم».

«إذاً امتدحتك؟»

«امتدحت عينيّ - قبّلتني على حاجبيّ» - وأطلقت محبوبتي تلك الصيحة الجديدة المبتهجة التي - ربما كان لها صلة بسلوكها المسرحي - بدأت تقلدها مؤخراً.

«إنك فتاة مضحكة يا لوليتا»، قلت ذلك - أو ما شابه هذه الكلمات. «من الطبيعي أن الغبطة تغمرني لأنك تخلّيت عن هذه المسرحية السخيفة. لكن الغريب أنك تخلّيت عن ذلك قبل أسبوع من بلوغ ذروتها الطبيعية. آه، لوليتا، يجب أن تحذري من التخلي عن الأمور بهذه السهولة. فأنا أذكر أنك تخلّيت عن المخيّم في رامسدال، وتخلّيت عن المخيّم من أجل رحلة ممتعة في السيارة، وأستطيع أن أذكر لكِ قائمة بالتغيرات غير المتوقعة الأخرى التي طرأت على مزاجك. يجب أن تنتبهي لذلك. هناك أشياء يجب ألاّ تتخلّي عنها. يجب أن تثابري. يجب أن تكوني أكثر لطفاً معي يا لوليتا، ويجب أيضاً أن تنتبهي لطعامك. فكما تعرفين، يجب ألاّ يتجاوز محيط فخذك سبع

Twitter: @ketab_n

عشرة بوصة ونصف البوصة. وإذا زاد محيطه على ذلك، سيصبح الأمر قاتلاً (بالطبع كنت أمزح). لقد انطلقنا الآن في رحلة طويلة سعيدة. أتذكر ـــ».

١٦

أذكر أنني عندما كنت طفلاً في أوروبا أحدّق في خريطة أميركا الشمالية التي تصوّر «جبال أبالاتشيان» التي تمتد بجرأة من ألاباما إلى نيو برونسويك، كانت المنطقة كلها التي تغطيها الخريطة - تينيسي، ولايتا فيرجينيا، بنسلفانيا، نيويورك، فيرمونت، نيوهامشير، ومين - تبدو لمخيلتي أنها تشبه سويسرا لكنها شاسعة المساحة، أو جبال التبت. إذ تغطي الجبال المنطقة برمتها، قمّة ماسيّة متألقة فوق قمّة، أشجار صنوبر عملاقة، سكان الجبال المنفيون يتدثرون بفراء الدبّ، و«النمر الرابض» لغولد سميث، والهنود الحمر القابعون تحت أشجار الكاتالبا. أما الآن فقد انتهت كل هذه الروعة واستحالت إلى حديقة في إحدى الضواحي ومحرقة قمامة يتصاعد منها الدخان. إنه شيء مروّع حقاً. الوداع، يا أبالاتشيا! وعند مغادرتها، عبرنا إلى أوهايو، وإلى الولايات الثلاث التي تبدأ أسماؤها بحرف "I" ونبراسكا - آه، أول نفحة من المناطق الغربية! لم نكن في عجلة من أمرنا، بل كنا نسير ببطء، وكان لا يزال أمامنا أكثر من أسبوع لبلوغ وايس، والخط القاري حيث كانت تتلهف لمشاهدة الرقصات الشعبية بمناسبة افتتاح «الكهف السحري»، وكان أمامنا ما لا يقل عن ثلاثة أسابيع حتى نصل إلى إلفينستون، جوهرة الولاية الغربية، حيث كانت تتوق إلى تسلّق «الصخرة الحمراء» التي قفزت من فوقها نجمة سينمائية مؤخراً وهي ثملة ولقت حتفها بعد مشادة مع عشيقها.

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى، بدأت ترحب بنا النزل المتحفظة التي علّقت يافطات كتب عليها:

«نأمل أن تشعروا بأنكم في بيتكم خلال إقامتكم هنا. لقد رتبنا وفحصنا كل المعدات وقطع الأثاث بعناية فائقة قبل قدومكم. رقم رخصة سيارتكم مسجل هنا. يرجى الاقتصاد في استخدام المياه الحارة. نحتفظ بالحقّ في طرد أيّ شخص غير مرغوب فيه من دون إشعار مسبق. لا ترموا الفضلات مهما كان نوعها في حوض المرحاض. شكراً. أعيدوا الكرّة. الإدارة. ملاحظة: إننا نعتبر ضيوفنا من أروع وأجمل الأشخاص في العالم».

في هذه الأماكن المرعبة دفعنا عشرة دولارات لقاء غرفة بسريرين، حيث كان الذباب يتحلّق على الباب الخارجي الذي لم يكن يستره غربال. ونجحنا بدخول الغرفة، حيث كان رماد أسلافنا لا يزال قابعاً في منافض السجائر. وكانت هناك شعرة امرأة على الوسادة، وكان بوسع المرء أن يسمع جاره وهو يعلّق معطفه على المشجب في الخزانة في غرفته، حيث ثُبّتت المشاجب بطريقة إبداعية على قضبانها بأسلاك ملفوفة للحيلولة دون سرقتها. ولتتويج المهانة، علّقت على الجدار فوق الأسرّة صور لتوائم متشابهة. ولاحظت كذلك أن الأسلوب التجاري بدأ يتغيّر. إذ كان هناك ميل لدمج المقصورات بعضها ببعض لتشكل تدريجياً قافلة، ويا للعجب (لم تبدِ اهتماماً، لكن أرجو أن يبدي القارئ اهتماماً بذلك)، فقد أضيف طابق ثان، وأقيم بهو واسع، ونقلت السيارات إلى مرآب عمومي، وتحوّل النزل إلى فندق قديم جيد.

وها أنذا أحذّر القارئ بألاّ يسخر مني أو من المتاهة العقلية التي اعترتني. فمن السهل عليه وعليّ الآن فكّ طلاسم قَدَرٍ وصل إلى نهايته، القَدَر الذي بدأ يتشكل حالياً، صدقوني، وليس قدراً من قصص

Twitter: @ketab_n

الألغاز الصادقة التي كلّ ما عليكم فعله هو أن تبحثوا عن مفاتيح لفكّ اللغز. فعندما كنت شاباً، قرأت قصة بوليسية فرنسية كتبت القرائن فيها بأحرف مائلة، لكن ليس هذا أسلوب ماكفات - حتى لو تعلم المرء أساليب اكتشاف بعض المؤشرات الغامضة.

فعلى سبيل المثال: لن أقسم أنني لم أتكلم مع شخص غريب وأفضي له بأي معلومات، قبيل المرحلة الأولى من رحلتنا باتجاه الغرب الأوسط، أو في بدايتها. فقد توقّفنا عند محطة بنزين، تحت يافطة كتب عليها شعار «الحصان المجنح»، وانسلّت من مقعدها وهرعت إلى الجزء الخلفي من المحطة، إلا أن غطاء محرك السيارة المرفوع، الذي كنت منحنياً تحته، أراقب ماذا يصنع الميكانيكي، جعلها تتوارى عن أنظاري لبرهة. ولمّا كنت بطبعي رجلاً متساهلاً متسامحاً، فلم أفعل شيئاً سوى أني هززت رأسي الوديع، بالرغم من أنني كنت قد منعتها من الذهاب إلى هذه الأماكن منعاً باتاً، لأنّ شعوراً غريزياً كان ينتابني، بأن الحمّامات المشتركة - ومقصورات الهواتف أيضاً - هي الأماكن، لأسباب لا يمكنني إدراكها، التي سينتهي فيها مصيري. فلدينا جميعاً مثل هذه الأشياء المصيرية - التي قد تشكل مشهداً طبيعياً متكرّراً في حالة ما، وفي مشهد آخر قد يكون عدداً - تختارها الآلهة بعناية لجذب أحداث تنطوي على أهمية خاصّة لنا: وهنا سيتعثّر جون دائماً، وسيتحطم قلب جين على الدوام.

حسناً - بعد الانتهاء من إصلاح سيارتي، أبعدتها قليلاً عن مضخة البنزين لأفسح المجال لخدمة شاحنة صغيرة - عندما بدأ طول غيابها يثقل عليّ في تلك العاصفة الرمادية. ولم تكن المرة الأولى، ولا الأخيرة، التي كنت أحدّق، بمثل هذا الضيق العقلي الممل، في هذه التفاهات الراكدة التي تكاد تبدو مشدوهة، كالفلاحين الذين يحدّقون، ليجدوا أنفسهم في مجال رؤية المسافر الذي تقطعت به السبل: علبة

Twitter: @ketab_n

القمامة الخضراء تلك، الإطارات السوداء، أو الإطارات ذات الحواف البيضاء المعروضة للبيع، وعلب الزيت اللامعة، والثلاجة الحمراء التي تضم قناني المشروبات المتنوّعة، القناني الأربع، الخمس، السبع الملقاة داخل فتحاتها الخشبية التي تشبه لعبة الكلمات المتقاطعة، وتلك الحشرة التي تتسلق بأناة نافذة المكتب من الداخل؛ وكانت موسيقى المذياع تنبعث من بابها المشرّع، ولما لم يكن الإيقاع متزامناً مع إيقاع جيشان وحفيف النباتات التي تحرّكها الريح وإيماءات أخرى، يتكوّن لدى المرء انطباع بأن فيلماً قديماً يصوّر حياته وهو يعزف على البيانو أو الكمان لحناً موسيقياً خارج الزهرة المرتعشة، وغصن الشجرة المتمايل. كان صوت نشيج شارلوت الأخير لا يزال يتردد في أعماقي، وكان فستانها يتطاير مع الإيقاع، خرجت لوليتا من مكان غير متوقع على الإطلاق. فقد وجدت أن المرحاض مشغولاً، فذهبت إلى المبنى التالي حيث تنتصب فوقه شارة شركة «شل». وكانت هناك يافطة تقول إنهم يفتخرون بنظافة مراحيضهم كما هي في البيوت، وإنهم يقدمون بطاقات بريدية مدفوعة الثمن مسبقاً، لكتابة تعليقاتكم. لكن لم تكن هناك بطاقات بريدية، ولم يكن هناك صابون. لم يكن هناك شيء. ولم تكن هناك تعليقات.

في ذلك اليوم، أو في اليوم التالي، بعد أن اجتزنا رحلة مملّة عبر أراض مزروعة بالمحاصيل، وصلنا إلى بلدة صغيرة جميلة، ونزلنا في «نزل الكستناء» - حجرات جميلة، حدائق خضراء بليلة، أشجار تفاح، وأرجوحة قديمة - وغروب رائع لم تعره الطفلة المرهقة أي اهتمام. وقالت إنها ترغب في الذهاب إلى كاسبيم التي لا تبعد سوى ثلاثين ميلاً إلى شمال مسقط رأسها، لكن في صباح اليوم التالي، تبيّن لي أنها فقدت حماستها تماماً، ولم تعد تحدوها أدنى رغبة في رؤية الرصيف الذي كانت تلعب عليه لعبة القفز بين المربعات منذ حوالى خمس

Twitter: @ketab_n

سنوات. ولأسباب واضحة، انتابني الخوف من تلك الرحلة الجانبية، مع أننا اتفقنا على ألاّ نكون ظاهرين بأي شكل من الأشكال- أن نبقى في السيارة وألاّ نزور أياً من الأصدقاء القدامى. لكن إحساسي بالارتياح لتخليها عن المشروع، أفسدته الفكرة التي راودتها وجعلتني أنفر منها وهي إمكانية أن تشعر بالحنين إلى «يسكي»، كما فعلت في السنة الماضية، هذا الإحساس جعلني لا أستسلم بسهولة. وعندما قلت لها ذلك متنهداً، أطلقت تنهيدة أيضاً واشتكت بأنها تشعر بشيء من التوعك. وقالت إنها تريد أن تمكث في السرير حتى موعد تناول الشاي على الأقل، بصحبة عدد كبير من المجلات، ثم أحسّت بالتحسّن واقترحت أن نواصل طريقنا غرباً. يجب أن أقول إنها كانت رائعة وواهنة، وتشتهي تناول بعض الفواكه الطازجة، فقرّرت أن أذهب وأجلب لها وجبة غداء لذيذة من كاسبيم. ومن نافذة حجرتنا المنتصبة فوق ربوة تكسوها الأشجار، يمكنك أن ترى الطريق الملتوي المؤدي إلى الوادي، ثم يمتد باستقامة مثل شعر مفترق على الرأس بين صفين من أشجار الكستناء، باتجاه البلدة الجميلة، التي كانت تبدو متميّزة وأشبه بلعبة في الصباح الرائق. ويستطيع المرء أن يرى فتاة تشبه جنيّة تمتطي دراجة عادية مثل يرقة، وكلب ضخم لا يتناسب مع حجمها، مرئية بوضوح مثل هؤلاء الحجاج والبغال الصاعدة في دروب ملتوية شاحبة كالشمع في لوحات قديمة تتخللها تلال زرقاء وأشخاص حمر ذوي هيئات قصيرة. وكانت لديّ عادة أوروبية قديمة وهي أن أسير على قدميّ عندما يمكنني أن أستغني عن السيارة، لذلك رحت أمشي الهوينا، والتقيت أخيراً براكبة الدراجة - فتاة مكتنزة ذات جمال عادي لها ضفائر، يتبعها كلب ضخم من نوع سانت بيرنار، شكل محجر عينيه يشبه أزهار الثالوث. وفي كاسبيم، قصّ حلاق عجوز شعري بطريقة سيئة، وهو يحدثني عن لعبة بيسبول - شارك فيها ابنه، وفي مطلع كلّ

Twitter: @ketab_n

جملة، كانت تنبعث من فمه نثرة من البصاق على رقبتي، وكان بين الحين والآخر، يمسح نظارته بالمئزر الذي لفني به، أو كان يتوقف عن تحريك مقصه المرتعش ليريني قصاصة صحيفة، وكنت ساهماً وكدت أُصدم عندما أدركت أنه يشير إلى صورة تنتصب على حامل صغير بين المستحضرات الرمادية القديمة، عندما قال إن لاعب الكرة الشاب ذا الشارب قد مات منذ ثلاثين سنة.

تناولت كوباً من القهوة الحارة الخالية من أي طعم، واشتريت عذق موز لقردتي، وأمضيت عشر دقائق أخرى في محل لبيع الأطعمة. لا بد أن تكون قد مضت ساعة على الأقل عندما ظهر هذا الحاج الصغير العائد إلى الوطن في الطريق المتعرّج المفضي إلى «قلعة بلدة تشيستنات».

كانت الفتاة التي رأيتها في طريق عودتي إلى البلدة ترتدي طبقات عديدة من الأقمشة، وكانت منهمكة في مساعدة رجل ذي هيئة غريبة ذكّرني رأسه الكبير وقسماته الفظة بشخصية «بيرتولدو» في مسرحية كوميدية إيطالية غير راقية. وكانا ينظفان الأكواخ التي يوجد حوالى عشرة منها على قمة تشيستنات، تتباعد كلّ منها بمسافة معقولة وسط هذه الخضرة الكثيفة. كان الوقت ظهراً، وكان معظم هذه الأكواخ، بعد أن صُفقت أبوابها الغربالية، قد فرغت من ساكينها. وخرج زوجان عجوزان يشبهان المومياء من مرآب متاخم. ومن كوخ آخر يكاد يلاصق كوخنا، كان هناك شابّ قوي وسيم، يعتمر قلنسوة حمراء بارزة تشبه سمكة القدّ، شعره أسود وعيناه زرقاوان، ينقل ثلاجة صغيرة إلى شاحنة صغيرة. ولسبب ما ابتسم لي ابتسامة عريضة خجولة عندما مررت من أمامه. وعلى المرج العشبي الواسع في الطرف المقابل، تحت ظلّ الأشجار الوارفة، كان الكلب سانت بيرنارد المعروف، يحرس دراجة صاحبته، وكانت بالقرب منه شابّة، حامل، أجلست في حضنها طفلاً

Twitter: @ketab_n

رضيعاً ساهماً، تهزّه برقة، بينما كان يرمقها صبي غيور في الثانية أو الثالثة من عمره بانزعاج، وراح يدفع مقعد الأرجوحة أو يسحبه، حتى سقط أخيراً على الأرض بدفعة من الأرجوحة، وراح يصرخ عالياً وانبطح على العشب، لكن أمّه واصلت ابتسامتها برقة من دون أن تنظر إلى أيّ من طفليها. لا أزال أتذكّر هذه التفاصيل بدقة ووضوح شديدين، ربما لأنني دوّنت انطباعاتي بعد ذلك بقليل، بالإضافة إلى ذلك، فقد بات في داخلي شيء حذر منذ تلك الليلة الفظيعة في بيردسلي. ولم أدع الشعور الذي خامرني بأن المشي على قدميّ جعلني أفضل حالاً- النسيم الصيفي العليل الذي غلّف مؤخرة رقبتي، وصوت وقع قدميّ على الحصى، والعصير الشهي. وكنت قد عالجت أخيراً ضرساً منخوراً، وحتى وزن الأشياء التي كنت أحملها، والتي لم تكن حالة قلبي العامة تسمح لي بحملها، كان مريحاً، وبدا أن مضختي البائسة كانت تعمل بصورة رائعة، وشعرت أنني «متأثر بالحبّ الناعس»، مقتبساً كلمات صديقي العزيز القديم رونسار، عندما وصلت إلى الكوخ الذي تركت فيه حبيبتي دلوريس.

ولدهشتي وجدتها مرتدية ثيابها. فقد كانت جالسة على حافة السرير مرتدية بنطالها وقميصها القطني، وراحت ترمقني وكأنها لا تعرفني. وأطل نهداها الصغيران الناعمان بجرأة من بين فتحة قميصها الرقيق. وقد أثار بروزه الفاضح هذا حنقي. ولم تكن قد استحمّت، لكنها صبغت شفتيها بأحمر الشفاه، بل لطختهما، وكانت أسنانها تلمع مثل العاج الممزوج بالنبيذ، أو مثل رقائق لعبة البوكر الوردية اللون. كانت جالسة هناك، عاقدة يديها فوق حضنها، تبتسم حالمة بوهج شيطاني لم أعهده فيها قط.

أدركت وجود الكيس الورقي الثقيل على الطاولة، ووقفت أحدّق بكاحلي قدميها العاريتين المنتعلتين خفّيها. نظرت إلى وجهها الغبي،

Twitter: @ketab_n

ثم إلى قدميها الآثمتين. قلت لها: «هل كنتِ في الخارج»، (فقد كان على خفّها آثار غبار خلّفها الحصى).

«لقد استيقظت للتو»، أجابت، وأضافت لتقاطع نظرتي المتجهة إلى قدميها، «لقد خرجت لثانية فقط. أردت أن أرى إن كنت عائداً».

رأت الموز فمطّت جسمها، ومدّت يدها نحو الطاولة.

أي ريبة يمكن أن تساورني؟ لا شيء بالفعل - لكن هاتين العينين الهلاليتين الكدرتين، وذلك الدفء المنبعث منها! لم أنبس بكلمة.

نظرت إلى الطريق المتعرّج الواضح داخل إطار النافذة... أي شخص يأمل في خيانة ثقتي سيجد أنه برج مراقبة مثالي. وبشهية منفتحة، راحت «لو» تلتهم الفاكهة. وفجأة تذكّرت بسمة جوني العريضة المتزلّفة في البيت المجاور. خرجت بسرعة. كانت جميع السيارات قد اختفت ماعدا شاحنته الصغيرة، التي كانت زوجته الحبلى الشابة تصعد إليها مع طفلها الرضيع وطفلها الآخر الذي كادت أن تنساه.

«ماذا في الأمر، إلى أين ستذهب؟» صاحت «لو» من الشرفة.

لم أقل شيئاً. دفعت جسدها الطري إلى الغرفة، ثم دخلت. نزعت قميصها بقوة. وفكت الأزرار المتبقية، ثم خلعت خفّيها. وبوحشية لحقت ظلّ خيانتها، لكن الرائحة التي تتبعت أثرها كانت طفيفة، لا يمكن لرجل مجنون ألاّ يتبينها.

١٧

كان غاستون البدين، بأسلوبه المدلل، يحبّ تقديم هدايا - هدايا غير مألوفة نوعاً، أو هكذا كان يخيّل إليه بطريقته المتصنّعة. ففي إحدى الليالي، لاحظ أن علبة الشطرنج لديّ مكسورة، فأرسل لي في صباح

Twitter: @ketab_n

اليوم التالي، مع فتى صغير، علبة نحاسية: نقش على غطائها رسم شرقي جميل، عليها قفل. وبنظرة واحدة مني تكفي للتأكيد بأنها واحدة من تلك العلب الرخيصة التي يطلقون عليها لسبب ما اسم «الويزيت»، التي تستطيع شراءها في الجزائر وفي أماكن أخرى من العالم، ثم تتساءل ماذا يمكنك أن تفعل بها بعد ذلك. وتبيّن أنها علبة مسطحة وضيّقة لا تتسع لبيادق الشطرنج الضخمة، لكنني احتفظت بها - لاستخدامها لغرض آخر مختلف تماماً.

ولكي أخرج من النمط الذي رسمه لي القدر، اعتراني شعور غامض بأنني علقت في شباكه، قرّرت - بالرغم من إصرار «لو» المزعج - قضاء ليلة أخرى في النزل. وعندما استيقظت في الساعة الرابعة صباحاً، تأكدت من أن «لو» لا تزال تغطّ في النوم (فمها فاغر بنوع من الدهشة المملّة إزاء الحياة التافهة التي أعددتها لها) وتأكدت من أن محتويات «لويزتا» الثمينة في أمان. حيث كنت أضع مسدساً آلياً ملفوفاً بوشاح صوفي أبيض، من عيار ٣٢، وسعة مخزنه ٨ طلقات، وطوله لا يقل عن تسع طول لوليتا، وقبضته بلون الجوز، ولون معدنه أزرق. كنت قد ورثته من المرحوم هارولد هايز، مع كتيب يعود إلى سنة ١٩٣٨ يقول بمرح: «مخصص للاستخدام بشكل ممتاز في البيت وفي السيارة، ويمكن حمله شخصياً بسهولة». كان قابعاً هناك، جاهزاً للاستخدام الفوري ضد أي شخص أو أشخاص، محشواً ومهيأً للإطلاق، وكان مفتاح الأمان فيه في وضعية الأمان، لكي لا تنطلق منه عرضاً طلقة. ويجب أن نتذكّر أن المسدّس هو الرمز الفرويدي للعضو الأمامي الأوسط للأب في أور.

أحسست بالسعادة الآن لأنه معي - بل ازدادت سعادتي لأنني تدربت على استخدامه منذ سنتين، في غابة الصنوبر المحيطة ببحيرة «غلاس أوار» بالقرب من منزل شارلوت. فقد كان فارلو، الذي جبت

Twitter: @ketab_n

معه أرجاء تلك الغابة البعيدة، رامياً بارعاً جديراً بالإعجاب، وكان بمقدوره إصابة طائر طنّان بمسدس من عيار ٣٨ - زغب قليل قزحي الألوان - وانضم إلينا شرطي سابق يدعى كريستوفسكي، كان قد أطلق النار على مدانين اثنين هاربين، وقتلهما عندما كان في العشرينات من عمره، واصطاد، بالصدفة، طير نقّار الخشب صغيراً. وبين هذين الصيادين، لم أكن أنا سوى صيّاد مبتدئ، ولم أتمكن من اصطياد شيء، مع أنني تمكنت، في مناسبة أخرى، من إصابة سنجاب عندما خرجت وحدي. «أتحبّين هذا المكان»، همست في أذن محبوبتي الخفيفة الوزن، ثم شربت نخبها جرعة من مشروب الجنّ.

١٨

يجب أن ينسى القارئ الآن «نزل تشيستنات» والمسدس، وأن يرافقنا إلى الغرب. فقد اتسمت الأيام التالية بعدد من العواصف الرعدية الهائلة - أو ربما كانت هناك عاصفة واحدة راحت تتقدّم عبر الريف في وثبات مضجرة ثقيلة لم نستطع التخلص منها تماماً، كما لم نستطع التخلص من المخبر «تراب»: لأنه ظهرت لي في تلك الأيام مشكلة سيارة الأزتيك الحمراء المكشوفة، وهيمنت على موضوع عشاق «لو» تماماً.

غريب! أنا الذي كنت أغار من كلّ ذكر يمكن مصادفته - غريب كيف أسأت فهم وجهات القدر. لعل سلوك «لو» المتواضع في الشتاء هو الذي هدهدني، ومن الحماقة الشديدة، حتى لمجنون، الافتراض أن همبرت آخر كان يتعقب همبرت وحورية همبرت بشكل متكالب بألعاب نارية جوبيترية، في أرجاء السهول الفسيحة القبيحة. وتراءى لي أن السيارة الحمراء التي تتعقبنا على مسافة قريبة، ميلاً بعد ميل، يقودها

Twitter: @ketab_n

مخبر استأجره شخص فضولي ليرى ماذا يفعل همبرت همبرت مع ابنة زوجته القاصر. وكما يحدث معي عادة في فترات الاضطراب الكهربائي والبرق المصحوب بالرعد، دهمتني هلوسات كثيرة، لعلها كانت أكثر من هلوسات. لا أعرف ماذا كانت، هي أو هو أو كلاهما، يضعان في مشروبي الكحولي، لأنني أحسست، ذات ليلة، أن شخصاً ينقر على باب حجرتنا، ففتحته، ولاحظت شيئين - أنني كنت عارياً تماماً، وأن رجلاً كان يقف، يلمع بياضاً في العتمة، تقطر منه حبات المطر، يضع على وجهه قناع جتينغ تشين، الشرطي السري المشوّه في القصص المصورة بالرسوم.

أطلق قهقهة مكتومة وألقى القناع، وانطلق مبتعداً، فعدت إلى الغرفة، وغططت في النوم ثانية. ولست متأكّداً حتى يومنا هذا إن كانت هذه الزيارة مجرد حلم بسبب المسكّن الذي تناولته: فقد درست أسلوب «تراب» في الفكاهة، وقد يكون ذلك نموذجاً معقولاً. يا له من فظ، عديم الرحمة! شخص، تخيّلت أنه يكسب نقوداً من بيع تلك الأقنعة التي تصور الوحوش والمغفلين الشعبيين. هل رأيت في صباح اليوم التالي صبيين صغيرين يفتّشان في علبة القمامة ويجرّبان القناع على وجهيهما؟ أتساءل. قد يكون كلّ ذلك مجرد صدفة - بسبب الظروف الجوية، على ما أظن.

ولكوني قاتلاً ينعم بذاكرة مدهشة، لكنها غير مكتملة وغير تقليدية، لا أستطيع أن أخبركم، أيها السيدات والسادة، لقد عرفت اليوم بدقة، لأول مرة، وبيقين مطلق أن السيارة المكشوفة الحمراء كانت تتعقبنا. لكنني أتذكّر أول مرة رأيت فيها سائقها بوضوح شديد. فقد كنت أقود سيارتي ببطء في أصيل يوم عبر سيول الأمطار، وكنت لا أزال أرى في مرآتي الشبح الأحمر يسبح ويرتعش شبقاً، ثم خفّ الطوفان واستحال نثيثاً، حتى توقف تماماً، وبدأ ينبعث صوت هسيس

Twitter: @ketab_n

بعد أن غمرت الطريق أشعة شمس حارقة، وشعرت بالحاجة إلى شراء نظارات شمسية جديدة، فتوقّفت عند محطة بنزين. إن ما كان يحدث هو مرض، سرطان لا يمكن تفاديه، لذلك تجاهلت أن الشخص الذي يتعقبنا بهدوء، قد توقف وراءنا على مسافة قريبة في مقهى أو مشرب عليه يافطة غبية مكتوب عليها «اللهب: المقعد المخادع». وبعد أن ملأت سيارتي، دخلت إلى المكتب لشراء النظارة الشمسية، وتسديد ثمن البنزين. وبينما كنت أوقّع الشيك، وأسأل عن المكان الذي نحن فيه بالتحديد، صادف أنني ألقيت نظرة على النافذة الجانبية، فرأيت شيئاً فظيعاً. إذ رأيت رجلاً عريض المنكبين، يميل رأسه إلى الصلع، يرتدي معطفاً وبنطالاً بنياً داكناً، ينصت إلى «لو» التي كانت تمدّ رأسها من السيارة وتحدّثه بسرعة، وكانت يدها بأصابعها المفتوحة تعلو وتهبط، كما تفعل عادة عندما تتحدث بجدية وتريد تأكيد شيء ما. لشدّ ما آلمتني - كيف يمكنني أن أعبّر عن ذلك؟ - طريقتها التي تشي بألفة شديدة، وكأن أحدهما يعرف الآخر منذ أسابيع وأسابيع. رأيته يحكّ خدّه ويومئ برأسه، ثم استدار، وعاد إلى سيارته المكشوفة. كان رجلاً له كتفان عريضتان، ضخماً يقارب عمري، يشبه غوستاف تراب قليلاً، ابن عم أبي في سويسرا - نفس الوجه الذي لوّحته الشمس، لكنه كان أكثر امتلاءً مني، وله شاربان داكنان، وفم ذابل. وعندما عاد إلى السيارة، كانت لوليتا تتفرّس في خريطة الطريق.

«ماذا سألك ذلك الرجل يا لو؟»

«رجل؟ آه، ذاك الرجل. آه نعم. آه، لا أعرف. كان يسأل هل توجد معي خريطة. أحسب أنه ضلّ طريقه».

واصلنا طريقنا، وقلت:

«اسمعي يا «لو».. لا أعرف هل تكذبين أم لا، ولا أعرف هل أنت مجنونة أم لا، لكن ذلك لا يهمني الآن، بل إن ما يهمني هو أن ذلك

Twitter: @ketab_n

الشخص يتعقبنا طوال اليوم، ورأيت سيارته في مرآب النزل البارحة، وأظن أنه شرطي. أظن أنك تعرفين ماذا يمكن أن يحدث لك وإلى أين يمكن أن تذهبي إذا اكتشفت الشرطة بعض الأمور بيننا. إن ما أريد أن أعرفه الآن هو ما قاله لك بالتحديد وماذا قلتِ له».

ضحكتْ.

«لو كان شرطياً حقاً»، قالت بصوت أجش كلاماً خالياً من المنطق، «إن أسوأ شيء يمكننا أن نفعله، هو أن نريه أننا خائفان. تجاهله يا أبي».

«هل سأل عن مكان وجهتنا؟»

«أوه، إنه يعرف» (ساخرة مني).

«على أي حال»، قلت، مستسلماً، «فقد رأيت وجهه الآن. إنه ليس وسيماً. وهو يشبه قريباً لي يدعى تراب».

«لعله تراب نفسه. لو كنت مكانك - أوه، انظر، تتحول جميع التسعات وتصبح الألف التالية. عندما كنت صغيرة»، واصلت فجأة، «كنت أظن أنها تتوقّف وتعود إلى التسعات، فقط لو وافقت أمّي على العودة بالسيارة إلى الوراء».

أظن أنها كانت المرّة الأولى، وراحت تتكلّم بعفوية عن طفولتها قبل حقبة همبرت. لعلها تعلمت هذه الخدعة من المسرح. ومضينا في طريقنا صامتين، لا يتبعنا أحد.

وفي اليوم التالي، مثل الألم في مرض قاتل الذي يعود بعد أن يزول مفعول الدواء والأمل، عاد يتبعنا ثانية، ذلك الوحش الأحمر اللمّاع. في ذلك اليوم، كانت حركة السيارات على الطريق السريع خفيفة، ولم يكن أحد يتجاوز أحداً، ولم يكن أحد يحاول الانسلال بين سيارتنا الزرقاء المتواضعة وظلّها الأحمر المتغطرس - وكأن أحداً

Twitter: @ketab_n

قد سحر المسافة التي تفصل بين هاتين السيارتين، منطقة من الفرح الشيطاني والسحر، منطقة كانت لدقّتها واستقرارها سمة تكاد تكون فنية تشبه الزجاج. كان السائق خلفي، بكتفيه العريضيتن وشاربيه اللذين يشبهان شاربيّ «تراب»، الذي يشبه دمية عرض (مانيكان) في واجهة أحد المحلات، ويدا لي أن سيارته المكشوفة تتحرّك لأنها مربوطة بسيارتنا المهلهلة بحبل حريري صامت خفي. وكانت سيارتنا أضعف من سيارته المطلية الرائعة بكثير، لذلك حاولت أن أزيد من سرعتي لاجتيازه. آه، اركضي بتمهل، يا جياد الليل. اجري بسلاسة أيتها الكوابيس! صعدنا هضاباً طويلة ثم انحدرنا ثانية، وكنت أتقيّد بحدود السرعة، وكنا نتفادى الأطفال السائرين بتؤدة، وكنا ننعطف فوق الإسفلت الأسود عند الإشارات الصفراء. ومهما سرنا، وأينما اتجهنا، كانت المسافة المسحورة بين سيارتينا تنزلق مثل سراب رياضي لا يتغير، مثل بساط سحري. وطوال الوقت، كنت أدرك بريقاً متوهجاً على يميني: عيناها البهيجتان، وجنتاها المتقدتان.

وفي عمق كابوس تقاطع الطرق ذاك - في الساعة الرابعة والنصف عصراً، في بلدة صناعية، كان شرطي المرور هو يد القدر التي كسرت ذلك السحر. فأشار إليّ، وبنفس اليد فصل عني ظلّي. ففصلت بيننا عشرات السيارات، فزدت سرعتي، ثم انعطفت بمهارة إلى شارع ضيّق. وحطّ عصفور يحمل بمنقاره قطعة خبز كبيرة، هاجمه عصفور آخر، واختطفها منه.

وعندما عدت إلى الطريق السريع بعد بضع توقّفات مفاجئة، وبعد بضع انعطافات وتعرجات متعمّدة، تلاشى ظلّنا.

زفرت لولا وقالت: «لو كان هذا الرجل ما يخيّل إليك، فمن السخف أن تهرب منه».

«لديّ أفكار أخرى الآن»، قلت.

Twitter: @ketab_n

«كان ينبغي أن - آه - أن تصادقه يا أبي»، قالت لو، وهي تتلوّى في ثنايا طريقتها التهكّمية، ثم أضافت بصوتها العادي «ها، إنك رجل وضيع».

وأمضينا ليلة كئيبة في حجرة سيئة للغاية، تحت صوت ضربات المطر الغزير، وأصوات هزيم الرعد الذي يعود إلى ما قبل التاريخ والذي لم يتوقف فوقنا.

«إنني لست سيدة، ولا أحبّ البرق»، قالت لو التي منحني خوفها الشديد من العواصف الكهربائية شيئاً من العزاء المثير للشفقة.

تناولنا طعام الفطور في بلدة صودا التي يبلغ عدد سكانها ١٠٠١ نسمة.

قلت: «بالحكم من الرقم النهائي، لا بد أن صاحب الوجه السمين هنا».

فقالت لو: «إن مرحك مسلٍ يا والدي العزيز».

في ذلك الحين، كنا قد وصلنا إلى أرض نبات إرطماسيا العطري، وأمضينا يوماً أو يومين من المتعة (يا لحماقتي، كان كلّ شيء على ما يرام، ولم تكن تلك الازعاجات إلا غازات محصورة)، وسرعان ما حلّت الجبال الحقيقية محل الهضاب، ووصلنا إلى وايس في الوقت المحدد.

يا لها من كارثة. فقد حدث التباس ما، فقد مضى موعد احتفالات «الكهف السحري» التي أخطأت «لو» في قراءتها في الدليل السياحي! ويجب أن أعترف بأنها استقبلت الأمر بشجاعة - وعندما عرفنا أنه يجري عرض مسرحية صيفية في وايس، ذاك المنتجع الصحي، كان من الطبيعي أن نذهب لمشاهدتها في مساء يوم في منتصف شهر حزيران (يونيه). ولا يمكنني أن أحدّثكم عن حبكة المسرحيّة التي شاهدناها، لأنها كانت مسرحية تافهة فيها تأثيرات ضوئية ضعيفة، وتقوم ببطولتها

Twitter: @ketab_n

نجمة تافهة. أما التفصيل الوحيد الذي أسعدني كثيراً فهو إكليل مؤلف من سبع نعم صغيرة، سبع فتيات في سن المراهقة، لا يكدن يتحركن، مزدانات بألوان جميلة، عاريات الأذرع والسيقان، متشحات بأردية من الشاش الملوّن، تم اختيارهن من البلدة نفسها (وأحكم على ذلك من شدة حماسة الجمهور) وكان من المفترض أن يمثّلن قوس قزح حيّاً عبر الفصول، ثم يبهت على نحو مثير وراء سلسلة من أحجبة وغلالات عديدة. وأذكر أنه خيّل إليّ أن فكرة الأطفال - الألوان قد استمدها المؤلفان كلير كويلتي وفيفيان داركبلوم من أحد الفصول في رواية جيمس جويس، وكان لونان من تلك الألوان رائعين إلى درجة كبيرة - البرتقالة التي ظلت تتململ طوال الوقت، والزمردة التي، عندما اعتادت عيناها على الصالة الشديدة السواد حيث نجلس جميعاً، ابتسمت فجأة لأمّها أو لولي أمرها.

وما إن انتهى العرض، وبدأ التصفيق - صوت لا تحتمله أعصابي - يعلو حولي حتى رحت أسحب وأدفع «لو» نحو منفذ الخروج، في لهفتي الغرامية الطبيعية للعودة بها إلى كوخنا المضاء بضوء النيون الأزرق في تلك الليلة التي تناثرت فيها النجوم المضيئة: وأقول دائماً إن الطبيعة تُدهش بالمشاهد التي تراها. إلا أن دولي - لو، كانت تسير ورائي الهوينا، مورّدة في حالة من الذهول، وكانت عيناها المبتهجتان مسبلتين، وغمرت أحاسيسها البصرية ما تبقى من أحاسيسها الأخرى إلى حدّ أن يديها النحيلتين لم تكادا تتمكنا من ملامسة إحداهما الأخرى لتشارك في التصفيق الذي لم يتوقف. كنت قد رأيت هذا النوع من الأشياء في الأطفال قبل ذلك، لكني أقسم باللّه، كانت هذه الطفلة مميّزة، وهي تنظر مبتسمة بعينيها الحسيرتين إلى خشبة المسرح البعيدة، حيث شاهدت شيئاً من المؤلّفين المشتركين - بدلة رجل رسمية، وكتفين عاريتين لامرأة تشبه الصقر، ذات شعر أسود، فارعة الطول.

Twitter: @ketab_n

«إنك تؤلم معصمي ثانية، أيها الفظ»، قالت لوليتا بصوت خفيض، عندما انزلقت في مقعدها في السيارة.

«إني في غاية الأسف يا عزيزتي، يا عزيزتي ما فوق البنفسجية»، قلت، بعد أن فشلت في محاولة الإمساك بمرفقها، وأضفت، لأغيّر موضوع الحديث - لأغيّر اتجاه القدر، آخ يا إلهي، آه يا إلهي: «إن فيفيان امرأة حقيقية. إنني متأكّد من أننا رأيناها البارحة في ذلك المطعم، في بلدة صودا».

«في بعض الأحيان»، قالت لو، «إنك أحمق على نحو يثير القرف. أولاً، إن فيفيان هو المؤلف، أما المؤلفة فهي كلير؛ وثانياً، إنها في الأربعين من عمرها، ومتزوّجة، وتجري في عروقها دماء زنجي».

«كنت أظن»، قلت أمازحها، «أن كويلتي كان يلهبك، عندما كنت تحبينني في رامسدال القديمة الجميلة».

«ماذا؟» قالت «لو» معترضة، وهي تلوي قسمات وجهها، «طبيب الأسنان البدين ذاك؟ لا بد أنك تخلط بيني وبين فتاة فاجرة أخرى».

فقلت في نفسي كيف تنسى تلك الفتيات كلّ شيء، كلّ شيء، بينما نحن، العشاق العجائز، نقدّر كلّ بقعة في أجسادهن الحورية.

١٩

بمعرفة «لو» وبموافقتها، كان عنوان مكتبيْ البريد اللذين أعطيناهما لمدير مكتب البريد في بيردسلي لاستلام الرسائل هما صندوق بريد وايس وصندوق بريد إلفينستون. وفي صباح اليوم التالي، توجهنا إلى مكتب البريد الأول، وتعيّن علينا الانتظار في رتل قصير، لكنه بطيء. وأخذت «لو» الهادئة تتأمل معرض صور المحتالين. براين بريانسكي

Twitter: @ketab_n

الوسيم، المعروف باسم أنطوني براين، المشهور باسم طوني براون، بعينيه بلون البندق، وبشرته الفاتحة، المطلوب بتهمة الاختطاف. وكانت الهفوة التي ارتكبها الرجل المحترم العجوز ذو العينين الحزينتين إحتيال بريدي، وكأن ذلك لم يكفِهِ، فقد اتهم أيضاً بتشويه القناطر. أما سوليفان سالن فقد تم التحذير بأنه يُعتقد بأنه مسلح، واعتباره رجلاً خطراً للغاية. وإذا أردتم أن تجعلوا من كتابي فيلماً، فاجعلوا أحد هذه الوجوه تذوب في وجهي بلطف، وأنا أنظر. وكانت هناك صورة مغبشة لفتاة مفقودة، في الرابعة عشرة من عمرها، تنتعل حذاءً بنياً عندما شوهدت في آخر مرة، العبارة المعهودة. يرجى إبلاغ قائد الشرطة بولير.

أنسى رسائلي، وأفتش في رسائل دولي، وأجد تقريرها المدرسي ومغلفاً غريب الشكل، فتعمدت فتحه ومطالعة محتوياته. وتأكد لي أنني فعلت ما كان يجب أن أفعله لأنها لم تأبه بذلك واتجهت صوب كشك الصحف القريب من منفذ الخروج.

«دولي - لو: حسناً، حققت المسرحيّة نجاحاً كبيراً. كانت الكلاب الثلاثة تقعي بهدوء بعد أن خدّرها كاتلر قليلاً، على ما أظن، عندما كانت ليندا تحفظ دورك في المسرحيّة. إنها فتاة لطيفة، يقظة، تتحكم بنفسها، لكنها تفتقر إلى الحماسة نوعاً ما، إلى تلك الحيوية المسترخية، وإلى ذلك السحر الذي نحبه نحن والمؤلفة في دايانا. لكن لم تكن هناك مؤلفة لتصفق لنا كما حدث آخر مرة، وتداخلت العاصفة الكهربائية الهائلة التي عصفت في الخارج بصحبة الرعود خارج خشبة المسرح. يا إلهي، الحياة تمضي. لقد انتهى كلّ شيء الآن، المدرسة، والمسرحيّة، والفوضى التي أحدثها روي، وفترة حمل أمّك (للأسف لم يعش طفلنا)، يبدو أن كلّ ذلك حدث منذ أمد بعيد، مع أنني عملياً لا أزال أحمل آثار الطلاء.

Twitter: @ketab_n

«سنذهب إلى نيويورك بعد غد، وأظن أنني لا أستطيع أن أرفض مرافقة والديّ إلى أوروبا، بل أحمل لك أخباراً أسوأ. دولي - لوا قد لا أكون قد عدت إلى بيردسلي عندما تكوني أنتِ قد عدتِ، هذا إذا عدت. إنك تعرفين واحداً منهم، أما الآخر فلا أظن أنك تعرفينه. ويريدني أبي أن أذهب إلى المدرسة في باريس لسنة واحدة، بينما يعيش هو وفولبرايت في مكان مجاور.

«كما هو متوقّع، تعثّر الشاعر المسكين في المشهد الثالث عندما وصل إلى المقطع الفرنسي السخيف. أتذكرين؟ - لا تنسي أن تقولي لعشيقكِ، يا شيمين، كم البحيرة جميلة، لأنه يجب أن يصطحبك إليها» العاشق المحظوظ - يا له من مخادع! حسناً، كوني طيبة يا لوليكينس. أجمل الحبّ من شاعرك، وأجمل التحيات إلى الحاكم. حبيبتك مونا. لسبب أو لآخر، فإن رسائلي تخضع لمراقبة شديدة، لذلك من الأفضل أن تنتظر حتى أكتب إليك من أوروبا.» (لم تكتب على حد علمي. وقد احتوت الرسالة على عنصر من الوقاحة الغامضة لكنني مرهق الآن ولا يمكنني تحليلها. لقد وجدتها لاحقاً في كتيب سياحي، وها أنا أقدمها لك هنا، للسجل فقط. لقد قرأتها مرّتين).

رفعت بصري مشيحاً عينيّ عن الرسالة، لأنظر إلى «لو»، لكنني لم أرها. فبينما كنت غارقاً في سحر مونا، هزّت «لو» كتفيها واختفت. «هل رأيت -» سألت رجلاً أحدب يكنس الأرضية بجانب المدخل. قال إنه رآها، هذا الفاسق العجوز؛ وقال إنه يظن أنها رأت صديقاً وخرجت مسرعة. هرعت إلى الخارج أيضاً. وقفت - أما هي فلم تتوقف. اندفعت مسرعاً. وقفت ثانية. لقد وقع ما كنت أخشاه أخيراً. لقد ذهبت ولن تعود.

بعد سنوات، تساءلت كثيراً لماذا لم تذهب ولم تعد في ذلك اليوم. هل سبب ذلك نوعية ثيابها الصيفية الجديدة المتحفظة في

Twitter: @ketab_n

سيارتي المغلقة؟ أم لأن خطة هربها لم تكن قد اكتملت بعد؟ أم ببساطة لإمكانية، بعد دراسة جميع الاحتمالات، أن آخذها إلى إلفينستون - المحطة السرية، على أي حال؟ كلّ ما أعرفه هو أنني كنت متأكّداً من أنها تركتني إلى الأبد. ويبدا لي أن الجبال البنفسجية غير الواضحة التي تحيط بنصف البلدة تعجّ بعدد كبير من اللوليتات اللاهثات، المنطلقات، الضاحكات اللاتي يذبن ويتلاشين في سديمها. وظهر أن حرف (و) الكبير المحفور على الحجارة البيضاء القائمة على منحدر وعر عند تقاطع الشارع البعيد هو أول حرف من كلمة «ويل».

كان مكتب البريد الجديد والجميل الذي خرجت منه للتو يقبع بين دار سينما هامدة وبقعة تنتصب فيها أشجار الحور. وكانت الساعة التاسعة صباحاً بتوقيت الجبل، وكان اسم الشارع «ماين ستريت» ورحت أغذّ الخطى على جانبه الأزرق محدّقاً في الجانب الآخر: وما كان يجعله جميلاً للغاية، تلك الصباحات الصيفية الجميلة الهشّة، وألواح الزجاج التي ينعكس ضوءها هنا وهناك، والهواء المنعش الذي يبدو أنه يجعله يترنح ويكاد يغمى عليه بسبب توقع حلول ظهيرة قائظة على نحو لا يطاق. واجتزت الشارع، وغذذت الخطى في شارع طويل: صيدلية، مكتب عقارات، محل أزياء، قطع غيار سيارات، مقهى، محل لبيع الأدوات الرياضية، مكتب عقارات، محل لبيع الأثاث، محل لبيع الخردوات، مصرف ويسترن يونيون، محل تنظيف ألبسة، بقالية. شرطي، أيها الشرطي، لقد هربت ابنتي. بالتواطؤ مع مخبر. إنها تحبّ مبتزاً. لقد استغلت عجزي التام. رحت أمعن النظر في جميع المحلات. تساءلت هل عليّ أن أكلّم أياً من هؤلاء المشاة المتناثرين. لم أفعل ذلك. جلست قليلاً في السيارة المركونة على جانب الطريق. تفحصت الحذيقة العامة على الجانب الشرقي. عدت إلى محل الأزياء وقطع الغيار. قلت لنفسي بنوبة من التهكم الغاضب - ساخراً -

Twitter: @ketab_n

بأنني جننت لشدة الشكّ فيها، وبأنها ستعود في أيّ دقيقة.
وقد أتت.
واستدرت وأبعدت اليد التي وضعتها على ردني بابتسامة خجولة وبلهاء.
«اصعدي إلى السيارة»، قلت.
ركبت طائعة، ورحت أذرع المكان جيئة وذهاباً، أصارع أفكاراً لا تعد ولا تحصى، أحاول أن أضع خطة لمواجهة خداعها.
وفي الحال، ترجّلت من السيارة وعادت لتجلس إلى جانبي. وعاد إحساسي بالسمع يلتقط شيئاً فشيئاً أثير «لو» وأدركت قولها لي إنها التقت بإحدى صديقاتها السابقات.
«نعم؟ من؟»
«فتاة من بيردسلي».
«جيد. إني أعرف جميع الأسماء في مجموعتك. أليست أدامز؟»
«لم تكن الفتاة في مجموعتي».
«جيد. لديّ قائمة كاملة بأسماء التلاميذ. ما اسمها أرجوك».
«لم تكن في مدرستي. إنها مجرد فتاة من بيردسلي».
«جيد. عندي دليل هاتف بيردسلي أيضاً. سنبحث في أسماء بروان جميعها».
«لا أعرف إلا اسمها الأول».
«ماري أو جين؟»
«لا - دولي، مثل اسمي».
«ها نحن في مأزق مرة أخرى» (المرآة التي تكسر عليها أنفك).
«جيد. لنحاول شيئاً آخر. لقد غبت مدة ثمان وعشرين دقيقة. ماذا فعلت اللوليتان؟»
«ذهبنا إلى صيدلية».

Twitter: @ketab_n

«وماذا اشتريتما هناك؟»

«آه، زجاجتا كولا».

«انتبهي يا دولي. كما تعرفين يمكننا تدقيق ذلك».

«على الأقل، اشترت هي. لقد شربت كأساً من الماء».

«جيد. هل كان المكان هناك؟»

«بالتأكيد».

«جيد، هيا بنا، سنتأكد من ذلك».

«انتظر لحظة. أظن أنها قد تكون هناك - عند الناصية».

«هيا بنا على أي حال. إصعدي أرجوك. حسناً، سنرى». (أفتح دليل هاتف مربوط بسلسال) «خدمات دفن موتى فخمة». لا، ليس بعد. هنا نحن: «صيدلية - بائع بالمفرق. صيدلية هيل. صيدلية لاركين. وصيدليتان أخريان». بدا أن هذه هي جميع المحلات في شارع نوافير الصودا في وايس، على الأقل في القسم التجاري منه. حسناً، سندقّق فيها جميعاً".

«إذهب إلى الجحيم»، قالت.

«لوليتا، لن توصلك قلة الأدب إلى أي مكان».

«حسناً»، قالت، «لكنك لن تنصب لي فخاً. حسناً، إننا لم نشرب الكولا، بل تحدثنا وتفرجنا على الألبسة في واجهات المحلات».

«أي منها؟ تلك الواجهة مثلاً؟»

«نعم، تلك، مثلاً».

«أوه يا «لو»! لنلق نظرة».

كان في الواقع مشهداً جميلاً. كان هناك شاب رشيق وسيم ينظّف بمكنسة كهربائية سجادة ينتصب فوقها تمثالان كأن انفجاراً قد قذفهما وعاث بهما فساداً. كان أحدهما عارياً تماماً بدون شعر مستعار وبلا

Twitter: @ketab_n

ذراعين. كان قوامه الصغير نسبياً، وابتسامته المتكلّفة يوحيان بأنه عندما يُكسى بالملابس، فإنه يمثّل، وهو يمثّل عندما يُكسى ثانية، فتاة طفلة بحجم جسد لوليتا. لكن، في هذه الحالة، ليس له جنس. وإلى جانبه، كانت تنتصب عروس أطول بكثير تكسوها غلالة، وفي حالة سليمة تماماً، باستثناء أن لها إحدى الذراعين. وعلى الأرض، عند قدميّ هاتين الفتاتين، حيث كان الرجل يزحف مرهقاً محرّكاً مكنسته الكهربائية إلى الأمام والوراء، كانت تقبع ثلاث أذرع وباروكة شقراء. وكانت ذراعان منها ملتوية، توحي بأنها متشابكة وهي في حالة من الفزع والتضرّع.

«انظري يا «لو»»، قلت بهدوء، «انظري، حسناً. ألا يدل هذا على رمز رائع لشيء ما؟ على كل حال»، تابعت كلامي عندما عدنا إلى السيارة، «لقد اتخذت بعض الإجراءات الوقائية. ها هي (وفتحت برفق صندوق التابلوه)، فقد سجّلت رقم سيارة صديقنا في هذا الدفتر».

ولمّا كنت حماراً فلم أحفظه عن ظهر قلب. ولم يتبق في ذاكرتي منه سوى الحرف الأول والرقم الأخير ،وكأن المدرج الكامل المؤلف من ست إشارات قد انحسر على نحو مقعّر وراء زجاج ملوّن قاتم لا يسمح بحلّ رموز السلسلة المركزية، لكنه كان نصف شفاف على نحو يكفي لإظهار حوافه القصوى - حرف P ورقم ٦. ولا بد لي من الخوض في هذه التفاصيل (التي قد لا تهم، في حد ذاتها، إلا طبيب نفساني محترف) وإلا فإن القارئ (آه، كما لو كنت أتصوّره عالماً ذا لحية شقراء وشفتين ورديتين تمتصّان مبسم قصبة مدورة، وهو يلتهم مخطوطتي!) قد لا يفهم نوعية الصدمة التي أصابتني عندما لاحظت أن حرف P قد استحال إلى B، وحذف الرقم ٦ بالكامل. أما ما تبقى من الرقم والأحرف، فإن آثار المحي تكشف أن بقعة ممحاة قلم رصاص قد حُركت بسرعة إلى الأعلى والأسفل، ومُحيت أجزاء من الأرقام أو

Twitter: @ketab_n

كتبت ثانية بيد طفل، كانت تشبه أسلاكاً شائكة متشابكة استناداً إلى أيّ تفسير منطقيّ. وكان كلّ ما عرفته هو اسم الولاية - المجاورة لولاية بيردسلي.

لم أنبس بكلمة. أعدت الدفتر إلى مكانه، وأغلقت صندوق التابلوه، وقدت السيارة مغادراً وايس. تناولت «لو» بعض المجلات المصورة من المقعد الخلفي، واستغرقت بسرعة في قراءة مغامرة أحد المهرّجين، بينما كانت بلوزتها البيضاء تتطاير مع الهواء، مسندة أحد مرفقيها السمراوين إلى النافذة. وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من وايس، انعطفتُ وتوقفتُ في ظلّ بقعة مخصصة للنزهات، حيث أسقط الصباح شعاعه فوق منضدة فارغة. رفعت «لو» بصرها، وارتسمت على وجهها نصف ابتسامة من الدهشة، ومن دون أن أنبس بكلمة، صفعت عظم خدها الصغير الحار الصلب بظاهر يدي.

وحلّ بعده شعور بالندم، والتكفير عن الذنب رافقته شهقات ودموع، وتذلل في الحبّ، واستماتة من أجل المصالحة الحسّية. وفي الليلة المخملية، في فندق ميرانا (ميرانا!) قبّلت باطن قدميها المائلين للون الأصفر، بأصابعهما الطويلة، وتذللت لها . . . لكن لم يجد ذلك نفعاً. محكوم علينا بالفشل. وكان عليّ أن أدخل في دورة جديدة من الاضطهاد.

وفي أحد شوارع وايس، على أطراف البلدة. . . أوه، إني واثق تماماً من أن ذلك لم يكن وهماً. وفي أحد شوارع وايس، لمحت سيارة الأزتك الحمراء المكشوفة، أو سيارة شبيهة بها. ولم يكن فيها «تراب»، بل كان فيها أربعة أو خمسة شبان من الجنسين، يصيحون بصوت مرتفع - لكنني لم أقل شيئاً. وبعد وايس، انبثق وضع جديد تماماً. وليوم أو يومين، استمتعت بالراحة العقلية عندما قلت في نفسي إن أحداً لم يكن يتعقبنا، وإن أحداً لا يتبعنا على الإطلاق؛ ثم أدركت

Twitter: @ketab_n

بانزعاج شديد أن «تراب» غيّر أساليبه، وأنه لا يزال يتبعنا، في هذه السيارة المستأجرة أو تلك.

إنه بروتوس(*) حقيقي على الطريق السريع، يتنقل من سيارة إلى أخرى بسهولة تبعث على الحيرة. وهذا يعني أنه توجد مرائب متخصصة لهذا النوع من السيارات، لكنني لم أتمكن من اكتشاف البيوت المتنقلة التي يستخدمها. في البداية، كان يبدو أنه كان يفضل السيارات من طراز شيفروليه، بدءاً من سيارة كامبوس المكشوفة، متنقلاً إلى سيارة «هورايزن» الزرقاء الصغيرة، متحوّلاً إلى طراز «سيرف» الفضية، و«دريفتوود» الفضية. ثمّ انتقل إلى طراز سيارات أخرى، متنقلاً عبر ألوان قوس قزح الباهتة. ففي ذات يوم، وجدت نفسي أحاول التمييز بين سيارتنا «دريم بلو ميلموث» الزرقاء، والسيارة التي استأجرها «كريست بلو أولدسموبيل» الزرقاء، إلا أن اللون الفضي ظلّ لونه المفضّل، وفي كوابيس موجعة، حاولت عبثاً أن أميّز تلك الأشباح مثل كرايسلر «شيل» الفضية و شيفروليه «سيثل» الفضية، ودودج «فرينش» الفضية...

إن اهتمامي بالبحث عن شاربه الأسود القصير، وقميصه المفتوح الأزرار - أو رأسه المائل إلى الصلع، وكتفيه العريضتين - جعلني أدرس بعمق جميع السيارات التي تسير على الطريق السريع: خلفي، أمامي، بجانبي، آتية، ذاهبة، كلّ سيارة تسير تحت أشعة الشمس الراقصة: سيارة المصطاف الهادئ التي توجد فيها علبة محارم من ماركة «ناعمة الملمس» في النافذة الخلفية؛ والسيارة المهترئة المسرعة بتهوّر التي يتكدس فيها أطفال بوجوه شاحبة، ورأس كلب أشعث يمتد خارج النافذة، ورفراف مجعّد؛ وسيارة العازب «تيودر» المكتظة ببدلات معلقة

(*) إله البحر الذي يمكنه تغيير شكله كيفما يشاء في الأساطير الإغريقية - م.

Twitter: @ketab_n

على مشاجب؛ والمقطورة الضخمة التي تتهادى في المقدمة، غير عابئة بصف غاضب من السيارات تغلي وراءها؛ والسيارة التي تجلس فيها فتاة شابة بتهذيب وسط المقعد الأمامي لتكون قريبة من السائق الشاب؛ والسيارة التي تحمل على سقفها قارباً أحمر، قُلب عاليه سافله... والسيارة الفضية التي تسير ببطء أمامنا، والسيارة الفضية التي تلحق بنا.

كنّا في منطقة ريفية جبلية، تقع بين «سنو» و«تشامبيون»، نهبط منحدراً لا يكاد يُدرك، عندما رأيت المخبر «بارامور تراب». وكانت السحب الرمادية وراءنا أصبحت داكنة، وتركّزت بشدة في سيارة «دومينيون بلو» الزرقاء. وبغتة، كما لو أنّ السيارة التي أقودها قد استجابت لوخزات قلبي المسكين، أخذنا ننزلق من جانب إلى آخر، وسمعنا تحتنا صوت بلا- بلا- بلا.

«لقد ثُقبت العجلة، يا سيد»، قالت لوليتا، مبتهجة.

توقفت بالقرب من منحدر. طوت ذراعيها ومدّت ساقيها وأسندت قدميها على لوحة السيارة. ترجّلت من السيارة، وفحصت العجلة الخلفية اليمنى التي أصبحت مسطحة بشكل خجول ومريع. ووقف «تراب» وراءنا على بعد خمسين ياردة تقريباً. كان وجهه الساخر يشبه بقعة شحم مرحة. كانت تلك فرصتي. سرت نحوه - وخطرت لي فكرة رائعة وهي أن أسأله هل توجد لديه رافعة مع أنه كان لديّ واحدة. رجع إلى الوراء قليلاً. ارتطم إصبع قدمي الكبيرة بصخرة - وساد شعور بالضحك. ثمّ لاحت شاحنة كبيرة وراء «تراب» وهدرت بالقرب مني - وبعد ذلك مباشرة، سمعتها تطلق زموراً متشنجاً. وغريزياً نظرت إلى الوراء - ورأيت سيارتي تنسلّ بعيداً. ورأيت «لو» تجلس بسخافة وراء المقود، ومن المؤكد أن المحرّك كان يدور، مع أنني تذكّرت بأنني كنت قد أطفأته لكنني لم أضع الكابح اليدوي. وخلال الفترة القصيرة من الرعشة التي اعترتني- الزمن الذي استغرق حتى أصل إلى السيارة

Twitter: @ketab_n

التي راحت تنعق والتي توقّفت أخيراً، خطر لي أنه كان لدى «لو» الصغيرة وقتاً كافياً لتتعلم أساسيات القيادة، خلال السنتين الأخيرتين. وعندما حاولت أن أفتح الباب، كنت متأكداً من أنها شغّلت محرك السيارة لكي تمنعني من التوجّه إلى «تراب».

لكن خدعتها لم تكن مجدية، لأنني عندما بدأت أجري وراءها، انعطف «تراب» وقاد سيارته بسرعة في الاتجاه الآخر. استرحت قليلاً. وسألتني «لو» ألن أشكرها - فقد كانت السيارة قد بدأت تتحرّك من تلقاء نفسها - وعندما لم تحصل على رد، انهمكت في دراسة الخريطة، وانطلقت ثانية، وبدأت «محنة العجلات»، كما كانت شارلوت تقول. كنت على وشك أن أفقد صوابي.

واصلنا رحلتنا الغريبة. وبعد هبوط يائس عديم الجدوى، عدنا وصعدنا. وفي منحدر حادّ، وجدت نفسي وراء شاحنة ضخمة تجاوزتنا. راحت تئنّ وهي تصعد في طريق متعرّج، وكان من المستحيل تجاوزها. ومن الجزء الأمامي للسيارة، طارت قطعة فضية مستطيلة صغيرة، غلاف داخلي لعلكة - وحطّت على الزجاج الأمامي لسيارتنا. وخطر لي أنني فقدت صوابي، وقد ينتهي بي الأمر بأن أقتل أحداً. وفي الحقيقة - قال همبرت المنبوذ لهمبرت المتخبّط - إنه قد يكون من الذكاء التحضير للأشياء - لنقل السلاح من الصندوق إلى الجيب - حتى أكون مستعداً لاستغلال نوبة الجنون عندما تأتي.

٢٠

عندما سمحت للوليتا أن تدرس فن التمثيل، جعلتها، أنا العاشق الأحمق، أن تبرع في فن المكر والخداع. فقد تبين لي الآن أن الأمر لا يتعلق بتعلّم إجابات على أسئلة تدور حول الحبكة الأساسية في مسرحية

Twitter: @ketab_n

«هيدا غابلر»، أو أين تكمن نقاط الذروة في مسرحية «حبّ تحت شجرة الزيزفون»، أو عندما تحلّل المزاج السائد في مسرحية «بستان الكرز»، بل الأمر يتعلق حقاً بتعلّم أساليب خيانتي. لشدّ ما آسف الآن على التدريبات التي أجرتها في فن المحاكاة الحسّية. فقد رأيتها مرات عديدة تسير في صالة الاستقبال في بيتنا في بيردسلي، عندما كنت أراقبها من نقطة استراتيجية، بينما كانت، مثل فتاة منوّمة مغنطيسياً في طقس صوفي، تصدر نسخة تخيّلية طفولية متطوّرة لحركات تمثيلية من قبيل أن تسمع تأوهات في العتمة، أو ترى زوجة أب شابة لأول مرة، أو تتذوق شيئاً تكرهه، مثل مخيض الحليب، أو تشمّ عشباً مسحوقاً في بستان تكسوه الحشائش، أو تلمس سراباً من الأشياء بيديها الغلاميتين الرهيفتين الماكرتين. ولا تزال هناك بين أوراقي صفحة مستنسخة تقترح:

التدريب على اللمس: تخيّلي نفسك وأنتِ تلتقطين وتمسكين كرة الطاولة، تفاحة، حبة تمر دبقة، كرة تنس جديدة يكسوها زغب، حبة بطاطة حارة، قطعة ثلج، قطة صغيرة (هريرة)، جرو، حدوة حصان، ريشة، مصباح يدوي كاشف.

إعجني بأصابعك الأشياء الخيالية التالية: قطعة خبز، مطاط هندي، صدغ صديقة يؤلمها، عيّنة من المخمل، بتلة وردة.

إنكِ فتاة فاقدة البصر. تلمّسي وجه: شاب يوناني، سيرانو، سانتا كلوز، طفل رضيع، إله غابات ضاحك، غريب نائم، والدك.

لكنها كانت تتقن حبك هذه الأمور الدقيقة، عندما كانت تؤدي أدوارها الساحرة. وفي بعض الأمسيات الجريئة في بيردسلي، جعلتها ترقص لي بعد أن وعدتها بأن أعطيها هدية أو شيئاً تحبه، ومع أن هذه الوثبات بساقيها المتباعدتين كانت تشبه وثبات الفتيات اللاتي يشجعن فريق كرة القدم أكثر مما تشبه حركات تلميذة باليه صغيرة ترقص في

Twitter: @ketab_n

أوبرا باريس، كانت إيقاعات ذراعيها وساقيها التي لم تبلغ مرحلة النضج الكامل، تمنحني متعة كبيرة. لكن كلّ ذلك لا شيء يذكر، لا شيء على الإطلاق، إزاء تلك الرعشة التي يتعذر وصفها من النشوة التي كانت تسري في أوصالي عندما أراها وهي تلعب التنس - الشعور المثير الذي يدخلني في مرحلة هذيان، ويجعلني أترنح وأتأرجح على شفا متعة سماوية رائعة.

وعلى الرغم من تقدمها في العمر، كانت تزداد حوريةً أكثر من أي وقت مضى، بساقيها وذراعيها، بلونها المشمشي، وملابس رياضة التنس الخاصة بفترة ما قبل المراهقة. أيها السادة المحترمون المجنّحون! لا يمكن قبول أي شيء في المستقبل لم يبرزها كما كانت آنذاك، في منتجع كولورادو الكائن بين «سنو» و«إلفينستون»، حيث كان كلّ شيء: الشورت الصبياني القصير الأبيض الفضفاض، والخصر الأهيف، والبطن المشمشية، ومنديل الصدر الأبيض الذي ارتفعت أشرطته وأحاط بعنقها التي تنتهي في الخلف في عقدة متهدلة تاركة لوحتيْ كتفيها العاريتين الرقيقتين النضرتين المبهرتين المشمشيتين، وذلك الزغب الناعم، وتلك العظام الرقيقة الجميلة، والظهر الناعم المستدق إلى الأسفل. وقبعتها البيضاء. ومضرب التنس الذي اشتريته لها بمبلغ مرتفع. أحمق، أحمق ثلاثة أضعاف! لو كنت قد التقطت لها صوراً، لكانت معي الآن، أمام عينيّ، في غرفة عرض ألمي ويأسي.

كانت تنتظر وتسترخي لحظة أو لحظتين من الزمن المبطّن ببطانة بيضاء قبل أن ترمي الكرة، وغالباً ما كانت تثب الكرة مرّة أو مرّتين، أو تخبط بقدمها على الأرض قليلاً، مسترخية دائماً، دائماً ملتبسة بعض الشيء حول النتيجة، ومبتهجة دائماً كما كانت نادراً في الحياة المظلمة التي تعيشها في البيت. وكانت طريقتها في لعب التنس تشكل أعلى نقطة يمكنني أن أتخيّل فتاة شابة تستطيع استحضار فنّ التخيّل، مع أنني

Twitter: @ketab_n

أستطيع القول، إنها تشكل بالنسبة لها هندسة الحقيقة الأساسية.

وكان للوضوح الرائع الذي ميّز جميع حركاتها مثيله السمعي في الصوت الرنان الصافي الذي يصدر من كلّ رمية، وتصبح الكرة بيضاء بطريقة ما عندما تدخل ضمن هالة السيطرة، وتزداد مرونتها كثافة، وكان يبدو أن أداة الدقّة التي تستخدمها قادرة على التحكم بها بقوة عندما تصبح بحوزتها. وكانت هيئتها، في الواقع، تحاكي أحد كبار لاعبي التنس - دون أن تحرز أيّ نتيجة. وكما قالت لي إليكترا غولد، أخت إدوسا، المدرّبة الرائعة، ذات مرة عندما كنت جالساً على مقعد صلب نابض، أتفرج على دلوريس هايز وهي تلعب مع ليندا هول (وقد هزمتها): «هناك مغناطيس في وسط شبك مضرب دولي، لكن لماذا تراها مهذبة هكذا؟» آه، إليكترا، ماذا يهم في وسط كل هذا البهاء! أذكر أن شعوراً متشنجاً يكاد يكون موجعاً اعتراني بسبب جمال لوليتا عندما شاهدتها تلعب أول مرة. وكانت للوليتاي طريقة معينة في رفع ركبتها اليسرى المثنيّة عندما تبدأ دورة رمي الكرة وهي تثب كالنابض حتى تتشكل لديها شبكة حيوية من التوازن، وتلمع أشعة الشمس لبرهة بين أصابع قدميها، وتحت إبطها اللامع، وذراعها البراقة، وهي ترفع مضربها إلى الأعلى وإلى الخلف، تبتسم مبدية أسنانها الساطعة، وهي تنظر إلى الكرة الصغيرة المعلّقة عالياً في ذروة الكون القوي والبهي الذي أحدثته ثم تسقط فوقها بضربة مدوّية نظيفة بسوطها الذهبي.

وكان لرميتها (الكرة)، جمال، ومباشرة، وشباب، وصفاء كلاسيكي وهي تأخذ مسارها، لكن على الرغم من سرعتها، يكاد صدّها يكون سهلاً، دون أن تنحرف عن مسارها حتى تبلغ مرماها.

وكلما خطر لي أنه كان بوسعي تخليد جميع رمياتها للكرة، جميع حركاتها الفاتنة، في شريط سينمائي، كانت تندّ عني تأوهة مشوبة بالإحباط. ولكان لهذا الفيلم أهمية أكبر بكثير من اللقطات التي

Twitter: @ketab_n

أحرقتها. وكان مسار الكرة في الهواء بسبب رميتها يشبه اللازمة في الأغنية الشعبية، لأن قطتي الأليفة تدرّبت على أن تقفز فجأة إلى الشبكة بقدميها الرشيقتين المنتعلتين حذاء أبيض. ولم يكن بالإمكان التمييز بين ضربتها وباطن كفّها متجه إلى الأمام، وضربتها وظاهر كفّها متجه إلى الخلف: إذ تعكس إحداهما الأخرى - لا أزال أشعر بوخز خفيف أسفل بطني كلما تذكّرت تلك الأصداء النضرة المتوّجة وصيحات إليكترا - وكانت إحدى أجمل ألعاب دولي الرمية القصيرة التي علّمها إياها نيد ليتام في كاليفورنيا.

وكانت دولي تفضّل التمثيل على السباحة، وتفضّل السباحة على التنس، لكنني أصرّ على أنني لم أتبين هذا الشيء فيها - لم أدرك ذلك آنذاك - ولو كانت قد ركّزت جلّ اهتمامها على الفوز، لأضحت بطلة حقيقية. دلوريس، تضع مضربين تحت ذراعها في ويمبلدون. دلوريس تمتطي جملاً عربياً. دلوريس تصبح لاعبة محترفة. دلوريس تمثّل دور بطلة في أحد الأفلام. دلوريس وزوجها الأشيب المتواضع، الصامت، همبرت العجوز.

لم يكن هناك خطأ أو خداع في روح لعبها - إلا إذا دقق المرء في لامبالاتها الجذلة لتحقيق النتيجة فيجد أنها خدعة تنبع من حورية. فهذه الفتاة الكثيرة الاحتيال والمكر في حياتها العادية، تظهر براءة وصراحة ولطافة شديدة عندما ترمي الكرة، تجعل أي لاعب من الدرجة الثانية، شريطة أن يكون لاعباً مصمّماً، مهما كان أخرق ومجرداً من أي كفاءة، يشقّ طريقه إلى النصر. وعلى الرغم من قوامها الصغير، فقد كانت تشغل نصف الملعب المخصص لها الذي تبلغ مساحته ألفاً وثلاثة وخمسين قدماً مربعاً بسهولة، عندما تدخل في إيقاع اللعب، وكانت تستطيع توجيه هذا الإيقاع؛ لكن أيّ هجوم مفاجئ، أو أي تغيير مباغت في أسلوب خصمها، يجعلها عاجزة. وفي نقطة موازية، في رميتها

Twitter: @ketab_n

الثانية، التي تكون، نموذجياً، أقوى وأفضل من الرمية الأولى (لأنه لا يوجد لديها أي عائق من العوائق التي تعترض كبار اللاعبين) إلى حدّ أن الكرة تصطدم بخيوط الشبكة الصلبة، وتتدحرج خارج الملعب. فليلتقط منافسها الذي يبدو أن له أربع سيقان الكرة الثمينة اللامعة ويقذفها بمهارة بمضربه المنحني. وكانت الكرات التي تقذفها بطريقة رائعة تسقط عند قدميه. ومرة بعد مرة، كانت الكرة التي ترميها تصطدم بالشبكة بسهولة - ويمرح ترسم على وجهها تعابير الاستياء بالانحناء على طريقة راقصات الباليه، فتتهدل خصلات شعرها. وكان أسلوبها عقيماً إلى حد أنها لم تستطع أن تفوز عليّ، أنا الذي لا أنفكّ ألهث بأسلوب رمياتي القديم.

وأحسب أنني كنت ضعيفاً أمام سحر تلك الألعاب. فخلال جلسات لعب الشطرنج مع غاستون، كنت أرى اللوحة بركة مربّعة من الماء الشفّاف تتراءى في قعرها الفسيفسائي الناعم قواقع وخدعاً وردية، يعتبرها خصمي المضطرب مجرد رواسب طينية. كما ظل التدريب على التنس المبدئي الذي فرضته على لوليتا - قبل أن تتعلم أساليب اللعب على يد ذاك المدرب الكاليفورني العظيم - قابعاً في عقلي كذكريات قهرية محزنة - لا لأنها كانت تثور غاضبة من أي اقتراح أبديه لها فحسب، بل بسبب تناظر الملعب الذي يعكس الانسجام الكامن فيه، التي كانت تشوّشها حماقات الطفلة الممتعضة التي أسأت تعليمها. أما الآن، فقد أضحت الأشياء مختلفة، وفي ذلك اليوم بالتحديد، في الهواء النقي في «تشامبيون» بكولورادو، وعلى ساحة الملعب الرائع أسفل الدرجات الحجرية المؤدّية إلى فندق تشامبيون حيث أمضينا الليلة، أحسست بأنني أستطيع أن أرتاح من كابوس الخيانات المجهولة في براءة أسلوبها وروحها وروعتها الجوهرية.

كانت ترمي إليّ الكرة بقوة، بحركتها العادية السهلة، كرات عميقة

Twitter: @ketab_n

- جميعها منسّقة وواضحة تبطئ حركة قدميّ، حتى تصبح من الناحية العملية، مجرد تأرجح بطيء - ويفهم اللاعبون قصدي. وعندما كنت ألقي بالكرة بقوة، كما درّبني أبي الذي كان قد تعلّمها من ديكوجيس أو من بورمان، صديقيه القديمين والبطلين العظيمين في التنس، كانت «لو» تنزعج كثيراً، إن كنت قد حاولت أن أزعجها فعلاً، لكن من بوسعه أن يزعج طفلتي العزيزة المشرقة؟ وهل سبق أن ذكرت لكم أنه توجد في ذراعها العارية آثار التلقيح الثامن؟ وأنني قد أحببتها على نحو يائس؟ وأنها قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها؟

ومرّت بيننا فراشة فضولية.

وفجأة ظهر شخصان يرتديان شورت تنس، رجل أحمر الشعر يصغرني بحوالي ثماني سنوات، وفتاة داكنة البشرة ،كسولة، ذات فم كئيب وعينين قاسيتين، تكبر لوليتا بسنتين تقريباً. وكما هو شائع لدى المبتدئين المطيعين، كانت المضارب التي يحملانها مغلّفة ومؤطّرة، وكانا يحملان المضربين لا كامتداد طبيعي ومريح لبعض العضلات المتخصّصة، بل كمطارق أو بنادق أو مثاقب، أو ذنوبي المرهقة المروعة. وجلسا بطريقة عفوية بالقرب من معطفي الثمين، على مقعد مجاور في ملعب التنس، وراحا يتحدثان بصوت مرتفع بعد أن تبادلنا الكرة حوالى خمسين مرّة وقالا إن «لو» تساعدني ببراءة على المضي في اللعب - حتى حدث انقطاع في سلسلة تبادل الكرة، وشهقت عندما خرجت الكرة التي طارت فوق رأسها من باحة الملعب، وذابت قطتي الذهبية الأليفة في فرح فاتن.

في ذلك الوقت أحسست بالعطش، فاتجهت إلى صنبور الماء. اقترب مني الرجل ذو الشعر الأحمر، واقترح بكلّ تواضع أن نلعب ثنائي مختلط. وقال: «اسمي بيل ميد»، وأضاف، «وهذه فاي بايج، إنها ممثلة. إنها خطيبتي» (مشيراً بمضربه السخيف المغطّى إلى فاي

Twitter: @ketab_n

المشرقة التي بدأت تتحدث مع دولي). كنت على وشك أن أجيب «آسف، لكن -» (لأنني أكره أن تخالط مهرتي الصغيرة كلّ من هبّ ودبّ)، عندما حوّل صوت رخيم انتباهي: فقد كان خادم الفندق يهبط متعثراً الدرجات من الفندق إلى باحة الملعب ورسم لي إشارات بيده. إني مطلوب، من فضلك، في مكالمة خارجية عاجلة - عاجلة إلى حدّ أنهم أبقوا الخط مفتوحاً. بالتأكيد. ارتديت معطفي (كان الجيب الداخلي مثقلاً بالمسدس) وقلت للوليتا إنني سأعود بعد دقيقة. كانت تلتقط كرة - بقدمها وبالمضرب على الطريقة الأوروبية وهي إحدى الأشياء القليلة التي علّمتها إياها - وابتسمت - ابتسمت لي!

غمر قلبي هدوء مخيف وأنا أتبع الصبي إلى الفندق، مستخدماً تعبيراً أمريكياً، يظهر فيه الاكتشاف، والعقاب، والعذاب، والموت، والخلود، في شكل قشرة جوز بغيضة. لقد تركتها في أيدي أشخاص تافهين، لكن لم أعد أعبأ كثيراً الآن. طبعاً، سأحارب. يا إلهي، سأحارب بكل ما أوتيت من قوة. أفضل أن أدمّر كلّ شيء على أن أتخلى عنها.

عند مكتب الاستقبال، قدّم لي رجل مبجّل ذو أنف روماني، وماض غامض يستحق إجراء تحقيق معه، كما أظن، رسالة بيده. وعندما لم يستطع الإبقاء على الخطّ مفتوحاً، فقد دوّن الملاحظة التالية:

«السيد هومبيرت. اتصلت مديرة مدرسة بيردسلي. مكان الإقامة الصيفي - بيردسلي ٢-٨٢٨٢. يرجى الاتصال بها على الفور. الأمر في غاية الأهمية».

كوّرت نفسي في إحدى المقصورات، وتناولت حبة صغيرة، وصارعت على مدى عشرين دقيقة، أشباحاً فضائية. وشيئاً فشيئاً، بدأت أسمع صوتاً: تناهى إليّ صوت نسائي حاد، يقول إنه لا يوجد

Twitter: @ketab_n

رقم كهذا في بيردسلي، ثم صوت أخف، يقول إن الآنسة برات في طريقها إلى إنكلترا. باختصار، لم تخابر مدرسة بيردسلي. ثم جاء صوت عميق، يقول إنهم لم يخابروا لأن أحداً لا يعرف أنني موجود، في ذلك اليوم بالتحديد، في تشامبيون بكولورادو. ونتيجة إلحاحي، تجشّم الرجل ذو الأنف الروماني عناء البحث إن كانت هناك مكالمة خارجية أم لا، وتبين له أنه لم تكن هناك أي مكالمة خارجية، ولم يستبعد أن تكون هناك مكالمة زائفة من هاتف محلي. شكرته. وبعد زيارة أجريتها إلى حمّام الرجال، وبعد أن تناولت مشروباً قوياً في البار، بدأت رحلة عودتي. ومن مطلع الشرفة، رأيت، في الأسفل، في ملعب التنس الذي بدا بحجم لوح تلميذ مدرسة مُحي بطريقة سيئة، لوليتا الذهبية تلعب مباراة مزدوجة، وكانت تتحرّك مثل ملاك جميل بين ثلاثة أشخاص يكبرونها سناً. وبينما كان أحدهم، شريكها في اللعب، يبدّل مكانه، صفعها على مؤخرتها بمضربه. كان رأسه مستديراً على نحو ملحوظ، ويرتدي بنطالاً بنياً غير لائق. وحدثت فورة آنية - عندما رآني، ألقى مضربه - مضربي - وقفز فوق المنحدر. ولوّح برسغيه ومرفقيه مقلداً بطريقة هزلية جناحين بدائيين، وهو يصعد إلى الشارع، حيث كانت سيارته الفضية بانتظاره. وفي اللحظة التالية، اختفى هو واللون الفضي. وعندما هبطت، كان الثلاثة المتبقون يجمعون الكرات.

«سيد ميد، من هو ذلك الشخص؟»

هزّ بيل وفاي رأسيهما بجدية تامة.

هذا المتطفل السخيف جاء ليلعب أليس كذلك يا دولي؟

دولي. كان مقبض مضربي لا يزال دافئاً على نحو مقرف. وقبل عودتنا إلى الفندق، قدتها إلى زقاق صغير تكاد تخنقه شجيرات تفوح منها روائح عطرة، وفيه أزهار تشبه ألسنة الدخان، وكدت أجهش في البكاء متذرّعاً بحلم بأكثر الأساليب انحطاطاً لكي أوضح لها، مهما كان

Twitter: @ketab_n

هذا الأسلوب براقاً ومبهرجاً، عن الفظاعة البطيئة التي تغلّفني، عندما وجدنا نفسينا وراء الثنائي ميد المتشنّجين - اللذين كما تعرفون، يلتقيان في أماكن شاعرية كما في الأفلام الكوميدية القديمة. كان بيل وفاي يضحكان - عندما وصلنا في نهاية النكتة التي كانا يتبادلانها. لم يكن ذلك مهماً حقاً.

راحت لوليتا تتحدث وكأن شيئاً مهماً لم يحدث حقاً، وأن الحياة تمضي بصورة آلية بكلّ متعها الروتينية، وأبدت رغبتها في ارتداء مايوه سباحة، وإمضاء ما تبقى من فترة بعد الظهر في المسبح. كان يوماً رائعاً، يا لوليتا!

٢١

«لو! لولا! لوليتا!» أراني أصيح بملء صوتي وأنا أقف عند عتبة الباب متوجهاً نحو الشمس، وقد شحن صوت الزمن، الزمن المقبّب، صيحتي ببحّة فاضحة تفيض قلقاً ورغبة حبيسة وألماً يكفي لفتح سحاب كفنها النايلون إن كانت ميتة. لوليتا! وجدتها أخيراً وسط شرفة توجد على حوافها أعشاب مشذّبة - لقد هربت قبل أن أكون مهيأً لذلك. آه، لوليتا! ها هي تلاعب كلباً لعيناً، ولا تلاعبني. وكان الحيوان، كلب صيد، يقفز ويتلقّف كرة حمراء صغيرة رطبة ويضعها بين فكيه. وكان يثب بخفة بقائمتيه الأماميتين على العشب الطري، ثم يثب ويجري بعيداً. كنت أريد فقط أن أعرف أين كانت، ولم يكن بإمكاني أن أسبح وقلبي في هذه الحالة، لكن من يعبأ بذلك - وها هي، وها أنا، أرتدي مبذلي - وهكذا توقفت عن الصراخ، لكن بغتة، أثار شيء في طريقة حركاتها، وهي تندفع هنا وهناك، مرتدية مايوهها الأحمر الأزتي المكوّن من سروال ضيق وحمالة صدر، انتباهي بشدة... فقد كانت

Twitter: @ketab_n

هناك نشوة، جنون يكتنف مرحها وعنفوانها الزائدين. حتى الكلب بدا مشدوهاً من ردود أفعالها وحركاتها الكثيرة. وضعت يدي برقة على صدري ورحت أجول بعينيّ المشهد الماثل أمامي. فلم يعد المسبح الأزرق التركوازي القابع وراء المرج الأخضر يقبع وراء ذلك المرج، بل أصبح يقبع في صدري، وأخذت أعضائي تعوم فيه كما تعوم النفايات في ماء البحر الأزرق في نيس. خرج أحد السبّاحين من البركة، يخفيه بالكاد ظلّ الأشجار المتعددة الألوان كالطاووس، ووقف هناك ساكناً تماماً، يمسك بطرفيّ المنشفة حول رقبته، ويلاحق لوليتا بعينيه العنبريتين. وقف هناك، متوارياً وراء الشمس والظلّ، فشوّهتا هيئته، محتجباً بعريه، وكان شعره الأسود الرطب أو ما تبقّى منه، ملتصقاً برأسه المدوّر، وشاربه الصغير أشبه ببقعة رطبة، وكان الشعر الذي يشبه جزة صوف ينتشر فوق صدره مثل إكليل، وكانت سرته تخفق، وتقطر من فخذيه المكسوين بشعر غليظ قطرات لامعة، وسروال السباحة الأسود الرطب الضيّق المنبلج الطافح بالحيوية، حيث انسحبت بطنه السمينة الممتلئة إلى الأعلى وإلى الخلف مثل درع مبطّن فوق حيوانه المقلوب. وعندما نظرت إلى وجهه البيضاوي الأسمر بلون البندق، اتضح لي أن ما رأيته فيه ما هو إلا انعكاس لمحيّا ابنتي - نفس السعادة والتجهم لكن لكونه رجلاً، فقد جعله ذلك قبيحاً. وكنت أعرف أيضاً أن الطفلة، طفلتي، تعرف أنه ينظر إليها، تستمتع بنظراته الداعرة الشبقة نحوها، وكانت تثب وتقفز أمامه، مبدية له أنها في غاية البهجة والغبطة، تلك الداعرة الحقيرة المحبوبة. وعندما حاولت أن تصدّ الكرة لكنها أخطأتها، استلقت على ظهرها، وراحت تحرّك ساقيها الفتيتين الناضرتين الفاجرتين في الهواء على نحو مسعور. وكان بوسعي أن أحسّ بحماستها من مكاني، ثم رأيت (مسمّراً بنوع من الاشمئزاز المقدّس) الرجل وقد أغمض عينيه، وكشف عن أسنانه الصغيرة،

Twitter: @ketab_n

الصغيرة والمستوية كثيراً، مستنداً إلى شجرة تتدلى منها أغصان كثيرة تهتز. وطرأ بعد ذلك مباشرة تحوّل رائع. فلم يعد ذاك الشاب الشبق، بل تراءى لي ابن العم السويسري الحسن المحيّا الشديد الحمق، غوستاف تراب الذي أتيت على ذكره أكثر من مرة، والذي كان يستعيض عن «حفلاته المرحة» (فقد كان هذا الخنزير يحتسي البيرة مع الحليب) بالتمرن على رفع الأثقال - فيترنّح ويشخر على شاطئ البحيرة مرتدياً مبذله وقد عرّى أحد كتفيه. لاحظني «تراب» هذا من بعيد، الذي كان يضع المنشفة حول رقبته، وعاد إلى حوض السباحة بلا مبالاة مصطنعة. وكما لو أنّ الشمس قد انسحبت من اللعبة، تراخت «لو» ونهضت بتمهل، متجاهلة الكرة التي وضعها الكلب أمامها. ومن يستطيع أن يعرف مدى التعاسة التي اعترت الكلب لأننا كنا السبب في توقفه عن اللعب؟ بدأت أقول شيئاً، ثم جلست على العشب وقد ألمّ بي وجع شديد في صدري، وتقيّأت دفقاً من السائل البني والأخضر، لا أذكر أنني تناولت شيئاً بهذين اللونين.

رأيتُ عينيّ لوليتا، وبدا أنهما حريصتان أكثر من كونهما خائفتين. سمعتها تقول لسيدة لطيفة إن والدها اعترته نوبة غضب. ثمّ استلقيت على كرسي في غرفة الجلوس، ورحت أجرع من شراب الجنّ جرعة إثر جرعة. وفي صباح اليوم التالي، أحسست بقوة زادتني قوة على مواصلة الرحلة (وهو ما لم يصدقه جميع الأطباء في السنوات اللاحقة).

٢٢

تبيّن أن الكوخ المؤلف من غرفتين الذي كنا قد طلبناه في نزل سيلفر سبور في إلفينستون، مشيّد من خشب الصنوبر البني اللمّاع من النوع الذي كانت لوليتا مولعة به خلال رحلتنا الهانئة الأولى. يا إلهي،

Twitter: @ketab_n

لشدّ ما اختلفت الأمور الآن. ولا أشير هنا إلى «تراب» أو «ترابس». فبعد كل شيء - حسناً، حقاً... بعد كل شيء، أيها السادة المحترمون، بدأ يتضح بجلاء أن جميع هؤلاء المخبرين المتشابهين الذين لا ينفكون يبدّلون سياراتهم الجديدة ليسوا إلا من نسج هوسي الاضطهادي، صور متكرّرة تستند إلى أحداث متشابهة بمحض الصدفة. «لنكن منطقيين»، هكذا كان ينعق الجزء المغرور من دماغي الذي ينتمي إلى بلاد الغال - ويمضي لنبذ الفكرة بأن هناك بائعاً متجولاً مخبولاً أو شقياً هزلياً، أو أشخاصاً تافهين، يضطهدونني، ويخدعونني، ويستغلون بطريقة مشاغبة علاقاتي الغريبة مع القانون. وأذكر أنني تمكنت من إبعاد الخوف عن نفسي؛ بل أذكر أنني توصلت إلى تفسير المكالمة الهاتفية التي تلقيتها في «بيردسلي»... لكن إن كان بإمكاني أن أتجاهل «تراب»، كما تجاهلت التشنّجات التي اعترتني وأنا مستلق على العشب في تشامبيون، فلن أتمكن من التخلص من ألم معرفتي بأن لوليتا ستكون بعيدة المنال، يتعذر إدراكها، محبوبة في عشية عهد جديد، عندما همس لي حدسي بأنها لن تظل حورية، وأنها ستكّف عن تعذيبي.

وكان هناك مكروه بغيض ومجاني آخر ينتظرني بكل محبة في إلفينستون. فقد كانت «لو» كئيبة، ضجرة، صامتة خلال جولتنا الأخيرة التي قطعنا فيها مئتي ميل في المناطق الجبلية التي لم يلوّثها الدخان الرمادي، والتي لا يوجد فيها مهرجون، أو جواسيس يتجسسون عليك. ولم تكد تلقي نظرة على الصخرة الشهيرة، الغريبة الشكل، المتوهجة على نحو رائع، الناتئة فوق الجبال التي اتخذتها فتاة استعراض مزاجية نقطة انطلاق إلى النيرفانا. كانت البلدة حديثة البناء، أو أنه أعيد بناؤها، فوق أرض منبسطة يصل ارتفاعها إلى سبعة آلاف قدم، وكنت آمل أن تضجر «لو» منها، وأن نحوّل وجهتنا إلى

Twitter: @ketab_n

كاليفورنيا، إلى حدود المكسيك، إلى الخلجان الأسطورية، إلى الصحارى التي تتناثر فيها شجيرات الصبار، إلى السراب، إلى العاشق المنبوذ خوزيه ليزارابنجوا، الذي كان يزمع، كما تذكرون، يأخذ حبيبته كارمن إلى الولايات المتحدة. وتخيّلت مباراة بالتنس في أميركا الوسطى تشارك فيها دلوريس هايز وعدد من التلميذات الكاليفورنيات الرائعات. إذ إن الرحلات التي تنطوي على نوايا حسنة على هذا المستوى المبتسم، تلغي التمييز بين جواز السفر والرياضة. لماذا كنت آمل أننا سنعيش بسعادة في الخارج؟ إن تغيير الأجواء مجرد مغالطة تقليدية يتشبّث بها العشاق الذين كتب عليهم الفشل.

وسألتني السيدة هايس، الأرملة المفعمة بالحيوية، ذات الوجنتين الحمراوين، والعينين الزرقاوين، التي تدير النزل، هل أنتمي إلى أصول سويسرية، لأن زوج أختها سويسري ويعمل مدرباً على التزلج. وصادف أنها نصف آيرلندية.

بعد أن سجّلت اسمي، أعطتني هايس المفتاح، ومنحتني ابتسامة رنانة، وأرتني المكان الذي يمكنني أن أركن فيه سيارتي. خرجت «لو» فاعترتها رعشة خفيفة: كان الهواء المسائي المضيء رقيقاً ناعماً، وما إن دخلت الكوخ، حتى استرخت على كرسي أمام منضدة واطئة، ودفنت وجهها في شق ذراعها، وقالت إنها متوعكة. قلت في نفسي لا ريب أنها تكذب لتتحاشى لمساتي ومداعباتي. كنت أتحرّق شهوة، لكنها بدأت تنشج بطريقة كئيبة عندما حاولت مداعبتها. لوليتا مريضة.

لوليتا تحتضر. جلدها يشتعل حرارة! أخذت درجة حرارتها من فمها، ثمّ بحثت عن صيغة كنت قد دوّنتها، لحسن الحظ، في كرّاسة. وبعد عملية مرهقة، ليست ذات معنى بالنسبة لي، لتحويل درجات الفهرنهايت إلى الدرجات المئوية التي اعتدت عليها في طفولتي، فتبيّن لي أن حرارتها قد وصلت إلى ٤٠,٤ درجة مئوية، فأصبح لذلك، على

Twitter: @ketab_n

الأقل، معنى. كنت أعرف أنه يمكن أن ترتفع حرارة الحوريات الصغيرات الهستيريات- وقد تتجاوز حداً مميتاً. أعطيتها رشفة من النبيذ ذررت فيه توابل حارة، وحبتيّ أسبيرين، وقبّلتها لكي أزيل عنها الحمّى، الحمّى التي تحرق جسدها. وعندما فحصت لهاة حلقها الرائعة، إحدى أثمن جواهر جسمها، وجدت أنها تلتهب احمراراً. نزعت ثيابها. كانت أنفاسها حلوة ومرّة في الوقت نفسه؛ وكان لوردتها البنيّة طعم الدم. كانت ترتعش من قمة رأسها حتى أصابع قدميها، وكانت تشتكي من تصلّب مؤلم في فقراتها العليا - شككت بإصابتها بشلل الأطفال مثل أيّ أب أمريكي. وبعد أن فقدت أي أمل بمضاجعتها، لففتها بدثار وحملتها إلى السيارة. في هذه الأثناء، كانت السيدة اللطيفة هايس قد أبلغت الطبيب المحلي، وقالت: «إنك محظوظ لأنها مرضت هنا، لأن السيد بلو ليس أفضل طبيب في المنطقة فحسب، بل إن مستشفى إلفينستون حديث كما ينبغي لأي مستشفى حديث أن يكون، بالرغم من إمكانياته المحدودة».

قدت السيارة متوجهاً إلى ملك الجن المحبّ للجنس الآخر، تكاد تعميني شمس الغروب الملكية على جانب السهل، وقد أرشدتني امرأة عجوز ضئيلة، ساحرة متنقلة، ربما كانت ابنته، التي أعارتني إياها السيدة هايس، والتي لم أرها بعد ذلك قط. وطمأنني الدكتور بلو، الذي كانت معرفته، بلا ريب، أقل مما سمعته بكثير، بأنها مصابة بفيروس، وعندما ألمحت له بأنها أصيبت مؤخراً بالإنفلونزا، قال باقتضاب إن هذه حالة أخرى، وإنه عالج مؤخراً أربعين حالة شبيهة بحالتها، وتشبه جميعها «حمى الملاريا» التي يعرفها القدماء. وتساءلت هل عليّ أن أذكر، بضحكة خافتة عفوية، أن ابنتي ذات الخمسة عشر ربيعاً، كانت قد تعرضت لحادث بسيط عندما كانت تتسلّق سياجاً خطيراً مع صديقها، لكن لمّا كنت أعرف أنني كنت ثملاً، قرّرت ألاّ

Twitter: @ketab_n

أفشي بهذه المعلومات الآن إن لم تكن هناك ضرورة إلى ذلك. وقلت لسكرتيرة حقيرة شقراء متجهّمة أن عمر ابنتي «عملياً ست عشرة سنة». وعندما أشحت بنظري، خطفت طفلتي مني! وعبثاً أصررت على أن يسمحوا لي أن أمضي الليلة على حصيرة كتب عليها «أهلاً وسهلاً» في إحدى زوايا المستشفى اللعين. وارتقيت الدرج قفزاً، محاولاً تعقب عزيزتي لأقول لها إنه من الأفضل لها ألاّ تثرثر كثيراً، وخاصة إذا اعتراها دوار كما يحدث لنا جميعاً. وفي لحظة ما، كنت صفيقاً مع ممرضة شابة لعوب ذات ردفين بارزين وعينين سوداوين براقتين - يعود أصلها إلى الباسك، كما عرفت. وكان أبوها راعياً أُحضر إلى هذه البلاد ليدرّب كلاب حراسة القطعان. وأخيراً، عدت إلى السيارة، ومكثت فيها عدة ساعات لا أعرف مقدارها، متكوّراً على نفسي في الظلام، مذهولاً بوحدتي الجديدة، أنظر إلى الخارج، فاغراً فمي، إلى مبنى المستشفى الواطئ، المربع الشكل، الخافت الإضاءة، الجاثم وسط مرج من الأعشاب، تعلوه نجوم متلألئة وأسوار الجبل الفضية المتعرّجة العالية حيث كان والد ماري، جوزيف لور الوحيد، يحلم بأولورون، أو لاجور، أو رولاس - من يعرف - أو يغوي نعجة. وكانت هذه الأفكار المتشرّدة العطرة تشكل لي على الدوام عزاء في أوقات التوتر الغير عادية، وعلى الرغم من النبيذ الذي أرقته، جعلني الليل الذي لا نهاية له، أشعر بشيء من الخدر، خطر لي أن أعود إلى الفندق. كانت المرأة العجوز قد اختفت، ولم أكن أعرف طريق العودة جيداً. وكانت تتقاطع مع الطرق العريضة المكسوة بالحصى ظلال مستطيلة ناعسة. وتراءت لي أشكال مشانق منتصبة فوق ما تبدو باحة مدرسة؛ وفي أرض قاحلة أخرى، انتصب في الظلام بصمت معبد باهت لطائفة محلية في شكل قبّة. واهتديت أخيراً إلى الطريق السريع، ثم عثرت على النزل، حيث كانت ملايين ما يطلق عليها اسم حشرة

Twitter: @ketab_n

العث، تعجّ حول يافطة تزيّنها أضواء النيون التي كتب عليها «لا توجد غرف شاغرة»، وفي الساعة الثالثة صباحاً، بعد حمّام حار يساعد المرء على التخلص من السأم والتعب اللذين يعتريانه، تمددت على سريرها الذي تفوح منه رائحة الكستناء والورد، والنعناع، ورائحة العطر الفرنسي المميزة الناعمة التي سمحت لها بوضعها مؤخراً. وللمرة الأولى خلال سنتين، تبين لي أنني غير قادر على استيعاب الحقيقة البسيطة بأنني أستطيع أن أنفصل عن حبيبتي لوليتا. وفجأة خطر لي أن مرضها ناجم، بطريقة ما، عن الفكرة - بأن له طعماً ونبرة سلسلة الانطباعات التي طالما حيّرتني وعذّبتني طوال رحلتنا. وكان يخيّل إليّ أن هناك عميلاً سرياً، أو عشيقاً سرياً، أو مخادعاً، أو مهلوساً، أو أي شخص آخر، يطوف حول المستشفى - ولم تكد أشعة الشمس تدفئ الروابي، كما يقول قاطفو أزهار الخزامى في مسقط رأسي، عندما وجدت نفسي أحاول دخول تلك الزنزانة ثانية، أقرع أبوابها الخضراء بيأس، بدون إفطار، وبلا كرسي.

كان ذلك يوم الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس، وقد استجابت حبيبتي «المصل» معين على نحو مدهش (السائل المنوي لعصفور أو روث بقر البحر) وتحسنت صحتها كثيراً، وقال الطبيب إنني سأراها بعد يومين «تقفز» أمامي ثانية.

ومن بين المرات الثماني التي زرتها فيها، لم تستقر في بالي إلا الزيارة الأخيرة. وأحسست أن أمراً عظيماً سيحدث لأن المرض الذي اعتراني أعياني أنا أيضاً. ولن يعرف أحد التوتر الذي استبّد بي لحمل تلك الباقة، ذلك القدر من الحبّ، مجموعة الكتب التي قطعت ستين ميلاً لشرائها: «الأعمال المسرحية لبراونينغ»، و«تاريخ الرقص»، و«المهرّجون والزهرة الجبلية»، و«الباليه الروسية»، و«زهور جبال روكيز»، و«مختارات مسرحية أدبية»، وكتاب «التنس» بقلم هيلين ويلز،

Twitter: @ketab_n

التي فازت بالبطولة الوطنية في إفرادي الفتيات عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. وبينما كنت أسير مترنحاً نحو باب غرفة ابنتي التي يبلغ أجرها ثلاثة عشر دولاراً، برزت ماري لور، الممرضة الشابة البغيضة التي تعمل بضع ساعات في اليوم، تحمل صينية فطور مصقولة، ووضعتها على كرسي في الممر محدثة صوتاً عالياً، واندفعت عائدة إلى الغرفة، وردفاها يرتجّان - ربما لتحذّر دلوريس الصغيرة المسكينة من أن الأب العجوز الاستبدادي الذي يزحف في نعلين من الكريب، يحمل كتباً وباقة أزهار جمعتها من بين الأزهار البرّية وأوراق الأشجار الجميلة بيديّ المكسوتين بقفازات من سفح الجبل عند شروق الشمس (لم أكد أنام مطلقاً خلال ذلك الأسبوع المصيري).

كيف يغذّون حبيبتي؟ وبتؤدة ألقيت نظرة على الصينية. فقد كان فيها صحن ملوّث بمحّ البيض، ومغلّف مجعّد يحتوي على شيء، إحدى حوافه ممزّقة، لكن لم يكن يظهر عليه عنوان - لا شيء على الإطلاق، وما عدا تصميم شعار كتب عليه «نزل بوندروسا» بأحرف خضراء، واقتربت من ماري التي كانت تهمّ بالخروج ثانية - من المدهش كيف تتحرّك تلك الممرضات الشابات ذوات الأرداف الكبيرة. حدّقت في المغلف الذي أعادته، ولم يعد مجعداً.

«من الأفضل ألاّ تلمسه»، قالت، وهي تومئ باتجاهه، «فقد يحرق أصابعك».

لم تكن كرامتي تسمح لي بالرد عليها، وكان كلّ ما قلته:

«حسبت أنها فاتورة - لا رسالة غرامية».

ثمّ دخلت الغرفة التي تغمرها الشمس، وقلت للوليتا: «صباح الخير يا صغيرتي».

«دلوريس»، قالت ماري لور التي دخلت معي، وتجاوزتني تلك العاهرة البدينة، وهي ترمش بعينيها، وبدأت تطوي بسرعة بطانية

Twitter: @ketab_n

بيضاء، وقالت وهي لا تزال ترمش بعينيها: «دلوريس، يظن والدك أنك تتلقين رسائل من صديقي. أنا التي أتلقاها (ورنّت بعجرفة على الصليب الذهبي الصغير الذي يتدلى على صدرها)، وأبي يتحدث الفرنسية مثل أبيك».

غادرت الغرفة. كانت دلوريس، المورّدة والخمرية اللون، التي صبغت شفتيها حديثاً، ومشطت شعرها اللامع، وبسطت ذراعيها العاريتين فوق غطاء السرير، مستلقية ببراءة تبتسم لي، أو تبتسم للا شيء. وعلى منضدة السرير، بجانب منديل ورقي وقلم رصاص، كان خاتمها المرصّع بالتوباز يحترق في أشعة الشمس.

«ما هذه الزهور الجنائزية المرعبة»، قالت، «على أي حال، شكراً لك. لكن هل تتكرم وتتوقف عن الرطانة باللغة الفرنسية؟ إن هذا يزعج الجميع».

وعادت الشابة العاهرة الناضجة باندفاعها المعتاد، تفوح منها رائحة البول والثوم، تحمل صحيفة «أخبار الصحراء»، وقدمتها إلى مريضتها التي أخذتها بشيء من اللهفة، متجاهلة المجلدات الفاخرة المصوّرة التي أحضرتها لها.

وقالت ماري مستدركة: «أختي آن تعمل في بوندروسا».

بلوبيرد المسكين. هؤلاء الأخوة المتوحشون. «ألم تعودي تحبينني يا كارمن؟» إنها لم تحبّني في حياتها قط. وعرفت الآن أن حبيبتي يائسة كما كانت دائماً - كما علمت أن الفتاتين كانتا تتآمران، تخططان لمؤامرة في الباسك، أو في زيمفيريان، على حبّي اليائس. سأذهب أبعد من ذلك وأقول إن «لو» تلعب لعبة مزدوجة لأنها خدعت ماري المفعمة بالعواطف التي أخبرتها، كما أظن، بأنها ترغب في الإقامة مع عمّها الشاب المحبّ للمرح، وليس معي، أنا الكئيب الفظ. وممرضة أخرى لم أعرف من هي على الإطلاق، وأبله القرية الذي

Twitter: @ketab_n

ينقل أسرّة صغيرة وتوابيت إلى المصعد، وطيور الحبّ الخضراء الغبيّة في القفص في غرفة الانتظار - كانت جميعها متورطة في المؤامرة، المؤامرة القذرة. ويخيّل إليّ أن ماري تظن أن أبا الكوميديا، البروفسور هومبيرتولدي، يتدخّل في القصة الرومانسية بين دلوريس وأبيها البديل، روميو القصير، الممتلئ الجسم (لأنك كنت مكتنزاً بعض الشيء، كما تعرف يا روم، على الرغم من كلّ ذلك «الثلج» و«عصير البهجة»).

كانت حنجرتي تؤلمني. وقفت، وأنا ابتلع بصعوبة، بجانب النافذة ورحت أحدّق في الجبال، أنظر إلى الصخرة الرومانسية التي تخترق السماء الباسمة.

«حبيبتي كارمن»، قلت (كنت أدعوها بهذا الاسم أحياناً)، «سنغادر هذه البلدة الحزينة عندما تتمكنين من مغادرة الفراش».

«بالمناسبة، أريد ثيابي جميعها»، قالت الغجرية الصغيرة، ثنت ركبتيها، وقلبت إلى صفحة أخرى.

«. . . لأنني حقاً»، تابعت كلامي، «لا يوجد داع للبقاء هنا».

«ليس هناك داع للبقاء في أي مكان»، قالت لوليتا.

جلست على الكرسي المكسو بقماش الكريتون، وحاولت، وأنا أفتح كتاب النباتات الجذّاب، في صمت حمّى الغرفة الطنّان، للتعرف على أزهاري. وتبيّن لي أن هذا الأمر مستحيل. وفي تلك اللحظة، تناهى إلينا صوت جرس موسيقي ناعم من مكان ما في الممر.

أظن أنه يوجد عندهم أكثر من عشرة مرضى (كان ثلاثة أو أربعة منهم مجانين، كما أخبرتني «لو» مبتهجة، في وقت سابق) في ذلك المستشفى، ويوجد لدى الممرضات الكثير من وقت الفراغ. لكن الأنظمة فيه صارمة، للمظاهر فقط. وصحيح أيضاً أنني كنت أصل في أوقات غير مناسبة، ليس من دون دفق سري من الحقد الحالم، ماري الخيالية (في المرة التالية ستكون سيدة جميلة تتشح برداء أزرق تطوف

Twitter: @ketab_n

في غولتش الصاخبة) سحبتني من كمّي لتخرجني. نظرت إلى يدها. سقطت.

وبينما كنت مغادراً، مغادراً طوعاً، ذكّرتني دلوريس هايز بأن أحضر لها في صباح اليوم التالي... ولم تتذكّر مكان الأشياء المختلفة التي كانت تريدها... «أحضر لي»، صاحت (واختفت عن ناظري للتو، كان الباب يتحرّك، يغلق، ثم أغلق)، «الحقيبة الرمادية الجديدة وصندوق أمّها». لكن في صباح اليوم التالي، كنت أرتعش، وأسكر، وأحتضر على سرير النزل الذي استخدمته لدقائق قليلة فقط، وكان كل ما بوسعي أن أفعله وأنا في حالة الدوار التي اعترتني أن أرسل الحقيبتين مع عاشق الأرملة، سائق شاحنة قويّ البنية ولطيفاً. وتخيّلت «لو» وهي تُري كنوزها لماري... لا شك، أنني كنت أهذي قليلاً - وفي اليوم التالي، كنت لا أزال أرتجف، بدلاً من أكون متماسكاً، لأنني عندما نظرت من نافذة الحمّام إلى الحديقة المجاورة، رأيت دراجة دولي الجميلة الصغيرة تستند إلى دعائمها، عجلتها الأمامية اللطيفة في الاتجاه المعاكس لي، كما كانت تضعها دائماً، وجثم عصفور فوق سرج الدراجة - لكنها كانت دراجة صاحبة البيت، وابتسمت قليلاً، وهززت رأسي المسكين فوق أهوائي المغرم بها، وعدت مترنّحاً إلى سريري، واستلقيت بهدوء مثل قديس -

أيها القديس، حقاً! بينما دلوريس السمراء،
تجثم فوق رقعة خضراء مشمسة
وسانتشيتشا تقرأ قصصاً
في مجلة سينمائية -

التي كانت تمثّلها نماذج كثيرة حيثما حلّت دلوريس، وكان يقام احتفال وطني عظيم في البلدة، وقد عرفت ذلك من الألعاب النارية،

Twitter: @ketab_n

قنابل حقيقية، التي كانت تنفجر طوال الوقت، وفي الساعة الثانية إلا خمس دقائق بعد الظهر، سمعت صوت شفتين تصفران يقترب من باب حجرتي نصف المفتوح، ثم صوت خبطة عليه. إنه فرانك الكبير. ظل واقفاً عند إطار الباب المفتوح، متكئاً بإحدى يديه على عضادة الباب، منحنياً قليلاً إلى الأمام.

«كيف حالك. كانت الممرضة لور على الهاتف. إنها تريد أن تعرف إن كنت أصبحت أفضل حالاً، وهل سآتي اليوم؟»

على مسافة عشرين خطوة، كان فرانك يبدو مثل جبل ضخم من الصحة، وعلى مسافة خمس خطوات، كما هو الآن، كان يبدو مثل فسيفساء من الندب المتورّدة - تفجرت عبر جدار وراء البحار. لكن على الرغم من الإصابات العديدة التي لا اسم لها، كان بمقدرته قيادة شاحنة كبيرة، ويصطاد السمك، ويصطاد الطيور، ويشرب، ويغازل السيدات على الطريق بانشراح وابتهاج. في ذلك اليوم، إمّا لأنه كان يوم عطلة رائعة، أو لأنه كان يريد أن ينقل رجلاً مريضاً، خلع القفاز الذي كان يرتديه عادة في يده اليسرى (اليد التي تضغط على طرف الباب) لم يكن يكشف للمريض المبهور يداً تخلو من أربعة أو خمسة أصابع فحسب، بل يكشف كذلك عن فتاة عارية ذات حلمتين ورديتين ودلتا زرقاء غامقة، مرسومة بوشم رائع على ظاهر يده المشلولة، وكان إبهامه وأصبعه الوسطى تشكّلان ساقيها، بينما يحمل رسغه رأسها المتوّج بزهرة. آه، ما ألذها وما أروعها... وهي تتكئ على طرف الباب، مثل جنيّة ماكرة.

طلبت منه أن يخبر ماري لور بأنني سألبث في السرير طوال اليوم، وأنني سأزور ابنتي غداً إذا تحسنت صحتي.

لاحظ اتجاه نظرتي، فجعل ردفها الأيمن يرتعش على نحو مثير.

«حسناً - يا دكتور» صاح فرانك الضخم، وصفع عضادة الباب،

Twitter: @ketab_n

وحمل رسالتي وهو يصفّر، ومضيت أجرع نبيذي، وفي الصباح تلاشت الحمّى، ومع أنني كنت هزيلاً مثل ضفدع، ارتديت مبذلي الأرجواني فوق بيجامتي الصفراء بلون الذرة، وتوجهت إلى هاتف المكتب.

كان كلّ شيء يسير على ما يرام، وأعلمني صوت برّاق بأن نعم، كلّ شيء يسير على ما يرام، وأن ابنتي غادرت المستشفى البارحة، وأن خالها السيد غوستاف، جاء في حوالى الساعة الثانية، ومعه جرو صغير، موزعاً ابتساماته على الجميع، وسيارة كاديلاك سوداء، وسدد فاتورة دولي نقداً، وقال لهم أن يخبروني بألاّ أقلق، وأن أحترس من الإصابة بالزكام، وأنهما في مزرعة الجدّ، كما اتفقنا.

كانت إلفينستون، وأرجو أنها لا تزال، بلدة صغيرة لطيفة للغاية. تتمدد مثل «ماكيت»، كما تعرفون، محاطة بأشجار خضراء جميلة، وأسطح بيوت حمراء في الوادي، وأظن أنني كنت قد ألمحت سابقاً إلى مدرستها النموذجية وكنيستها المستطيلتين الواسعتين، وكان بعضها، على نحو غريب، مجرد مراع غير تقليدية، ترى فيها دابة أو وحيد قرن يرعيان في سديم صباح يوم من أيام تموز (يوليه). ومن الطريق رأيت في أحد منعطفاتها الحادة المكسوة بالحصى سيارة مركونة، لكنني قلت لنفسي - بالتخاطر - (رجوت ذلك)، لصاحبها بأنني سأعود لاحقاً، والعنوان هو مدرسة بيرد سكول، بيرد، نيو بيرد، وجعل شراب الجين قلبي مفعماً بالحيوية، لكنه جعل عقلي دائخاً، وبعد بعض الهفوات والذلات المعروفة في سلاسل الأحلام المتتالية، وجدت نفسي في غرفة الاستقبال في المستشفى، أحاول أن أوجه لكمة إلى الطبيب، وأصرخ وأهدر في الأشخاص الذي اختبأوا تحت الكراسي، أريد أن أرى ماري، لكنها، لحسن الحظ، لم تكن هناك، وراحت أيادٍ قاسية تشدّني من مبذلي، ممزقة جيباً، وبطريقة ما، بدا لي أنني أجلس فوق مريض أصلع أسمر اللون، ظننت أنه الدكتور بلو، الذي نهض في نهاية

Twitter: @ketab_n

الأمر، مشيراً بلهجة مثيرة للضحك: «أسألكم الآن، من هو العصابي؟» ثم جاءت ممرضة متجهّمة نحيفة وقدّمت لي سبعة كتب جميلة، جميلة، وإزاراً مثنياً من الصوف المقلّم، وطلبتُ إيصالاً. وفي فترة الصمت المفاجئ، شاهدت شرطياً يقف عند باب المدخل، يشير اليه زميلي السائق، وعلى نحو وديع، وقّعت الإيصال الرمزي، وبذلك، سلّمت لوليتاي إلى جميع هؤلاء القرود. لكن ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ ولمعت في رأسي فكرة بسيطة وواضحة مفادها: «في هذه اللحظة، الحرية هي كلّ شيء». حركة خاطئة واحدة - كان من الممكن أن أضطر لإظهار حياة كاملة من الجريمة. لذلك تظاهرت بأنني أوشك على الخروج من ذهولي. ودفعت إلى زميلي السائق ما ظننت أنها أجرة مناسبة، ورحت أحدّث الدكتور بلو، الذي راح يمسّد يدي، وأجهشت في البكاء وجرعت كمية كبيرة من المشروب، لكن ليس بالضرورة أن يكون قلبي مريضاً. وأسرفت في الاعتذار من جميع العاملين في المستشفى، مضيفاً أنني لم أكن على وفاق تام مع باقي أفراد عشيرة همبرت. وهمست لنفسي بأنني لا أزال أحمل مسدسي، ولا أزال رجلاً حراً - حراً لكي ألاحق الهارب، حراً لكي أحطم أخي.

٢٣

كان هناك طريق ناعم كالحرير يمتد على مسافة ألف ميل يفصل كاسبيم، حيث كان، بقدر ما أعرف، يزمع الشيطان الأحمر أن يظهر للمرة الأولى، والفينستون المنذرة بالسوء التي كنا قد وصلناها قبل حوالى أسبوع من حلول عيد الاستقلال. استغرقت الرحلة معظم شهر حزيران (يونيه) لأننا لم نكد نقطع أكثر من مسافة مائة وخمسين ميلاً في كلّ يوم من أيام رحلتنا، وكنا نمضي ما تبقى من الوقت، أمضينا قرابة

Twitter: @ketab_n

خمسة أيام في إحدى الحالات، في محطات توقّف مختلفة، لا ريب أنها كانت جميعها مرتّبة مسبقاً كذلك. هكذا إذاً كان يجب اقتفاء أثر ذلك الشيطان على طول ذلك الطريق، وقد كرّست نفسي لهذه المهمة، بعد عدّة أيام من الانطلاق صعوداً وهبوطاً من دون توقف على الطرقات المشعة من إلفينستون.

تخيّلني، أيها القارئ، وأنا في حالة الخجل التي تتملكني، ونفوري من أيّ مشاعر بالمباهاة، وإحساسي الراسخ بما ينبغي أن يكون. تخيّلني وأنا أخفي حزني المسعور بابتسامة متزلّفة راعشة بينما أختلق ذريعة عفوية لأتصفّح سجلّ الفندق، وأقول: «آه. أظن أنني مكثت هنا ذات يوم - دعوني أبحث في أسماء النزلاء في منتصف شهر حزيران (يونيه) لا، أظن أنني مخطئ. يا له من اسم جذّاب لبلدة، كاوتاجاين. «شكراً جزيلاً» أو: «لديّ زبون سيمكث هنا - لقد أضعت عنوانه - هل لي أن...؟» وفي بعض الأحيان، خاصة إذا صادف أن مدير النزل كان رجلاً كئيباً، لم يكن يسمح لي أن أنبش وأبحث في تلك السجلات.

لديّ مذكرة هنا: بين ٥ تموز (يوليه) و ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) عندما عدت إلى بيردسلي لبضعة أيام، سجّلت اسمي، وإن لم أمكث فيها في الواقع، في ٣٤٢ فندقاً ونزلاً وبيتاً سياحياً. ويتضمّن هذا الرقم بضع تسجيلات بين بلدتيْ تشستنت وبيردسلي، أظهرت واحدة منها ظلاً للشيطان (ن. بيتيت، لاروس، إيل). وكان عليّ أن أترك فترة في تحقيقاتي من حيث الزمان والمكان كي لا ألفت الانتباه إليّ من دون مبرر، ولا بد أن هناك خمسين مكاناً على الأقل، كنت أكتفي فيها بالسؤال عند مكتب الاستقبال - لكن هذا الأمر كان عقيماً، وكنت أفضّل أن أرسي أساساً معقولاً ونيّة حسنة لديهم بأن أدفع أولاً أجرة غرفة لن أستخدمها. ومن ما لا يقل عن ٢٠ سجلاً من بين حوالى ٣٠٠

Twitter: @ketab_n

سجل فحصتها، كوّنت فكرة مفادها أن الشيطان المتنقل قد توقف في أماكن أكثر مما توقفنا نحن فيها - أو أنه كان بإمكانه تدوين اسمه في سجلات إضافية لكي يدخل الشك إلى نفسي على الدوام. وفي حالة واحدة فقط، مكث فعلاً في النزل الذي نزلنا فيه، على مسافة لا تبعد سوى بضع خطوات من وسادة لوليتا. وفي بعض الحالات، كان يقيم في المبنى ذاته أو في مبنى مجاور؛ وليس من النادر أنه كان يكمن لنا في بقعة متوسطة بين نقطتين محددتين سلفاً. وإنّي إذ أتذكّر بوضوح شديد لوليتا، قبل أن نغادر بيردسلي بقليل، وهي منبطحة على البساط في صالة الاستقبال، تدرس كتيبات وخرائط سياحية، وتضع علامات على الطرق ومحطات التوقف بقلم أحمر الشفاه.

واكتشفت فجأة أنه أحسّ بالتحقيقات التي كنت أجريها، فبدأ يضع أسماء مستعارة مهينة من أجلي. ففي أول نزل قمت بزيارته، وهو «منتجع بوندروسا»، كانت البيانات المدوّنه عنه، بين عدد من البيانات التي من الواضح أنها بشرية، تقول: الدكتور غراتيانو فوربيسون، ميراندولا، نيويورك. وقد أثارتني دلالاتها الإيطالية الساخرة حقاً. وأبلغتني صاحبة النزل مشكورة أن الرجل المحترم أقام خمسة أيام، وكان مصاباً بزكام شديد، وأنه ترك سيارته للتصليح في مرآب وأنه غادر في الرابع من تموز (يوليه). نعم، كانت هناك فتاة تدعى آن لور تعمل في المنتجع، لكنها تزوجت الآن من بقال في سيدار سيتي. وفي إحدى الليالي المقمرة، كمنت في شارع منعزل لماري التي كانت تنتعل حذاءً أبيض. وبحركة آلية، كانت على وشك أن تصرخ، لكنني استطعت أن أهدئ من روعها بعد أن جثوت على ركبتيّ وناشدتها مناشدات تتسم بالتقوى لتساعدني. أقسمت أنها لا تعرف شيئاً. من هو غراتيانو فوربيسون هذا؟ تلعثمت. أخرجت ورقة من فئة مائة دولار، رفعتها إلى ضوء القمر، ثم همست أخيراً، «إنه أخوك». انتشلت المائة دولار من

Twitter: @ketab_n

يدها القمرية الباردة، وأطلقت لعنة فرنسية، واستدرت ووليت هارباً. لقد علّمني ذلك أن أعتمد على نفسي وحدي. ولا يستطيع أي مخبر أن يكتشف الأفكار التي زرعها «تراب» في رأسي وأسلوبي. وبالطبع، لم أكن آمل أنه سيترك اسمه وعنوانه الصحيحين، لكنني كنت آمل أن يرتكب هفوة ويقدم معلومات شخصية ملونة أكثر مما كان يحرص على تقديمها، أو أن يكشف عن معلومات عديدة من هذا الكمّ القليل من المعلومات التي كان يقدمها. وقد نجح في شيء واحد، وهو أنه نجح تماماً في إيقاعي في شباكه، وإلقائي في أتون لعبته الشيطانية. وبمهارة لا حدود لها، كان يستعيد توازنه، بعد أن يترنح يمنة ويسرة، ويتركني دائماً وحيداً مع الأمل اللعوب - إذا جاز لي أن أستخدم هذا التعبير في الحديث عن الخيانة والغضب والخراب والرعب والكراهية - بأنه قد يستسلم في المرة القادمة. ولم يفعل ذلك قط - مع أنه كان على وشك أن يفعل ذلك. فكلنا نعجب بالبهلوان الذي يرتدي ثياباً مبهرجة ويمشي بطريقة كلاسيكية على حبل مشدود ضيّق بدقة شديدة في الضوء الباهت، لكن من النادر أن ترى خبيراً يمشي على حبل متهدل يرتدي ثياب فزّاعة طيور، ويقلّد سكراناً غريب الأطوار! يجب أن أعرف.

لم تكن الدلائل التي تركها توضح هويته الحقيقية، بل تعكس شخصيته، أو تبرز، على الأقل، شخصية متجانسة ومميّزة إلى درجة كبيرة. إذ إن حسّه الفكاهي - في أفضل أحواله على أقل تقدير - وطريقة تفكيره، تشبهان صفاتي الشخصية. فقد كان يقلّدني ويهزأ بي. ومن المؤكد أن تلميحاته تدل على علو ثقافته. فقد كان واسع الإطلاع، ويجيد اللغة الفرنسية، ويجيد التلاعب بالكلمات واشتقاقاتها. كما كان هاوياً في الأمور الجنسية. وكان خطّه في الكتابة يشبه خطّ أنثى. ومع أنه كان يغيّر اسمه، لكنه لم يكن يجيد التمويه، مهما أمالَهُ، وكانت جزيرة كويلكويبارت واحدة من الأماكن التي يفضّل الإقامة فيها. ولم

Twitter: @ketab_n

يكن يستعمل قلم حبر، مما يعني، كما سيخبرك أيّ محلّل نفساني، بأن المريض شخص مكبوت تثيره رؤية امرأة تبول أمامه؛ شخص يرجو أن تكون هناك حوريات مائية في نهر ستيكس في العالم السفلي.

وكان من خصائصه الرئيسية شغفه بالإثارة. يا إلهي لشدّ ما كان هذا الرجل المسكين مثيراً للاهتمام. فقد كان يناقض جميع معارفي العلمية. وأشعر بالفخر لأنني أعرف أشياء تجعلني أشعر بالتواضع لأنني أعترف بأنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق. وأجرؤ على القول إنني افتقدت بعض العناصر في ذلك السباق في تلك الرسائل المشفّرة المليئة بالألغاز. يا لها من رعشة انتصار واشمئزاز هزّت جسدي الهش عندما كان لغزه الشيطاني يُقذف في وجهي بين الأسماء البريئة البسيطة المدونة في سجّلات الفندق. لاحظت أنه حينما شعر بأن ألغازه بدأت تزداد إيهاماً، حتى لشخص مثلي يستطيع أن يجد حلولاً، كان يغريني ويعيدني بسهولة. وكان «أرسين لوبين» معروفاً بشكل جيد لشخص فرنسي يتذكّر روايات بوليسية قرأها في أيام شبابه، وشخص لا يكون بالضرورة من محبي الشاعر كوليردج كي يقدّر العبارة التافهة، «آ. بيرسون، بورلوك، إنكلترا». كان يتمتع بذائقة مخيفة لكنها توحي أساساً بأنه رجل مثقّف - ليس شرطياً، ليس شخصاً عادياً طيباً، وليس بائعاً فاسقاً - يحمل أسماء مستعارة مثل «آرثر رينبو» - مؤلف «القارب الأزرق» - دعوني أضحك قليلاً أيضاً، أيها السادة، و«موريس شميتيرلنغ»، مؤلف «العصفور الثمل» (لقد أصبت أيها القارئ). وكانت «د. أورغون، إلميرا، نيويورك»، السخيفة لكن المضحكة لموليير، طبعاً، لأنني حاولت إثارة اهتمام لوليتا مؤخراً بمسرحيّة مشهورة من القرن الثامن عشر، رحّبت بصديق قديم «هاري بامبر، شريدان، ويو». عرفت من موسوعة عادية من هو الشخص الغريب «فينياس كويمبي، لبنان، نيوهمبشاير»؛ وأيّ فرويدي جيد، باسم ألماني ولديه شيء من

Twitter: @ketab_n

الاهتمام بالبغاء المقدس، يجب أن يدرك بنظرة واحدة، مشاركة «د. كيتزلر، إريكس، مسيسبي». كل شيء على ما يرام حتى الآن. كان ذلك النوع من المرح رديئاً، لكنه كان بشكل عام مجهولاً وغير مؤذ. ومن بين البيانات التي لفتت انتباهي باعتبارها دلائل غير مريبة بحدّ ذاتها، لكنها أربكتني فيما يتعلق بنقاطها الأكثر دقة، لا يهمني أن أذكر أشياء كثيرة لأنني أشعر بأنني أتلمّس طريقي في سديم أرض حدودية، وربما خيالات شفوية لمصطافين أحياء. من هو «جوني راندل، رامبل، أوهايو»؟ أم كان شخصاً حقيقياً صادف أن كتب بخطّ مشابه إلى «ن. س. آريستوف، كاتاجيلا، نيويورك»؟ لماذا في «كاتاجيلا»؟ وماذا عن «جيمس مافور موريل، هواكستون، إنكلترا»؟ «آريستوفانيس، خدعة - جميل»، لكن ما الشيء الذي كنت أفتقده؟

كان ثمة خط واحد يمرّ عبر جميع هذه الأسماء المستعارة التي أحدثت فيّ خفقات مؤلمة خاصة عندما رأيتها. أشياء مثل «ج. تراب، جنيف، نيويورك». كانت دلالة على خيانة من جانب لوليتا. وكانت «أوبري بيردسلي، جزيرة كويلكويبارت» توحي بوضوح أكبر من الرسالة الهاتفية الغامضة إذا تعيّن البحث عن نقطة بداية العلاقة في الشرق. «لوكاس بيكادور، ميريماي، بنسلفانيا» تلمح إلى أن حبيبتي كارمن خانت حبي المثير للشفقة من أجل ذلك المحتال. وكانت «ويل براون، دلوريس، كولورادو»، شديدة القسوة. «هارولد هايز، شاهدة قبر، أريزونا» الشنيعة (التي كان من الممكن أن تثير روحي المرحة في وقت آخر) تدلّ على وجود ألفة بماضي الفتاة التي توحي بطريقة كابوسية للحظة بأنّ غريمي كان صديقاً قديماً للعائلة، لعله كان عاشقاً قديماً لشارلوت، أو لعله كان جابر العثرات («دونالد كويكس، سييرا، نيفادا»). لكن الشيء الذي نغل في جرحي هو الاسم الوارد في سجلّ نزل «لودج تيشستنات»، «تيد هنتر، كاين، نيوهامشاير».

Twitter: @ketab_n

وكانت لوحات السيارات المبهمة التي كان يتركها بجميع تلك الأسماء «بيرسون» و«أورغونس» و«موريلس» و«تراب» تجعل المشرفين في الفنادق يحجمون عن التدقيق إن كانت سيارات النزلاء مسجلة بشكل صحيح. وبالطبع، كانت الإشارات - التي تدل بطريقة غير مكتملة أو خاطئة - للسيارات التي كان يستأجرها هؤلاء الشياطين للقيام برحلات قصيرة بين وايس وإلفينستون عديمة الجدوى؛ فقد كانت لوحة سيارة الأزتيك الأولى عبارة عن وميض من أرقام متنقلة، تم تحوير أماكن بعضها، وتعديل أو حذف أرقام أخرى، لكنها كانت تشكل بطريقة ما مجموعات غير مترابطة (مثل "WS 1564" و"SH 1616" و"Q 32888" أو "CU 88322" التي وضعت على نحو ماكر لكي لا تدل على وجود قاسم مشترك بينها.

خطر لي أنه بعد أن أعاد تلك السيارة المكشوفة للمتواطئين معه في وايس، وانتقل إلى أسلوب التنقل بالسيارات على مراحل مختلفة، كان وارثوه أقل حذراً، بل ربما سجّلوا أسماءهم في بعض الفنادق، ذلك النوع من الأرقام المترابطة. لكن كان البحث عن الأشرار على طول الطريق الذي أعرف أنه كان يسلكها، عملاً معقداً وغير مربح. ماذا يمكنني أن أتوقّع من أيّ محاولة لتتبّع السائقين المجهولين المسافرين في طرق مجهولة؟

٢٤

عندما وصلت إلى بيردسلي، أثناء الأحداث الفظيعة التي ذكرتها باستفاضة، تشكّلت في مخيّلتي صورة كاملة. وخلال التمحيص والحذف - الخطيرة دائماً - اختزلت هذه الصورة إلى المصدر الملموس الوحيد الذي يمكن أن يوفره نشاط مخ سقيم وذاكرة بليدة.

Twitter: @ketab_n

وباستثناء القسّ ريغور مورتيس (كما كانت الفتيات يطلقن عليه)، ورجل عجوز محترم يدرّس اللغتين الألمانية واللاتينية، لم يكن هناك معلمون ذكور في مدرسة بيردسلي. وجاء أستاذ مادة الفنون مرتين إلى كليّة بيردسلي وأجرى للتلميذات عرضاً بالمصباح السحري لصور عن قلاع فرنسية من القرن التاسع عشر. وقد رغبت في حضور هذين العرضين والمشاركة في المناقشات التي تدور فيهما، لكن دولي، كدأبها، طلبت مني ألاّ أفعل ذلك، انتهى. وأذكر كذلك أن غاستون كان قد قال إن هذا المحاضر شاب رائع؟ لكن هذا كلّ شيء. ولم تسعفني ذاكرتي بتذكر اسم عشيق - القصر.

وفي اليوم المحدد للعرض، سرت في الحرم الجامعي تحت المطر الثلجي، وتوجهت إلى قسم الاستعلامات في قاعة مايكر هول، في كليّة بيردسلي، حيث علمت أن اسم الشاب هو ريغس (يشبه إلى حدّ ما اسم القسّ)، وأنه عازب، وعلمت أنه سيغادر «المتحف» بعد عشر دقائق لإعطاء درس للطالبات. وفي الممر المؤدي إلى القاعة، جلست على مقعد من الرخام من ذلك النوع الذي تبرعت به سيسيليا دِالريمبل رامبل. وعندما كنت أنتظر، والبروستات تؤلمني، ثملاً، يجافيني النوم، ومسدسي في قبضتي في جيب معطفي المطري، خطر لي فجأة أنني جننت وأنني على وشك أن أقدم على عمل شيء يتسم بالغباء.

ولم يكن أمامي سوى احتمال واحد من مليون بأن ألبرت ريغس، الأستاذ المساعد، يخفي لوليتاي في بيته في بيردسلي، ٢٤ ريتشارد ستريت. لا يمكن أن يكون هو ذلك الوغد، وهذا الأمر غير معقول على الإطلاق. إني أضيع وقتي، وأكاد أن أفقد صوابي. فهما، هو وهي في كاليفورنيا، وليسا هنا.

في هذه اللحظة، لاحظت اضطرابا غامضاً وراء بعض التماثيل البيضاء. ثم فُتح باب - ليس الباب الذي كنت أرمقه - بسرعة، ومن

Twitter: @ketab_n

وسط سرب من الطالبات، بزغ رأس أصلع تقريباً له عينان بنيتان لامعتان، ثم تقدّم.

كان غريباً عليّ تماماً، لكنه أصرّ على أننا كنا قد التقينا في إحدى الحفلات التي أقيمت في حديقة مدرسة بيردسلي. كيف حال ابنتي المحبوبة التي تلعب التنس؟ عنده درس آخر الآن، وقال إنه سيراني لاحقاً.

وجرّبت محاولة أخرى لتحديد هويته بسرعة أكبر؛ فقد رأيت إعلاناً في إحدى مجلات لوليتا، تجاسرت على الاتصال بمخبر خاص، ملاكم محترف سابق. ولكي أعطيه فكرة عن الأسلوب الذي يتبعه ذلك الوغد، أطلعته على الأسماء والعناوين التي جمعتها. وطلب سلفة كبيرة لمدة سنتين - سنتين أيها القارئ! -انهمك هذا الأحمق في تدقيق تلك البيانات السخيفة. وبعد أن توقفت عن تسديد أي مبلغ له لفترة من الزمن، جاء ذات يوم وأعلن ببهجة بأنه حقق انتصاراً وأنه حصل على معلومات تفيد أن هندياً أحمر في الثمانين من العمر يدعى بيل براون، يعيش بالقرب من دلوريس في كولورادو.

٢٥

إن هذا الكتاب هو عن لوليتا. فبعد أن بلغت الآن الجزء الذي (لو لم يحبطني احتراق داخلي آخر) يدعى «دولوريس المختفية»، لم يعد من المهم تحليل السنوات الثلاث الخاوية التي تلت. وفي حين يجب أن أورد بضع نقاط وثيقة الصلة بالأمر، فإن الإنطباع العام الذي أرغب في نقله هو صورة باب جانبي يُفتح عنوة على حياة هادئة تماماً، واندفاع زمن أسود هادر تُغرقه رياح عاصفة، صراخ الغريق المتوحد.

ونادراً ما كنت أحلم بلوليتا كما كنت أتذكّرها - كما كانت تتراءى

Twitter: @ketab_n

باستمرار وبهوس في عقلي الواعي أثناء الكوابيس النهارية التي تدهمني وفترات الأرق التي تعتريني. وبدقة أكبر، كانت تلازمني في نومي، لكنها كانت تتراءى لي بأشكال تنكّرية غريبة وسخيفة كما كانت تتراءى لي فاليريا أو شارلوت، أو شيئاً هجيناً بين هذا وذاك. وكان ذاك الطيف المركب يتراءى لي، ينزع طبقة إثر طبقة، في جو من الكآبة والاشمئزاز الشديدين، وكنت أتكئ ضجراً على لوح ضيّق، أو على أريكة قاسية، واللحم منفرج مثل صمام مطاطي لمثانة كرة قدم. وربطت نفسي، بعد أن كُسر طاقم أسناني الاصطناعية، أم أنني كنت قد أضعته، في غرف مرعبة أسلّي نفسي فيها بتشريح منهك ومضجر لأجزاء تنتهي عادة برؤية شارلوت أو فاليريا وهما تبكيان بين ذراعيّ النازفتين، وأطبع على خديهما قبلات رقيقة بشفتيّ الأخويتين باضطراب حلم تظهر فيه أشياء تافهة تباع في المزاد العلني، وعجز جنسي، وباروكات بنيّة لنساء عجائز مأساويات سُممن للتو بالغاز.

وذات يوم أخرجت من السيارة مجموعة من المجلات المخصصة للمراهقين وأتلفتها، ولعلكم تعرفون أن معظمها من النوع الذي يعود إلى العصر الحجري، حديثة، أو على الأقل من العصر الميسيني، تتناول مواضيع عن النظافة الشخصية. وممثلة أنيقة، ناضجة، ذات أهداب ضخمة، وشفة سفلى حمراء مكتنزة، تعلن عن نوع من أنواع الشامبو. إعلانات ودعايات. تلميذات شابات مولعات بالتنانير ذات الثنيات. يا له من زمن بعيد. من واجب مضيفتك توفير الأردية؛ والتفاصيل الكثيرة تفقد حديثك أي بريق. لقد عرفنا جميعاً «القاشرين» - أي الذين يزيلون القشرة الصلبة تحت أظافرها في حفلة المكتب. وإذا لم يكن الرجل طاعناً في السن أو رجلاً مهماً، فينبغي له أن يخلع قفازيه قبل مصافحة المرأة. أضفين شيئاً من الرومانسية بارتداء بلوزة مثيرة تشدّ البطن. واجعلن بطونكن مشدودة ونحيفة، واجعلن أردافكن رشيقة.

Twitter: @ketab_n

تريسترام في موفيلوف. ياسيرا الكثير من الثرثرة حول لغز زواج جو - رو. تجمّلي بسرعة من دون أن يكلفك ذلك شيئاً. المجلات المصورة. الفتاة السيئة السوداء الشعر، والسيجار الغليظ الذي يدخنه والدها؛ الشاربان المشذبان لوالد الفتاة الطيبة ذات الشعر الأحمر. أو تلك القصة المقرفة عن ذلك اللوطي الضخم وزوجته. إني أعرض عليكم عبقريتي... وتذكرت القصيدة الساحرة السخيفة التي كتبتها عندما كانت طفلة. وكانت تقول هازئة «هراء»، «وهذا صحيح».

للسنجاب وسنجابته، وللأرنب وأفراد عائلته الأرانب
عادات غامضة وغريبة؛
وتصنع ذكور الطيور الطنّانة أكثر الصواريخ روعة.
وعندما يمشي الثعبان يضع يديه في جيوبه...

وكان يصعب عليها أن تتخلى عن الأشياء الأخرى. فحتى نهاية عام ١٩٤٩، كانت تتمسك بحذائها الرياضي القديم، وقميص كانت ترتديه، وبنطال جينز أزرق قديم وجدته في الصندوق، وقبعة مدرسية مجعّدة، وما شابه ذلك من الكنوز الشهوانية، وعبدتها، وأغرقتها بقبلاتي ودموعي. وعندما تبين لي أن عقلي بدأ يتصدّع، جمعت تلك الأشياء، وأضفت إليها ما كان مخزناً في بيردسلي - صندوق كتب، دراجتها، معاطف قديمة، وأحذية مطاطية - وفي عيد ميلادها الخامس عشر، أرسلتها جميعها بالبريد كهدية من مجهول إلى أحد دور الأيتام للفتيات يقع عند بحيرة عاصفة، بالقرب من الحدود الكندية.

لو كنت قد ذهبت إلى منوّم مغناطيسي ماهر، لانتزع مني ذكريات ونسّقها بترتيب منطقي ولتمكنت من ترتيبها في كتابي بتباهٍ يتجاوز ما يدور في رأسي حتى الآن، عندما كنت أعرف ما أريده في الماضي.

Twitter: @ketab_n

وعندما أحسست أنني بدأت أفقد الصلة بالواقع، وبعد أن أمضيت الفترة المتبقية من الشتاء ومعظم الربيع التالي في مصحّة كيبيك التي مكثت فيها في فترة سابقة، عزمت أولاً على حلّ بعض الأمور التي تخصني في نيويورك، ثم أنطلق إلى كاليفورنيا لأبحث عنها هناك.

كتبت هذه السطور وأنا في معتزلي:

مطلوبة، مطلوبة: دلوريس هايز.
الشعر: بني. الشفتان: قرمزيتان.
العمر: خمسة آلاف وثلاثمائة يوم.
المهنة: لا يوجد، أو «نجيمة».

أين تختبئين، يا دلوريس هايز؟
لماذا تختبئين، يا عزيزتي؟
(أتكلّم بذهول، أمشي في متاهة،
لا أستطيع أن أخرج، قال طائر الزرزور).

أي شيء تمتطين، يا دلوريس هايز؟
على أي بساط سحري تحلقين؟
هل أنت مهووسة الآن بسيارة كوجار بلون البيج؟
وأين ركنتِ سيارتك، يا قطتي الأليفة؟

من هو بطلك، يا دلوريس هايز؟
ألا يزال أحد النجوم اللامعين الذين يعتمرون قبعة زرقاء؟
يا لتلك الأيام اللطيفة والخلجان التي تحيطها أشجار النخيل،
والسيارات، والحانات، حبيبتي كارمن!

Twitter: @ketab_n

دلوريس، صندوق الموسيقي ذاك يؤلمني!
ألا زلت ترقصين، يا حبيبتي؟
(ترتدي كلتاهما بنطلون ليفايس مهترئاً، وقميصاً قطنياً بأردان قصيرة ممزّقة،
وأنا جالس في الزاوية مزمجراً).

سعيد، سعيد ماكفات الفظ
يطوف أرجاء الولايات مع طفلة زوجته،
يحرث زوجته في كلّ ولاية
بين الحياة البرّية المحمية.

لوليتاي الحمقاء! ذات العينين الرماديتين
اللتين لم تغمضهما قط وأنا أقبّلها.
أتعرفين عطراً قديماً يدعى «الشمس الخضراء»؟
هل أنتَ باريسي، يا سيدي؟

في ذلك المساء، هبّت نسمة من جهة الأوبرا جعلتني ألزم الفراش،
أحمق من يضع كل ثقته فيه،
الثلج يتساقط، والديكور يتهاوى، لوليتا.
لوليتا ماذا فعلتِ بحياتك؟

إني أحتضر، إني على وشك الموت، يا لوليتا هايز،
من الحقد والندم الذي يعتصرني، إني ألفظ أنفاسي الأخيرة.
ومرة أخرى أرفع قبضتي المكسوة بالشعر،
ومرة أخرى، أسمعكِ تجهشين في البكاء.

Twitter: @ketab_n

أيها الشرطي، أيها الشرطي، إنهما يمضيان إلى هناك
في المطر، حيث يقبع ذلك المخزن المضيء!
وجوربها أبيض، وأنا أحبّها كثيراً،
واسمها هايز، دلوريس.

أيها الشرطي، أيها الشرطي، ها هما
دلوريس هايز وعشيقها!
استلّ مسدسك وتعقب تلك السيارة.
ترجّل الآن، واختبئ.

مطلوبة، مطلوبة: دلوريس هايز.
عيناها الحالمتان الرماديتان لا ترمشان أبداً.
ولا يزيد وزنها على تسعين باونداً
ولا يزيد طولها على ستين إنشاً.

بدأت سيارتي تترنح، يا دلوريس هايز،
المرحلة الأخيرة الطويلة، هي الأصعب،
وسيلقى بي في حقل أعشابه ذابلة،
وما تبقى مجرد صدأ وغبار سحري.

إذا حللنا هذه القصيدة تحليلاً نفسياً، فإني ألاحظ أنها حقاً قصيدة رائعة كتبها رجل مهووس. فقوافيها قاسية، بشعة، متوهجة، تشبه كثيراً بعض المشاهد الطبيعية والأشكال الرهيبة التي تخلو من أي منظور، وأجزاء مضخمة من المشاهد والأشكال الطبيعية التي يرسمها المختلون عقلياً في الاختبارات التي استنبطها لهم المدربون الأذكياء الذين يشرفون

Twitter: @ketab_n

على علاجهم؛ ونظمت قصائد أخرى. وغرقت في أشعار الآخرين، لكنني لم أنس لثانية واحدة عبء الانتقام.

سأكون وغداً إن قلت، وسيكون القارئ أحمق إذا صدّق، أن صدمة فقدان لوليتا شفتني من رغبتي في مضاجعة طفلة. وقد لا تتغير طبيعتي اللعينة مهما بلغت شدة حبّي. ففي الملاعب والشواطئ، لا تزال عيناي المتجهّمتان المسترقتان، ضدّ رغبتي، تبحثان عن لمحة من ساقي وذراعي حورية، تصبح كناية عن وصيفات لوليتا. إلا أن رؤية جوهرية في داخلي ذوت: ولم أعد أفكّر بإمكانية قضاء وقت ممتع مع طفلة، سواء كانت عادية أو مصطنعة، في منزل بعيد عن الأنظار. ولم تعد مخيّلتي تغرس أنيابها في أخوات لوليتا، بعيداً بعيداً، في خلجان جزر متخيّلة. لقد انتهى كل شيء، حالياً على الأقل. ومن الناحية الأخرى، وللأسف، أكسبتني سنتان من الانغماس الوحشي بعض العادات الشبقية: وكنت أخشى أن يقودني الفراغ الذي عشت فيه إلى الغوص في حرية جنون مفاجئ عندما أواجه إغراءً عابراً في شارع يقع بين المدرسة والمطعم. الوحدة تفسدني. إني بحاجة إلى صحبة ورعاية. إن قلبي عضو هستيري لا أستطيع الركون إليه. هكذا دخلت ريتا إلى الصورة.

٢٦

كان عمرها ضعف عمر لوليتا وثلاثة أرباع عمري: امرأة نحيلة، شاحبة البشرة، سوداء الشعر، وزنها مئة وخمسة باوندات، ولها عينان رائعتان، ووجه جميل كأنه رُسِم على عجل، وثمة انحناءة فاتنة في ظهرها اللدن - يخيّل إليّ أن دماءً إسبانية أو بابلية تجري في عروقها. التقطتها ذات مساء منحرف في مكان يقع بين مونتريال ونيويورك، أو

Twitter: @ketab_n

على نحو أدق، بين تويليستاون ويليك، في حانة معتمة متقدة تدعى «تايغرموث»، حيث كانت ثملة قليلاً، وأصرّت على أننا كنا ندرس في المدرسة نفسها، وأرخت يدها الصغيرة المرتعشة على كفي الشبيه بكفّ القرد. لم تثر أحاسيسي كثيراً، لكنني قررت أن أمنحها فرصة. فعلت ذلك - وتبين لي أنني أستطيع أن أتخذها رفيقة دائمة. كانت ريتا لطيفة للغاية، وتتصرف برقة إلى حد يمكنني القول إنها قد تمنح نفسها لأيّ مخلوق أو مخادع مثير للشفقة، أو شجرة مكسورة قديمة، أو حيوان مفجوع، بدافع من المودة والشفقة المطلقتين.

عندما التقيت بها لأول مرة، كانت قد طلّقت زوجها الثالث منذ فترة قريبة - وكان فارسها المطيع السابع قد هجرها مؤخراً، ويصعب ذكر الرجال الآخرين المتنقلين والعابرين في حياتها لكثرتهم. وكان أخوها - ولا شك أنه لا يزال - سياسياً بارزاً، شاحب الوجه، يضع حمّالات على بنطاله، وربطة عنق ملونة، رئيس بلدية، ومن كبار مشجعي الكرة، يقرأ التوراة، ويعمل في تجارة الحبوب في مسقط رأسه. وخلال السنوات الثماني الماضية، كان يدفع لأخته الصغيرة بضع مئات من الدولارات شهرياً بشرط حازم وهو ألاّ تطأ قدماها بلدة غرينبول سيتي الصغيرة العظيمة. وقالت لي، بشهقات مستغربة، إنه لسبب لعين، كان أول شيء يفعله أي فتى جديد يصادقها هو أن يصحبها إلى جناح غرينبول: وهو مكان جذاب مهلك. وقبل أن تتاح لها معرفة حقيقة ما يجري، كانت تجد أن المدار القمري للبلدة قد ابتلعها، وتجد نفسها تسلك الطريق المحيط به الذي تغمره الأضواء «وتدور وتدور» على حدّ قولها، «مثل فراشة التوت اللعينة».

كانت لديها سيارة صغيرة أنيقة سافرنا بها إلى كاليفورنيا لنريح سيارتي الموقّرة قليلاً، وكانت سرعتها العادية تبلغ تسعين ميلاً. وطفنا، أنا وعزيزتي ريتا، طوال سنتين، من صيف عام ١٩٥٠ حتى صيف

Twitter: @ketab_n

١٩٥٢، وكانت أجمل وأبسط وأرق وأغبى ريتا يمكن للمرء أن يتخيّل.

بالنسبة لها، كانت فاليتشكا، مثل «شليغيل»، وشارلوت مثل «هيغيل». ولم يكن هناك سبب دنيوي يجعلني أغازلها وأداعبها في هامش هذه المذكرات الشريرة، لكن دعوني أقول (مرحباً ريتا، حيثما كنتِ، سواء كنت سكرانة أو مصابة بالصداع لأنك أسرفت في الشراب، ريتا، مرحباً!) كانت أكثر النساء اللاتي اصطحبتهن رقة وليناً وتفهماً، ومن المؤكد أنها أنقذتني من دخول مستشفى المجانين. فقد قلت لها إني أبحث عن فتاة وإنني أريد أن أقتل الرجل الشرير الذي اختطفها طعناً. وافقت ريتا على الخطة - وبينما كانت تجري بعض التحقيقات (من دون أن تعرف شيئاً حقاً) في سان هومبيرتينو، وقعت في شباك محتال شنيع، واستغرقتُ وقتاً شيطانياً لكي أخلّصها من براثنه وأعيدها - كانت منتهكة ومصابة بكدمات، لكنها ظلت مرفوعة الرأس. وفي أحد الأيام، اقترحت أن تلعب لعبة الروليت الروسية بمسدسي الآلي المقدّس. وقلت لها إنها لا تستطيع عمل ذلك، وتعاركنا وكان كل واحد منا يريد الإمساك بالمسدس، حتى انطلقت رصاصة أخيراً، وانبثق دفق من الماء الحار من الفتحة التي أحدثتها في جدار غرفة الكوخ، ولا أزال أذكر صرخاتها الضاحكة.

إن انحناءة ظهرها الغريبة، وبشرتها بلون الرز، وقبلاتها البطيئة التي تشبه قبلات الحمام، منعتني من إيذائها. ليست المواهب الفنية هي التي تشكل الصفات الجنسية الثانوية التي يروّج لها بعض الدجالين، بل على العكس: فما الجنس إلا فرع من فروع الفنّ. ويجب أن أشير إلى متعة غامضة نجمت عنها تداعيات مثيرة. إذ توقفت عن عملية البحث: فإما أن يكون الوغد موجوداً في تارتاري، أم أنه احترق وتلاشى في مخيخي (ألسنة النار.وأحزاني التي أجّجها خيالي) لكن لا بد أنه لا يسمح لدلوريس هايز المشاركة في بطولة التنس على ساحل المحيط

Twitter: @ketab_n

الهادئ. وفي عصر أحد الأيام، أثناء عودتنا ونحن متجهين شرقاً، وفي أحد الفنادق الشنيعة من النوع التي يعقدون فيها مؤتمرات، والتي يذرع في ردهاتها رجال بدينون مورّدي الخدود، ممن وضعوا على صدورهم بطاقات كتبت عليها الأحرف الأولى من أسمائهم وأسماء شركاتهم - والخمر ثم صحوت يا غاليتي ريتا لأجد شخصاً ثالثاً في غرفتنا، شاباً أشقر، يكاد يكون أبرص، برموش بيضاء وأذنان ضخمتان شفافتان، لا تذكر ريتا ولا أنا أننا كنا قد رأيناه طوال حياتنا الحزينة. وكان العرق يتصبب منه، وكان يرتدي ثياباً داخلية وسخة سميكة، وينتعل حذاءً عسكرياً قديماً. وكان مستلقياً وهو يشخر على السرير الواسع وراء حبيبتي ريتا العفيفة. وكان قد فقد أحد أسنانه الأمامية، ونبتت على جبهته بثرات عنبرية. وسترت ريتوتشكا عريها المتموّج بمعطفي المطري - أول شيء وقعت يدها عليه. ارتديت سروالاً داخلياً مخططاً، وبدأنا ندرس الأمر. كانت قد احتست خمس كؤوس، مما يدل على فيض من الثروة. لم يكن الباب مغلقاً تماماً. كانت هناك بلوزة وبنطلون أحمر ملقين على الأرض. رحنا نهزّ صاحبها حتى يفيق. كان مصاباً بالنسيان التام. وبلهجة ميّزتها ريتا بأنها لهجة سكان بروكلين، ألمح على نحو مشاكس بأننا اختلسنا هويته (عديمة القيمة). ألبسناه ثيابه بعجلة وألقينا به في أقرب مستشفى. وبينما كنا نسير في الطريق، وبطريقة أو بأخرى، وبعد اللف والدوران المنسي، أدركنا أننا أصبحنا في غرينبول. وبعد نصف سنة، كتبت ريتا رسالة إلى الطبيب تسأل فيها عنه. كان جاك هومبيرتسون، كما لُقّب، لا يزال منفصلاً عن ماضيه الشخصي. آه، يا منيموسين، يا أحلى وأجمل عرائس الشعر وأمكرهن.

ما كنت لأذكر هذه الحادثة لو لم تبدأ سلسلة من الأفكار التي أفضت إلى أن أنشر في مجلة «كانتريب رفيو» مقالة عن «ميمير والذاكرة»، اقترحت فيها، بين أشياء أخرى بدت أصلية ومهمة، على

Twitter: @ketab_n

قرّاء تلك المجلة الرائعين المحسنين، نظرية الإدراك الحسي للزمن التي تستند إلى الدورة الدموية، وتعتمد من حيث المفهوم (لملء هذه القشرة) على أن العقل لا يعي الموضوع فقط، بل يعي نفسه أيضاً، مما يؤدي إلى دوران نقطتين دون توقف (الماضي الذي يمكن تخزينه، والمستقبل المخزّن).

نتيجة لهذه المغامرة - وتتويجاً للانطباع الذي شكّله عملي السابق - دعيت من نيويورك، حيث كنا، أنا وريتا، نقيم في شقّة صغيرة تطل على أطفال ذوي بشرات لامعة يغتسلون بمياه بركة تحت شجرة في حديقة سنترال بارك، إلى كانتريب التي تبعد أربعمائة ميل، حيث أقمت في شقق يقيم فيها الشعراء والفلاسفة، لمدة سنة، من شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٥١ حتى حزيران (يونيه) ١٩٥٢، بينما أقامت ريتا التي فضّلت ألا أكشف عن أمرها - على نحو غير لائق بعض الشيء - في أحد النزل على الطريق الرئيسي، حيث كنت أزورها مرتين في الأسبوع. ثم اختفت - بطريقة إنسانية أكثر مما فعلت سلفها - لكنني وجدتها في السجن المحلي بعد شهر. كانت في حالة كريمة، وقد استأصلت زائدتها الدودية، وأقنعتني أن الفراء الجميل المائل للأزرق الذي اتّهمت بأنها سرقته من سيدة تدعى رولاند ماكروم، كان هدية قدّمها لها رولاند نفسه، المدمن على الكحول. وتمكّنت من إخراجها من السجن دون أن أتصل بأخيها العصبي المزاج، وعدنا إلى الجانب الغربي من سنترال بارك، عن طريق برايسلاند، حيث كنا قد توقّفنا لبضع ساعات في السنة الماضية.

اجتاحتني رغبة غريبة لأتذكّر إقامتي هناك مع لوليتا. فقد بدأت أدخل في مرحلة من الوجود فقدت فيها كلّ أمل باقتفاء أثرها هي وخاطفها. وحاولت الآن أن أستحضر الأماكن القديمة لأنقذ الأشياء التي يمكنني إنقاذها بواسطة الذاكرة، أيتها الذاكرة، أيتها الذاكرة، ماذا

Twitter: @ketab_n

تريدين مني؟ كان الخريف قد بدأ يدق أجراسه في الهواء. وحصل البروفسور هامبورغ على رد فوري بالاعتذار للبطاقة البريدية التي طلب فيها غرفة بسرير مزدوج. فلم تكن هناك غرف شاغرة، بل لديهم غرفة بدون حمام فيها أربعة أسرّة خيّل إليهم أنني لا أريدها. وقد كُتب في الجزء العلوي من الرسالة التي أرسلوها:

الصيّادون المسحورون

قريب من كنائس غير مسموح للكلاب

يسمح بجميع المشروبات القانونية

تساءلت إن كانت الجملة الأخيرة صحيحة. «جميع»؟ فهل يبيعون مشروب الرمان «غرينادين» على قارعة الطريق مثلاً؟ وتساءلت كذلك ألا يحتاج الصيّاد، سواء كان ساحراً أم لا، إلى كلب صيد أكثر مما يحتاج إلى مقعد طويل في كنيسة، وبتشنّج مؤلم تذكّرت مشهداً جديراً بأن يكون لوحة لفنان عظيم: حورية صغيرة تجلس القرفصاء، ولعل ذلك الكلب الحريري قد عُمِّد. لا - أحسست أنني لا أقوى على احتمال آلام القيام بزيارة ثانية إلى بهو ذلك الفندق. وكانت هناك إمكانية أفضل بكثير لاستحضار الزمن في مكان آخر في فصل الخريف في برايسلاند الغنية بالألوان الهادئة. تركت ريتا في إحدى الحانات، واتجهت إلى مكتبة البلدة. هرعت عانس تزقزق بسعادة كبيرة لمساعدتي في نبش مجلد «غازيت برايسلاند» لمنتصف آب (أغسطس) ١٩٤٧، وسرعان ما بدأت، في زاوية معزولة تحت ضوء عار، أقلّب الصفحات الضخمة والهشّة لمجلد ضخم يشبه تابوتاً أسود يكاد يبلغ حجمه حجم لوليتا.

أيها القارئ! يا أخي! ما أشدّ حماقة هامبورغ! فبما أن نظامه

Twitter: @ketab_n

الشديد الحساسية ينفر من مواجهة المشهد الفعلي، كان يحسب أن بمقدوره الاستمتاع، على الأقل، بجزء سري منها- مثل الجندي الذي ينتظر في رتل مكوّن من عشرة جنود أو عشرين جندياً يغتصبون فتاة، وعندما يأتي دوره، يلقي بشال الفتاة الأسود على وجهها الأبيض كي لا يرى تينك العينين المستحيلتين وهو غارق في متعته العسكرية في تلك القرية الحزينة المجتاحة. وما كنت أصبو إليه هو أن أحصل على الصورة المطبوعة التي التقطها مصور المجلة وأنا أعبر الحقل عندما كان يركّز على الدكتور برادوك ومجموعته. وكنت آمل بحماسة أن أعثر على صورة للفنان في شبابه الجامح. آلة تصوير بريئة تلتقطني وأنا أسير في الظلام متجهاً إلى سرير لوليتا - يا له من مغناطيس لمنيموسين! لا يمكنني أن أوضح الطبيعة الحقيقية لهذا الحافز الذي تملكني. ويخيّل إليّ أنها كانت مستغرقة في تلك النشوة الغريبة التي ترغم المرء على تفحّص الأشكال الصغيرة بزجاجة مكبّرة كئيبة - الحياة الصامتة عملياً، والجميع على وشك التقيؤ - عندما يرون حكم إعدام في وقت مبكر من الصباح، ويستحيل تمييز قسمات المريض في الصورة. لكنني كنت ألهث طلباً للهواء، وظلت إحدى زوايا الكتاب المشؤوم تطعنني في بطني وأنا أواصل عملية البحث والتفتيش... وكان فيلم «القوة الغاشمة» وفيلم «الممسوس» سيعرضان يوم الأحد، في الرابع والعشرين من الشهر في داريّ السينما كلتيهما. وقال السيد بوردوم، بائع التبغ بالمزاد إنه يدخّن «أومين فاوستوم» منذ عام ١٩٢٥. وإن هاسكي هانك وعروسه الرشيقة سينزلان ضيفين على السيد والسيدة ريغنالد ج. غور، ٥٨ جادة إنتشكيث. ويبلغ حجم بعض الطفيليات سدس حجم المضيف. وقد حُصّن دنكيركوي في القرن العاشر. جوارب للآنسات بمبلغ ٣٩ سنتاً، وأحذية من ماركة سادل أوكسفورد ثمنها ٣,٩٨ دولارات. وصاح مؤلف «عصر الظلام» الذي رفض أن يُصوَّر، مازحاً

Twitter: @ketab_n

«خمر، خمر، خمر، قد يلائم عصفوراً فارسياً، لكنني أقول أعطني مطر، مطر، مطر، فوق السقف الخشبي المليء بالورود والإلهام في كلّ مرّة. تنمو الدمامل بسبب التصاق الجلد بالأنسجة الأعمق. ويصدّ اليونانيون هجوماً انتحارياً، وآه، أخيراً، تلوح هيئة صغيرة تتشح بالبياض، ويرتدي الدكتور برادوك بدلة سوداء، لكن مهما كان الكتف الطيفي الذي يلامس شكله الضخم - لا أستطيع أن أميّزها.

انطلقت أبحث عن ريتا التي عرّفتني بابتسامتها الحزينة الملطخة بالخمر على رجل عجوز مشاكس بحجم الجيب وقالت إنه - ما اسمه، يا بني؟ زميل دراسة سابق. حاول أن يبقيها معها، وخلال المشاجرة الطفيفة التي أعقبت ذلك، جرحت إبهامي برأسه الصلب. وفي البقعة الملونة الصامتة التي رافقتها إليها في نزهة على القدمين لاستنشاق الهواء، راحت تنشج، وقالت إنني سأتركها بعد حين كما فعل الجميع، وغنّيت لها أغنية شعبية فرنسية حزينة، ونشدنا معاً بعض الأناشيد المقفاة عن التائهين والهاربين لكي أسلّيها:

يطلق على النزل اسم «الصيّادون المسحورون». سؤال:
ما هي الأصباغ الهندية، يا دايانا، التي
تستخدمينها لتجعلي من صورة البحيرة
حمام دم من الأشجار أمام الفندق الأزرق؟

فقالت: «لماذا أزرق بينما هو في الحقيقة أبيض، لماذا أزرق بحق السماء؟» وأجهشت في البكاء ثانية، فرافقتها إلى السيارة، واتجهنا إلى نيويورك. وسرعان ما عاد السرور إليها في سديم شرفة شقّتنا الصغيرة. ولاحظت أنني خلطت حدثين بطريقة ما، زيارتي مع ريتا إلى برايسلاند ونحن في طريقنا إلى كارنتريب، واجتيازنا برايسلاند ثانية في طريق

Twitter: @ketab_n

عودتنا إلى نيويورك، لكن الفنان لا يكره في ذاكرته السباحة في تلك الألوان.

٢٧

كانت علبة البريد المخصصة لي الموجودة في بهو المدخل، من ذلك النوع الذي يمكن للمرء أن يرى من خلال شقّه الزجاجي شيئاً من محتوياته. وعندما كان الضوء يتسرب عبر الشقّ الزجاجي ويسقط فوق خطّ يدوي لشخص غريب، كان يخيّل إليّ أنه يشبه خطّ لوليتا، فأكاد أتهاوى وأتكئ على علبة البريد المجاورة. وعندما يحدث ذلك - عندما تتحول خربشتها الطفولية الجميلة إلى خطّ كئيب لأحد الأشخاص القلائل الذين يبعثون إليّ رسائل - كنت أتذكّر، بتسلية حزينة، تلك الأوقات في ماضيّ، قبل فترة دولوريس، عندما كانت تضلّلني نافذة تلمع مثل جوهرة في الطرف المقابل من الشارع، وترصد عيناي من بعيد، عبر المنظار اليقظ الذي يسهم في تأكيد خطيئتي المخزية، حورية شبه عارية منهمكة في تمشيط شعرها الذي يشبه شعر أليس في بلاد العجائب. وفي تلك المخيّلة اللاهبة، كان هناك كمال يجعل بهجتي المتوحشة كاملة أيضاً، لأن تلك الصورة لم تكن في المتناول، ولم تكن هناك إمكانية للحصول عليها وإفسادها بالمحرمات المرتبطة بها. وبالفعل، فإن مصدر الجاذبية التي تحدثها فيّ الفتيات غير الناضجات لا يقبع في صفاء جمال طفلة جنّية محرّمة صغيرة، بقدر ما يقبع في وضع آمن يسدّ فيه الكمال اللانهائي الفجوة التي تفصل بين الشيء القليل الممنوح والشيء العظيم الموعود - لا يمكن نيل الحصان العظيم. نوافذي! معلّقاً هناك فوق شمس الغروب والليل المتدفق، أسناني تصطك، أحشد شياطين شهوتي كلها فوق درابزين شرفة تخفق: مستعداً

Twitter: @ketab_n

للإقلاع في المساء الرطب المشمشي والأسود؛ لقد أقلع - حيث تتحرك الصورة المضاءة وتعود حواء إلى أحد الأضلاع، ولا يظهر في النافذة، سوى رجل بدين شبه عار يقرأ صحيفة.

ولمّا كنت أفوز أحياناً في السباق الذي يجري بين مخيّلتي وحقيقة الطبيعة، كان الخداع محتملاً. وألمّ بي ألم لا يطاق عندما دخل الحظ وحرمني من الابتسامة الموجهة إليّ. «هل تعرف أن ابنتي الصغيرة كانت تحبك بجنون عندما كانت في العاشرة من عمرها»، قالت امرأة كنت أحدّثها ونحن نحتسي الشاي في باريس، لكن الصغيرة تزوجت، وهي تعيش على مسافة بضعة أميال، ولم أعد أتذكّر إن كنت قد رأيتها في تلك الحديقة، بالقرب من ملعب التنس قبل اثنتي عشرة سنة. والآن، بالطريقة ذاتها، تلك النظرة الأولى المشعّة، وعد الحقيقة، الذي لم يكن وعداً يمكن تمثّله على نحو مغرٍ فقط، بل يمكن اعتباره وعداً نبيلاً أيضاً، لكن الحظ حرمني منه واستحال شخصيات أصغر من جانب الكاتب الشاحب المحبوب. وكان عليّ أن أمتثل لمخيّلتي بالقوة، أو أن أتكيّف معها برضائي، لأنني ذات صباح، في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢، عندما هبطت الدرج ورحت أتلمس رسائلي، بدأ البوّاب النزق الذي لم أكن على وفاق معه، يتذمّر بأن الرجل الذي أوصل ريتا إلى البيت مؤخراً «مريض مثل كلب» ملقى على درج البيت. وبينما كنت أنصت له وأرشوه، وقد بدأ يروي حكاية أخرى عن حادثة أكثر تهذيباً، تكوّن لديّ انطباع بأن إحدى الرسالتين اللتين جلبهما ذاك البريد المبارك مرسلة من أمّ ريتا، امرأة ضئيلة الحجم مجنونة، كنا قد زرناها ذات مرة في كاب كود، وظلت تكتب لي وتوجّه رسائلها إلى عناويني المختلفة، تقول فيها كم نتوافق أنا وابنتها، وكم سيكون رائعاً لو أننا تزوّجنا. أما الرسالة الأخرى التي فتحتها وألقيت عليها نظرة سريعة في المصعد، فكانت مرسلة من جون فارلو.

Twitter: @ketab_n

وكنت ألاحظ غالباً بأننا ننحو لأن نهب أصدقاءنا الاستقرار الذي تكتسبه الشخصيات الأدبية في عقل القارئ. فمهما بلغ عدد المرات التي نمثّل فيها مسرحية «الملك لير»، فلن نجد أبداً ذلك الملك الطيب وهو يقرع كأسه المترعة في حفل مرح صاخب، ناسياً جميع أحزانه، في حفل بهيج يجمعه ببناته الثلاث وكلابهن المدللة. ولن تجد أن إيما تتحسن، أو تحييها أملاح دموع والد فلوبير المتعاطفة. ومهما تطورت هذه الشخصية الشعبية أو تلك بين دفتي الكتاب، سيظل مصيرها راسخاً في عقولنا، وبالمثل، فإننا نتوقّع أن يتبع أصدقاؤنا هذا النمط المنطقي والتقليدي أو ذاك الذي ثبّتناه في عقولهم. لذلك لن يؤلف «إكس» الموسيقى الخالدة التي تتعارض مع السمفونيات من الدرجة الثانية التي عوّدنا عليها. ولن يرتكب «واي» جريمة قتل على الإطلاق، ولن يتمكن «زد» من خداعنا مهما كانت الظروف. فكلّ شيء مرتّب في عقولنا، وكلما قلّت رؤيتنا لأحدهم يزداد شعورنا بالرضى عندما ندقق إلى أي مدى تتطابق فكرتنا عنه كلما سمعنا عنه. ولن يبدو لنا أيّ انحراف في القدر الذي رسمناه غريباً فقط، بل غير أخلاقي أيضاً. ونفضّل ألاّ نعرف جارنا، بائع النقانق المتقاعد، عندما نعلم أنه أصدر أعظم ديوان شعر في حياته.

إني أقول كلّ ذلك لأوضح كم أربكتني رسالة فارلو الهستيرية. فقد علمت أن زوجته قد ماتت لكنني كنت لا أزال أتوقع أن يظل، طوال فترة ترمّله المخلص، ذلك الشخص المملّ، الرزين، الموثوق به كدأبه دائماً. وقد كتب تلك الرسالة بعد قيامه بزيارة قصيرة إلى الولايات المتحدة الأميركية وعاد إلى أميركا الجنوبية، وقرّر أنّ يعهد بجميع القضايا الموكل بها في رامسدال إلى جاك ويندمولير الذي يعيش في تلك البلدة، وهو محامي كنا نعرفه كلانا. وبدا لي أنه يشعر بارتياح شديد لأنه تخلص من «تعقيدات» هايز. وقد تزوّج فتاة إسبانية، وأقلع

Twitter: @ketab_n

عن التدخين، وازداد وزنه ثلاثين باونداً، أما زوجته فهي في ريعان الشباب، وبطلة في التزلج، وقال إنهما سيذهبان إلى الهند لقضاء شهر العسل. وبما أنه يعمل على «إقامة أسرة» على حد قوله، فلا يوجد لديه وقت للاضطلاع بأموري التي وصفها بأنها «غريبة جداً ومزعجة للغاية». ويبدو أن عدداً كبيراً من الفضوليين قد أعلموه أن أحداً لا يعرف مكان دولي هايز الصغيرة، وأنني أعيش مع مطلّقة سيئة السمعة في كاليفورنيا. وقال إن والد زوجته يحمل لقب دوق، وإنه غني جداً، وأضاف أن الذين يستأجرون بيت هايز منذ بضع سنوات يريدون شراءه الآن. وقال من الأفضل لي أن أُظهر دولي إلى العلن، وأن ساقه كُسرت، وأرفق في رسالته صورة له ولفتاة سمراء ترتدي رداءً صوفياً أبيض، يبتسم أحدهما في وجه الآخر في وسط الثلوج في تشيلي.

أتذكّر أنني عندما وصلت إلى شقّتي، قلت في نفسي، «حسناً، يمكنني أن أتعقّبهما الآن على الأقل» - عندما بدأت الرسالة الأخرى، تكلمني بصوت خفيض كأنه أمر واقع:

والدي العزيز:

كيف حالك؟ لقد تزوجت. سأنجب طفلاً. أظن أنه سيكون طفلاً ضخماً. أحسب أنه سيأتي في عيد الميلاد. يصعب كتابة هذه الرسالة. سأفقد صوابي لأننا لا نملك مبلغاً كافياً لتسديد ديوننا والخروج من هنا. سيحصل ديك على وظيفة هامة في ألاسكا باختصاصه في مجال الميكانيك، هذا كلّ ما أعرفه عن الوظيفة، لكنها كبيرة جداً. سامحني لعدم ذكر عنوان بيتنا لكنك ربما كنت لا تزال غاضباً مني، ويجب ألا يعرف ديك. البلدة التي نقيم فيها جميلة. ولا يمكنك أن ترى فيها مغفلين بسبب الضباب الكثيف. أبي، أرجو أن ترسل لنا شيكاً. يمكننا أن نتدبر حالنا بمبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة دولار، بل ربما أقل، أرحب

Twitter: @ketab_n

بأيّ مبلغ يمكنك إرساله، يمكنك أن تبيع أشيائي القديمة، لأننا عندما سنذهب إلى هناك، ستنهمر علينا النقود. اكتب لي من فضلك. لقد مررت بأوقات حزينة وعصيبة.

عزيزتك،

دولي (السيدة ريتشارد ف. شيلير)

٢٨

عدت إلى الترحال ثانية، وعدت إلى الجلوس وراء مقود السيارة الزرقاء القديمة، وعدت وحيداً. عندما قرأت تلك الرسالة ورحت أصارع جبالاً من الألم الذي أثارته في صدري، كانت ريتا لا تزال في عداد الأموات في هذا العالم. ألقيت عليها نظرة وهي تبتسم في نومها، وقبّلتها على حاجبها النديّ، وتركتها إلى الأبد، ووضعت رسالة وداع رقيقة ألصقتها بشريط لاصق على سرتها - وإلا فلن تجدها وتقرأها.

هل قلت «وحيداً»؟ لا، ليس حقاً. فقد كان معي رفيقي الأسود الصغير. وعندما وصلت إلى بقعة معزولة، كررت مشهد الموت العنيف للسيد ريتشارد ف. شيلير. فقد وجدت في المقعد الخلفي للسيارة كنزة رمادية قديمة وسخة، علّقتها على غصن شجرة في فرجة صامتة في الغابة التي وصلت إليها عن طريق الغابة من الطريق السريع الذي أصبح بعيداً الآن. لكن الشيء الذي أفسد تنفيذ حكم الإعدام هو الزناد الذي كان قاسياً بعض الشيء، وتساءلت هل عليّ أن أحضر قليلاً من الزيت لتزييت هذا الشيء الغامض، لكن لم يكن لديّ وقت كاف. أعدت الكنزة الميتة القديمة إلى السيارة، بعد أن أصابتها ثقوب أخرى الآن، وبعد أن حشوت رفيقي الدافئ ثانية، واصلت رحلتي.

كانت الرسالة مؤرخة في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ (وكان اليوم

Twitter: @ketab_n

هو ٢٢ أيلول)، وكان العنوان الذي أعطتني إياه «شباك البريد، كولمونت» (لا «فا»، لا «با»، ولا «تين»، ولا كولمونت، في أي حال، لقد موّهت كلّ شيء، يا حبيبتي). ودلّت التحقيقات على أن هذه البلدة مجرد بلدة صناعية صغيرة تبعد حوالى ثمانمائة ميل عن مدينة نيويورك. في البداية، عزمت على مواصلة القيادة طوال النهار والليل، لكنني عدلت عن الفكرة، وقلت إنه من الأفضل لي أن آخذ قسطاً من الراحة لمدة ساعتين تقريباً عند الفجر في غرفة في أحد النزل على الطريق، قبل أن أصل إلى البلدة ببضعة أميال. وقرّ قراري بأنه لا بد أن يكون ذلك الشرير، شيلير هذا، بائع سيارات، لعله تعرّف على لوليتاي بعد أن قام بجولة في سيارته في بيردسلي - في ذلك اليوم الذي ثُقبت فيه عجلة درّاجتها، عندما كانت في طريقها إلى بيت الآنسة إمبراطورة - وصادفته بعض المشاكل آنذاك. وظلت كنزة ذلك المشنوق، مهما تغيّرت معالمها وهي ملقاة على مقعد السيارة الخلفي، تكشف ملامح «تراب» - «شيلير» - المختلفة وفظاظة وبذاءة جسده البوهيمي، ولكي أبطل طعم الفساد المرير هذا، قررت أن أجعل نفسي وسيماً وأنيقاً وضغطت على حلمة ساعتي المنبّه، قبل أن تنفجر بالرنين في التوقيت الذي كنت قد عيّرتها عليه عند الساعة السادسة صباحاً. ثمّ، بحرص ورومانسية رجل محترم يوشك أن يدخل في مبارزة، تأكدت من ترتيب أوراقي، وتحمّمت وعطّرت جسمي الرهيف، وحلقت وجهي وصدري، واخترت قميصاً حريرياً، وسروالين داخليين نظيفين، وارتديت جورباً رمادياً داكناً شفافاً، وهنّأت نفسي بعد أن وجدت بعض الثياب الأنيقة في صندوق سيارتي - مثل صدرية ذات أزرار صدفية، وربطة عنق فاتحة اللون مصنوعة من الكشمير، وما إلى ذلك.

وللأسف، لم أتمكن من تناول طعام الفطور، لكنني استبعدت هذه

Twitter: @ketab_n

الحاجة الجسدية باعتبارها شيئاً تافهاً مؤسفاً، ومسحت فمي بمنديل أخرجته من جيبي. وبعد أن ابتلعت كتلة ثلجية زرقاء لعلاج القلب، ووضعت حبة على لساني، ودسست المسدس في جيب بنطلوني الخلفي، وخطوت بخفة ورشاقة إلى حجيرة هاتف في كولمونت (آه - آه - آه، صرّ بابه الصغير) اتصلت بالرقم الوحيد الموجود باسم شيلير - بول، بائع أثاث - في دليل الهاتف المهترئ الممزّق. أخبرني هورس بول بأنه يعرف ريتشارد، ابن ابن عم له، وعنوانه هو، دعني أرى، شارع ١٠ كيلر ستريت (شارع القاتل) (لن أذهب بعيداً في أسمائي المستعارة). آه - آه - آه، صرّ الباب الصغير.

وفي شارع ١٠ كيلر ستريت، سألت عدداً من العجائز المكتئبين الواهنين وحوريتين وسختين شعرهما طويل أشقر بلون الفريز (تجريدياً، لا لسبب ظاهر، فقد كان الوحش القديم في داخلي يبحث عن طفلة ترتدي غلالة شفافة أضمها بين ذراعيّ قليلاً، بعد أن أنهي عملية القتل، وبعدها لن أبالي بأي شيء، ويصبح كلّ شيء مسموحاً به). نعم، عاش ديك سكيلير هناك، لكنه انتقل إلى مكان آخر بعد أن تزوّج. ولم يكن أحد يعرف عنوانه. «لعلهم يعرفون في ذلك المخزن»، قال صوت جهوري من فتحة مجرى مفتوحة في الأرض، صادف أنني كنت أقف بجانبها مع الفتاتين الصغيرتين الحافيتين ذواتي الذراعين النحيلتين برفقة جدّتيهما الواهنتين. دخلت المخزن الخطأ وهزّ زنجي عجوز رأسه حتى قبل أن أسأله أيّ شيء. اجتزت الشارع إلى محل بقالية معتم، وبناءً على طلبي، صاح أحد الزبائن، فانطلق صوت امرأة من فتحة خشبية في الأرض، تشبه فتحة المجرى، وصاحت: شارع هنتر، آخر بيت.

كان شارع هنتر يبعد بضعة أميال، في منطقة أشد كآبة، تنتشر فيها النفايات والحفر، فيها حديقة خضراوات تنتشر فيها الديدان، وكوخ،

Twitter: @ketab_n

وقطرات ماء رمادية، ووحل أحمر، وعدّة مداخن ينبعث منها الدخان من بعيد. توقّفت عند آخر «بيت» - كوخ من ألواح الخشب، وفي مكان بعيد عن الطريق كان هناك بيتان أو ثلاثة بيوت تحيطها أرض مليئة بالقمامة تنمو فيها أعشاب ذابلة. ومن وراء البيت، انبعثت أصوات طرقات بالمطرقة، ولبثت جالساً في سيارتي القديمة، القديمة والمهلهلة، عدة دقائق، في نهاية رحلتي، عند هدفي الرمادي. لقد انتهى كل شيء يا أصدقائي، انتهى كل شيء يا أصدقائي. كانت الساعة تقارب الثانية، ووصل عدد نبضاتي إلى ٤٠ في دقيقة، و١٠٠ نبضة في دقيقة أخرى. وراحت القطرات تتساقط فوق غطاء السيارة. انتقل مسدسي إلى جيب بنطالي الأيمن، وخرج كلب هزيل من وراء البيت، توقّف مندهشاً، وبدأ ينبح عليّ بلطف، عيناه مسقوقتان، وشعر بطنه الأشعث مليء بالوحل، ثم دار حولي قليلاً ونبح ثانية.

٢٩

ترجّلت من السيارة، وصفقت بابها. وتردد صدى صفقة الباب تلك في فراغ اليوم الغائم. وعلّق الكلب على صفقة الباب بعواء خفيف مملّ. ضغطت زرّ الجرس، فسرت ذبذباته في جسدي. لا يوجد أحد. ضغطت الجرس ثانية، لكنني لم أسمع جواباً. من أي أعماق يأتي هذا الهراء؟ فرد عليّ الكلب بمزيد من النباح. تناهى إليّ صوت اندفاع وجرجرة أقدام، ثم فُتح الباب.

كان طولها قد ازداد بوصتين، وكانت تضع نظارات ذات إطار وردي. وكانت تصفيفة شعرها جديدة، مكوّماً إلى الأعلى. بدا لي أن أذنيها جديدتان. كم كان الأمر بسيطاً! كانت اللحظة، الموت الذي يلاحقني طوال السنوات الثلاث، بسيطة مثل قطعة خشب جافة. كان

Twitter: @ketab_n

حملها ظاهراً بوضوح وضخماً. ويبدا رأسها أصغر حجماً (لم تمضِ سوى ثانيتين، لكنهما كانتا طويلتين مثل امتداد الحياة)، وغارت وجنتاها الشاحبتان المكسوتان بالنمش، وفقدت ساقاها وذراعاها العارية سمرتها، ونبتت عليها شعرات صغيرة. كانت ترتدي فستاناً قطنياً بنياً بدون أردان، وتنتعل خفين شديدي الليونة.

«حســناً» زفرت بعد فترة صمت مؤكدة على الدهشة والترحيب.

«هل زوجك في البيت؟» قلت ناعقاً، قبضتي في جيبي.

بالطبع لا يمكنني أن أقتلها، كما يتراءى للبعض. فكما ترون، فأنا أحبّها. إنه حبّ من النظرة الأولى، من النظرة الأخيرة. لقد أحببتها من قبل، وسأحبها إلى الأبد.

«تفضل»، قالت دولي شيلير بنبرة حماسية مبتهجة، واستندت إلى عارضة الباب ذي الخشب المهترئ المتصدع، وسطّحت بطنها بقدر ما تستطيع (حتى أنها وقفت على أطراف أصابعها قليلا) لأتمكن من الدخول، ووقفت مصلوبة لوهلة، مطرقة رأسها، مبتسمة باتجاه عتبة الباب، بوجنتيها الغائرتين وعظم صدغيها المكور، وكانت ذراعاها الحليبيتان متكئتين على الباب الخشبي. دخلت دون أن ألمس بطنها الناتئة. كانت تفوح من دولي رائحة قلي خفيفة. اصطكت أسناني مثل أبله. «لا، ابق في الخارج» (قالت للكلب). أغلقت الباب، وتبعتني هي وبطنها إلى صالة استقبال بيت الدمى.

«إن ديك هناك»، قالت وهي تشير بمضرب تنس غير مرئي، تدعو نظرتي إلى الانتقال من غرفة النوم - صالة الاستقبال المعتمة حيث كنا نقف، إلى المطبخ، وعبر المدخل الخلفي حيث كان يجثم، في مشهد بدائي بعض الشيء، شاب غريب، أسود الشعر، يرتدي بدلة عمال، فوق سلّم، مولياً ظهره لي، يصلح شيئاً قريباً أو فوق كوخ جاره، الذي كان أكثر امتلاء، بذراع واحدة، يقف أسفل السلم، وينظر إلى الأعلى.

Twitter: @ketab_n

أوضحت لي هذا النمط من بعيد، معتذرة («سيظل الرجال رجالاً»). هل يجب أن تناديه؟

لا.

ولبثت واقفة في وسط الغرفة المنحرفة قليلاً، تصدر همهمات متسائلة، مبدية قسمات وحركات خاوية مألوفة، وخيّرتني برسغيها ويديها، بتعابير مجاملة مضحكة، بين الجلوس على الكرسي الهزاز أو على الأريكة (التي تصبح سريرهما بعد العاشرة مساء). أقول «مألوفة» لأنها رحّبت بي ذات يوم بنفس رقصة الرسغ إلى حفلتها في بيردسلي. جلس كلانا على الأريكة. غريب: مع أن نظراتها بهتت، وأدركت، في وقت متأخر من اليوم على نحو يائس، كم كانت تشبه - كانت دائماً تشبه - فينوس الخمرية بريشة بوتايسلي - الأنف الناعم نفسه، الجمال المغبش ذاته. وفي جيبي، أفلتت أصابعي بلطف مسدسي الذي لم استخدمه بعد، واستقرت فوهته داخل المنديل القابع فيه.

«ليس هذا هو الشخص الذي أريد أن أراه»، قلت.

وسرعان ما تركت عيناها نظرة الترحيب المستفيضة تلك. قطّبت جبينها كما كانت تفعل في الأيام المريرة القديمة:

«لا، من؟»

«أين هو؟ بسرعة».

«انظر»، قالت، وأمالت رأسها إلى أحد الجانبين وهزّته بهذه الوضعية. «انظر، لا أظن أنك ستفتح الموضوع».

«بالتأكيد»، قلت، وللحظة - على نحو غريب، اللحظة الوحيدة، الرحيمة، الدائمة خلال اللقاء كله - تجادلنا كما لو أنها كانت لا تزال ملكي.

فتاة حكيمة، تمالكت نفسها.

لا يعرف ديك شيئاً عما جرى بيننا. وهو يعتقد أنني والدها، ويظن

Twitter: @ketab_n

أنها هربت من أحد بيوت الطبقة الراقية لتغسل الصحون في أحد المطاعم. إنه يصدق كل شيء. لماذا ينبغي لي أن أزيد الأمور صعوبة بتعكير كلّ ذلك الوحل؟

لكنني قلت إنها يجب أن تكون عاقلة، يجب أن تكون فتاة عاقلة (ببطنها العارية تحت قطعة القماش البنية تلك)، يجب أن تفهم أنها إذا كانت تتوقع مساعدة مني فقد أتيت لمساعدتها، لا بد أن يكون لديّ على الأقل فهم واضح لما يجري.

«هيا، ما اسمه!»

ظنّت أنني كنت أخمّن اسمه منذ فترة طويلة. يا له (بابتسامة ماكرة وسوداوية) من اسم رائع. لن أصدّقه أبداً. يصعب أن تصدّقه هي نفسها.

اسمه، يا حورية الخريف.

ليس أمراً مهماً، قالت. اقترحتْ أن أنسى الأمر. هل أريد سيجارة؟

لا. ما اسمه.

هزّت رأسها بتصميم. فقد تراءى لها أنه فات الأوان لإثارة مشكلة، وأنني لن أصدق الأشياء التي لا يمكن تصديقها -

قلت من الأفضل لي أن أذهب، إلى اللقاء، من الجيد أنني رأيتها.

قالت لا جدوى من الإلحاح، وأنها لن تخبره أبداً، لكن من الناحية الأخرى، بعد كل شيء - «هل تريد حقاً أن تعرف من هو؟ حسناً، إنه -»

وبرقة، وبثقة، مقوّسة حاجبيها الرفيعين، زامّة شفتيها الجافتين، أطلقت، هازئة قليلاً، بشيء من الصعوبة، برقة، بنوع من الصفير الصامت، الاسم الذي خمّنه القارئ الفطن منذ عهد بعيد. معطف واق من المطر. لماذا خطرت لي ذكرى عابرة في بحيرة غلاس أوار؟ أنا

Twitter: @ketab_n

أيضاً كنت أعرفها، دون أن أعرف ذلك. لم تكن هناك صدمة، لم تكن هناك مفاجأة. وبهدوء تم الاندماج، وانتظم كلّ شيء، في نمط من الأبواب التي نسجتها في هذه المذكرات حتى تسقط الثمرة الناضجة في أوانها. نعم، بالهدف الواضح والمنحرف لجعل - كانت تتكلّم لكنني كنت جالساً ذائباً في هدوئي الذهبي - لجعل ذلك الهدوء الذهبي والوحشي من خلال رضاء الإدراك المنطقي، الأمر الذي لا بد أن أشدّ قرائي عداءً قد شعروا به الآن.

كما أقول، راحت تتحدث، وغدا كلامها يتدفق الآن ببطء. قالت إنه الرجل الوحيد الذي أغرمت به كثيراً. وماذا عن ديك؟ آه، إن ديك حمل، وهما سعيدان للغاية معاً، لكنها قصدت شيئاً مختلفاً، ولم أحسب لذلك حساباً على الإطلاق، بالطبع؟

كانت ترمقني وكأنها أدركت فجأة الحقيقة اللامعقولة - المملة، المربكة، وغير الضرورية نوعاً ما- التي كان يعرفها ذاك الرجل الأربعيني، الساهم، الأنيق، الممشوق، السقيم، الذي يرتدي معطفاً مخملياً، الجالس إلى جانبها، الذي يعرف ويعشق كلّ مسام في جسدها اليافع وكلّ بقعة فيه. وفي عينيها الرماديتين الباهتتين، بتلك النظارات الغريبة، انعكست لبرهة قصة حبّنا المسكينة، تأملتها، ثم طردتها مثل حفلة مملّة، مثل نزهة في يوم ماطر لم يشارك فيها إلا أشدّ الفتيان ضجراً وتفاهة، مثل تمرين مملّ، مثل قطعة طين جافة تكسو طفولتها.

وأبعدت ركبتيّ عن متناول يدها لأتجنب لمستها السطحية عليهما - إحدى حركاتها المكتسبة.

طلبت مني ألاّ أكون متوتراً. فقد أصبح الماضي مجرد ماض، وهي ترى أنني كنت أباً جيداً، وأقرّت بذلك. تابعي يا دولي شيلير.

حسناً، هل كنت أعرف أنه يعرف أمّها؟ وأنه كان حقاً صديقاً قديماً؟ وأنه كان يزورهما مع خاله في رامسدال؟ - أوه، منذ سنوات -

Twitter: @ketab_n

ألقى محاضرة في نادي أمّها، وكان قد جرّها وسحبها، دولي، من ذراعها العارية إلى حضنه أمام الجميع، وقبّلها في وجهها، وكانت في العاشرة من عمرها، وغضبت منه؟ وهل كنت أعرف أنه رآنا، أنا وهي، في النزل الذي كتب فيه المسرحيّة التي تدرّبت عليها في بيردسلي، بعد سنتين؟ وهل كنت أعرف - كان من المريع محاولتها أن تصرف انتباهي وتجعلني أصدّق أن كلير كانت امرأة مسنة، ولعلها كانت إحدى قريباته أو صديقاته مدى الحياة - وآه، كم كان مفاجئاً أن تظهر صورتها في «مجلة وايس».

لكن جريدة برايسلاند غازيت لم تنشرها. نعم، أمر في غاية الغرابة.

وقالت، نعم، ما هذا العالم إلا هفوة بعد أخرى، وأنه إذا كتب أحدهم قصة حياتها فلن يصدقها أحد على الإطلاق.

وفي هذه اللحظة، تناهت إلينا أصوات حادة من المطبخ الذي دخل إليه ديك وبيل يبحثان عن بيرة. وعبر المدخل لاحظا الزائر، فدخل ديك إلى صالة الاستقبال.

«ديك، هذا أبي!» صاحت دولي بصوت عنيف مدوٍ بدا لي غريباً، جديداً، بهيجاً، قديماً، حزيناً، لأن الشاب، وهو محارب قديم شارك في حرب سابقة، كان ثقيل السمع.

عينان زرقاوان قطبيتان، شعر أسود، خدّان متورّدان، ذقن غير حليقة. تصافحنا. بيل الرصين، الذي يتفاخر بأنه يصنع العجائب بالعمل بيد واحدة. أحضر علب البيرة التي فتحها. أراد الانسحاب. مجاملة الأشخاص البسيطين الرائعة. لقد صُنعت لتبقى. إعلان عن نوع من البيرة التي كنت، في الحقيقة، أفضّلها هكذا، وكذلك كانت تفضّلها أسرة شيلير. انتقلت إلى الكرسي الهزاز الذي لا يتوقف عن الاهتزاز. وبينما كانت تقضم بنهم رقائق البطاطا، قدمت لي بعضاً منها. كان

Twitter: @ketab_n

الرجلان ينظران إلى أبيها الرقيق، الضئيل الجسم، الذي ينتمي إلى العالم القديم، والذي يميل إلى الشباب لكنه مريض، بمعطفه المخملي، وصدريته البيج، والذي ربما كان ينتمي إلى طبقة النبلاء.

كان لديهما انطباع بأنني جئت لأمكث، لذلك اقترح ديك مقوّساً حاجبيه، مما يدّل على أنه يفكّر بعمق، أنه يستطيع أن ينام هو ودولي في المطبخ في فراش إضافي. لوّحت بيدي وقلت لدولي التي نقلت ذلك بصيحة خاصة إلى ديك بأنني توقفت لزيارتهما فقط وأنني في طريقي إلى ريدسبيرغ لزيارة بعض الأصدقاء والمعجبين. ثمّ لوحظ أن أحد أصابع الإبهام القليلة المتبقية في يد بيل كانت تنزف (هذا ليس غريباً - فهو عامل في جميع الأحوال). يا لها من حركة أنثوية، ولم أكد أرها هكذا من قبل عندما انحنت فوق يد الرجل، وبان ذلك الجزء الظليل بين نهديها الأبيضين! وقادته إلى المطبخ لتعالجه. ولبضع دقائق، ثلاث أو أربع دقائق بدت دهراً ملأها دفء اصطناعي، بقيت أنا وديك وحدنا. كان يجلس على كرسي صلب، مقطباً يفرك أطرافه الأمامية. اعترتني رغبة دفينة في أن أعصر تلك البثرات السوداء على جناحيّ أنفه المتعرقين بمخالبي الطويلة بلون العقيق. كانت عيناه حزينتين لطيفتين برموش جميلة، وله أسنان شديدة البياض. وكانت تفاحة آدم في عنقه كبيرة يكسوها الشعر. لماذا لا يحلق هؤلاء الشبّان الأقوياء جيداً؟ ولا بد أنه ضاجع حبيبته دولي بلا توقف ومن دون قيد على هذه الأريكة، ما لا يقل عن مائة وثمانين مرة، ربما أكثر بكثير. وقبل ذلك - منذ متى كانت تعرفه؟ بلا حسد. شيء مضحك - بلا حسد على الإطلاق، لا شيء سوى الحزن والغثيان. بدأ الآن يحكّ أنفه. كنت واثقاً من أنه عندما فتح فمه أخيراً، قال (يهزّ رأسه قليلاً): «آه، إنها طفلة رائعة، يا سيد هايز. إنها حقاً كذلك، وستكون أمّاً ممتازة». فغر فمه - وأخذ رشفة من البيرة. مما جعله يلوي قسمات

Twitter: @ketab_n

وجهه - واستمر يرشف بيرته حتى أرغى فمه. كان حملاً وديعاً. يكوّر راحتيه حول نهديها اللذين يشبهان نهديّ فينوس. كانت أظافره سوداء مثلّمة، لكن سلامياته، الرسغ بكامله، الرسغ الرشيق القوي، أجمل من رسغي بكثير: فقد آذيت كثيراً أجساماً كثيرة بيديّ المسكينتين الملتويتين، لذلك لا يمكنني التفاخر بهما. كما ينعتها الفرنسيون، «مزيج من الجينات العرقية»، أطراف أصابع خيّاط نمساوي مسطحة - تلك هي أصابع همبرت همبرت.

جيد. إن كان صامتاً، فيمكنني أن أصمت أنا أيضاً. في الحقيقة، كنت بحاجة إلى قليل من الراحة في هذا الكرسي الهزاز المخيف، قبل أن أتوجه بسيارتي إلى المكان الذي يقبع فيه عرين الوحش - ثم سحبت قلفة المسدس إلى الخلف، ووجدت متعة برعشة الزناد المسحوق في جيبي. كنت دائماً تابعاً صغيراً جيداً لعرّاف فينيسيا. لكنني أشفقت الآن على ديك المسكين الذي، بطريقة منوّم مغنطيسي، كنت أمنعه على نحو مروّع من إبداء الملاحظة الوحيدة التي قد يفكّر بها («إنها طفلة رائعة. . . »)

قلت: «إذن ستذهب إلى كندا؟»

في المطبخ، كانت دولي تضحك من شيء قاله أو فعله بيل.

صحت، «ستذهب إلى كندا؟ ليس كندا» - صحت ثانية - «أقصد الاسكا، طبعاً».

أمسك الكأس، ومومئاً بحكمة، أجاب: «حسناً، أظن أنه جرحها بواسطة دولاب مسنن. لقد فقد ذراعه اليمنى في إيطاليا».

أشجار لوز بنفسجية جميلة مزهرة. ذراع سريالية مقطوعة معلقة هناك بلون بنفسجي. وشم بائعة زهور على اليد. عادت دولي وبيل الذي ضمدت يده. تراءى لي أن جمالها الأسمر الشاحب الغامض يثير صاحب اليد المبتورة. استوى ديك واقفاً وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

Twitter: @ketab_n

خُيّل إليه أنه سيعود هو وبيل لإصلاح تلك الأسلاك. وظنّ أن لدى السيد هايز ودولي الكثير من الأشياء التي يودّان قولها. وخيّل إليه أنه سيراني قبل أن أغادر. لماذا يخيّل إلى الناس أموراً كثيرة، ولماذا يكرهون استعمال سماعات الأذن؟

«اجلس»، قالت، ووضعت راحتيها على خاصرتها محدثة صوتاً عالياً. جلست على الكرسي الهزاز الأسود.

«هكذا إذاً، لقد خنتني؟ إلى أين ذهبت؟ أين هو الآن؟»

تناولت من فوق رف الموقد صورة محدبة مصقولة. امرأة مسنة، تبتسم، بدينة، ذات ساقين ناتئتين، ترتدي فستاناً قصيراً جداً؛ ورجل مسنّ يرتدي قميصاً بلا أردان، له شاربان متهدلان، ويضع ساعة ذات سلسال، والدة ووالد زوجها. يعيشان مع أسرة شقيق ديك في جانيو.

«من المؤكد أنك لا تريد أن تدخّن؟»

كانت تدخّن هي نفسها. لأول مرّة أراها تدخّن. ممنوع منعاً باتاً حسب قوانين همبرت الرهيب. بأناقة، في سحابة من الدخان الأزرق. لقد قامت شارلوت من قبرها. سأعثر عليه بواسطة العمّ أيفوري إذا رفضت.

«خنتك؟ لا، لم أخنك». وجّهت طرف سيجارتها نحو الموقد تماماً، ونفضتها بسبابتها بسرعة، كما كانت تفعل أمّها، ثمّ، مثل أمّها، يا إلهي، حكّت بظفرها وأزالت قطعة صغيرة من ورق السيجارة من تحت شفتها. لا. لم تخني. كنت بين أصدقاء. وكانت إدوسا قد حذّرتها بأنّ كيو يحبّ الفتيات الصغيرات، وكاد يُزجّ به في السجن ذات مرة، في الواقع (واقع جميل)، وكان يعرف أنها تعرف. نعم... كان مرفقها مستنداً إلى راحة يدها، نفثت هبة من الدخان، ابتسامة، ابتلعت دخاناً، وحركت يدها. فيض من الذكريات. كان يرى - مبتسماً - من خلال كلّ شيء، وكلّ شخص، لأنه لم يكن مثلي ومثلها، بل كان

Twitter: @ketab_n

عبقرياً. شاباً عظيماً. مفعماً بالمرح. واهتزّ جسدها من الضحك، عندما حدثته عني وعنها، وقال إنه كان يخمّن ذلك. وفي الظروف الحالية، كان إخباره آمناً للغاية...

حسناً، كيو - كانوا يسمونه كيو - المخيّم الذي شاركت فيها منذ خمس سنوات. مصادفة غريبة... وقد أخذها إلى مزرعة صديق له تبعد حوالى يوماً كاملاً من إليفانت (إلفينستون). ما اسمها؟ آه، اسم سخيف - مزرعة دوك دوك - كما تعرف إنه اسم غبي جداً - لكنّ هذا لا يهم الآن، على أي حال، لأن المكان تلاشى واختفى. حقاً، كانت تعني أنني لا أستطيع تخيّل كم كانت تلك المزرعة فخمة، وكانت تعني أن فيها كلّ شيء لكن كلّ شيء، حتى شلال داخلي. هل أذكر الشاب ذا الشعر الأحمر الذي لعبنا («لعبنا» كانت جيدة) معه التنس ذات يوم؟ حسناً، كان صاحب المزرعة شقيق الرجل ذي الشعر الأحمر، لكنه عرّفها على كيو خلال الصيف. وعندما وصلت هي وكيو، أقام لهما الآخرون حفل تتويج، ومن ثمّ - غطسة رائعة في الماء، كما لو كنت تعبر خط الاستواء. كما تعرف.

تحركت عيناها باستسلام مصطنع.

«تابعي، أرجوكِ».

حسناً. كانت الفكرة تتمثل في أن يأخذها في أيلول (سبتمبر) إلى هوليود، ويرتّب لها اختباراً للتمثيل هناك، وهو جزء من مشهد مباراة تنس في فيلم سينمائي مقتبس من إحدى مسرحيّاته - الأحشاء الذهبية - وربما جعلها تمثّل دوراً بديلاً لإحدى نجيمات السينما الجميلات في ملعب تنس رائع في كلايغ - لكن للأسف، لم يحدث ذلك.

«أين هو ذلك الخنزير الآن؟»

إنه ليس خنزيراً. إنه شاب عظيم من نواحٍ عديدة. لكنه كان يتعاطى الشراب والمخدّرات، وبالطبع، كانت له أهواء غريبة في الأمور

Twitter: @ketab_n

الجنسية، وكان يعامل أصدقاءه كالعبيد. لم أتمكن من تخيّل (أنا همبرت، لم أستطع أن أتخيّل!) الأشياء التي كانوا يفعلونها في مزرعة دوك دوك؛ وقالت إنها رفضت مشاركتهم لأنها كانت تحبّه.

«ما هي تلك الأشياء؟»

«آه، أشياء غريبة، قذرة، نزواتية. أقصد، كانت لديه فتاتان وفتيان اثنان، وثلاثة أو أربعة رجال، وكانت الفكرة أن نتشابك جميعاً ونحن عراة، بينما تصوّر امرأة عجوز فيلماً سينمائياً» (كانت مثل جوستين في مذكرات الماركيز دي ساد في الثانية عشرة في البداية).

«ماهي تلك الأشياء بالتحديد؟»

«آه، الأشياء. . . آه، أنا - حقاً أنا» - لفظت «أنا» في صيحة خافتة، بينما استمعت إلى مصدر الوجع، وبسبب عدم وجود كلمات بسطت أصابع يدها الخمس التي كانت تعلو وتهبط. لا، رفضت، رفضت الدخول في التفاصيل وذلك الطفل في بطنها.

هذا معقول.

«لم يعد هذا مهماً الآن»، قالت وخبطت بقبضتها على وسادة رمادية، ثم استلقت على الأريكة على ظهرها، بطنها ناتئة إلى الأعلى.

«أشياء مجنونة، أشياء قذرة. قلت لا، لن [قالتها، بلا مبالاة، بلهجة عامية مقرفة تعني «أنفخ»، بترجمة فرنسية حرفية] فتيانك المتوحشين، لأنني أريدك أنت فقط. حسناً، طردني».

لم تكن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقولها. فقد وجدت هي وفاي في شتاء عام ١٩٤٩ عملاً. وخلال سنتين تقريباً، راحت تتنقل من مكان إلى آخر، تعمل في مطاعم في بعض البلدات الصغيرة، ثم تعرفت على ديك. لا، لم تكن تعرف مكان الرجل الآخر. تظن أنه في نيويورك. طبعاً، كان مشهوراً، لذلك يمكنها أن تجده في الحال إذا أرادت. وحاولت فاي العودة إلى المزرعة - لكنها لم ترها ثانية -

Twitter: @ketab_n

احترقت عن بكرة أبيها، ولم يتبق شيء منها، مجرد كومة متفحّمة من القمامة. كان ذلك أمراً شديد الغرابة، شديد الغرابة - أغمضت عينيها، وفغرت فاها، وأسندت ظهرها إلى الوسادة، ووضعت إحدى قدميها على الأرض. كانت الأرضية الخشبية مائلة، ولو كانت هناك كرة فولاذية صغيرة لتدحرجت إلى المطبخ. لقد عرفت كلّ ما أردت أن أعرفه. لم أكن أنوي تعذيب محبوبتي. وفي مكان ما، وراء كوخ بيل، انطلقت أغنية عن الحماقة والقدر من المذياع، وها هي بنظراتها المتهالكة، ويديها اللتين تمتد فيهما عروق كثيرة ضيّقة، وذراعيها الأبيضين المشعرين، وأذنيها المسطحتين، وإبطيها غير المعتنى بهما، ها هي (حبيبتي لوليتا!) مرهقة ذابلة بطريقة يائسة ولمّا تزال في السابعة عشرة من عمرها، وذلك الجنين في بطنها، تحلم في أن يصبح رجلاً مهماً، يتقاعد في حوالى عام ٢٠٢٠ ميلادي. تفرّست فيها، وعرفت كما أعرف أنني سأموت، بأنني أحببتها أكثر من أيّ شيء رأيته في حياتي، أو تخيّلته على سطح الكرة الأرضية، أو تمنّيت الحصول عليه في أي مكان آخر. كانت مجرد نفحة البنفسج الفاهية وصدى ورقة الشجر الميتة للحورية التي تدحرجت فوقها بمثل تلك الصرخات في الماضي؛ صدى على حافة واد خمري، وغابة بعيدة تحت سماء بيضاء، وأوراق أشجار بنية اللون تخنق الساقية، وصرصار الليل الأخير المختبئ بين الأعشاب المتغضنة المتموجة... لكن الحمد لله، لم يكن ذلك الصدى وحده هو الذي عشقته. إن الشيء الذي دلّلته بين كروم قلبي المتشابكة، إثم قلبي المتلألئ، تحلل وعاد إلى جوهره: إثمّ عقيم وأناني، كلّ ما ألغيته ولعنته. قد تسخرون مني، وتهدّدون بإفراغ قاعة المحكمة، لكن حتى لو كممتم فمي، وكدت أختنق، فلن أكفّ عن أن أهتف بحقيقتي السيئة. وإني أصرّ على أن يعرف العالم مدى حبّي للوليتاي، لوليتا هذه، الشاحبة والملوّثة، الحامل بطفل آخر،

Twitter: @ketab_n

لكنها لا تزال رمادية العينين، لا تزال رموشها سوداء، لا تزال كستنائية ولوزية، لا تزال كارمن، لا تزال لي، «غيّري حياتي يا كارمن، لنذهب ونعيش في مكان آخر ولا يفارق أحدنا الآخر. في أوهايو؟ في براري ماسوشوستس؟ لا يهم، حتى لو تلاشت عيناها وتحولت إلى سمكة حسيرة النظر، وانتفخت حلماتها وتشققتا، وتلوثت الدلتا الحسّاسة المخملية الصغيرة الرائعة بين ساقيها وتمزقت - مع أنني أكاد أفقد صوابي لمجرّد رؤية وجهك الشاحب الغالي، لمجرّد سماع صوتك الفتي الصاخب، حبيبتي لوليتا.

قلت: «لوليتا، قد لا يكون الوقت مناسباً لقول ذلك، لكنني يجب أن أقولها. كما تعرفين فإن الحياة قصيرة جداً، وتعرفين تماماً أن المسافة من هنا إلى تلك السيارة القديمة عشرون أو خمس وعشرون خطوة. إنها مسافة قصيرة جداً. اقطعي تلك الخطوات الخمس والعشرين. الآن. حالاً. تعالي كما أنتِ، وسنعيش حياة سعيدة إلى الأبد».

كارمن، هل تريدين أن تأتي معي؟

«أتقصد»، قالت، وفتحت عينيها على وسعيهما ورفعت نفسها قليلاً، ستضرب الأفعى ضربتها، «أتقصد أنك لن تعطي [نا] ذلك المبلغ إلا إذا رافقتك إلى أحد النزل. هل هذا ما تقصده؟»

فقلت: «لا. لقد أسأت فهمي. أريد أن تتركي ديك الذي جاء بالصدفة، وأن تغادري هذا البيت الحجري السيء، وأن تأتي وتعيشي معي، وتموتي معي، وكلّ شيء معي» (كلمات بهذا المعنى).

«إنك مجنون»، قالت، وبدأت قسمات وجهها تنكمش.

«فكّري في الموضوع، يا لوليتا. لا توجد شروط ولا التزامات. سوى أن، ربما - حسناً، لا يهم». (تأجيل، أردت أن أقول، لكنني لم أقلها).

Twitter: @ketab_n

«في جميع الأحوال، إذا رفضتِ فستحصلين على... جهاز عرسك».

«لا بد أنك تمزح؟» سألت دولي.

سلّمتها مغلفاً فيه أربعمائة دولار نقداً، وشيكاً بثلاثة آلاف وستمائة دولار.

بحذر، بحيرة، أخذت هديتي الصغيرة، ثم تورّد جبينها على نحو جميل. «أتقصد»، قالت، بتأكيد ممض، «إنك تعطينا أربعة آلاف دولار؟» غطّيت وجهي بيدي وأجهشت في البكاء وذرفت دموعاً حارة لم أذرفها من قبل. أحسست بالدموع تنسل بين أصابعي وتهبط إلى ذقني، وتحرقني، وانسدّ أنفي. لم أستطع التوقف عن البكاء، ثم لمست رسغي.

«سأموت إذا لمستني»، قلت، «هل أنتِ متأكّدة من أنكِ لن تأتي معي؟ ألا يوجد أمل في مجيئك؟ قولي لي هذا».

«لا»، قالت، «لا، يا عزيزي، لا».

لم تقل لي هذه الكلمة من قبل قط.

«لا»، قالت، «هذا أمر غير وارد على الإطلاق. سأعود قريباً إلى كيو. أقصد -».

كانت تبحث عن كلمات. قلتها لها في ذهني («حطمتِ قلبي. دمرتِ حياتي»).

«أظن»، تابعت قولها - «ويحي» سقط المغلف على الأرض - فالتقطته - «أظن أنه سخاء كبير منك أن تعطينا مثل هذا المبلغ. إنه سيحلّ جميع مشاكلنا، يمكننا أن نبدأ في الأسبوع القادم. كفّ عن البكاء، أرجوك. يجب أن تفهم. دعني أجلب لك المزيد من البيرة. أوه، لا تبك، أنا في غاية الأسف لأنني خدعتك كثيراً، لكن هكذا تسير الأمور».

Twitter: @ketab_n

جففت وجهي وأصابعي. ابتسمت للهدية. تملكتها الغبطة. أرادت أن تنادي ديك. قلت يجب أن أغادر على الفور، لم أشأ أن أراه على الإطلاق، مطلقاً. حاولنا التفكير بموضوع نتحدث عنه. لسبب ما، ظللت أرى - ارتعشت وتوهجت كالحرير على شبكيّة عيني اللعينة - طفلة متألقة في ربيعها الثاني عشر، وهي جالسة على عتبة الباب، «تلقي» بالحصى على علبة فارغة. كدت أقول - محاولاً إيجاد ملاحظة عارضة - «أتساءل أحياناً ماذا حلّ بفتاة ماكو الصغيرة، هل أصبحت أفضل حالاً؟» - لكنني توقّفت في الوقت المناسب خشية أن أسمعها تقول: «أتساءل أحياناً ماذا حدث لفتاة هايز الصغيرة...» وأخيراً، عدت إلى المسائل المالية. فقلت إن هذا المبلغ، بالكاد يشكّل مبلغ إيجار بيت أمّها، فقالت: «ألم يبع منذ سنوات؟» لا (أعترف أنني كنت قد أخبرتها ذلك لأقطع أي علاقة بينها وبين «ر». سيرسل أحد المحامين كشفاً كاملاً بالوضع المالي لاحقاً. إن وضعه جيد. فقد ارتفعت قيمة بعض السندات المالية الصغيرة التي كانت بحوزة أمّها. نعم، كنت متأكداً من أنه عليّ أن أذهب. يجب أن أرحل، وأعثر عليه، وأحطّمه).

وبما أنني لم أكن سأحتمل لمسة شفتيها، ظللت أتراجع في رقصة متكلفة، في كلّ خطوة، كانت هي وبطنها، تتقدمان نحوي.

أزعجتني هي والكلب. فوجئت (إنها صورة بلاغية) بأنها لم تبال برؤية السيارة القديمة التي كانت تركبها عندما كانت طفلة وحورية. وكلّ ما لاحظته أن لونها تحول إلى أرجواني. قلت إنها لها، وإنه بوسعي أن أعود بالحافلة. قالت لا تكن أحمق، إذ سيذهبان بالطائرة إلى جوبيتر، وسيشتريان هناك سيارة.

قلت إنني سأشتريها منها بمبلغ خمسمائة دولار.

Twitter: @ketab_n

«بهذا المبلغ سأصبح مليونيرة في المرة القادمة»، قالت للكلب المنتشي.

حبيبتي كارمن الصغيرة، سألتها. . . «كلمة واحدة أخيرة»، قلت بإنكليزيتي الحذرة الرهيبة، «هل أنتِ متأكّدة من أنك - حسناً، ليس غداً، طبعاً، وليس بعد غد، لكن - حسناً - ذات يوم، أيّ يوم، ألن تأتي وتعيشي معي؟ سأخلق إلهاً جديداً وأشكره بصيحات ثاقبة، إذا أعطيتني بصيصاً من الأمل» (بهذا المعنى).

«لا»، قالت مبتسمة، «لا».

«إن ذلك سيغيّر أشياء كثيرة»، قال همبرت همبرت.

ثمّ أخرجت مسدسي - أقصد، هذا التصرف الأحمق الذي قد يخيّل للقارئ أنني فعلته. حتى أنه لم يخطر ببالي قط أن أفعل ذلك.

«إلى اللقاء!» غيّرت حديثها، حبيبتي الأميركية الحلوة الميتة الخالدة، لأنها ماتت وهي خالدة إذا كانت تقرأ هذه الكلمات. أقصد، هذا هو الاتفاق الرسمي مع ما يسمّى بالسلطات.

بعدها، وبينما كنت أبتعد، سمعتها تصرخ وهي تنادي ديك بصوت مفعم بالحيوية، وبدأ الكلب يتقافز بجانب سيارتي مثل دولفين سمين، لكنه كان ثقيلاً ومسناً، وسرعان ما استسلم وتوقّف.

ورحت أقود السيارة عبر رذاذ اليوم الذي شارف على نهايته، وكانت ماسحات الزجاج الأمامي تعمل بأقصى طاقتها، لكنها لم تتمكن من تجفيف دموعي.

٣٠

لو كنت قد غادرت كولمونت، كما فعلت حقاً، في حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر (من خلال الطريق «إكس»، لا أتذكّر رقمه) لكان

Twitter: @ketab_n

بإمكاني بلوغ رامسدال قبل الفجر، لو لم يغرني طريق مختصر. كان عليّ أن أصل إلى الطريق السريع «واي». وأظهرت لي خريطتي أنني بعد «غابة الصنوبر» التي وصلت إليها عند هبوط الليل، كان بإمكاني أن أترك الدرب المعبّد «إكس» وأصل إلى الدرب المعبّد «واي» عن طريق درب ترابي مستعرض، يبلغ طوله حوالى أربعين ميلاً كما تقول خريطتي. وإلا كان عليّ أن أسلك الطريق «إكس» لمسافة مائة ميل أخرى، ثم أتبع الطريق الدائري «زد» للوصول إلى «واي»، وإلى المكان الذي أقصده. لكن الطريق المختصر هذا بدأ يزداد سوءاً، وبدأت تكثر المطبات والأوحال، وعندما حاولت العودة بعد حوالى عشرة أميال من الدروب الملتوية، وأنا شبه أعمى، وأتقدم ببطء شديد كالسلحفاة، علقت سيارتي الميلموث الواهنة القديمة في الوحل العميق. كان كلّ شيء مظلم ورطب وحار ويائس. وعلقت المصابيح الأمامية للسيارة في خندق عريض مليء بالماء، أما الريف الذي يحيط بي، إن كان هناك ريف، فكان عبارة عن قفر أسود. وسعيت جاهداً لتخليص نفسي من هذه الورطة، لكن العجلات الخلفية كانت تئن وهي تدور في ذلك المستنقع. لاعناً محنتي، خلعت ثيابي الأنيقة، وارتديت بنطالاً، ولبست الكنزة التي مزقتها الطلقات، ورحت أخوض لمسافة أربعة أميال عائداً أدراجي إلى مزرعة على جانب الطريق.

وفي الطريق بدأ المطر يهطل، لكن لم تعد لديّ القدرة على العودة لجلب معطفي. وقد أقنعتني هذه الحوادث بأن قلبي سليم في أعماقه على الرغم من التشخيص الأخير. وقرابة منتصف الليل، سحبت شاحنة إنقاذ سيارتي من المستنقع، فعدت إلى الطريق السريع «إكس» وواصلت رحلتي. وقد أنهكني التعب، وبعد ساعة، توقفت بجانب الرصيف في بلدة صغيرة مجهولة، ورحت أجرع من قارورة نبيذ في الظلام.

كان المطر قد توقف قبل عدة أميال. كانت ليلة دافئة مظلمة، في

Twitter: @ketab_n

مكان ما في أبالاتشيا. وبين الحين والآخر، كانت السيارات تمر بجانبي، وسرعان ما كانت الأنوار الحمر الخلفية تنحسر وتتلاشى، وتظهر الأضواء الأمامية البيضاء وتتقدّم، لكن البلدة كانت ميتة، فلم يكن هناك أحد يمشي ويضحك على الأرصفة كما يفعل أهالي البلدات المسترخين في أوروبا الجميلة المبتهجة المتعفنة. كنت وحيداً أتمتع بسكون الليل البريء بأفكاري الرهيبة. ورأيت على الرصيف سلة مليئة بالأوساخ والأوراق، لا يوجد فيها قمامة. ورأيت كلمات بحروف حمراء بلون النبيذ تشير إلى استديو تصوير. وانتصب أمام صيدلية ميزان حرارة كبير كتب عليه اسم دواء مسهّل. وشركة روبنوف للمجوهرات تعرض قطعاً من الماس الاصطناعي المنعكس في مرآة حمراء، وكانت ساعة خضراء مضيئة تعوم في أعماق مغسلة «جيفي جيف»، وعلى الجانب الآخر من الشارع، وكان يقبع مرآب غارق في النوم، كتب على لافتته «مشحمة جولفليكس». ومرت طائرة، مرصّعة كذلك بجواهر روبنوف، بتكاسل، في السماء المخملية. لقد رأيت الكثير من البلدات الغارقات في هدأة الليل، ولم تكن هذه البلدة آخرها.

دعوني أبدّد قليلاً من الوقت، فمن الممكن أن أصبح في عداد الأموات. وعلى مسافة من الطريق قبالة الشارع، كانت أضواء النيون تومض بسرعة أبطأ من قلبي مرتين: معالم لافتة مطعم، إبريق قهوة كبير، ظلت تنفجر، كلّ ثانية كاملة أو قرابة ذلك، إلى حياة زمرّدية، وفي كلّ مرّة تنطفئ، كانت تحلّ محلها أحرف وردية تقول «أطعمة لذيذة»، لكن يمكن تبين الإبريق مثل ظلّ كامن يثير العين قبل إحيائها الزمرّدي التالي. رسمنا ظلال رسوم. ولم تكن تلك البلدة الماكرة بعيدة عن نزل «الصيّادون المسحورون». بكيت ثانية، أسكر على الماضي المستحيل.

Twitter: @ketab_n

٣١

عندما توقفت عند هذه المحطة المنعزلة الواقعة بين كولمونت ورامسدال (بين دولي شيلير البريئة والعمّ آيفور البشوش) لتناول المرطبات، رحت أستعرض ما آل إليه وضعي. وبأقصى درجة من البساطة والوضوح، بدأت الآن أرى نفسي وحبيبتي. وبالمقارنة، بدا لي أن جميع محاولاتي السابقة باءت بالفشل. فمنذ سنتين، وبتوجيه من كاهن اعتراف ذكي يتكلم الفرنسية، كنت قد لجأت إليه في لحظة من الفضول الغيبي، واعترفت له بإلحادي البروتستانتي القاتم، للحصول على علاج كاثوليكي من الطراز القديم، بأمل أن أستخلص من إحساسي بالإثم، وجود الخالق الأعظم. وفي تلك الصباحات المتجمّدة في كيبيك التي ينتشر الصقيع في أرجائها، عالجني الكاهن الطيب بأفضل ما لديه من الرقة والفهم. وإني أشعر بامتنان لا نهائي له وللمؤسسة العظيمة التي يمثّلها. لكن، لسوء الحظ، لم أتمكن من تجاوز الحقيقة الإنسانية البسيطة التي، مهما كان العزاء الروحي الذي يمكن أن أجده، ومهما كان الخلود الذي قد يزوّدني به، لا شيء يمكن أن يجعل لوليتاي تنسى الشبق البشع الذي صببته فيها. إلا إذا كان بالإمكان إثبات - لي كما أنا الآن، اليوم، بقلبي وبلحيتي، وانحلالي وفسادي - أنه لن تكون هناك عقوبة مهما كانت، في نهاية الأمر، لأن طفلة من أميركا الشمالية تدعى دلوريس هايز سلبها معتوه مهووس براءة طفولتها، وإذا تم إثبات ذلك (وإذا أمكن ذلك، عندها تصبح الحياة مجرد نكتة)، لا أرى شيئاً لمعالجة تعاستي إلا الكآبة والقدرة على التعبير المحليّ في الفنّ. ودعوني هنا أستشهد بشاعر قديم:

أيها البشر، إن حسّ الأخلاق هو الواجب
الذي يجب أن نسدده لقاء حسّ الجمال الفاني

Twitter: @ketab_n

٣٢

أذكر ذلك اليوم، خلال رحلتنا الأولى - أول جولة لنا في جنتنا - عندما قرّرت بحزم، كي أتمتّع بأوهامي بهدوء وسلام، أن أتجاهل الأشياء التي لا أستطيع تحقيقها، وهي الحقيقة أنني لم أكن خليلها، ولم أكن رجلاً فاتناً لكي أبهرها، ولا صديقاً، بل ولم أكن كائناً بشرياً، بل مجرد عينين وقدمين وجسد تكسوه عضلات قوية - هذا فقط لأذكر الأشياء التي يمكن ذكرها.

وأذكر ذلك اليوم، عندما نكثت بالوعد الذي قطعته لها في المساء (مهما كان ذلك الشيء المسلي الذي يهفو إليه قلبها الصغير - ساحة تزلج ذات أرضية بلاستيكية، أو حفلة نهارية في السينما التي كانت تريد أن تذهب إليها وحدها)، صادف أن ألقيت على وجهها نظرة من الحمّام عبر مرآة مائلة وباب موارب، نظرة لا يمكنني وصفها بدقة . . . تعبير عن عجز تام بدا أنه يتدرّج إلى شيء من التفاهة المريحة لأنه يشكل جميع حدود الظلم والإحباط - ومن المفترض أنه يوجد لكلّ حدّ شيء يتجاوزه - وذلك النور المحايد. وعندما تدرك أن هذين الحاجبين وتينك العينين المنفرجتين هي لطفلة، فمن الأفضل لك أن تقدّر مدى أعماق الشهوانية المحسوبة، درجة اليأس الذي تعكسه، لم أستطع أن أسقط عند قدميها العزيزتين، وأذوب في دموعي الانسانية، وأضحّي بغيرتي بأي متعة كانت لوليتا تأمل في أن تستمدها من الاختلاط مع الأطفال القذرين والخطرين في عالم خارجي كان حقيقياً بالنسبة لها.

ولا تزال لديّ ذكريات مخنوقة أخرى، بدأت تتكشف الآن لتظهر في شكل وحوش من دون أطراف، من شدة الألم. ففي ذات يوم، عند الغروب - في نهاية شارع بيردسلي، التفتت إلى إيفا روزن الصغيرة (كنت أرافق الحوريتين إلى حفلة موسيقية، وكنت أسير وراءهما وأكاد

Twitter: @ketab_n

ألتصق بهما حتى كاد شيئي أن يلامسهما)، التفتت إلى إيفا، وبصفاء وبجدية، رداً على شيء كانت قد قالته الأخرى عن شيء مفاده أنها تفضل أن تموت على أن تسمع ميلتن بينسكي، وهو تلميذ في المدرسة المحلية تعرفه، وهو يتكلم عن الموسيقى، فقالت حبيبتي لوليتا: «إن ما يخيف في الموت هو أنك تصبحين وحيدة تماماً». وما أدهشني، بينما كانت ركبتاي تعلوان وتهبطان، هو أنني لم أكن أعرف ماذا يدور في خلد عزيزتي، وأنه من الممكن أن تقبع وراء الكليشيهات السيئة الشابة، التي فيها حديقة وغسقها، وبوابة قصر - مناطق خافتة ورائعة قد تكون مشرقة ومحرَمة تماماً، في أسمالي الوسخة وتشنّجاتي البائسة، لأنني غالباً ما كنت ألاحظ أن العيش كما كنا نعيش، أنا وهي، في عالم من الشرّ الكلي، سنشعر بالحرج على نحو غريب كلما حاولت مناقشة شيء مع صديق يكبرها سناً، أو مع أحد الآباء، أو مع حبيب موفور الصحة، أنا وأنابيل، لوليتا وهارولد هايز النقي، المحلّل المؤلّه، قد تناقشه - فكرة مجرّدة، لوحة، هوبكنز أو بودلير الأصلع، الله أو شكسبير، أيّ شيء أصيل. وبنيّة حسنة، تغطي على ضعفها بوقاحتها المبتذلة وتبرّمها، بينما أقدم تعليقات بلهاء بنبرة اصطناعية، وأنا في حالة نفسية قلقة، وعندما كنت أستفزها، كانت تنفجر بعبارات وقحة مما يجعل أيّ حديث آخر معها شيئاً مستحيلاً، آه يا طفلتي المسكينة المكلومة.

لقد أحببتك. كنت وحشاً فظيعاً، لكنني كنت أحبك. كنت حقيراً، فظاً، خسيساً، وكلّ شيء، لكنني أحبّك، أحبّك! ومرّت أوقات كنت أعرف فيها كيف تشعرين، وكان من المؤلم معرفة ذلك، يا صغيرتي. لوليتا الفتاة، دولي شيلير الشجاعة.

أتذكّر لحظات معيّنة، لندعوها جبال ثلجية في الفردوس، عندما أمتلئ بها - وبعد الأعمال المجهدة المجنونة والرائعة التي كانت تجعلني مترنحاً، ضعيفاً، اللازوردية المخطّطة والهزيلة التي تمنعني عن

Twitter: @ketab_n

رؤية السماء الزرقاء - كنت أضمّها بين ذراعيّ مع، أخيراً، تنهيدة صامتة مفعمة بالرقة الإنسانية (لون بشرتها يتألّق تحت ضوء النيون المنبعث من الباحة المعبّدة من خلال شقوق ستارة النافذة، ورموشها الفاحمة، وكانت عيناها الرماديتان الخفيضتان ساهمتين أكثر من أي وقت مضى - مريضة صغيرة لا تزال مشوشة من تأثير الدواء بعد أن أجريت لها عملية رئيسية) - وتزداد الرقة غوراً لتستحيل عاراً ويأساً، وأهدهد وأهزّ نوري الوحيد لوليتا بين ذراعيّ الرخاميتين، وأتنهد في شعرها الدافئ، وأداعبها كيفما اتفق، وأطلب مباركتها بصمت، وفي ذروة هذه الرقة الإنسانية المعذّبة التي تنكر ذاتها (وروحي تتهادى حول جسدها العاري ومستعدة للتكفير عن نفسها)، فجأة، لسخرية القدر، وعلى نحو مروّع، تحتدم الشهوة ثانية - و«آه، لا»، لوليتا تقول للسماء وهي تطلق تنهيدة، وفي اللحظة التالية تتلاشى تلك الرقة ويتلاشى اللون اللازوردي.

إن أفكار منتصف القرن العشرين المتعلقة بعلاقة الطفل بأبويه لُوّثت كثيراً بذلك الهراء الأكاديمي والرموز الموحدة التي وضعها ضجيج التحليل النفسي، لكن أودّ أن أتوجه إلى القرّاء غير المنحازين. ففي إحدى المرات، عندما أطلق والد أفيس زمور سيارته معلناً عن قدومه لكي تأتي وتأخذ قطتها الأليفة إلى البيت، شعرت أنني مضطر لدعوته إلى صالة الاستقبال. جلس دقيقة، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، اقتربت منه أفيس، وهي طفلة رقيقة، ثقيلة، غير جذابة، وجثمت فوق ركبته بتثاقل. ولا أذكر إن كنت قد ذكرت لكم أن لوليتا كانت تبتسم ابتسامة ساحرة للغرباء، وتبرق عيناها المشقوقتان المكسوتان بالفراء، ويشعّ من وجهها ألق حلو حالم، وبالطبع لم تكن تقصد شيئاً بذلك، لكنها كانت جميلة للغاية، رائعة إلى حد أنه لا يمكن للمرء إلا أن يعزو تلك الحلاوة إلى جينة سحرية تضيء وجهها

Twitter: @ketab_n

تلقائياً، بتعبير يعود إلى مناسك قديمة بالترحيب - ودعارة تعبّر عن حسن الضيافة، قد يقول القارئ الفظ. حسناً، كانت تقف هناك، عندما كان السيد بيرد يدير قبعته ويتكلّم، ونعم - آه يا لغبائي، كدت أنسى تلك السمة الخاصة التي تتميّز بها ابتسامة لوليتا المشهورة، وهي، بينما بدأ يظهر ذلك الألق الساطع الرحيقي الطري ذو الغمازات، الذي لم يكن موجهاً إلى الغريب الجالس في الغرفة بل كان يطوف في فراغها المزهر البعيد، أو تهيم برقة حسيرة النظر فوق الأجسام العابرة - وهذا ما كان يحدث الآن: ففي حين سارت أفيس البدينة ووقفت بجانب أبيها، وجّهت لوليتا ابتسامتها نحو سكين فاكهة كانت تعبث بها على حافة المنضدة التي تتكئ عليها، على مسافة عدة أميال مني. وفجأة، عندما تعلّقت أفيس برقبة أبيها الذي كان يطوّق بذراع مهملة ابنته البدينة الضخمة، رأيت أن ابتسامة لوليتا تفقد كلّ ألقها وتستحيل إلى ظلّ صغير جامد، وانسلّت السكين من فوق الطاولة وأصاب مقبضها الفضي كاحلها بضربة غريبة، فشهقت، وأحنت رأسها إلى الأمام، ثمّ، قفزت على ساق واحدة، وتغضّن وجهها بذلك التجّهم الذي يسبق تدفق الدموع من عيون الأطفال، ذهبت - تبعتها حالاً أفيس إلى المطبخ لتواسيها، أفيس التي لديها ذلك الأب الوردي السمين الرائع، وأخ صغير مكتنز، وأخت رضيعة ولدت مؤخراً، وبيت، وكلبان مبتسمان، في حين لا يوجد لدى لوليتا شيء. وكان لهذا المشهد أيضاً مشهد مماثل في بيردسلي. فقد أخذت لوليتا، التي كانت تقرأ بالقرب من المدفأة، تتمطى، ثم سألت، ومرفقها متجه إلى الأعلى، بنخير: «أين دُفنت على أية حال؟»، «من؟» « آه، إنك تعرف، أمي المغدورة»، «إنك تعرفين أين يقبع قبرها»، قلت، متمالكاً نفسي، وسمّيت المقبرة - خارج رامسدال مباشرة، بين قضبان السكة الحديدية ولاكيفيو هيل. وأضفت، «بالإضافة إلى ذلك، فقد قللت من أهمية مأساة هذا الحادث

Twitter: @ketab_n

بالنعت الذي ألصقته بها. وإذا كنت ترغبين حقاً في أن تحققي انتصاراً في ذهنك على فكرة الموت -» فقالت «لو»: «مرحى»، وغادرت الغرفة بتكاسل، ورحت أحدّق طويلاً بعينين حارقتين في نيران الموقد. ثمّ التقطت كتابها. كانت قصة تافهة للشبان، تدور حول فتاة كئيبة اسمها ماريون، وزوجة أبيها التي تبيّن أنها، على الرغم من جميع التوقعات، امرأة شابة، بهيجة، متفهمة، ذات شعر أحمر، راحت تشرح لماريون أن أمّها المرحومة كانت حقاً امرأة بطلة ورائعة، لأنها تعمّدت إخفاء حبّها الشديد لابنتها ماريون لأنها كانت تحتضر، ولم تشأ أن تفتقدها ابنتها. لم أهرع إلى غرفتها باكياً. فقد كنت أفضّل دائماً النظافة العقلية بعدم التدّخل. وبعد أن بدأت أعتصر ذاكرتي الآن، أذكر أنني في هذه المناسبة وفي مناسبات مماثلة، كنت أتجاهل حالة لوليتا العقلية لأريح نفسي. وعندما أخذت أمّي تجري، بثوبها الأزرق الرمادي المبلل، تحت الضباب الذي بدأ يهبط على الأرض (لذلك تخيّلتها بوضوح شديد)، وهي تلهث بنشوة وتصعد إلى تلك الحافة المطلة على مولنيت، حيث ضربتها صاعقة، لم أكن سوى طفل صغير. وباستحضار الأحداث الماضية، لم أكن أتذكر بحنين أي لحظة في فترة شبابي، على الرغم من قيام الأطباء النفسانيين المتوحشين بمضايقتي خلال فترات كآبتي التالية. لكنني أعترف بأن رجلاً يتمتع بقدرة على الخيال مثلي لا يستطيع أن يعزو ذلك إلى جهله الشخصي بالعواطف العامة. وقد أكون أيضاً قد اعتمدت كثيرا على العلاقات الباردة بين شارلوت وابنتها. إلا أن أسوأ ما في هذه الحجّة كلها هو هذا. فقد بدأ يتضح لعزيزتي لوليتا التقليدية شيئاً فشيئاً خلال فترة تعايشنا الرائع والبهيمي، بأن الحياة الأسرية الأكثر بؤساً هي أفضل من حياة سفاح المحارم، التي كانت، على المدى البعيد، أفضل شيء يمكنني أن أقدمه لهذه اللقيطة.

Twitter: @ketab_n

٣٣

عدت إلى رامسدال. اقتربت منها من طرف البحيرة. كانت سماء الظهيرة المشمسة شديدة الصفاء. وعندما ترجّلت من سيارتي التي تناثر عليها الوحل، رأيت شرارات الماء الماسيّة بين أشجار الصنوبر البعيدة، ثمّ انعطفت نحو المقبرة وسرت بين شواهد القبور الحجرية الطويلة منها والقصيرة. بونزور، شارلوت. وسقطت بعض الأعلام الوطنية الصغيرة الشاحبة الشفافة في الهواء الساكن فوق بعض القبور القابعة تحت الأشجار الدائمة الخضرة. جي. إد، هذا فأل سيء - بالإشارة إلى جي. إدوارد، غرامار، مدير مكتب في نيويورك، في الخامسة والثلاثين من العمر، متهم بقتل زوجته دوروثي البالغة من العمر ثلاثة وثلاثين سنة. كان إد يريد ارتكاب الجريمة المثالية، فقد ضرب زوجته ووضعها في السيارة. لكن القضية كُشفت عندما رأى شرطيان أثناء قيامهما بأعمال الدورية سيارة السيدة غرامار الجديدة الكبيرة من طراز كرايسلر، التي كان قد قدمها لها زوجها هدية بمناسبة عيد ميلادها، وهي تندفع بجنون وتهوي إلى أسفل التلّ، ضمن منطقة دوريتهما (بارك الله في رجال الشرطة الطيبين). وارتطمت السيارة بعمود، وصعدت إلى جدار حاجز تكسوه أعشاب الفريز البرّي، وتدحرجت. كانت العجلات لا تزال تدور تحت أشعة الشمس اللطيفة عندما سحب الشرطيان جسد السيدة جي. في البداية، بدا أنه حادث طرق عادي. وللأسف، لم يكن جسد المرأة المهشم يتناسب مع الضرر الضئيل الذي لحق بالسيارة. أما أنا فكنت أكثر توفيقاً.

واصلت طريقي. كان من المضحك أن أرى ثانية الكنيسة البيضاء الهزيلة، وأشجار الدردار الضخمة. ونسيت أن الشخص الذي يسير وحيداً في الشارع في إحدى الضواحي الأميركية قد يلفت الأنظار أكثر

Twitter: @ketab_n

مما يلفته شخص وحيد يقود سيارته، ترجّلت من سيارتي ورحت أسير خفية في شارع «الوون ستريت ٣٤٢». وقبل أن أتوجّه لسفك الدماء العظيم، كنت أستحق الحصول على قسط من الراحة، بعد أن اعتراني تشنّج مسهّل من القيء العقلي. كانت مصاريع النوافذ البيضاء في القصر التافه مغلقة، وقد عُلّق شريط شعر مخملي أسود كان قد ألقي على اللافتة البيضاء المكتوب عليها «للبيع» المائلة على الرصيف. لم يُسمع نباح أي كلب. ولم يكن هناك أي جنائني، ولم تكن الآنسة صاحبة البيت المقابل جالسة على الشرفة التي تعلوها عريشة - حيث توقفت شابتان، شعرهما مربوط في شكل ذيل حصان ترتديان مئزرين منقطين، عن عملهما وراحتا تحدقان في عابر السبيل الذي اعتراه انزعاج شديد: لا بد أنها ماتت منذ فترة طويلة، وقد تكون هاتان الفتاتان ابنتي أختها التوأمين القادمتين من فيلادلفيا.

هل ينبغي لي أن أدخل بيتي القديم؟ وكما حدث في قصّة تورغينيف، انهمر سيل من الموسيقى الإيطالية من إحدى النوافذ المفتوحة - نافذة غرفة الجلوس: من هي تلك الروح الرومانسية التي تعزف البيانو، التي لم يسقط أي بيانو ولم تفترش الشمس في يوم الأحد المسحور ذاك ساقيها الجميلتين؟ وفجأة لاحظت من الحديقة التي جززت عشبها ذات يوم، حورية في التاسعة أو العاشرة من عمرها، ذات بشرة ذهبية، وشعر بني، ترتدي شورتاً أبيض، تنظر إليّ بافتنان وحشي بعينيها الواسعتين اللتين امتزج فيهما اللونان الأزرق والأسود. قلت لها شيئاً لطيفاً، ولم أقصد الإساءة إليها، إطراء من العالم القديم، «ما أجمل هاتين العينين»، لكنها تراجعت بسرعة، وتوقّفت الموسيقى بغتة، وخرج رجل أسود عنيف المظهر، يلتمع وجهه بالعرق، وراح يحدجني بعينيه. كنت على وشك أن أعرّف على نفسي عندما، بوخز من الحلم - والحرج، أدركت أن بدلتي مبللة

Twitter: @ketab_n

بالوحل، وأن كنزتي وسخة وممزّقة، وذقني خشنة، وعينيّ محتقنتان. ومن دون أن أنبس بكلمة، استدرت وعدت أدراجي من الطريق الذي أتيت منه. ومن شقّ في الرصيف، انبثقت زهرة نجمية مصابة بالأنيميا. وبهدوء انبعثت روح الآنسة صاحبة البيت المقابل، تدفعها ابنتا أختها على كرسيها إلى شرفتها، وكأنها على خشبة المسرح وأنا الممثل النجم. رجوت ألاّ تناديني، وهرعت إلى سيارتي. ما أشد انحدار الشارع الصغير؛ ما أعمق الجادة. ورأيت بطاقة «مخالفة» حمراء قابعة بين المساحة وزجاج السيارة الأمامي، فمزّقتها إلى قطعتين، أربع قطع، ثماني قطع.

أحسست بأنني أضيّع وقتي، فقدت سيارتي بحماسة إلى الفندق الذي يقع في وسط البلدة الذي كنت قد نزلت فيه وأنا أحمل حقيبتي الجديدة منذ أكثر من خمس سنوات. حجزت غرفة، وحدّدت موعدين بالهاتف، ثم حلقت ذقني، واستحممت، وارتديت ثياباً سوداء، ونزلت إلى المشرب لاحتساء قليل من الشراب. لم يتغير شيء. فالضوء الخافت نفسه، ضوء أحمر عقيقي خافت مستحيل يشبه الضوء في الملاجئ المنخفضة في أوروبا قبل سنوات، يغمر المشرب. أما هنا فكان هذا الضوء يعني إضفاء أجواء عائلية على الفندق. جلست إلى نفس الطاولة الصغيرة التي كنت قد جلست إليها عندما أصبحت نزيلاً عند شارلوت، وقررت أنه من المناسب الاحتفال بهذه المناسبة بمشاركتها بنصف زجاجة شمبانيا، التي غزت قلبها المسكين المفعم حتى الموت. وكما كان في ذلك الحين، كان نادل له وجه يشبه القمر يرتّب بعناية شديدة خمسين كأساً من مشروب الشيري في صينية مستديرة استعداداً لحفل زفاف. ميرفي - اللحن الموسيقي، فنتازيا، هذه المرة. كانت الساعة الثالثة إلا ثماني دقائق. وبينما كنت أسير في بهو الفندق، تحاشيت مجموعة من السيدات اللاتي كنّ يودعن بعضهن

Twitter: @ketab_n

بعضاً بألف حركة مجاملة بعد انتهاء وليمة غداء. وبصيحة قاسية، قفزت إحداهن عليّ. كانت امرأة قصيرة، ممتلئة، ترتدي ثوباً رمادياً لؤلؤياً، وتعتمر قبعة صغيرة تعلوها ريشة طويلة رفيعة رمادية. إنها السيدة شاتفيلد. هاجمتني بابتسامة مصطنعة، وكانت تتوهج كلها بفضول شرير. (هل فعلتُ بدولي، ربما، كما فعل فرانك لاسال، وهو ميكانيكي في الخمسين من العمر، بسالي هورنير وهي في الحادية عشرة في سنة ١٩٤٨؟) وسرعان ما تمالكت تلك الغبطة النهمة. قالت إنها ظنت أنني كنت في كاليفورنيا. كيف حال -؟ وبسرور بالغ أخبرتها أن ابنة زوجتي تزوّجت مهندساً شاباً بارزاً يعمل في مهمة سرية في الشمال الغربي، فقالت إنها لا توافق على هذا الزواج المبكّر، وإنها لن تدع ابنتها فيليس التي تبلغ الآن الثامنة عشرة من العمر - «آه، نعم، طبعاً»، قلت بهدوء، «إني أتذكّر فيليس. فيليس والمخيّم كيو. . . نعم، طبعاً. بالمناسبة، هل أخبرتك كيف كان تشارلي هولمز يفسد الفتيات الصغيرات في مخيم أمّه؟» فاختفت ابتسامة السيدة شاتفيليد التي كانت قد بدأت ترتسم على شفتيها.

«عيب»، صاحت، «عيب، يا سيد همبرت! لقد قتل الفتى المسكين في كوريا منذ فترة وجيزة». فقلت يجب عليّ أن أذهب الآن.

كان مكتب ويندمولير على مسافة شارعين. حيّاني بقبضة قوية بطيئة حوت كفي كله في داخلها. كان يظن أنني كنت في كاليفورنيا. ألم أكن أقيم في بيردسلي؟ وقال إن ابنته التحقت بكليّة بيردسلي. وكيف كان -؟ لديّ كلّ المعلومات الضرورية المتعلقة بالسيدة شيلير. لقد كنا معاً في مؤتمر جيد للأعمال التجارية. خرجت إلى شمس أيلول (سبتمبر) الحارة مثل فقير قنوع.

الآن، بعد أن أزيح كلّ شيء عن طريقي، أصبح بإمكاني أن أكرّس نفسي بحرية للشيء الرئيسي الذي جئت من أجله إلى

Twitter: @ketab_n

رامسدال. وبالأسلوب المنهجي الذي أتفاخر به دائماً، كنت أحتفظ بوجه كلير كويلتي مقنّعاً في برجي المحصن المظلم، حيث ينتظر قدومي برفقة حلاق وكاهن: «انهض يا لاكو، لقد أزفت ساعتك». ولم يكن لديّ وقت لمناقشة أساليب تقوية ذاكرة الفراسة الجسدية - فقد كنت متوجهاً إلى بيت عمّه ورحت أغذّ الخطى- لأدوّن هذه: لقد احتفظت بذاكرة وجه ضفدع في السائل الكحولي. وبعد أن ألقيت عليها عدة نظرات، لاحظت أنها تشبه تاجر النبيذ والشيري البغيض، قريبي الذي كان يعيش في سويسرا. وبسترته النتنة، وذراعيه المشعرتين السمينتين، وصلعته، وعشيقته الجارية التي يشبه وجهها وجه خنزير، كان عجوزاً نذلاً غير مؤذ. لم يكن مؤذياً على الإطلاق، في الحقيقة، ويجب ألاّ أخلط بينه وبين فريستي. في الحالة العقلية التي أجد فيها نفسي الآن، فقدت أي اتصال بصورة «تراب» التي اختلطت تماماً بوجه كلير كويلتي - الذي رسم بدقّة فنية عالية من صورة منتصبة على طاولة عمّه.

كان الدكتور الفاتن مولنار قد أجرى لي في بيردسلي عملية أسنان، ولا أزال أحتفظ ببضعة أسنان أمامية في الفكين العلوي والسفلي. وكانت الأسنان البديلة تعتمد على نظام من الصفائح مربوطة بسلك غير مرئي على طول لثتي العليا. كان الأمر مريحاً برمته، وأصبحت أنيابي في حالة رائعة.

لكن لكي أغلّف هدفي السري بذريعة مقبولة ظاهرياً، قلت للدكتور كويلتي إنني كنت قد قررت، بأمل التخفيف من حدّة تشنجات أعصاب وجهي، أن أقلع جميع أسناني. وسألته ماذا يكلّف صنع طقم أسنان كامل؟ وكم ستستغرق هذه العملية، إذا حددنا موعداً في أحد الأيام في تشرين الثاني (نوفمبر)؟ وأين يوجد ابن أخيه المشهور الآن؟ وهل يمكن اقتلاعها جميعاً في جلسة واحدة؟

Twitter: @ketab_n

كان الشيب قد غزا شعر الدكتور كويلتي، الذي يرتدي رداءً أبيض، القصير جداً، وكان وجهه بخدّيه المسطحين يستند إلى زاوية طاولته، وكان يهز إحدى قدميه بطريقة حالمة ومغرية، وهو يتحدث عن خطة رائعة طويلة الأجل. وركّب أولاً صفائح مؤقتة لكي تشفى اللثة، وبعدها سيصنع لي طقم أسنان دائم. قال إنه يرغب في إلقاء نظرة على فمي. كان ينتعل حذاءً مبرقشاً مخرّماً. قال إن الشرير لم يزره منذ سنة ١٩٤٦، لكنه يظن أنه يمكن العثور عليه في بيت أسلافه، في شارع غريم الذي لا يبعد كثيراً عن باركينغتون. كان حلماً نبيلاً. كانت قدمه تهتزّ، ونظراته ملهمة. وقال إن ذلك سيكلّفني حوالى ستمائة دولار، واقترح أن يأخذ القياسات في الحال، وأن يصنع طقم أسنان أولي قبل أن يبدأ العملية. بالنسبة له، كان فمي كهفاً رائعاً مليئاً بكنوز ثمينة، لكنني لم أدعه يلجه.

«لا»، استدركت قائلاً، «سأطلب من الدكتور مولنار أن يفعل ذلك. فعلى الرغم من أنه يتقاضى مبلغاً أعلى، فإنه طبيب أسنان أفضل منك بكثير».

لا أعرف إن كانت ستتاح لأي من قرّائي فرصة قول ذلك. إنه شعور بحلم لذيذ. وظل عمّ كلير جالساً إلى الطاولة، حالماً، لكن قدمه توقّفت عن الاهتزاز. ومن الناحية الأخرى، اندفعت ممرضته، وهي فتاة باهتة هزيلة مثل هيكل عظمي، ذات عينين تشبهان عيون الفتيات الشقراوات الفاشلات البائسات، وصفقت الباب خلفي.

دفعت مخزن المسدس إلى مكانه. ضغطت عليه كي أسمع أو أحسّ باعتلاق المخزن في حجرته. مكان مريح مبهج. السعة: ثماني طلقات. أزرق تماماً. يتوق إلى تفريغ طلقاته.

Twitter: @ketab_n

٣٤

أوضح لي عامل محطة البنزين في باركينغتون كيف يمكنني الذهاب إلى شارع غريم. وللتأكد من وجود كويلتي في البيت، حاولت أن أخابره لكنني تذكرت أن هاتفه الخاص كان قد فُصل مؤخراً. هل هذا يعني أنه ذهب؟ قدت سيارتي باتجاه شارع غريم الذي يبعد مسافة اثني عشر ميلاً شمال البلدة. في ذلك الحين، كان الليل قد محا المشهد الطبيعي الجميل، وبينما رحت أسير في الدرب الضيّق المتعرّج، تجاوزت سلسلة من الشاخصات القصيرة، الشبحية البيضاء، التي تستعير عاكساتها ضوء سيارتي لتدلّني على هذا المنعطف أو ذاك. وتمكنت من تبيّن واد معتم على أحد جانبي الطريق، ومنحدرات تكسوها الأشجار على الطرف الآخر. ومن العتمة، اندفعت أمامي أسراب من العثّ مثل ندف ثلج منسية، متجهة إلى الهالة المنبعثة من الضوء. وعند الميل الثاني عشر، كما كنت أتوقع، غلّفني جسر له قبة غريبة، لاحت خلفه، صخرة مطلية بدهان أبيض على اليمين، وعلى مسافة غير بعيدة، من الجانب ذاته، انعطفت من الطريق إلى شارع غريم المكسو بالحصى. ولمدّة دقيقتين، كان الشارع عبارة عن غابة كثيفة مظلمة رطبة. ثمّ، برز أمامي قصر بافور، وهو بيت خشبي له برج، ينتصب في مساحة فارغة مستديرة. كانت نوافذ البيت متوهّجة باللونين الأصفر والأحمر، وكانت تصطف ست سيارات أمام المدخل. توقّفت تحت مظلة الأشجار، وأطفأت أضواء السيارة كي أفكّر بالخطوة التالية بهدوء. لا بد أنه محاط بأنصاره وعاهراته. قارنت ما يجري داخل ذلك القصر البهيج والمتداعي بقصّة «المراهقون القلقون» التي كنت قد قرأتها في إحدى مجلاتها، «طقوس عربدة جماعية» غامضة، ورجل شرير يدخّن سيجاراً ، ويتعاطى مخدّرات، محاطاً بحرّاسه

Twitter: @ketab_n

الشخصيين. على الأقل، إنه موجود، وسأعود في الصباح الخامل.

بهدوء، عدت إلى البلدة بسيارتي الوفية القديمة التي تعمل بصورة جيدة. لوليتاي! لا يزال دبوس شعر يقبع في عمق صندوق التابلوه منذ ثلاثة سنوات. كان ذلك السرب من حشرات العثّ التي خرجت من ظلمة الليل، وجذبتها أضواء سيارتي، لا يزال يتطاير، وكانت تتناثر هنا وهناك حظائر مظلمة على جانبَي الطريق. وكان لا يزال هناك أشخاص في طريقهم إلى دار السينما. وبينما رحت أبحث عن مكان أمضي فيه الليلة، مررت من أمام سينما في الهواء الطلق. وفي وهج قمري، غامض حقاً بالتضاد مع ليلة غير مقمرة هائلة، على شاشة هائلة تميل بعيداً بين الحقول الناعسة المظلمة، أشهر طيف هزيل مسدساً، واستحال هو وذراعه إلى صحن ماء ضخم يرتعش بسبب الزاوية المنحرفة لذلك العالم المنحسر - وفي اللحظة التالية - حجب صفّ من الأشجار هذا المشهد.

٣٥

في حوالى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، غادرت نزل «منتجع سهاد الأرق»، وأمضيت وقتاً في باركينغتون. وقد هيمنت عليّ رؤى أن أنفذ حكم الإعدام فيه. وعندما خطر لي أنه من الممكن أن تكون الطلقات القابعة في المسدس قد فسدت بسبب عدم استخدامها منذ أسبوع، أخرجتها وأبدلتها بطلقات جديدة. وبعد أن نظفت المسدس بالزيت، لم يعد بإمكاني مفارقته. فلففته بخرقة كأنه طرف مبتور، وبخرقة أخرى لففت الطلقات الاحتياطية.

رافقتني عاصفة رعدية في معظم طريق عودتي إلى شارع غريم، وعندما وصلت إلى قصر «بافور مانور»، انبثقت الشمس ثانية، تحترق

Twitter: @ketab_n

مثل رجل، وكانت الطيور تهدل في الأشجار الندية التي ينبعث منها البخار. وبدا أن البيت الضخم الآيل للسقوط يتصب بنوع من الذهول، ويعكس حالتي الشخصية، لأنه ما إن لمست قدماي الأرض المبللة المتزعزعة، أدركت أنني أسرفت في الشراب لكي أقوم بهذه المهمة.

صمت متحفظ ساخر أجاب على الجرس الذي قرعته. كانت سيارته تملأ المرآب، تلك السيارة السوداء المكشوفة. حاولت أن أقرع الباب بمقرعة الباب. لم يجب أحد. بزمجرة عدوانية، دفعت الباب الأمامي - يا للروعة، فقد فتح الباب كما يحدث في قصص الجان في القرون الوسطى. بعد أن أغلقته بهدوء خلفي، شققت طريقي عبر قاعة واسعة وقبيحة. اختلست النظر إلى غرفة جلوس مجاورة. رأيت عدداً من الكؤوس فوق السجادة، فخيّل إليّ أن السيد لا يزال نائماً في غرفة النوم الرئيسية. رحت أرتقي الدرج إلى الطابق العلوي. كانت يدي اليمنى تقبض على المسدس المكتوم في جيبي، ويدي اليسرى تنقر على الدرابزين الدبق. من غرف النوم الثلاث التي فتّشتها، كان من الواضح أن أحداً لم ينم فيها في تلك الليلة. كانت هناك مكتبة مليئة بالزهور، وغرفة عارية تقريباً فيها مرايا كثيرة، وجلد دبّ قطبي ملقى على الأرضية الزلقة. كانت هناك غرف أخرى. خطرت لي فكرة سعيدة. فإذا عاد السيد من رحلته في الغابة، أو برز من عرين سري، فقد يكون من الحكمة لرجل مسلّح مضطرب أن يفعل الكثير لكي يمنع منافسه من أن يختبئ ويوصد الغرفة على نفسه. لذلك، أمضيت حوالى خمس دقائق - بجنون متبصر، بهدوء مجنون، صيّاد مسحور متوتر - وأنا أدير جميع المفاتيح في جميع الأقفال الموجودة. وكان هناك حمّام، المكان الوحيد الذي يمكن إقفاله، الذي لا بد أنه يستخدم لتنفيذ الأعمال السرية، التي يقوم بها الآباء الماكرون.

وبمناسبة الحديث عن الحمّامات - كنت على وشك الدخول إلى

Twitter: @ketab_n

حمّام ثالث عندما خرج منه السيد، مخلّفاً وراءه صوت تدفق ماء. لم تساعدني زاوية في الممر من التواري بشكل تام. وبوجه رمادي، وعينين منتفختين، وشعر متهدّل مشعّث بدأ يخفّ كثيراً، لكنه لا يزال جميلاً، سار بجانبي مرتدياً رداء حمّام أرجواني، يشبه كثيراً رداء يوجد لديّ. وإمّا أنه لم يلحظ وجودي، أو أنه تجاهلني كهلوسة مألوفة وغير مؤذية، مبدياً لي ربلة ساقه المكسوة بالشعر، أخذ يهبط الدرج مثل شخص يسير في النوم إلى الطابق السفلي. وضعت مفتاحي الأخير في جيبي وتبعته إلى مدخل القاعة. فغر نصف فمه وفتح الباب الأمامي، ليلقي نظرة على الخارج عبر بصيص مشمس مثل شخص خيّل إليه أنه سمع صوت زائر تعوزه الحماسة ثم اختفى. وبينما كان لا يزال متجاهلاً الشبح الذي يرتدي معطفاً واقياً للمطر والذي توقّف عند منتصف الدرج، دخل السيد إلى مخدع دافئ مريح قبالة غرفة الجلوس. خلال ذلك، بتؤدة لأنه يعرف أنه في مأمن - ابتعدت عنه، وفي مطبخ مزين يشبه البار، فتحت لفّة المسدس الوسخة بحذر، وكنت حريصاً على ألا أترك أيّ لطخة من الزيت على معدن الكروم - أظن أن ثمة شيئاً خطأ قد حدث، فقد كان أسود وسخاً. وبطريقتي الموسوسة المعتادة، نقلت مسدسي العاري ووضعته في مكان نظيف واتجهت إلى المخدع الصغير. كانت خطواتي، كما أقول، نابضة بالحركة - حيوية إلى درجة تتجاوز قدرتي على تحقيق النجاح. لكن قلبي بدأ يخفق ببهجة النمر، وسحقت كأس كوكتيل تحت قدمه فتهشم.

قابلني السيد في صالة الاستقبال الشرقية.

«من أنت؟» سأل بصوت أجش مرتفع، يداه غائصتان في جيبيّ مبذله، عيناه مسمّرتان في نقطة تقع إلى شمال شرقي رأسي. «هل أنت بروستر؟»

الآن، أصبح جلياً للجميع أنه كان في حالة ضبابية، وأصبح، كما

Twitter: @ketab_n

يسمّى، تحت رحمتي بالكامل. كان بوسعي أن أمتّع نفسي.

«هذا صحيح» أجبت بلطف بالفرنسية، «أنا مسيو بروستر. لندردش قليلاً قبل أن نبدأ».

بدا مسروراً. وارتعش شارباه قليلاً. خلعت معطفي المطري. كنت أرتدي بدلة سوداء، وقميصاً أسود، من دون ربطة عنق. جلسنا على كرسيين بلا مسند.

«أتعرف»، قال، وهو يخدش خدّه الرمادي الممتلئ الخشن، مصدراً صوتاً مرتفعاً، مظهراً أسنانه اللؤلؤية الصغيرة بابتسامة كبيرة منحنية، «إنك لا تشبه جاك بروستر. أقصد أن الشبه بينكما ليس كبيراً. لقد أخبرني أحدهم أن لديه أخ يعمل في شركة الهاتف نفسها».

إيقاعه في الفخ، بعد تلك السنوات من الندم والغضب... ورؤية الشعرات السود على ظاهر يديه المكتنزتين... وأن تجول بمائة عين فوق حرائره الأرجوانية وصدره المكسو بشعر قاس، وإلقاء نظرة مسبقة على الشقوق، والفوضى، وموسيقى الألم... معرفة أن هذا المحتال، نصف المتحرك، دون البشر، هو الذي لاط بحبيبتي - أوه، يا عزيزتي، إنها نعمة لاتطاق!

«لا، أنا لست أياً من الأخوين بروستر».

مدّ رأسه، وقد بدا مسروراً كما لم يبد من قبل.

«إحزر ثانية أيها المهرج».

«آه»، قال المهرج، «إذن لم تأت لتزعجني بتلك المكالمات الخارجية؟»

«هل تجري مكالمات هاتفية في بعض الأحيان؟»

«عفواً؟»

قلت إنني كنت قد قلت إنني كنت أظن أنه كان قد قال إنه لم يسبق له أن -

Twitter: @ketab_n

«الناس»، قال، «الناس عامة، إني لا أتهمك يا بروستر، لكنك تعرف أنه من السخف كيف يغزو الناس هذا البيت الملعون حتى من دون أن يقرعوا بابه. إنهم يستخدمون المرحاض، إنهم يستخدمون المطبخ، إنهم يستخدمون الهاتف. فيل يخابر فيلادلفيا. بات يخابر باتاغونيا. أرفض أن أدفع. إنك تتكلم بلهجة مضحكة، أيها الكابتن».

فقلت: «كويلتي، هل تذكر فتاة صغيرة تدعى دلوريس هايز، دولي هايز؟ دولي تدعى دلوريس، كولورادو؟»

«بالتأكيد، لعلها هي التي أجرت تلك المخابرات، إني متأكّد من ذلك. أي مكان. الجنة، واشنطن، وادي الجحيم. من يبالي؟»

«أنا أبالي، يا كويلتي. كما ترى فأنا والدها».

«هراء»، قال، «أنت لست والدها. إنك وكيل أدبي أجنبي. لقد ترجم مترجم فرنسي مسرحيتي «اللحم المغرور» بـ«غرور اللحم». شيء سخيف».

«إنها طفلتي يا كويلتي».

في الحالة التي كان فيها، لم يكن يدهشه أي شيء، لكن أسلوبه العاصف لم يكن مقنعاً تماماً. فكرة حذرة أشعلت عينيه إلى شكل يشبه الحياة، لكنهما خمدتا على الفور ثانية.

«إنني شديد الولع بالأطفال»، قال، «والآباء أفضل أصدقائي».

أدار رأسه، باحثاً عن شيء. ضرب جيوبه. حاول أن ينهض من مقعده.

«اجلس!» قلت - من الواضح أن صوتي كان أعلى بكثير مما كنت أنوي.

«لا تزأر عليّ»، تذمر بطريقته الأنثوية الغريبة، «أردت أن أدخن سيجارة فقط . إني أموت لأدخّن سيجارة».

«إنك ستموت على أي حال».

Twitter: @ketab_n

«أوه، كفى»، قال، «لقد بدأت تضجرني. ماذا تريد؟ هل أنت فرنسي، أيها السيد؟ هل تريد أن تحتسي شيئاً؟ لنذهب إلى مشربي الصغير ونحتسي -»

رأى السلاح الأسود الصغير قابعاً في راحة يدي كما لو كنت أقدّمه له.

«النقل»، قال متشدّقاً (بدأ يقلّد الآن أحد المغفلين في عالم الجريمة في أفلام السينما)، «لديك مسدس رائع، كم تطلب ثمنه؟»

ضربت يده الممدودة، فارتطمت بصندوق قابع على منضدة منخفضة بقربه، فانفتح وانبعثت منه حفنة من السجائر.

فقال مرحاً: «ها هي ذي. هل تذكر قول كيبلينغ «المرأة هي المرأة» لكن كابورال هي سيجارة؟ نحتاج الآن إلى عود ثقاب».

قلت: «كويلتي، أريدك أن تركّز. ستلقى حتفك بعد لحظة. وقد يكون العالم الآخر، كما نعرف، حالة أبديّة من جنون ممض. لقد دخّنت سيجارتك الأخيرة البارحة. ركّز. حاول أن تفهم ما يجري لك».

ظلّ يفتت سيجارة «دروم»، وراح يمضغ قطعاً منها.

فقال: «أريد أن أحاول. إمّا أنك أسترالي، أو لاجىء ألماني. هل تريد أن تتحدّث إليّ؟ هذا البيت غير مخصص لليهود، كما تعرف. لعلك تفضّل أن تهرب، من الأفضل لك أن تولي الأدبار. وكفّ عن إخراج المسدس. لديّ مسدس ستيرن - لوجير قديم في غرفة الموسيقى».

وجهّت المسدس إلى قدمه الزلقة، وضغطت على الزناد. أصدر طقطقة. نظر إلى قدمه، إلى المسدّس، ثم عاد ينظر إلى قدمه. بذلت جهداً آخر، وبصوت واهن يدعو إلى السخرية، انطلقت الرصاصة

Twitter: @ketab_n

واخترقت البساط الوردي السميك، وتراءى لي أنها اخترقتها، وقد تعود ثانية.

«إفهم ماذا أقصد؟» قال كويلتي، «يجب أن تكون أكثر حذراً. أعطني هذا الشيء بحق المسيح».

مدّ يده إليه. دفعته إلى الخلف، فتهاوى على الكرسي. بدأت البهجة تتلاشى. آن الأوان لكي أقضي عليه، لكنه يجب أن يعرف سبب رغبتي في القضاء عليه. لقد أصابتني حالته بالعدوى، أحسست بأن المسدس لين وأخرق في يدي.

فقلت: «ركّز على دولي هايز التي خطفتها -».

فصاح، «لم أخطفها، إنك مخطئ تماماً. لقد أنقذتها من براثن متوحش منحرف. أرني شارتك كشرطي بدلاً من أن تطلق النار على قدمي، أيها القرد. أين هي تلك الشارة؟ إني لست مسؤولاً عن اغتصاب الأخريات. إنه شيء سخيف! وأؤكد لك أن رحلة المتعة تلك مجرد تمثيلية سخيفة، لكن ألم تعد إليك؟ هيا بنا نتناول كأساً».

سألته هل يريد أن أقتله وهو جالس أو واقف.

فقال: «آه، دعني أفكّر. إنه ليس سؤالاً سهلاً. بالصدفة ارتكبت خطأً، وأنا آسف عليه بصدق. كما ترى، لم أمض وقتاً مرحاً مع ابنتك دولي. فأنا عاجز جنسياً فعلاً، وهذه هي الحقيقة السوداوية. لقد وفرت لها عطلة رائعة. والتقت ببعض الأشخاص الرائعين. هل كنت تعرف ذلك».

وهجم عليّ بقوة وألقاني أرضاً، فارتمى المسدّس مني وانسل تحت خزانة ذات أدراج. لحسن الحظ أنه كان متهوّراً أكثر منه قوياً، ولقيت صعوبة في دفعه وإعادته إلى كرسيه. أطلق زفرة وشبك ذراعيه فوق صدره.

وقال بالفرنسية: «لقد فعلتها الآن. إنك في ورطة يا عزيزي».

Twitter: @ketab_n

بدأت لغته الفرنسية تتحسّن.

تطلعت حولي. ربما، لو - لو أستطيع - على يديّ وركبتيّ؟ أأجازف بالأمر؟

«ماذا سنفعل ثانية؟» سألني وهو يحدّق فيّ.

انحنيت. لم يتحرّك. انحنيت أكثر.

قال: «سيدي العزيز، كفّ عن العبث بالحياة والموت. فأنا كاتب مسرحي. وقد كتبت المأساة والملهاة والفانتازيا، وأنجزت أفلاماً مقتبسة من قصص جوستين ومن قصص أخرى من القرن الثامن عشر. لقد كتبت اثنين وخمسين سيناريو ناجحاً. وأنا أعرف كل تلك الحيل. دعني أعالج الأمر. لا بد أن يكون هناك قضيب لتحريك النار، دعني أحضره، لكي نخرج مسدسك».

بعناية شديدة، وبفضول ومكر، نهض ثانية، وهو لا يزال يتكلّم. حبوت تحت الصندوق وأنا أحاول مراقبته في الوقت نفسه. وبغتة، لاحظت أنه لاحظ أنني ربما لم ألاحظ أن المسدّس كان بارزاً من تحت الزاوية الأخرى للصندوق. عدنا للعراك ثانية. تدحرجنا فوق أرضية الغرفة كلها، ذراعا كلّ منا متشابكة في ذراعيّ الآخر، مثل طفلين ضخمين عاجزين. كان عارياً تفوح منه رائحة تشبه رائحة الماعز، وشعرت بالاختناق عندما أصبح فوقي. لكنني تمكنت من قلبه، وأصبحت فوقه، وهكذا.

يخيّل إليّ أن هذا الكتاب سيقرأ، في شكله المطبوع، في السنوات الأولى من عام ٢٠٠٠ ميلادي. (١٩٣٥ بالإضافة إلى ثمانين أو تسعين سنة، أطال الله في عمرك، يا حبيبتي)؛ ومن المؤكد أن القرّاء المسنّين سيتذكّرون هنا، المشهد الإلزامي في أفلام الكاوبوي في طفولتهم. لكن عراكنا كان يفتقر إلى تبادل اللكمات مثل ثورين هائجين، وإلى تطاير قطع الأثاث. كنا مثل دميتين كبيرتين محشوتين بالقطن وبخرق وسخة.

Twitter: @ketab_n

كان عراكاً صامتاً، ناعماً، عديم الشكل بين أديبين، أحدهما تحت تأثير مخدر تام، ويعاني الآخر من مرض في القلب، وتحت تأثير كمية كبيرة من شراب الجنّ. وعندما تمكنت أخيراً من الإمساك بمسدسي الثمين، كان كاتب السيناريو قد عاد ليجلس على كرسيه الواطئ، ورحنا نلهث كما لا يفعل ذلك راعي بقر، أو راعي غنم بعد انتهاء عراكهما على الإطلاق.

قرّرت أن أتفحص المسدّس - فمن الممكن أن يكون عرقنا قد أفسده - وأن أستعيد أنفاسي قبل المضي إلى جوهر المسألة. ولكي أملأ فترة الصمت التي سادت، اقترحت أن يتلو حكم إعدامه - في الشكل الشاعري الذي أصبغته عليه. وقد تكون عبارة «العدالة الشعرية» العبارة التي قد تستخدم هنا بأقصى درجات السعادة. أعطيته نصاً مطبوعاً بأناقة.

فقال: «نعم، إنها فكرة رائعة. دعني أجلب نظارات القراءة» (حاول النهوض).

«لا».

«تماماً كما تقول. هل أقرأ بصوت مرتفع؟»

«نعم».

«آه. أرى أنه مكتوب شعراً».

لأنك استغللت آثماً
لأنك استغللت
لأنك
لأنك استغللت نقطة ضعفي...

«هذا جيد، كما تعرف. إنه جميل جداً».

Twitter: @ketab_n

. . . عندما وقفت عارياً مثل آدم
أمام أحد القوانين الفيدرالية وكلّ نجومه اللادغة

«أوه، إنه شيء عظيم».

. . . لأنك استغللت خطيئة
عندما كنت أقف عاجزاً، أرشح عرقاً ورقة
راجياً الأفضل
حالماً بالزواج في ولاية جبلية
نعم، الكثيرات من لوليتا. . .

«لم أفهم ذلك».

لأنك استغللت جوهر
براءتي الداخلية
لأنك ختنتني –

«شيء من التكرار، ماذا؟ أين كنتُ؟»

لأنك سرقت خلاصي
لأنك أخذتها
وهي في عمر ينهمك فيه الفتيان
في اللعب

«لقد بدأت تصبح بذيئاً، إيه؟»

Twitter: @ketab_n

فتاة صغيرة يكسوها الزغب لا تزال ترتدي جوارب قصيرة
ولا تزال تتناول البوشار وهي تحدّق في الشاشة الملوّنة
حيث يخطف الهنود الحاصدين
لأنك سرقتها
من الرجل الوقور ذي الحاجبين الكثين الذي يحميها
وبصقت في عينه
ومزّقت ثوبها وعند الفجر
تركت الخنزير يتدحرج فوق فراشه الجديدة
فظاعة الحبّ والبنفسج
ندم يائس بينما
حطمت دمية مملّة
وفصلت رأسها عن جسدها
بسبب كلّ ما فعلته
بسبب كلّ ما لم أفعله
يجب أن تموت

«حسناً يا سيدي، من المؤكد أنها قصيدة جميلة. إنها أفضل قصائدك على حد علمي».

طواها وأعادها إليّ.

سألته هل لديه أيّ شيء جدّي يريد أن يقوله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. أصبح المسدس جاهزاً مرة أخرى لقتل هذا الرجل. نظر إليه وأطلق تنهيدة عميقة.

قال: «انظر الآن يا ماك. إنك سكران وأنا رجل مريض. دعنا نؤجّل الأمر. إني بحاجة إلى الهدوء. يجب أن أهتم بمسألة عجزي الجنسي. سيأتي بعض الأصدقاء بعد الظهر لمرافقتي لمشاهدة إحدى

Twitter: @ketab_n

الألعاب. بدأ استخدام المسدّس يصبح مصدر إزعاج مخيف. إننا رجلان مثقفان وخبيران في كل شيء - في الجنس، وفي الشعر الحر، وفي الرمي. إن كنت تكرهني، فأنا على استعداد لإصلاح البين. حتى المبارزة بالطريقة القديمة، سواء كانت بالسيف أو بالمسدّس، وسواء كانت في ريو أو في أي مكان آخر - ليست مستبعدة. إن ذاكرتي وفصاحتي ليستا في أحسن أحوالهما اليوم، لكن حقاً، يا سيدي العزيز همبرت، لم تكن زوج أمّ مثالي، وأنا لم أرغم فتاتك الصغيرة على الانضمام إليّ، بل هي التي طلبت مني أن آخذها إلى بيت أكثر سعادة. وليس هذا البيت حديثاً كتلك المزرعة التي كنا نذهب إليها مع أصدقائنا الأعزاء. لكنه بيت واسع، هادئ في الصيف وفي الشتاء، باختصار مريح. لذلك، بما أنني أنوي الذهاب إلى إنكلترا أو إلى فلورنسا لأقيم هناك باستمرار، فإني أقترح أن تنتقل إلى هذا البيت. إنه لك، بدون مقابل، لكن شريطة أن تتوقف عن توجيه هذا المسدس عليّ [وشتم شتيمة مقرفة]. بالمناسبة، لا أعرف إن كنت تبدي اهتماماً بالأشياء الغريبة، لكن إذا كان الأمر كذلك، فيمكنني أن أقدم لك، مجاناً أيضاً، مثل حيوان بيتي أليف، نزوة مثيرة بعض الشيء، شابّة لها ثلاثة أثداء، غندورة. إنها أعجوبة نادرة ومبهجة من عجائب الطبيعة. الآن، لنكن منطقيين. إنك ستجرحني جرحاً بليغاً، وبعدها ستتعفن في السجن بينما أتماثل أنا للشفاء في أحد المنتجعات الاستوائية. أعدك يا بروستر، ستكون سعيداً هنا، بقبوه الرائع، وجميع الحقوق التي ستحصل عليها من مسرحيّتي التالية - فلا أملك مالاً كثيراً في المصرف الآن، لكنني أقترح أن أقترض- كما تعرف، كما قال الشاعر، بتلك البرودة في رأسه، إقترض، إقترض، إقترض. هناك مزايا أخرى. فلدينا خادمة رائعة يمكنك الاعتماد عليها كثيراً ويمكنك رشوتها كثيراً، تدعى السيدة فيبريسسا - اسم غريب - تأتي من القرية مرّتين في الأسبوع، لكن

Twitter: @ketab_n

للأسف لن تأتي اليوم، وعندها بنات، وحفيدات، وأعرف شيئاً أو شيئين عن مدير الشرطة يجعله أسيراً لي. إنني كاتب مسرحي. ويطلقون عليّ مايترلنك الأميركي. مايترلنك - شميتيرلنغ، أقول. هيا! إن الأمر برمته مهين، ولست متأكّداً إن كنت أفعل الشيء الصحيح. لا تمزج الهيروين بشراب الرم أبداً. الآن أبعد هذا المسدّس مثل رجل طيب. كنت أعرف زوجتك العزيزة. يمكنك أن تستخدم خزانة ثيابي. آه، شيء آخر - يخيّل إليّ أنك ستحبّ هذا. عندي مجموعة فريدة من المواد المثيرة للغاية في الطابق العلوي، ويمكنني أن أذكر شيئاً واحداً منها: ملف رائع عن جزيرة باغرايشن الرائعة بقلم المستكشفة والمحلّلة النفسانية ميلاني ويس، وهي سيدة رائعة - أبعد هذا المسدّس - فيه صور لحوالى ثمانمائة عضو ذكري قامت بفحصها وقياسها في عام ١٩٣٢ في جزيرة باغريشن، في بحر بارد، صورة رائعة، مفعمة بالحبّ تحت سماء جميلة - أبعد هذا المسدّس - علاوة على ذلك، يمكنني أن أرتّب لك أن تحضر عملية تنفيذ حكم بالإعدام، إذ لا يعرف الجميع أن الكرسي الكهربائي مطلي باللون الأصفر -».

طلقة. هذه المرة اصطدمت بشيء صلب. ارتطمت بمؤخرة كرسي هزاز أسود، لا يشبه كرسي دولي شيلير - فقد أصابت طلقتي السطح الداخلي لظهر الكرسي، وأصبح يهتّز على الفور، بسرعة كبيرة وبحماسة شديدة، إلى درجة أن أي شخص يدخل الغرفة قد تعتريه الدهشة بسبب المعجزة المضاعفة: كان ذلك الكرسي يهتزّ مذعوراً من تلقاء نفسه، والكرسي ذو المسند، حيث يكمن هدفي الأرجواني، الذي أصبح فارغاً من أي محتوى للحياة. لوّح بأصابعه في الهواء، ورفع مؤخرته بسرعة، واندفع إلى غرفة الموسيقى. في اللحظة التالية، كان أحدنا يمسك بتلابيب الآخر، وبدأنا نلهث أمام الباب الذي نسيت المفتاح عليه. ومرة أخرى غلبته، وبحركة فظّة أخرى، جلس «كلير

Twitter: @ketab_n

الذي يستحيل التنبؤ به» أمام البيانو، وعزف عدّة ألحان قوية بوحشية، صاخبة وهستيرية، ويدأ خداه المكتنزان يرتعشان، ويداه الممدوتان بتوتر تهبطان، وانطلقت من خياشيمه نخرة مثل الموسيقى التصويرية التي غابت طوال فترة عراكنا. كان لا يزال يغنّي تلك الألحان المستحيلة، وقام بمحاولة عقيمة بفتح صندوق ينتصب بالقرب من البيانو بقدمه. أصابت طلقتي التالية مكاناً قريباً من خاصرته. ارتفع من كرسيه إلى الأعلى والأعلى، مثل نيجينسكي العجوز، المجنون، الرمادي، مثل كابوس قديم، إلى ارتفاع شديد العلو، أو هكذا بدا لي، وراح يشق الهواء -كان لا يزال يرتعش بالموسيقى الثرية السوداء- وألقى برأسه إلى الوراء بصرخة شديدة كالعواء، وضغط على حاجبه بيده، وأمسك إبطه بيده الأخرى، وكأن زنبوراً لسعه، وسقط على كعبيه، ومرة أخرى، هرع رجل طبيعي يرتدي مبذلاً، وخرج إلى القاعة.

وأرى نفسي ألحقه عبر القاعة، بقفزة مضاعفة، أو حتى بقفزة تعادل ثلاث قفزات، كالكنغر، ووقفت منتصباً تماماً على ساقين مشدودتين، وقفزت قفزتين في إثره، ثم وثبت وثبة راقص باليه لأحول بينه وبين الباب الأمامي، وسددت عليه الباب الذي لم يكن مغلقاً تماماً.

وفجأة، بدأ يصعد الدرجات العريضة بشكل وقور وكئيب بعض الشيء، وعدّلت وضعيتي، لكنني لم أتبعه، وصعدت الدرجات وراءه، وأطلقت ثلاث أو أربع طلقات متتالية سريعة، وقد أصبته في كلّ طلقة أطلقتها عليه؛ وكلما كنت أفعل ذلك، ذلك الشيء المروّع، كان وجهه ينتفض كما يفعل مهرّج سخيف، كأنه يبالغ من شدة الألم. ثم تباطأ، ودحرج عينيه المغمضتين نصف إغماضة، وأطلق «آه» بطريقة مؤنّثة. كان يرتعش كلما أصابته طلقة وكأني أدغدغه، وكلما أصبته بتلك

Twitter: @ketab_n

الطلقات العمياء، البطيئة، الخرقاء، كان يهمس، بلهجة بريطانية مصطنعة - وكان طوال الوقت، ينتفض، ويرتعش على نحو مخيف، ويبتسم بتكلّف، لكنه كان يتكلم أيضاً بطريقة ساهمة وودية على نحو غريب: «آه، إن هذا يؤلمني، يا سيدي، كفى! آه، هذا يؤلمني بوحشية، يا صديقي العزيز. أرجوك توقف عن ذلك. آه، إنه مؤلم جداً، مؤلم جداً، حقاً... يا إلهي! هاه! هذا أمر كريه، حقاً يجب ألا تفعل ذلك -» وتلاشى صوته عندما وصل إلى سلم الدرج، لكنه مشى بثبات على الرغم من كلّ الطلقات التي اخترقت جسمه المنتفخ - وأدركت بحزن، وبفزع شديد، أنني لم أكن أقتله، بل كنت أحقن في جسد الرجل المسكين دفقات من الطاقة، وكأن الطلقات كبسولات يتراقص فيها إكسير الحياة.

وحشوت المسدّس بيدين سوداوين وداميتين - فقد كنت قد لمست شيئاً كان قد لطخّه بدمه السميك، ثمّ لحقت به إلى الطابق العلوي، وكانت المفاتيح تصدر رنيناً في جيوبي كأنها قطع من الذهب.

أخذ ينتقل بتثاقل من غرفة إلى أخرى، ينزف دماً بشكل مهيب، يحاول إيجاد نافذة مفتوحة، يهزّ رأسه، وهو لا يزال يحاول إقناعي بالعدول عن قتله. صوّبت المسدس إلى رأسه، فتوجّه إلى غرفة النوم الرئيسية، وحلّت بقعة أرجوانية داكنة محل أذنه.

«اخرج، اخرج من هنا»، قال وهو يسعل ويبصق. وفي كابوس من الدهشة، رأيت أن هذا الشخص الذي تناثر الدم من جسمه لا يزال مبتهجاً وهو يصعد إلى سريره ويتدثر بالملاءات المجعدة. أطلقت عليه النار من مكان قريب جداً عبر الملاءات، ثم استلقى، وتشكّلت فقاعة وردية كبيرة على شفتيه، وكبرت حتى أصبحت بحجم بالون صغيرة، وتلاشت.

قد أكون قد فقدت الاتصال بالواقع لثانية أو ثانيتين - آه، لم تسودّ

Twitter: @ketab_n

الدنيا في عينيّ - كما يردد المجرمون العاديون، بل على العكس، أريد أن أؤكد بأنني أنا المسؤول عن كلّ نقطة دم سالت منه، لكن طرأ تغيّر مؤقت كما لو كنت في غرفة نوم زوجية، وكانت شارلوت مريضة في السرير. كان كويلتي رجلاً مريضاً جداً. أمسكت إحدى فردتيّ نعله بدلاً من المسدّس - كنت جالساً فوق المسدّس. ثمّ أرحت نفسي أكثر على الكرسي بالقرب من السرير، ونظرت إلى ساعة يدي. كان الغطاء الزجاجي قد زال لكنها كانت لا تزال تعمل. لم يستغرق هذا العمل الحزين كله أكثر من ساعة. وهدأ أخيراً. وبالإضافة إلى عدم شعوري بالراحة، أثقل كاهلي عبء بدا أنه أثقل من العبء الذي كان يلازمني، والذي كنت أرجو أن أتخلص منه. لم أتمكن من لمسه للتأكد من موته. بدا عليه ذلك: فقد اختفى ربع وجهه، وحطّت ذبابتان عليه وشعرتا بأن حظاً لا يصدق قد حالفهما. ولم تكن يداي أفضل حالاً من يديه. غسلتهما بقدر ما أمكنني في الحمّام المجاور. أصبح بإمكاني أن أغادر الآن. عندما خرجت ووقفت عند عتبة الباب، اكتشفت بذهول أن الطنين البهيج الذي حاولت أن أعتبره مجرّد غناء في أذنيّ كان حقاً مزيجاً من الأصوات والموسيقى المنبعثة من المذياع من غرفة الجلوس في الطابق الأرضي. كان هناك عدد من الأشخاص الذين بدا أنهم وصلوا للتو، يحتسون شراب كويلتي ببهجة شديدة. وكان هناك رجل سمين يجلس في كرسي بلا مسندين، وشابتان جميلتان شاحبتان، شعرهما أسود، لا ريب في أنهما أختان، واحدة الكبرى والأخرى الصغرى (تكاد تكون طفلة)، تجلسان برزانة جنباً إلى جنب على أريكة صغيرة. وكان هناك رجل له وجه مورّد وعينان زرقاوان كياقوتتين، يُخرج كأسين من المشرب الذي يشبه المطبخ، حيث كانت امرأتان أو ثلاث نساء يدردشن ويكسرن قطعاً من الثلج. وقفت عند المدخل وقلت: «لقد قتلت كلير كويلتي». «عظيم»، قال الرجل ذو الوجه

Twitter: @ketab_n

المتورّد وهو يقدم أحد الكأسين إلى الفتاة الكبرى. وقال الرجل السمين: «كان على أحدهم أن يفعل ذلك منذ زمن بعيد». «ماذا يقول يا طوني؟» سألت فتاة شقراء باهتة من وراء المشرب، فأجاب الرجل ذو الوجه المتورّد، «يقول إنه قتل كيو». فقال رجل غير معروف عندما نهض عند الزاوية، حيث كان مقرفصاً يبحث عن بعض الأسطوانات، «أظن أننا يجب أن نفعل ذلك جميعاً له ذات يوم». فقال طوني: «على أي حال، من الأفضل له أن ينزل الآن. فلا يمكننا أن ننتظره أكثر من ذلك إذا كان علينا أن نذهب لمشاهدة تلك اللعبة». «ليقدم أحدكم شراباً لهذا الرجل»، قال الشخص البدين. «بيرة؟» قالت امرأة ترتدي سروالاً، وهي تريها لي من بعيد.

لم تنبس الفتاتان الجالستان على الأريكة، المتشحتان بالسواد، الصغرى تداعب بأصابعها شيئاً لامعاً حول رقبتها البيضاء، بأي كلمة، بل راحتا تبتسمان، صغيرة جداً، فاسقة جداً. وعندما توقّفت الموسيقى لبرهة، تناهت إلينا ضوضاء مفاجئة على الدرج. خرجنا أنا وطوني إلى القاعة. تمكن كويلتي من الزحف والخروج إلى سلم الدرج، ورأيناه هناك، يعلو ويرتفع ويحرك يديه، ثم يسقط ويهمد، هذه المرة إلى الأبد، في كومة أرجوانية.

«هيا عجّل يا كيو»، قال طوني ضاحكاً. «أعتقد، أنه لا يزال – ». وعاد إلى غرفة الجلوس، وأغرقت الموسيقى بقيّة الجملة.

قلت في نفسي، هذه هي نهاية المسرحيّة المبدعة التي أعدّها لي كويلتي. وبقلب مثقل غادرت البيت وسرت في الممر تحت أشعة الشمس متجهاً إلى سيارتي. كانت سيارتي تربض بين سيارتين مركونتين إلى جانبيها، وبصعوبة تمكنت من إخراجها.

Twitter: @ketab_n

٣٦

ما تبقى أمر تافه وباهت. قدت سيارتي ببطء منحدراً الربوة، ووجدت نفسي أتجه بنفس السرعة البطيئة في الاتجاه المعاكس لباركينغتون. كنت قد تركت معطفي المطري في الغرفة، وتركت المسدس في الحمّام. لا، لم يكن ذلك المنزل هو البيت الذي أحب أن أقيم فيه. ورحت أتساءل إن كان هناك جرّاح عبقري لا يمكنه أن يغيّر مهنته فحسب، بل ربما مصير البشرية برمتها، ويعيد كويلتي، كلير الغامض، إلى الحياة. لم أعبأ بالأمر، لكنني تمنيت أن أنسى كل تلك الفوضى التي سببها لي - وعندما تأكدت من موته، كان العزاء الوحيد الذي اعتراني، هو الإحساس بالراحة بأنه لن يرافقني في أفكاري فترة شهور النقاهة المؤلمة والمقرفة التي تقطعها جميع أنواع العمليات والانتكاسات التي لا يمكن ذكرها، وقد يزورني فعلاً، ويصعب عليّ أن أستقبله إلا طيفاً. كان القديس توما الذي يشكّ في المسيح يعرف شيئاً. من الغريب أن حاسة اللمس، التي هي أقل أهمية بكثير من حاسة البصر لدى الرجال، تصبح في اللحظة الحاسمة وسيلتنا الرئيسية، إن لم تكن الوسيلة الوحيدة، لبلوغ الحقيقة. كان كويلتي يغمر كياني - بملمس تلك السقطة قبل أن يسيل الدم منه.

كان الطريق يمتد أمامي الآن عبر الريف الواسع، وخطر لي - لا عن طريق الاحتجاج، لا كرمز، أو أيّ شيء من هذا القبيل، بل مجرد تجربة مبتكرة - أنه بما أنني تجاهلت كلّ قوانين الإنسانية، فلعلي أتجاهل أيضاً قواعد المرور. لذلك انتقلت إلى الجانب الأيسر من الطريق السريع، وتفحصت المشاعر التي خالجتني، كانت مشاعر لذيذة. كان إحساساً لذيذاً ممتزجاً بعناصر تغمرها حاسة اللمس، وقد عززت كلّ ذلك الفكرة بأن لا شيء قد يكون أقرب إلى إلغاء القوانين

Twitter: @ketab_n

الطبيعية الأساسية من قيادة السيارة متعمداً على الجانب المعاكس من الطريق. على نحو ما، كانت رغبة روحية شديدة. وبرقة، وعلى نحو حالم، رحت أقود على الجانب المعاكس بسرعة لا تتجاوز عشرين ميلاً في الساعة. كانت حركة المرور خفيفة، وكانت السيارات التي تتجاوزني من حين لآخر على الجانب الذي تخليت عنه لهم، تطلق أبواقها بشدة. وكانت السيارات تتهادى نحوي، ثم تنحرف بسرعة، ويلعلع صوتها رعباً. وسرعان ما وجدت نفسي أقترب من الأماكن المأهولة. كان تجاوز إشارة حمراء يشبه رشفة محرّمة من البيرغوندي عندما كنت طفلاً. في هذه الأثناء بدأت تظهر بعض التعقيدات. فقد لحقت بي سيارتان ثم رافقتاني، ثم توقفتا أمامي وسدّتا طريقي تماماً. وبحركة رشيقة انعطفت عن الطريق، وبعد وثبتين أو ثلاث وثبات بالسيارة، وصلت إلى منحدر معشوشب، بين أبقار مفاجأة ومندهشة، حيث توقفت بهزّة خفيفة. نوع من توليفة هيغيلية مدروسة تربط بين امرأتين ميتتين.

وسرعان ما أُخرجت من السيارة (مرحباً، ميلموث، شكراً جزيلاً، أيها العجوز) - وكنت، في الحقيقة، أتطلّع لتسليم نفسي لأياد عديدة، دون أن أبدي أي تعاون، بينما أخذ الناس يتحرّكون ويحملونني، مسترخياً، مرتاحاً، مستسلماً بتكاسل، مثل مريض، مستمداً متعة غريبة من استرخائي والمساعدة التي قدمها لي رجال الشرطة والإسعاف. وبينما كنت أنتظرهم كي يصعدوا إليّ على المنحدر المرتفع، استحضرت في ذاكرتي سراباً أخيراً من الدهشة واليأس. ففي أحد الأيام، بعد اختفائها مباشرة، أرغمتني نوبة من الغثيان الكريهة على التوقف عند طيف طريق جبلي قديم، أصبح الآن، يحاذي ويتقاطع مع طريق سريع جديد، تسكنه زهور نجمية، ويستحمّ في دفء أصيل تغطيه سماء زرقاء شاحبة في أواخر الصيف. وبعد نوبة سعال شديدة،

Twitter: @ketab_n

اتكأت على صخرة، ثم، وقد تراءى لي أن الهواء العليل قد يحسّن حالتي، سرت قليلاً باتجاه حاجز واطئ من الحجارة على جانب منحدر الطريق السريع. وتدفّقت الجنادب الصغيرة من بين الأعشاب الذابلة على جانبي الطريق. كانت سحابة رقيقة خفيفة تفتح ذراعيها وتتحرّك باتجاه سحابة أكبر قليلاً تنتمي إلى مجموعة من السحب الثقيلة البطيئة. وعندما اقتربت من الهاوية، بدأت أدرك مجموعة من الأصوات الرخيمة التي راحت ترتفع كالبخار من بلدة صغيرة تضم مناجم عديدة تقبع عند قدميّ، عند ثنية الوادي.

ويمكن للمرء أن يتصور هندسة الشوارع بين البيوت ذات الأسطحة الحمراء والرمادية، والأشجار الخضراء، والجداول المتعرجة كالأفعى، ومكبّ النفايات المتألق، وما وراء البلدة، كانت الطرق تتقاطع، اللحاف المجنون الذي يغطي الحقول الشاحبة والمظلمة، وخلف كلّ ذلك، تنتصب جبال هائلة من الأخشاب. أما الشيء الذي كان أكثر ألقاً من تلك الألوان المبتهجة بهدوء - لأن هناك ألواناً وظلالاً يبدو أنها تجد متعة في تناغمها معاً - كانت أكثر إشراقاً وحلماً للأذن مما هي للعين، ذلك التموج البخاري للأصوات المتراكمة التي لم تتوقّف للحظة، عندما ارتفع إلى شفة صخرة الغرانيت الواقف عليها أمسح فمي الكريه. وسرعان ما أدركت أن جميع هذه الأصوات تنتمي إلى طبيعة واحدة، وأنه لم تكن تأتي أصوات، إلا هذه الأصوات من شوارع البلدة الشفّافة، حيث تقبع النساء في بيوتهن، والرجال في أعمالهم. أيها القارئ! إن ما سمعته لم يكن إلا أصوات أطفال متسقة وهم يلعبون، لا شيء غير ذلك، وكان الهواء صافياً وشفافاً، إلى حدّ أنه كان بوسع المرء أن يسمع أحياناً، من خلال هذا البخار من الأصوات الممزوجة، المهيبة والدقيقة، البعيدة والقريبة على نحو سحري، الصريحة والغامضة على نحو إلهي، وكأنها دفعة من الضحك الواضح، أو صوت صفق

Twitter: @ketab_n

جناحي خفاش، أو خشخشة عربة لعبة أطفال، لكنها كانت جميعها بعيدة ولا تستطيع العين أن تميّز أيّ حركة في الشوارع التي تتناثر فيها بعض الحفر. وقفت أستمع إلى تردد الأصوات الموسيقية من المنحدر العالي الذي أقف عليه، لومضات الصيحات المنفصلة بنوع من الهمهمة الرزينة في الخلفية، ثم عرفت أن الشيء المحزن بالنسبة لي لم يكن غياب لوليتا، بل غياب صوتها من توليفة الأصوات المنسجمة.

هذه هي قصّتي إذن. لقد قرأتها ثانية. فيها قطع من النخاع الملتصقة بها، والدم، والذباب الأخضر الجميل البراق. وأشعر أن ذاتي اللزجة الزلقة تراوغني عند هذا المنعطف أو ذاك، أنزلق في مياه أعمق وأكثر عتمة مما أحرص على سبره. وقد موّهت ما بوسعي تمويهه لكي لا أجرح مشاعر الناس، وتلاعبت بالعديد من الأسماء المستعارة لي قبل أن يقرّ قراري على اسم ملائم. التي يوجد منها في ملاحظاتي «أوتو أوتو» و«ميسمير ميسمير» و«لامبرت لامبرت»، لكن لسبب ما، أظن أن اختياري لهذا الاسم يعبّر عن بذاءة في أفضل أحوالها.

عندما شرعت في كتابة «لوليتا» قبل ستة وخمسين يوماً، أولاً في جناح المختلين عقلياً الذين يخضعون للمراقبة، ثم في هذا المكان المنعزل الذي يشبه القبر، الدافئ جيداً، خيّل إليّ أنني سأستخدم هذه الملاحظات كلها في محاكمتي، لا لأنقذ رأسي، بالطبع، بل لأنقذ روحي. لكنني أدركت أنني لا أستطيع أن أعرض قصّة لوليتا وهي لا تزال على قيد الحياة. ولا يزال بوسعي أن أستخدم أجزاء من هذه المذكرات في جلسات سرية، لكن يجب أن أؤجل نشرها.

ولأسباب قد تبدو أوضح مما هي عليه في الواقع، فإنني أعارض حكم الإعدام، وأعتقد أن القاضي الذي سيصدر الحكم يشاطرني هذا الرأي. وإذا ما منحت الفرصة لأحكم على نفسي، فإني سأحكم على همبرت بالسجن لمدة لا تقل عن خمس وثلاثين سنة على جريمة

Twitter: @ketab_n

الإغتصاب التي ارتكبها، وأرفض باقي التهم الموجهة إليّ. لكن، لمّا كانت دولي شيلير ستعيش أطول مما سأعيشه أنا بسنوات كثيرة، فقد اتخذت القرار التالي، بما تترتب عليه جميع الآثار القانونية لوصيّة موقّعة قانوناً: أرجو ألا تنشر هذه المذكرات إلا بعد موت لوليتا.

وهكذا نكون قد فارق كلانا الحياة عندما يفتح القارئ هذا الكتاب. لكن في حين لا يزال الدم يجري في عروق اليد التي أكتب بها، فإنكِ لا تزالين تشكلين جزءاً من المادة المباركة مثلي، ولا أزال أستطيع أن أحدثكِ من هنا إلى الاسكا.

كوني صادقة ومخلصة لزوجك ديك. لا تدعي الآخرين يلمسونك. لا تكلّمي الغرباء. أرجو أن تغمري طفلك بالحب. آمل أن يكون صبياً. وآمل أن يعاملك زوجك جيداً على الدوام، وإلا فإن طيفي سيأتيه، مثل سحابة سوداء، مثل عملاق مجنون، ويقطعه إرباً إرباً، وعصباً عصباً. ولن أريه أدنى شفقة. سي. كيو. ويتعين على المرء أن يختار بينه وبين همبرت همبرت، ويريد المرء أن يعيش همبرت همبرت شهرين أكثر على الأقل، ليجعلك تعيشين في عقول الأجيال القادمة. إني أفكّر بالثيران المخصية والملائكة، وسرّ الصبغات الثابتة، والقصائد النبوية، وملاذ الفن. وهذا هو الخلود الوحيد الذي يمكننا، أنا وأنتِ، أن نتقاسمه معاً، يا عزيزتي لوليتا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

وإذا ما اعتبرت «لوليتا» مجرد رواية، فإنها تتناول مواقف ومشاعر سيظلّ الغموض يكتنفها على نحو يثير السخط لدى القارئ، لأنها تنطوي على تعابير بهتت وفقدت بريقها بسبب المراوغات التافهة والمبتذلة. وبالرغم من عدم وجود عبارة نابية واحدة في الرواية كلها، فإن القارئ غير المثقف الذي تتنازعه التقاليد المعاصرة الحديثة في تقبّل طائفة كبيرة من الكلمات البذيئة في رواية مبتذلة، سيُصدم تماماً لعدم ورود مثل هذه الكلمات هنا.

ISBN 978-9933350956
9 789933 350956